السبائك الذهبية

بشرح

العقيدة الواسطية

لفضيلة الشيخ المحقق العلامة
عبد الله بن محمد الغنيمان
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الواسطية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد:

فإن أساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه، ولهذا سمى الله سبحانه ما أنزل على رسوله روحاً لتوقف

الحياة الحقيقية عليه، ونوراً لتوقف الهداية عليه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥] وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فلا روح إلا فيما جاء به، ولا نور إلا في الاستضاءة به، فهو الحياة والنور والعصمة والشفاء والنجاة والأمن.

والله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدي إلا فيما جاء به، ولا يقبل الله من أحد ديناً يدينه به إلا أن يكون موافقاً لدينه[١].

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده، وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به.

وهذان الأصلان جماع الدين، أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع[٢].

فبعث الله رسوله. وأهل الأرض أحوج إلى رسالته من غيث السماء ومن نور الشمس الذي يذهب عنهم حنادس الظلمات؛ فحاجتهم إلى رسالته فوق جميع الحاجات، وضرورتهم إليها مقدمة على جميع الضرورات، فإنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها في ما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/١٥١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٤٥١).

ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين ومن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها.

وصف الله رسوله بأنه سراج منير، وبأنه هاد إلى صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه، فهو المفلح لا غيره. وأن من لم يحكمه في كل ما يتنازع فيه المتنازعون، وينقاد لحكمه ولا يكون عنده حرج منه، فليس بمؤمن[1].

فلا شفاء للقلوب والأرواح ولا حياة لها إلا بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ والاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]

ولم ينج الله تعالى من عذابه ولم يكتب رحمته إلا لمن اتبع كتابه ورسوله كما قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]

وقد كان الرسول يبعث في قومه خاصة، وبُعث محمد ﷺ إلى الناس كافة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

(١) «مختصر الصواعق» (١٣).

جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولم يتوفه الله تعالى حتى أكمل له الدين، وبلّغ البلاغ المبين، وبيّن للناس ما نزل إليهم أوضح التبيين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك[1].

فكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين، وإذا بَعُدَ عن متابعته، نقص من دينه بحسب ذلك، وإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول[2].

ومع وضوح السبيل لمن أنار الله بصيرته، فقد ضلّ الطريق كثير من أهل القبلة، فمن مقدّم للذوق والوجد على الكتاب والسنة، ومن مقدم للعقل ويزعم أن هذا هو طريق العلم بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي:

أما الطريقان المبتدعان: فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي، فإن هذا فيه باطل كثير، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة.

وأما الطريق الشرعي: فهو النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها، فلا بد من علم بما جاء به وعمل به، لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية، فإن الرسول بيّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، والرسل بيّنوا للناس

(١) «معارج القبول» (١/٤٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٩٨).

العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته[(١)].

والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم: أنه الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم سواه، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم؛ عوّضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك وغيره[(٢)].

ثم إن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به، وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذّبت الرسل وعُصي الربّ ودخلت النار وحلّت العقوبات؛ فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين، صاحب هوى فتنهُ هواه، وصاحب دنيا أعجبه دنياه[(٣)].

وقد حذّر النبي ﷺ أصحابه من البدع قبل حدوثها، فكان يفتتح خطبه ﷺ بالحمد لله ثم يقول: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» هذا والبدع ميتة ومندثرة، والسنة قائمة ومنتشرة، يحمل لواءها نبيّ الرحمة ونبيّ الملحمة أبو القاسم ﷺ، والصحابة الأخيار، من المهاجرين والأنصار من أصحاب بدر وأصحاب الشجرة يذودون عنها ويدمغون رؤوس أهل الزيغ في سبيل نشرها، كل هذا من نصحه ﷺ لأمته وكمال شفقته، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/٤٢٨).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٣٦٧).
(٣) «إعلام الموقعين» (١/١١٣).

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]. فنشهد أنه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم دب التفرق والاختلاف في الأمة بعد انقراض عصر الصحابة، ووجد أهل البدع متنفساً لنشر بدعتهم، خاصة بعد انقراض القرون الثلاثة المفضلة، وتمكنهم من الوصول إلى دار الخلافة، فلبسوا على الخليفة أمر دينهم، واستطاعوا نشر بدعتهم بالقوة تارة، وبتشكيك الناس في عقيدتهم تارة أخرى، فيزعمون أن ما هم عليه من مذهب باطل هو الذي كان عليه أئمة الإسلام، وأن من اعتقد ظاهر القرآن فقد كفر بالله العظيم.

فانطلت طريقتهم على عوام المسلمين واندثرت معالم السنة لولا رحمة الله.

وطريقة أهل البدع أنهم يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب وإجماع الصحابة، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم.

وأهل البدع الذين ذمهم الله نوعان:

أحدهما: عالم بالحق يتعمد خلافه.

والثاني: جاهل متبع لغيره[1].

والبدعة لا تكون حقاً محضاً موافقاً للسنة، إذ لو كانت كذلك لم تكن باطلاً. ولا تكون باطلاً محضاً لا حق فيها، إذ لو كانت كذلك لم تخف على الناس. ولكن تشتمل على حق وباطل؛ فيكون صاحبها قد لبس الحق بالباطل: إما مخطئاً غالطاً، وإما متعمداً لنفاق فيه وإلحاد[2].

وإنما يظهر من البدع أولاً ما كان أخفى، وكما ضعف من يقوم بنور النبوة، قويت البدعة[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٣٣).
(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٨٣).
(٣) «التدمرية» (١/ ١٠٨).

والذي صح عن النبي ﷺ ذمهم من طوائف أهل البدع هم الخوارج، فإنه قد ثبت فيهم الحديث من وجوه كلها صحاح، لأن مقالتهم حدثت في زمن النبي ﷺ وكلمه رئيسهم.

وأما الإرجاء والرفض والقدر والتجهم والحلول وغيرها من البدع فإنها حدثت بعد انقراض عصر الصحابة.

وبدعة القدر أدركت آخر عصر الصحابة، فأنكرها من كان منهم حياً كعبد الله بن عمر وابن عباس وأمثالهم ﷺ، وأكثر ما يجيء من ذمهم فإنما هو موقوف على الصحابة من قولهم فيه.

ثم حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة، فتكلم فيها كبار التابعين الذين أدركوها.

ثم حدثت بدعة التجهم بعد انقراض عصر التابعين، واستفحل أمرها واستطار شرها في زمن الأئمة كأحمد وذويه.

ثم حدثت بعد ذلك بدعة الحلول وظهر أمرها في زمن حسين الحلاج.

وكلما أظهر الشيطان بدعة من هذه البدع وغيرها، أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها ويحذر المسلمين منها نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأهل الإسلام، وجعله ميراثاً يعرف به حزب رسول الله ﷺ وولي سنته من حزب البدعة وناصرها[1].

ثم إن من أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أنباء المرسلين؛ ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

(١) «تهذيب السنن لابن القيم» (٧/ ٦١).

وذلك أن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات أقام الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البينات، بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة، وهذه كالمحنة التي تميز الخبيث والطيب، والفتنة هي الامتحان والاختبار، فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن ازداد جودة والباطل كالمغشوش المضيء إذا امتحن ظهر فساده»[١].

وكان من جملة القائمين بالحق، والناصرين لدين الله بالفعل والنطق:

شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الناقد الفقيه، المجتهد المفسر البارع، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، أحد الأعلام المولود في ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة، قدم مع أهله سنة سبع، فسمع من خلق كثير، وعني بالحديث ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج وانتقى وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاثمائة مجلد، حدث بدمشق ومصر والثغر، وقد امتحن وأوذي مرات وحبس بقلعة مصر والقاهرة والإسكندرية وبقلعة دمشق مرتين، وبها توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة معتقلاً، ورئيت له منامات حسنة ورثي بعدة قصائد، وقد انفرد بفتاويه، نيل من عرضه لأجلها وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه فما رأيت مثله وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا»[٢].

---

(١) «الجواب الصحيح» (١/٨٥).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (٤/١٤٩٦).

صفاته الخُلُقية والخَلقية وعلمه:

قال عنه الذهبي أيضاً: قرأ بنفسه على جماعة وانتخب ونسخ عدة أجزاء وسنن أبي داود ونظر في الرجال والعلل وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والنبالة والذكر والصيانة، ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد وحق له ذلك، فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه، فإنني ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند أو إلى السنن منه، كأن الكتاب والسنن نصب عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة وإفحام للمخالف، وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين.

وأما أصول الديانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة فكان لا يشق فيه غباره ولا يلحق شأوه، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ من ملاذ النفس من اللباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية، ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلد، لا بل أكثر، وكان قوالاً بالحق نهاء عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام وعد مداراة الأغيار، ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه.

وأنا أقل من ينبه على قدره كلمي أو أن يوضح نبأه قلمي،

فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه مقرون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له، وأن جوده حاتمي وشجاعته خالدية.

كان الشيخ أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره إلى شحمة أذنه كأن عينيه لسانان ناطقان ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت فصيحاً سريع القراءة تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء، ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى وكثرة توجهه[١].

تلاميذه الأعلام:

علم الدين البرزالي صاحب التاريخ والمعجم والمؤلفات الكثيرة، وجمال الدين المزي صاحب تهذيب الكمال في الرجال، ومحمد بن أحمد بن عبد الهادي صاحب الصارم المنكي والأجزاء المفيدة في الحديث وغيره، وشمس الدين الذهبي صاحب تذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال وغيرهما من الكتب النافعة، وابن قيم الجوزية صاحب زاد المعاد وأعلام الموقعين وغيرهما من الكتب القيمة، وأبو الفداء ابن كثير الدمشقي صاحب التفسير والبداية والنهاية وغيرهما من التآليف المفيدة، وغيرهم من كبار علماء ذلك العصر رحمهم الله تعالى.

بعض ما قيل فيه:

قال شمس الدين بن الحريري: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟

وقال الحافظ الذهبي: وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، والله لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت:

(١) «ذيل تاريخ الإسلام نقلاً من كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية».

تقي الدين أضحى بحر علم ... يجيب السائلين بلا قنوط
أحاط بكل علم فيه نفع ... فقل ما شئت في البحر المحيط

قال الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني: لو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته.

وقال قاضي القضاة أبو المعالي محمد بن علي الزملكاني: كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه.

قال الحافظ ابن رجب: كانت العلماء والصلحاء والجنود والأمراء والتجار وسائر العامة تحبه لأنه ينتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وعلمه.

قال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد[1].

وفاته:

قد سجن غير مرة ليفتر عن خصومه ويقصر من بسط لسانه وقلمه، وهو لا يرجع ولا يلوي على ناصح إلى أن توفي معتقلاً بقلعة دمشق في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة حتى طلع الناس لتشييعه من أربع أبواب البلد، وأقل ما قيل في عدد من

(١) نقلاً من كتاب: «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة».

شهده خمسون ألفاً وقيل أكثر من ذلك، وحمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين رحمهما الله تعالى وإيانا والمسلمين[1].

وقد نصر شيخ الإسلام ابن تيمية السنة ودافع عنها بكتب كثيرة، فقد كان كما يذكر ابن عبد الهادي: سريع الكتابة، وكثيراً ما كان يكتب من حفظه من غير نقل.

ولقد أطال ابن الكتبي في ذكر مصنفاته، وذكر مؤلفاته حسب العلوم المختلفة وهي كالتالي:

أ ـ في التفسير:

١ ـ رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون، وقد طبعت.

٢ ـ تفسير سورة الإخلاص، مطبوع ضمن مجموع الفتاوى.

٣ ـ جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر رسول الرحمن من أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ تعدل ثلث القرآن.

٤ ـ تفسير المعوذتين. مطبوع.

ب ـ في الفقه:

١ ـ رسالة القياس.

٢ ـ القواعد.

٣ ـ رسالة الحسبة.

٤ ـ الأمر بالمعروف.

٥ ـ العقود.

٦ ـ المظالم المشتركة.

٧ ـ حقيقة الصيام.

(١) نقلاً من كتاب: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية».

ج ـ العقائد:

١ ـ الإيمان.
٢ ـ الاستقامة.
٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم.
٤ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
٥ ـ التوسل والوسيلة.
٦ ـ الرسالة الحموية.
٧ ـ الرسالة التدمرية.
٨ ـ العقيدة الواسطية. «وإني نحن بصددها».
٩ ـ رسالة مراتب الإرادة.
١٠ ـ الاحتجاج بالقدر.
١١ ـ بيان الهدى من الضلال.
١٢ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.
١٣ ـ معتقدات أهل الضلال.
١٤ ـ معارج الوصول.
١٥ ـ السؤال عن العرش.
١٦ ـ بيان الفرقة الناجية.
١٧ ـ درء تعارض العقل والنقل.
١٨ ـ منهاج السنة النبوية.
١٩ ـ إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية.
٢٠ ـ شرح حديث النزول.
٢١ ـ نقض المنطق.
٢٢ ـ الرد على المنطقيين.
٢٣ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
٢٤ ـ الواسطة بين الحق والخلق.

فليس عجيباً أن تصل مؤلفاته إلى خمسمائة مصنف كما قيل.

وكان من جملة هذه الكتب، بل ومن أنفسها وأعظمها كتاب «العقيدة الواسطية» بيَّن فيه معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته وأفعاله، وفي أسماء الإيمان والدين، وجاء على ضلال أهل الباطل بكلام الحق فنقض أساسهم وضيق أنفاسهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

وحصل له في هذه العقيدة امتحان كبير، فقد عقدت له مناظرات ثلاث اشترك في هذه المجالس الثلاثة المعقودة لمناظرته في العقيدة الواسطية كبار قضاة الدولة وفقهائها.

قال الذهبي: ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد سلفي جيد.

وقال ابن رجب: ووقع الاتفاق على أن هذه عقيدة سنية سلفية.

قال الإمام الذهبي: وهذه ثمرة المحنة المحمودة أنها ترفع العبد عند المؤمنين[١].

وقد وضع الله القبول لهذه العقيدة الواسطية، وشرحها عدد كبير من علماء أهل السنة، ومن تلكم الشروحات:

١ - التنبيهات اللطيفة لما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، للشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

٢ - التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله.

٣ - الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية للشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض رحمه الله.

---

(١) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (٣٦).

٤ ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله.

٥ ـ شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله.

٦ ـ شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل هراس رحمه الله.

٧ ـ شرح العقيدة الواسطية للشيخ صالح الفوزان حفظه الله وأمد في عمره على طاعته.

وكان من جملة من انبرى لشرح هذه العقيدة فضيلة الشيخ المحقق والعلامة المدقق الشيخ: عبد الله بن محمد الغنيمان أطال الله تأييده ورزقه من كل فضل مزيدة، وقد اشتمل هذا الشرح على فوائد عظيمة، وتميز أسلوب الشيخ رحمه الله بكثرة استدلاله بآيات الكتاب والسنة في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة، والاطلاع الغزير على أقوال المتقدمين سواء كانوا من علماء أهل السنة أو من رؤساء الفرق، فمن ذلك نقله كلام الإمام النووي رحمه الله حول الطائفة المنصورة وأنها قد تكون في بلدان شتى وفي مجالات عدة.

ونقله عن الغزالي قوله أن الخروج عن مذهب الأشاعرة كفر، وقول الصاوي أن من اعتقد ظاهر القرآن فهو كافر.

مع الاهتمام بالرقائق والإيمانيات، وهذا في غالب صفحات الكتاب، فمن ذلك قوله وفقه الله: وأعظم العذاب أن يصاب الإنسان في دينه، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً فيستمر على هذا.

ويتميز أسلوب الشيخ بأنه يأتي بالنصوص التي يظهر للبعض أن بينها تعارضاً فيجمع بينها جمعاً حسناً موفقاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فمن ذلكم جمعه بين حديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» وبين حديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة».

مع الاهتمام بتقعيد القواعد، فمن ذلك ذكره للفرق بين الأسماء والصفات وأن هذا الفرق من وجهين، وأن أسماء الله وصفاته يجب أن تكون توقيفية، وأن التحريف نوعان لفظي ومعنوي، وأن التعطيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وأن المثيل يكون في الذات وفي الصفة وفي الفعل ويكون في لحقوق، والله تعالى لا مثيل له في هذه الأمور الأربعة، وأن الصفات تبع للذات، فإذا كان لا مثيل له في ذاته فيجب أن يكون لا مثيل له في صفاته، وأن طريقة القرآن في الصفات أن يأتي بالنفي مجملاً والإثبات مفصلاً، وأن الاسم والصفة إذا أضيفتا إلى الله فقد اختصت به وإذا أضيفتا إلى المخلوق اختصت به، إلى غير ذلك من القواعد.

وكذلك اطلاعه على مقاصد شيخ الإسلام من كلامه، فمن ذلك قوله: والشيخ تحرى لفظة التمثيل لأن هذا الذي ورد في القرآن، واجتنب لفظة التشبيه لأنها لم تأت في القرآن لا نفياً ولا إثباتاً.

وقد راجع الشيخ الشرح بنفسه.

وأسمينا هذا الشرح: «السبائك الذهبية في شرح العقيدة الواسطية».

ونسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزي شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الرسالة خير الجزاء، وأن يجزل للشارح على هذا الشرح الأجر والثواب، وأن ينفعه به في الدنيا والآخرة، وينفع به المسلمين، وأن يكتب لمن عمل في إخراجه الأجر والثواب، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أحد طلبة الشيخ

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

١٠/جمادى الأولى/١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله:
الْحَمْدُ

«ال» للاستغراق، والحمد: يستوجبه الله جلّ وعلا لصفاته وأفعاله ولذاته تعالى وتقدس، والحمد: هو الثناء على المحمود بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة، وهو من الحامد؛ فعل ينبئ عن محبته وتعظيمه، فلا بد أن يكون في الحمد محبة للمحمود وتعظيماً له، أما إذا كان ذكراً للمحاسن والصفات الجميلة، بدون أن يقترن معه حب الحامد وتعظيمه؛ فهو مدح، يعني أنك إذا ذكرت الصفات الحسنة لمن تصفه، والأفعال الجميلة، فإن كان مع ذكرك قد اقترن حبه وتعظيمه فيكون هذا حمداً، وإن لم يكن قد اقترن مع هذا الذكر الحب والتعظيم فيكون مدحاً، فهذا هو الفرق بين الحمد والمدح، والحمد لله جلّ وعلا واجب، ولهذا أوجب الله جلّ وعلا علينا أن نحمده في كل ركعة من ركعات الصلاة، ولا يمكن للإنسان أن يقوم بما يستحقه الله جلّ وعلا من الحمد، ولكن إذا جاء بالقليل؛ فالله جلّ وعلا يثيب عليه ويعفو عن الكثير، وإلا فمهما أوتي الإنسان من قوة وعلم وعمل؛ فإنه لا يستطيع أن يقوم بالحمد لله جلّ وعلا، ولأجل هذا حمد ربنا جلّ وعلا نفسه في المبدأ والمنتهى، مما يدل على أن حمده جلّ وعلا له على كل حال، في فعله وخلقه، وفي حقه، وفي أوصافه ولذاته جلّ وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ

حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥] هذا في المنتهى.

لله: علم على الذات المقدسة، وهو أعلم الأعلام، وقد جاء ذكره في القرآن في ألفين وثلاثمائة وثلاث وستين مرة، والأسماء غالباً تكون تابعة له.

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

هذا من الثناء عليه، والرسول جنس للرسل كلهم، والإرسال: هو إرسال الرسول إلى الخلق وتكليفه وبعثه إليهم، بأن يعلمهم بما يجب عليهم الله جلّ وعلا، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى، فهو من النعم العظيمة التي يجب أن يحمد عليها ربنا جلّ وعلا، فمن أعظم النعم التي يحمد عليها؛ إرساله الرسل، وقد ختمهم بأفضلهم محمد ﷺ، والرسل كثيرون، وقد جاء في حديث أبي ذر أن الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر[1]، وجاء أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وهو حديث ضعيف كما هو معروف، وقد قال الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وقال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] وأخبر جلّ وعلا أنه ما ترك أمة إلا ويبعث فيها رسولاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وأخبر أن رسله جاءت تترا، يعني متتابعة، وأنه ما من أمة إلا وخلا فيها نذير، والله جلّ وعلا أقام الحجة على خلقه بإرسال الرسل.

وقوله: (رسوله) هو محمد ﷺ خاتم الرسل.

(١) رواه أحمد (٢١١٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٦٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١٧٤٨٩).

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

الهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فالرسول ﷺ جاء بالعلم النافع، وجاء بالعمل الذي يكون عملاً بالعلم الذي جاء به، وهو شرع الله جلّ وعلا، فيكون العلم نافعاً ويكون العمل مقبولاً، إذا كان هدى ودين حق؛ فالعلم ينفع ويكون صاحبه خاشياً لله جلّ وعلا، ويكون تدينه وعمله مقبولاً يقبله الله جلّ وعلا.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

يظهره على الأديان التي في الأرض كلها، وقد فعل الله جلّ وعلا، أظهر هذا الدين على جميع الأديان، حيث إنه كان هو المهيمن وهو الحاكم، ولا يلزم أن يكون هذا مستمراً ودائماً، بل هذا وعده قد أنجزه على أيدي صحابة رسول الله ﷺ، أنه بدأ في حياته ﷺ، ودانت له جزيرة العرب كلها مطيعة متبعة للرسول ﷺ، ثم توفي وهم كذلك، فاستمر صحابته بالدعوة إلى الله جلّ وعلا، وأظهرهم الله جلّ وعلا على الفرس والروم وغيرهم من الدول الأخرى، حتى وصل هذا الدين إلى الصين وإلى أقصى المغرب، فشمل المعمورة التي تعرف في ذلك الوقت، ثم صارت الخلافات، بعد مضي القرون المفضلة، كما سيأتي أنهم اختلفوا في عقيدتهم، فتغيرت الأوضاع وتركوا التمسك بما كان عليه الرسول ﷺ، والمقصود أن الله جلّ وعلا أظهر هذا الدين على الأديان كلها، ولا يلزم أن يكون هذا مستمراً إلى قيام الساعة، وقد جاء أن الرسول ﷺ أخبر أن طائفة من أمته ستستمر على الحق إلى قيام الساعة، وسيأتي ذلك إن شاء الله.

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً

أي كفى به شاهداً على صدق رسوله ﷺ وعلى إنجاز وعده، وهذا لفظ آية في سورة الفتح، بعدما ذكر قصة الحديبية، وأن ما حصل من الصلح أنه فتح قريب، أخبر أنه صدق رسوله الرؤيا، وأنهم سوف يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، وأن هذا الفتح أنجزه لهم وهو فتح قريب، وإن كان بعض الصحابة ثقل عليه ذلك كثيراً وظن أن هذا إذلال لهم وإعزاز للمشركين، ولهذا لما نزلت هذه السورة دعا ﷺ عمر الذي كان يراجع النبي ﷺ ويقول: ألسنا مسلمون وهؤلاء المشركون؟ ألسنا على الحق وهؤلاء على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟.

ويقول له رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: علاما نعطي الدنية في ديننا؟.

فقال له ﷺ: **«أنا رسول الله ولا أخالفه»**، ثم ذهب وقال لأبي بكر مثل ذلك، فرد عليه أبو بكر ﷺ مثل ما رد رسول الله ﷺ، فالمقصود أنه ذكر هذه الآية بعد ذلك فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨] كفى به شهيداً على صدق رسوله ﷺ وعلى إنجاز وعده وعلى أنه سوف يظهر هذا الدين، والشهيد صيغة مبالغة، ومن أسمائه جلّ وعلا أنه الشهيد.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الشهادة هي الإخبار عن العلم اليقيني الذي لا تردد فيه ولا شك فيه، وهذه الكلمة هي أول واجب على العبد، وهي أعظم واجب أوجبه الله جلّ وعلا، وبها يدخل الإنسان الدين الإسلامي، وبها يفترق

الناس بين مسلم موقن مؤمن سعيد وبين شقي كافر مفارق للحق، ولها أركان وشروط وفضل، ولها حق، ولها نواقض، ولها فوائد وثمرات، فأركانها النفي والإثبات، «لا إله» هذا نفي «إلا الله» وهذا إثبات، فلا بد من هذين الأمرين، فهما ركنا هذه الشهادة، وأما شروطها فقد ذكر العلماء لها ثمانية شروط:

الأول: العلم الذي ينافي الجهل، فالذي يقولها عن جهل لا تفيده.

الثاني: الصدق الذي ينافي الكذب في قولها.

الثالث: اليقين.

الرابع: الإخلاص المنافي للشرك أو الرياء فيها.

الخامس: قبولها المنافي للرد.

السادس: الانقياد المنافي للترك.

السابع: المحبة المنافية لبغضها، حتى لا يكون الإنسان منافقاً.

الثامن: الكفر بما جاءت لإبطاله.

وأما فضلها: فجاءت النصوص الكثيرة فيه، منها: حديث أبي سعيد الذي في السنن، أن موسى ﷺ قال: **«يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسى لو كان السماوات السبع، وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»**[1] وغيرها من أن من قالها صادقاً موقناً حرمه الله على

(١) رواه النسائي في «الكبرى»، ورواه ابن حبان والحاكم وصححه، وابن عبد البر في «التمهيد» وأبو يعلى في «مسنده».

النار»[١]، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة»[٢]، وكذلك الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: **«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له»**[٣].

وأما حقها، فهو فعل ما أوجبه الله جلّ وعلا على العبد، وأن يترك ويجتنب على علم وبرهان من الله، وخوفاً منه ورجاء لثوابه ما حرمه عليه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**[٤]، ولما راجع عمر ﷺ أبا بكر عندما ارتد الناس بعد وفاة النبي ﷺ إلا قليلاً منهم قال: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**؟ قال له: ألم يقل إلا بحقها؟ فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول ﷺ لقاتلتهم عليه، وفي رواية: عناقاً يؤدونها، فالمقصود أن هذا حق لا إله إلا الله، وبهذا يتبين أنه ليس المقصود مجرد التلفظ بها بأن يقول الإنسان: لا إله

---

(١) البخاري (١٢٨) كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا؛ مسلم (٤٧)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(٢) رواه أحمد (٢١٦٥٧)؛ وأبو داود، كتاب الجنائز، باب في التلقين؛ وابن أبي شيبة في «المصنف»؛ والبيهقي في «الكبرى» وفي «شعب الإيمان»؛ والحاكم في «المستدرك».

(٣) «الموطأ»، كتاب الطهارة، باب ما جاء في الدعاء؛ وذكره ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في «المصنف»، والبيهقي في «السنن» وفي «شعب الإيمان» في «صحيحه».

(٤) البخاري (٧٢٨٥)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ؛ الترمذي (٢٦٠٦)، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الشيخ الألباني: صحيح متواتر.

إلا الله، وهو عاصٍ لله تارك للواجبات، فإن قوله هذا إما أن يكون معدوم الفائدة نهائياً، أو تكون فائدته ضئيلة جداً، يعني يعاقب ويتعرض لعذاب الله إن لم يكن عنده الشرك الأكبر الذي يموت عليه فلا يسلم، أما إن كان عنده الشرك فهو من أهل النار خالداً فيها ـ نسأل الله العافية ـ.

وأما فائدتها وثمرتها فسعادة الدنيا والآخرة، من قالها صادقاً على ما سبق؛ فإنه يكون سعيداً في الدنيا بأن يعبد الله على يقين وعلى حق بلا شكوك ولا شبهات، والواقع أن السعادة في الدنيا هي عبادة الله على علم، وعلى يقين وعلى صدق، وأما في الآخرة ففي جنات تدخل عليه الملائكة من كل باب قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٤].

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

قوله: «وحده» هذا تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيداً لما نفي بها، يقول الحافظ ابن حجر: هو تأكيد بعد تأكيد. يعني أن النفي الأول يدل على هذا، والإثبات كذلك يدل على هذا.

والشهادة تأتي بمعانٍ منها: هذا الإخبار عن العلم واليقين، ومنها: الإلزام والحكم كما في قول الله جلّ وعلا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران: ١٨] ومن الإخبار قول ابن عباس الذي في صحيح البخاري: «شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر»[1]، ومنها: الإعلام بالفعل، بأن فعل الإنسان فعلاً يدل على شهادته، كما قال الله جلّ وعلا:

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس، أبو داود، كتاب التطوع وركعات السنة، باب من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة، وأحمد (١١١)، من حديث ابن عباس ﷺ.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ اللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] ما قالوا بألسنتهم: نشهد أنا كفار، ولكن بأفعالهم، فالأفعال تشهد عليهم، وكذلك شهادة الله جلّ وعلا أنه الواحد الأحد بما يخلقه ويوجده من الآيات، كما في قول القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فكل الخلق يدل على وحدانيته، وكذلك أقواله وأفعاله وغيرها مما يوجده للإنسان في نفسه أو في غيره.

إِقْرَاراً بِهِ وَتَوْحِيداً

الإقرار: هو الإذعان في الشيء، وقوله: «توحيداً» مصدر وحد يوحد توحيداً، يعني أفعل هذا توحيداً لله جلّ وعلا؛ لأن هذه الكلمة هي أول ما يجب على العبد، وهي التي جاءت بها الرسل، وليس كما يقول المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم: أن أول واجب على العبد النظر، نظر العقل حتى يهديه نظره إلى أن يعرف الله جلّ وعلا بالموجودات، وهذا لم تأتِ به الرسل، بل هو من البدع، كذلك قول بعضهم: إن أول ما يجب هو الشك، حتى يدعوه ذلك الشك إلى النظر، وقال بعضهم: هو القصد إلى النظر، وهذا كله من الباطل، فالرسول ﷺ كما في حديث ابن عباس الذي في الصحيح حينما بعث معاذاً إلى اليمن قال: **«إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»**[1]، هذا واضح بأن

---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب لا تُؤخذُ كَرَائِمُ أموالِ النَّاسِ في الصَّدقة؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، من حديث معاذ ﷺ.

أول ما يلزم العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وكذلك قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[1].

فالحق أن هذه الكلمة هي أول ما يجب، وهي التوحيد، وهي التي بعث بها الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم، فكل رسول يأتي قومه يقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: لا إله لكم غيره، وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو معنى إلا الله.

وَأَشْهَدُ أَنَّ

والشهادة هنا تقتضي التصديق والمتابعة، وإلا لا يكون الإنسان شاهداً شهادة صحيحة، ولهذا يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: أن معنى شهادة أن محمداً رسول الله هي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، فالشهادة تقتضي التصديق والمتابعة، بأن تصدقه بما قال، وتتابعه بما جاء به، وتحب ذلك وتدعو إليه، وتبينه حسب الإمكان.

مُحَمَّداً

محمد اسم علم، يقول العلماء: إنه يجب ذكره عند الشهادة له بالرسالة، ولهذا جاء في الأذكار الواجبة أن نص على ذلك في الأذان وفي التشهد وفي غير ذلك، وكان ﷺ يعلم أصحابه ذلك، ويقول أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، واسمه مذكور في التوراة: محمد، وإن كانت

(١) سبق تخريجه.

التوراة ليست عربية، ولكنه مذكور بالعبرية، وأما في الإنجيل فقد أخبر الله جلّ وعلا عن عيسى ﷺ أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] فهو محمد وأحمد، وقد جاء في الصحيح أن له عدة أسماء، يقول: **«أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، وأنا نبي الساعة، وأنا الحاشر الذي تحشر خلفي الأمم»**(١)، وقد أوصل بعضهم أسماءه إلى ألف اسم، ولكن الواقع أن أكثر هذه أوصاف له ﷺ، وأما قول الإنسان: أشهد أن سيدنا محمداً، فكلمة سيدنا لم تأتِ في نص صحيح، وقوله في الصلاة بدعة، ويجب أن يقتصر على الواجب الذي كان يعلمه ﷺ أصحابه، ولا شك أنه سيد ﷺ، وأن السيد هو المعظم المقدم الإمام الكبير، وهو كذلك ﷺ، وقد جاء في حديث صحيح أنه قال: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**(٢) كما في حديث الشفاعة وغيره، وهذا لا ينافي نهيه ﷺ عن ذلك حينما قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا. قال: **«قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان، لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله جلّ وعلا، أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله ورسوله»**(٣)، فهذا من باب حماية التوحيد وسد الطرق التي يمكن

---

(١) رواه البخاري من حديث جبير بن مطعم عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»**، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ. وروي في الدارمي بإسناده عن ابن غنم قال: نزل جبريلُ على رسول الله ﷺ فشقّ بطنَه، ثم قال جبريلُ: **«قلبٌ وكيعٌ فيه أذنان سميعتان، وعينان بصيرتان، محمدٌ رسول الله المقفي الحاشرُ، خلُقك قيّمٌ ولسانُك صادقٌ ونفسُك مطمئنةٌ»**. قال أبو محمد: وكيعٌ يعني شديداً، كتاب النبي ﷺ، باب ما أعطي النبي من الفضل.

(٢) مسلم (٧/٥٩)، وكذا أبو داود (٣/٤٦٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١/٢٠)، وأحمد (٢/٥٤٠)، من حديث أبي هريرة، قال الألباني: وله شواهد كثيرة، خرّجت بعضها في «ظلال الجنة» (٧٩٢، ٧٩٦).

(٣) أبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، وأحمد (١٤٤٠٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

أن يدخل الشيطان منها على الإنسان؛ لأنه ﷺ ما ترك طريقاً يمكن أن يأتي الشيطان إلى أمته معه إلا وسده وأوصده وحذر منه.

عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

أي: من العبودية؛ لأنه عبد من عباد الله متعبد، وليس له من الربوبية شيء، ولا من الإلهية شيء، والتوحيد يقتضي أن يكون لله وحده في أقسامه الثلاثة المستقراة من كتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله، وليس هذا أمر مبتدع ومخترع كما يقوله الجهلة وأهل الانحراف ـ نسأل الله العافية ـ بل الأقسام الثلاثة جاءت بها الرسل كلهم، وهذا واضح في كتاب الله وبين، ومن قرأ ذلك علم هذا يقيناً، فالله أخبر أن الكفار يؤمنون بأن الله هو الخالق المتصرف الذي ليس له شريك في هذا، ولكنهم أبوا أن ينقادوا له بالفعل، بأن تكون أفعالهم خالصة لله، فهذا نوع، والأول نوع آخر، والأول يستلزم أن يكون له الصفات الحسنى والكمالات؛ لأن الذي لا يكون كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً، كما نبه على ذلك في آيات عدة، والمقصود أن أقسام التوحيد واضحة من استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالله جلّ وعلا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فالله معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، كما يقول ابن عباس: «يعني صاحب الألوهية الذي يجب أن يؤله ويعبد، وأما الرب فهو المالك المتصرف» فهذا معنى وهذا معنى آخر، وهذا له دلالة وهذا له دلالة أخرى، أما ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] فله دلالة غير الأول، وإن كانت الأسماء والصفات متداخلة ومتلازمة، كما سيأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

فقوله: «عبده ورسوله» هذا إبطال لما عليه أهل الجفاء وأهل الغلو، فأهل الغلو مثل النصارى الذين جعلوا عبد الله إلهاً، جعلوه هو الله

أو شريكاً له جلّ وعلا ـ تعالى الله وتقدس ـ وأهل الجفاء أنكروا أن يكون رسولاً لله جلّ وعلا، كاليهود والمشركين وغيرهم من المكذبين، والعبودية هي عبودية خاصة، بمعنى أنه التزم عبودية الله جلّ وعلا وقام بها حق القيام حسب إمكانية الإنسان التي أوتيها، فالرسول ﷺ هو أعظم الناس قياماً بهذا الحق وقد أثنى الله جلّ وعلا عليه في أماكن التشريف والتعظيم بلفظ العبودية، كما في مقام التحدي في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٠]، وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وهذه المقامات الأربع من أشرف المقامات التي يقومها رسول الله ﷺ، مقام الإنزال والوحي، ومقام الآيات والتحدي بها التي جاء بها، والتي تبهر العقول والأبصار، فيقف الناس أمامها حائرين مذعنين منقادين، مثل انشقاق القمر وإنزال القرآن والإسراء، فإنه آية من الآيات العظيمة ومن الإكرام، فكونه يذهب به من مكة إلى بيت المقدس في وقت وجيز، ثم يذهب به إلى السماء، ثم يعود في ليلة واحدة؛ هذه من أعظم الآيات، وكذلك مقام الدعوة، فإنها من أشرف المقامات، فهذا هو الثناء العظيم، فمن كمل العبودية فقد وصل إلى الغاية، ثم إذا أضيف إلى ذلك الرسالة فقد كملت، فليس وراء هذا شيء يطلب، فهو مقام خاتم الرسل، وكذلك الرسل غيره، ولكن الله جلّ وعلا فضل بعضهم عن بعض، فالرسول ﷺ كمل الله جلّ وعلا له مقام العبودية، وشرفه بالرسالة والشهادة له بأنه عبد الله ورسوله، يكون ذلك تبرئة للشاهد حقاً مما يقع فيه أهل الغلو، الذين يجعلون مع الله مخلوقاً ولو كان الرسول، وقد يوصلونه إلى مقام الألوهية، أو مقام العلم بالغيب، أو مقام التصرف، كما يقول الشاعر:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم[1]

إذا كان من جود الرسول ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم، فهذه صفة الله وتصرفه جلّ وعلا؛ فمعنى ذلك أنه أعطاه ما لله جلّ وعلا، فهذا هو الغلو الذي وقع فيه النصارى وأشباههم، أما الجفاء كأن يمتنع عن اتباعه ﷺ والانقياد له، وإن كان يتلفظ بالشهادة، فإن هذا من الجفاء؛ لأن الشهادة تقتضي أن يحكم شرعه في نفسه وفيما يملك، وأن يكون تصرفه على ما جاء به الرسول ﷺ.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

صلاة الله على عبده فيها أقوال للعلماء، فقد اختار ابن القيم وشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى؛ أن صلاة الله على عبده هي ثناؤه عليه عند الملائكة، وبعض العلماء يقول: صلاة الله هي رحمته، ومعلوم أن الصلاة من الآدميين ومن الملائكة هي الدعاء، كما في الحديث: «**أن العبد إذا جلس في مصلاه فإن الملائكة تصلي عليه تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يؤذِ أحداً أو يحدث**»[2]، كذلك الصلاة من

(١) هذه الأبيات لمحمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبد الله، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، أمه منها، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيلة يعرفون ببني حبنون، مولده في بهشيم ٦٠٨هـ، من أعمال البهنساوية، ووفاته بالإسكندرية ٦٩٦هـ.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السُّوق؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجماعة وانتظار الصلاة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الآدميين هي طلبها من الله، بأن يدعو الله جلّ وعلا أن يصلي عليه، فهي دعاء من الله، ولا يجوز أن يقال: إن صلاة الله دعاء، فالله لا يدعو وإنما يذكر بالثناء، أما كونها الرحمة فقد رد ذلك ابن القيم، واستدل على هذا بقوله جلّ وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] ففرق بين الصلاة والرحمة، ومعروف أن العطف يدل على المغايرة، وذكر فروقاً أخرى لغوية كما في كتابه «جلاء الأفهام» وغيره.

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ

الآل اختلف فيهم؟ من هم؟ وما المقصود بالآل؟.

والذي اختاره المحققون من الحنابلة وغيرهم أن الآل هم أتباعه على دينه، وهذا لا ينافي آله الذين حرمت عليهم الزكاة، وكذلك زوجاته فإنهن من آله، ومعروف أن الزكاة تكون للمؤمنين، فهؤلاء أخص من الأول، فهم أتباع له على دينه، ولكن الأول أعم، يدخل فيهم هؤلاء وغيرهم، ومعنى ذلك أنها تطلب الصلاة والتسليم عليه وعلى آله، فإذا كانوا أتباعه فيكون هذا عاماً لأتباعه إلى يوم الدين، وفي ضمنهم صحابته ﷺ، وقد أمر الله جلّ وعلا بالاستغفار لهم، عكس ما عليه أهل البدع وأهل الضلال من الرافضة الذين يبغضونهم ويلعنونهم، لعنهم الله، فإن من لعن الصحابة ملعون، وقد أخبر الله جلّ وعلا في آيات عدة أنه رضي عنهم في قوله جلّ وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ﴾ [الفتح: ٢٩]

يعني أن ما يعملونه يغيظ الكفار، لهذا قال الإمام مالك[1] كما يروى عنه: من غاظه أمر الصحابة فليس من أهل الإسلام، لأنه قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وأخبر في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] وهذا يطلبه الإنسان من ربه جلّ وعلا، فمن كان محباً لهم داعياً لهم مثنياً عليهم، يرجى أن يدخل في أهل هذه الآية التي أثنى الله جلّ وعلا عليهم، وهم الذين يعطون من الفيء الخمس، كما قال جلّ وعلا: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ٧ ـ ١٠]، أما إذا كان بعكس ذلك فهو من أهل الجفاء وربما يكون من أهل الكفر ـ نسأل الله العافية ـ.

وَسَلَّمَ تَسْلِيماً مَزِيداً

هذا امتثال لقول الله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

---

(1) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، إمام دار الهجرة، ومذهب المالكية، قال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك نجم.. أطنب الذهبي في ترجمته في «سير أعلام النبلاء» فانظرها، توفي رحمه الله بالمدينة سنة ١٧٩هـ.
«سير أعلام النبلاء» (٤٨/٨)؛ «تذكرة الحفاظ» (٢٠٧/١) ؛ «الأعلام» (٢٥٧/٥).

﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] والتسليم: هو طلب السلامة من المؤلم ومن النقص والمعيب، ومعنى «مزيداً» أي: زائداً كثيراً.

أمّا بَعْدُ:

هذه كلمة يؤتى بها في الخطب وفي المكاتبات والانتقال من أسلوب إلى آخر، وقد قيل: إنها هي فصل الخطاب، ولكن الصواب أن فصل الخطاب: هو الفصل بين الحق والباطل بالبيان والإيضاح والحجة[1]، ولكن السنة أن يؤتى بها، فإن النبي ﷺ كان يأتي بها في خطبه وفي مكاتبه التي يكتبها للملوك ويدعوهم إلى الله جلّ وعلا، ومعناها أنه مهما يكن من شيء فالأمر كذا وكذا، يعني الأمر الذي سبق هكذا وقع وأقوله، والمقصود كذا وكذا، أو أنتقل من كذا وكذا.

هذه المقدمة عادة ليست من المؤلف بل من التلاميذ الذين يكتبون أو الكتاب الذين فيما بعد، وإن الثناء على النفس من أنه شيخ الإسلام، وأنه هو العلامة، وأنه هو كذا وكذا، هذا ليس من أخلاق العلماء، ولا كانوا يرغبون ولا يريدون هذا الشيء، بل يكرهونه غاية الكراهة؛ لأن هذا فيه شيء من تزكية النفس ومدحها، وهم من أبعد الناس عن ذلك؛ لأن أعمالهم يريدونها لوجه الله جلّ وعلا، وهذه هي الأعمال التي تفيد

---

(١) قال الحافظ في «فتح الباري» (٢/ ٤٧٠): «واختلف في أول من قالها، فقيل: داود ﷺ. رواه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ وفي إسناده ضعف. وروى عبد بن حميد والطبراني عن الشعبي موقوفاً أنها فصل الخطاب الذي أعطيه داود. وأخرجه سعيد بن منصور من طريق الشعبي فزاد فيه عن زياد بن سمية.
وقيل: أول من قالها يعقوب. رواه الدارقطني بسنده وهو في غرائب مالك، وقيل: أول من قالها يعرب بن قحطان، وقيل: كعب بن لؤي. أخرجه القاضي أبو أحمد الغساني من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بسند ضعيف، وقيل: سحبان بن وائل، وقيل: قس بن ساعدة، والأول أشبه، ويجمع بينه وبين غيره بأنه النسبة إلى الأولية المحضة، والبقية بالنسبة إلى العرب خاصة، ثم يجمع بينهما بالنسبة إلى القبائل».

وتنفع، فالمقصود أن هذا يقع من الكتاب الذين يكتبون، ثم إن كتب الشيخ ﷺ غالبها أو جلها إن لم يكن كلها أجوبة وأسئلة، فهو يُسأل ثم يجيب، بخلاف أكثر العلماء، فإنهم يكتبون في مواضيع خاصة، لهذا لو نظرت في كتب كثير من العلماء، إذا هو يذكر في المقدمة أنه يهديها إلى الملك الفلاني، أو إلى خزانة فلان وما أشبه ذلك، أما شيخ الإسلام ﷺ فإنه أمضى وقته وحياته أولها في الطلب والاجتهاد، ثم في العبادة والجهاد في نشر العلم ومحاربة البدع بأنواعها، مثل بدع الكلام التي أضلت الناس في أسماء وصفات الله جلّ وعلا، وكذلك بدع التعبد من التعلق بالأولياء والمشايخ والقبور وغيرهم، وكذلك بدع التصوف وغير ذلك، ولهذا كثر معادوه وخصومه، وسجن مراراً، وأمضى وقتاً طويلاً من حياته في السجن، وتوفي في السجن معتقلاً، وأكثر الذين قاموا عليه هم العلماء خصومه، مع أن الملوك في وقته غالبهم في صفه ومعه، ولكن لا يستطيعون أن يقوموا بوجه العلماء والقضاة وغيرهم، ولهذا لما خرج من السجن الأول في القاهرة خلا به الملك واستشاره، هل يقتل هؤلاء الذين سعوا في سجنه؟.

فنهاه أشد النهي وقال: هؤلاء هم أفضل الناس في وقتك، فكيف تقتلهم؟.

ثم إن كتبه تنسب إلى البلاد غالباً، مثل هذا الكتاب الواسطية لأن السائل كان من بلاد واسط[1]، وكذلك الحموية والتدمرية، وهكذا تنسب إلى من يسأل، وقليل منها يسميه هو، وإن كانت أجوبة أسئلة مثل «نقض التأسيس» فإنه وضع له هو بنفسه عدة أسماء مثل «اقتضاء الصراط المستقيم» وإن كان في الواقع؛ الباعث على تأليفه اعتراضات اعترض

(١) (واسط): مدينة مشهورة في العراق، تقع بين البصرة والكوفة، أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي وجعلها قاعدة العراق. «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٥/٣٤٧).

عليه في بعض أجوبته، ثم إن هذه الرسالة مثل ما ذكرنا، أن سببها يقول: إنه من تعين جوابه، وتعين الجواب هو كل من يسأل عن معلوم للمسئول عنده علم ومعرفة والسائل بحاجة؛ فإنه يتعين جوابه، لقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩] وآيات أخرى تدل على أن كتمان العلم من أعظم المحرمات، والله جلّ وعلا أخذ الميثاق على العلماء أن يبينوه كما بين ذلك جلّ وعلا في كتابه، فلهذا يقول تعينت إجابته، أي: تعينت شرعاً بأمر الله جلّ وعلا، وهو أيضاً يقول: مضمون ما سمعوه مني في بعض المجالس، أي: مجالس العلم؛ لأن مجالسه كَلَّلهُ كانت مجالس علم، وكان له مجالس في المسجد يفسر كتاب الله، ويتكلم عن التوحيد في الآيات التي تناسب، ويجوز أن هذا منها، وقد علم من طريقته كَلَّلهُ أنه إذا تكلم في موضوع توسع فيه كثيراً ويستطرد، وذلك لكثرة العلم، وليس هذا عيباً، ويركز على الأمور التي يُحتاج إليها، وهذا معلوم في سيرته وطريقته ودعوته، وقد بارك الله جلّ وعلا في دعوته وفي كتبه، فانتفع بها خلق كثير، مع أنها قوومت أشد المقاومة في وقته وبعد وقته، ولا يزال الناس في طرفين:

الطرف الأول: من يرى أنه شيخ الإسلام، وشيخ الإسلام يقال لكل من له ظاهر وبين في الإسلام، من تجديده والقيام بالدعوة في إحياء السنن التي ماتت، أو الواجبات التي وجبت وتركت واستبدلت بغيرها، وهو كَلَّلهُ لم يكن يسمي نفسه بذلك ولا يرضى بهذا، ولكن الناس سموه بذلك، ومثله مثل محمد بن عبد الوهاب كَلَّلهُ، ما كان يسمي نفسه ذلك وإنما سمي للأثر الذي قام به، والواقع أن دعوة الشيخ محمد امتداد لدعوة الشيخ ابن تيمية رحمهما الله وأثر من آثارها؛ لأنه تخرج على

كتبه، فهؤلاء انتفعوا بكتبه ولا زالوا ينتفعون، حتى قال محمد حامد الفقي رحمه الله وغيره من علماء مصر: لا نزال نعرف ونميز بين أهل التوحيد والسنة في محبة ابن تيمية، فمن كان يبغضه عرفنا أنه ليس من أهل التوحيد ولا من أهل السنة، ومن كان يحبه عرفنا أنه من أهل التوحيد والسنة.

الطرف الثاني: من يرى أنه ضال مضل، وأنه لا يجوز أن تقرأ كتبه؛ فضلاً عن أن يقال: إنه شيخ الإسلام، وقد ألف أحد هؤلاء كتاباً قرروا فيها أن من سماه شيخ الإسلام أنه كافر؛ لأنه ضال مضل، فكيف يكون شيخ الإسلام، وقد رد عليه ابن ناصر الدين في كتابه المشهور «الرد الوافر على من قال إن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام أنه كافر» وذكر أقوال العلماء الكثيرة، والناس ليسوا بحاجة لمثل هذا؛ لأن هذا تطرف شديد جداً.

وقد انتشرت كتبه رحمه الله مع المحاربة، حتى أنهم صاروا يرغمون من كان عنده كتاب من كتبه يأخذونه بالقوة ويمزقونه ويحرقونه، فصار تلامذته يخفون كتبه، ومع ذلك انتشرت، وإن فقد ما فقد منها بسبب ذلك، حتى في الوقت المتأخر جاء رجل يسمونه مجاهد الجزائري إلى دمشق، وكان تاجراً ورئيساً لهم، فصار يشتري كتب ابن تيمية وابن القيم ويحرقها، فهذا أيضاً من الآثار التي فني الإسلام بها، ولا يزال الناس في خلاف؛ لأن هذه سنة الله جلّ وعلا في الناس، الحق والباطل لا بد فيه من محاربة منذ خرج آدم عليه السلام من الجنة بوسوسة الشيطان، ولا يزال ذلك أن تأتي الريح التي هي من أشراط الساعة وتقبض كل مؤمن ومؤمنة، فهناك يبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر[1]، وتنتهي

(١) رواه مسلم (٥٢٢٨)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، من حديث النواس بن سمعان وفيه: «... فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة».

المجاهدة بين الحق والباطل، وعلى شرار الناس تقام الساعة كما في صحيح مسلم وغيره، فهذه الفتوى سميت بالواسطية لأن السائل من بلاد واسط، وهم حضروا بعض مجالسه وسألوه، قالوا: نريد أن تكتب لنا ما سمعنا؛ لأن مجرد السماع في مجلس واحد يصعب إدراك الكلام، ومضمون هذه الفتوى في أسماء الله جلّ وعلا وصفاته وفي توحيد العبادة وفي إثبات القدر، وهذه الأمور من أركان الإسلام، ويجب أن تُعلم ويعمل بها، وإن كان التفصيل وذكر المسائل الدقيقة والجواب على الشبه التي قد تعرض؛ من شأن العلماء ولا تجب على الباقين، وإن كان الإنسان إذا عرض له شبهة أو إشكال فإنه يتعين عليه أن يبحث عن ذلك ويسأل؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فالذي عنده حياة القلب وعنده اهتمام لأمر دينه؛ لا بد أن يكون مهتماً بهذا، ولا بد أن يدرك إذا كان عنده الاهتمام، وإن كان ليس واجباً على كل أحد، هذا إنما عليه أن يثبت ظاهر ما جاء في كتاب الله وما قاله الرسول ﷺ وكفاية، أما النظر في الشبهات، فإن هذه ليست محمودة بل قد تدعو إلى التشكك، وإنما قد تعرض للإنسان فيصبح الأمر متحتماً، والبحث عن إزالتها إذا عرضت له، والقرآن في الواقع فيه الشفاء من أمراض الشبه والشكوك وأمراض الجهل، والسبب الذي تعرض الشكوك والشبه به هو ترك الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ غالباً، واتباع ما يسمى بعلم الكلام أو العقل أو ما أشبه ذلك، وكان المسلمون على الاستقامة والطريقة السوية، فيؤمنون بكتاب الله وما قاله الرسول ﷺ في وصف الله جلّ وعلا على ظاهر ذلك، وما كانوا يبحثون عن أضداد هذا أو معانيها، مما يدل على أنهم أخذوا ذلك باقتناع من ظاهر اللفظ، فمن تتبع حديث الرسول ﷺ وسنته علم هذا يقيناً، وهي في الواقع جاءت من محاربة الإسلام؛ لأنه من المعلوم أن في وقت الرسول ﷺ، كان الرجل يأتي ويسمع: كلام الرسول ﷺ فيتأثر بكلمة

سمعها فيدخل في الإسلام، ولا يقول ما معنى هذه ولا تلك، لما جاء أحد المشركين المعروفين وهو على شركه في فداء بعض المشركين الذين أسروا في بدر، وكان الرسول ﷺ في صلاة المغرب، فسمعه يقرأ من سورة الطور، فلما وصل لقوله جلّ وعلا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] يقول: أحسست أن قلبي قد جذب وأمسك، فبمجرد السماع أسلم، وهناك كثير من القصص من هذا القبيل، وكان ﷺ يذكر أوصاف الله جلّ وعلا وأسماءه في المجالس العامة وعلى المنبر وفي الخطب، ومعلوم أن الناس المستمعين يتفاوتون، ففيهم الذكي ومتوسط الذكاء، وفيهم من هو قليل الذكاء، وفيهم الأعراب وغير ذلك، ولهذا في بعض خطبه لما قال: **«إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»** فقام رجل من الحاضرين وكان أعرابياً فقال: أو يضحك ربنا يا رسول الله ﷺ؟ قال: **«نعم»**. قال: إذن لا نعدم من رب يضحك خيراً. وهو في سنن أبي داود[1]، فأخذ ذلك على ظاهره وآمن به واستدل به، فأقره الرسول ﷺ على ذلك، وأحاديثه ﷺ كثيرة في هذا، وهذا يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا نصوص صفات الله جلّ وعلا على ظاهرها وآمنوا بها، ومما يؤكد هذا أنك لا تجد ـ حتى في حديث ضعيف ـ أن أحداً من الصحابة سأل واستفسر فقال: كيف استوى أو كيف هو في السماء أو كيف يد الله أو سمعه أو بصره؟.

وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود، جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ وهو جالس مع أصحابه فقال: يا محمد، إن الله

---

(١) رواه أحمد (٤/١١ ـ ١٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٧)، والآجري في «الشريعة» (٢٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/٢٤٤)، والحديث حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠) مخطوط، كما نقله عنه علي الحلبي في تحقيقه لـ«العقيدة الواسطية» (ص٤١)، وانظر ما بعده.

جلّ وعلا يضع السماوات على ذه، والأرضين على ذه والجبال على ذه، والشجر والثرى على ذه، وسائر الخلق على ذه - يشير إلى خمسة أصابع - ثم يهزهن ويقول: أنا الملك أين ملوك الدنيا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لما قال[1]. وفي رواية فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الزمر: ٦٧] وفي رواية فقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [الزمر: ٦٧]، ثم جاءت طرق المتكلمين وأثرت في الناس الأثر السيئ، فيأتي بعض شراح البخاري - وهو من المشهورين الكبار - فيقول على هذا الحديث: إن هذا من تشبيه اليهود، وأن ضحك النبي ﷺ من جرأتهم على الله جلّ وعلا وعلى تشبيهه، وهو بعيد جداً جداً، بل ويقول: أما قول ابن مسعود تصديقاً لما قال، فهو ظن منه وحسبان، فجعل ابن مسعود يظن الظن السيئ، وأن الرسول ﷺ ضحك للباطل والكفر - نسأل الله العافية - والمعروف من خُلق النبي ﷺ وسيرته أنه إذا رأى المنكر أو سمعه فلا أحد يقوم لغضبه، حتى المتكرون، ولهذا لما سرقت المرأة الشريفة واهتمت قريش بأمرها ما جرا أحد أن يكلم الرسول ﷺ في شأنها، وقالوا: من يجرأ على رسول الله ﷺ ويكلمه؟. ثم اتفقوا على أن لا أحد أولى من أسامة بن زيد حب الرسول ﷺ وابن حبه، فطلبوا منه ذلك، فلما كلمه غضب ﷺ وقال: **«أتشفع في حد من حدود الله؟ وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**.

(١) الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب سورة الزمر؛ أحمد (٢٩٨٩)، من حديث ابن عباس ﷺ.

فكيف يقول هذا أنه ضحك من جرأت اليهود على التشبيه!!.

فهذا من أبعد ما يكون، ولكن هذا من آثار المتكلمين، فسائر الصحابة رضوان الله عليهم وتلامذتهم الذين جاؤوا بعدهم والذين تلوهم على النهج المستقيم، ولم يحدث بينهم خلاف في أسماء الله وصفاته، أما ما يقوله بعض الناس من أنه حدث خلاف، ويستدل في قصة خلافه من أن الرسول ﷺ رأى ربه أو لم يره، فهذا لا يعد خلافاً في الصفات؛ لأنه لو ثبت أنه رآه آمنوا به، وإنما اختلفوا في الثبوت وعدمه، أي: هل ثبتت رؤيته له أو لم تثبت؟.

وليس هذا خلافاً في الصفات، فلا خلاف بينهم في الصفات بل هم متفقون فيها، وإنما يختلفون في الأحكام، فكثير من الأحكام اختلفوا فيها مثل الفرائض وغيرها، وخلافهم في هذا مشهور، أما في الصفات فلا يستطيع إنسان أن يأتي بمسألة اختلفوا فيها، وإنما جاء هذا من جراء محاربة المسلمين، ولأن الكفار لما واجهوا المسلمين بالقوة وجهاً لوجه ما استطاعوا، فعلموا أن القوة ليست قوة مادية، وإنما هي قوة العقيدة وقوة بالله وأن الله معهم، فمن كان بهذه الصفة فلا يمكن أن يقاوم، فاتجهت الحرب لزعزعة العقيدة، فبدأت بالتشكيك في صفات الله جلّ وعلا، ولهذا أول ما بدأت بالأمور التي يمكن أن تنطلي على بعض العوام وبعض البسطاء، ثم صارت تترقى شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى إنكار علو الله جلّ وعلا وإنكار كونه متكلماً، حتى وصل الأمر إلى الدعوة إلى هذه العقائد الفاسدة باستعمال القوة، وصارت الدول - ولا سيما دولة المأمون - تمتحن الناس فيها، حتى القضاة والقادة، حتى وصل الأمر إلى الجنود، فمن عرف أنه يقول بذلك فأقل ما يلاقي أن يفصل ويبعد ويحرم من بيت المال، وإن كان أسيراً لا يفدى، أما العلماء فقد قتل من قتل منهم، فالذي لا يجيب إلى أن القرآن مخلوق قتل، والذين أجابوا كان ذلك تستراً وخوفاً من القتل وليس عن اقتناع أبداً،

لأنها عقيدة فاسدة، فغلب المعتزلة على ولي الأمر وزينوا له ذلك، وهذا من الأسباب التي دهورت قوته كما هو معروف في التاريخ.

والمقصود أن هذه المحاربة جاءت من الفرس ومن اليهود ومن النصارى فبدأ الخلاف، ثم تمكنت الأمور حتى أصبح المعروف أن الحق والسنة هو مذهب الأشاعرة، حتى ذكر الغزالي أن من خرج عن هذا المذهب قيد شبر حكم بكفره في ذلك الوقت، وأصبحت مقررات المؤسسات العلمية مذهب الأشاعرة، فكاد ينطمس الحق، ولكن الله جلّ وعلا يقيض في كل وقت من يهيئه لبيان الحق ومحاربة الباطل، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وقته، وصار له أثر بالغ ولا يزال أثره إلى الآن، وهذه الرسالة من الآثار الجيدة التي خلفها رحمه الله لأنه انتفع بها خلق كثير، ولا يزال الناس ينتفعون بها، جعلها قواعد مبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والأدلة الواضحة المقنعة، وليست أدلة المتكلمين التي لا تغني شيئاً ولا تثبت في القلب وإنما تورد الشكوك، ولهذا من قرأها وفهمها انتفع بها كثيراً، ولكن نحن والحمد لله في بلادنا ليست عندنا الأمور التي عند غيرنا من نفي الصفات، واعتقاد أن ما في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ ظواهر لا يجوز اعتقادها، وإنما جاءت للابتلاء والامتحان، ويجب وجوباً أن تؤول، واعتقاد ظاهرها كفر، وهو من أعجب العجب، فكيف يكون اعتقاد ظاهر كتاب الله جلّ وعلا وحديث رسوله ﷺ كفراً؟.

وقد صرح بعض المفسرين بأن من اعتقد ظاهر القرآن أنه كافر ومنهم الصاوي الذي كتب حاشية على الجلالين، فذكر في تفسير سورة الكهف أن من اعتقد ظاهر القرآن فهو كافر ـ نسأل الله العافية ـ ولا يزال الأمر إلى الآن، فهم يقولون: الله في كل مكان، ولا يجوز أنه نعتقد أنه في السماء، فمن اعتقد ذلك فهو مشبه ومجسم، والدليل على هذا: أن السماء مكان، والذي تحوزه الأمكنة وتحيط به يكون جسماً، وهكذا من

الأمور الباطلة كما سيأتي في كلام الشيخ رحمه الله، ثم الكلام الذي سيذكره في مسائل الصفات وفي توحيد الله جلّ وعلا يدخل فيه توحيد العبادة، ويدخل فيه التوحيد العلمي الاعتقادي، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر وبالخلق والمشيئة والإرادة ولا بد؛ لأن هذه أمور متلازمة ولا يستغنى بواحد عن الآخر وهو سيذكر أنه سيدور بين الخير والأمر.

فَهَذَا اعْتِقَادُ

العقيدة: هي الشيء الذي يعقد عليه القلب ويصمم عليه بعد العلم واليقين به، إذا عقد عليه القلب عزمه وتصميمه وإيمانه، فيكون ثابتاً فيه مستقراً يكون عقيدة.

الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

بكسر الفاء، أي: الجماعة، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»**[1] وفي رواية الترمذي قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: **«من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**[2]، أما الفُرقة بضم الفاء فهي اسم للافتراق المذموم، وهذه الفرقة الناجية هي المذكورة في قوله ﷺ من

---

(١) قال الألباني رحمه الله: صحيح رواه أبو داود وغيره.
وذكره الحاكم في «المستدرك»، وابن بطة في «الإبانة»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٢) الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، واللالكائي في «شرح السنة» (١٤٧)، والحاكم (١/ ١٢٩)، والآجري (ص١٥ ـ ١٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، بإسناد فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف لسوء حفظه، ولكن للحديث شاهد عن أنس رضي الله عنه. أخرجه الطبراني في «الصغير» (٧٢٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٦٢)، وبه يرتقي إلى درجة الحسن.

حديث معاوية وغيره أنه سيكون طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك[1]، تكلم النووي رحمه الله على هذه الفقرة وقال: هذا لا يلزم أن يكونوا جماعة في بلد لهم استقلالهم ولهم قوتهم ولهم جيوشهم، بل قد يكون منهم الدعاة ويكون منهم المجاهدون ويكون منهم العلماء ويكون منهم العباد الذين يعبدون الله على يقين وعلى علم، ويكونون متفرقين وقد يكونون مجتمعين، قد يكون لهم سلطان وقهر وقد لا يكون لهم سلطان، قد يكونون في زمن من الأزمان أفراداً متفرقين في بلاد متعددة وقد يكونون مجتمعين، وهذا هو الذي يدل عليه الواقع، وقد جاء في بعض الأحاديث أنهم في الشام، وقال العلماء: معنى ذلك أنهم يكونون في وقت من الأوقات أو في كثير من الأوقات في الشام، ولا يلزم أن يكون دائماً فيه، ثم إن النجاة والنصرة لا تستلزم أن يكون لهم القهر والعلو، بل تستلزم أن يتمسكوا بالحق وأن يموتوا عليه، فإذا كانوا متمسكين بالحق وماتوا عليه فإنهم منصورون، لهذا قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] وقد علم أن بعض الرسل قتل ومع ذلك فهم منصورون لظهور دينهم والانتقام لهم من أعدائهم، فهم الفرقة الناجية من عذاب الله جلّ وعلا الذي يصيب الكفار في الدنيا أو العصاة، وأعظم العذاب أن يصاب الإنسان في دينه فيرى الحق باطلاً حقاً فيستمر على هذا، فهذا من أعظم العقاب الذي يعاقب الله جلّ وعلا به بعض عباده، ومنه العذاب الذي يؤخذ به الجماعة مثل ما أصاب الأمم السابقة، فالفرقة الناجية هم النبي ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم القيامة، وقد تكون سنته فيها خفاء

(١) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة. انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٧٠).

عند كثير من الناس، وقد تنطمس أعلامها في بعض الأماكن أو بعض الأزمنة، ولا سيما إذا بعد عهد النبوة، وقد ذكر أبو نعيم في الحلية عن أحمد بن أبي عاصم كلاماً في السنة يقول: إن السنة عادت غريبة كما بدأت، فإنك تجد العلماء قد فتنوا في الدنيا والمناصب، والعباد قد استولى عليهم الشيطان، فتجد أحدهم في أعلى مراتب العبادة وهو لا يعرف أدناها، فهذا كان في القرن الثالث فكيف بما بعده؛ لأنه في الحديث الصحيح: **«لا يأتي زمان إلا وما بعده أشر منه»**[(١)] وقد قال ﷺ: **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»**[(٢)] وهؤلاء الغرباء هم أهل النجاة وهم الفرقة الناجية، وقد يقول قائل: إنه جاء وصفها بأنها الظاهرة وأنها ظاهرة على من ناوأها فكيف يتفق هذا مع هذا؟.

نقول الظهور له معنيان:

الأول: ظهور يكون بالقوة.

الثاني: ظهور يكون بالعلم والحجة.

وهذه الفرقة لا تخلو من هذين الوصفين، إما أن تكون قد اجتمع لها الوصفان: الظهور بالقوة وبالعلم والحجة، أو يكون لها الظهور بالعلم والحجة وهذا يكفي، والنصر لا يقتضي أن يكونوا ظاهرين على الكفار وعلى كل من في الأرض، وقد عد العلماء أن النصر هو التمسك بالحق والموت عليه، فمن عرف الحق وتمسك به ومات عليه فهو منصور؛ لأن الدنيا لا تساوي شيئاً، فهي ماضية وقليلة جداً، والإنسان خلق للآخرة ولم يخلق للدنيا، فإذا اكتسب في هذه الدنيا أسباب السعادة

---

(١) البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمانٌ إلا الذي بعدَهُ شرٌ منه؛ الترمذي، كتاب الفتن، باب منه، من حديث الزبير بن عدي ﷺ.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وإنه يأرز بين المسجدين؛ ابن ماجه، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريباً، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فقد انتصر، ثم قوله في الحديث: إنها قائمة وظاهرة إلى قيام الساعة لا ينافي الحديث الذي في صحيح مسلم «إن الساعة لا تقوم حتى لا يقال في الأرض الله الله»[1] أو «أنها تقوم على شرار الخلق»[2] فإن الأمر كما قال عبد الله بن عمرو ﷺ - كما في مستدرك الحاكم - أنه لما ذكر هذا قال له عقبة بن عامر: اعلم ما تقول، أما أنا فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يزال طائفة من أمتي على الحق منصورون إلى أن تقوم الساعة»**[3] فقال: نعم، ويبعث الله ريحاً تأخذهم من آباطهم فيموتوا، فيبقى الناس في جاهلية يتهارجون تهارج الحمر عليهم تقوم الساعة[4].

يعني أن الساعة المقصود بها ساعة موتهم، وهي الريح التي تأتي وتقبض كل مؤمن وكل مؤمنة، ثم يبقى أهل الجهل يتهارجون تهارج الحمر، فهم شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة؛ لأن الساعة تأتي ويراد بها ساعة خاصة، ساعة المذكورين، إما أصحاب القرن أو الرجل بنفسه، وقد جاء في الأحاديث ما يدل على هذا، فإن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة وعنده غلام قال: **«إن يعش هذا إلى نهاية عمره تدركه الساعة»**[5] يعني ساعة ذلك الوقت وذلك القرن، والإنسان إذا مات قامت قيامته فهي ساعته، أما الساعة التي هي النفخة الأولى في الصور فهي تكون على شرار الخلق، إذا رفع القرآن وأصبح الناس لا يعرفون معروفاً ولا

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان؛ الترمذي، كتاب الفتن، باب منه، من حديث أنس ﷺ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»**، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، من حديث النواس بن سمعان؛ والحاكم في «المستدرك» (٨٥٠٨).

(٥) البخاري، كتاب الرقائق، باب سكرات الموت؛ مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث عائشة ﷺ.

ينكرون منكراً؛ لأن القرآن يرفع في آخر الزمان إذا عطل وترك العمل به، يسرى عليه في ليلة فيرفع حتى من صدور الرجال، حتى المحفوظ فإنه يُنسى ويرفعه الله جلّ وعلا، وكذلك في المصاحف لا يبقى فيها شيء مكتوب، فيبقى الناس في جاهلية[1].

وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ

هذه الأصول التي سيتفرع عنها كل ما يأتي، ذكرها مجملة هنا ثم بدأ بالتفصيل، والإيمان بالله هو الاعتقاد الجازم الذي ليس فيه تردد ولا شك بأن الله جلّ وعلا حي قيوم وموجد لكل شيء، وهو الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه أوجده بعد أن كان عدماً، فهو الخالق المدبر المتصرف في الكون الذي أوجده، وهو الغني عن كل شيء، فيؤمن بهذا ويؤمن أن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وبأنه جلّ وعلا له الحق الذي أوجبه على خلقه بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، ويؤمن بأن له الكمالات في أفعاله وأن الحكم له وحده فله الخلق والأمر، فالمقصود أن هذا أصل جامع وسيأتي في الفصول معنى الإيمان في اللغة ومعناه في الشرع؛ لأنه اختلف فيه، فأهل البدع خالفوا أهل الحق الذين هم الفرقة الناجية في مسمى الإيمان وفي معناه.

---

(١) لما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ: «لينزعن القرآن من بين أظهركم، يسري عليه ليلاً يذهب من أجواف الرجال، فلا يبقى في الأرض منه شيء». ورواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة، كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٣٠). وقال ابن حجر: سنده صحيح لكنه موقوف «فتح الباري» (١٣/ ١٦)، وقد صح مرفوعاً نحوه من حديث حذيفة. رواه ابن ماجه وقوّى إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/ ١٦). وانظر: «الصحيحة» للألباني (٧٨).

وَمَلَائِكَتِهِ

وهو أن يؤمن بأنهم عباد مكرمون خلقهم الله جلّ وعلا لعبادته، وأنهم يفعلون ما يؤمرون، وأنهم لا يعصون أمر الله جلّ وعلا، وأنهم مكلفون بوظائف وكلها عبادة لله جلّ وعلا، ولكن الإيمان بهم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إيمان مفصل، وهذا يكون في من ذكر بعينه مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل الذي وكل في النفخ في الصور، ورضوان ومالك ومنكر ونكير، أي: الذين جاءت تسميتهم بأسمائهم فيؤمن بأسمائهم.

القسم الثاني: إيمان مجمل بهم، غير أنه يجب الإيمان بما ذكر لهم من الوظائف التي ذكرها الله جلّ وعلا، فمنهم الكاتبون لأعمال الإنسان الحافظون لأفعاله كما قال جلّ وعلا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فهما ملكان يتلقيان الكلام والعمل أحدهم عن اليمين والأخر عن الشمال ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] وكذلك العمل يكتبه كله، وهناك حفظة ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ما دام أجله باقي كأن يكون نائماً في الصحراء وعينه مفتوحة وأنفه مفتوح وفمه وأذنه، فإن الملائكة تحرسه من أن تدخل الهوام في ذلك حتى ينتهي أجله فيخلى بينه وبين ما قدر الله جلّ وعلا عليه، ومنهم الموكلون بالسحاب والقطر يسوقونه حيث شاء الله جلّ وعلا، وينزلونه حيث أجله فيخلى بينه وبين ما قدر الله جلّ وعلا، وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً كان سائراً في مكان فسمع صوتاً من سحابة يقول: اسقي حديقة فلان، فنظر إلى السحابة فذهبت إلى مكان، وهو ينظر إليها فنزل فيها الماء وتتبع

الجدول الذي نزل من الماء حتى دخل في حديقة، فأتى إلى صاحب الحديقة وإذا هو يفجر فيها الماء فقال: ما اسمك؟ قال: فلان. وهو نفس الاسم الذي سمعه في السحاب، وكذلك منهم الموكلون بالنطفة، إما أن تخلق أو لا تخلق، ثم يكتب ما عليها من عمله وأجله وشقي أم سعيد، ومنهم الذين جعلهم الله جلّ وعلا يسيرون ويطلبون حلق العلم التي يتعلم به لله جلّ وعلا فإذا وجدوها حفوا بها وتداعوا إليها: هلم إلى طلبتكم، ومنهم الذين وكلهم الله جلّ وعلا بالرياح، وغير ذلك كثير ذكر الله جلّ وعلا وظائفهم، فيؤمن الإنسان بذلك وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس فيه موضع قدم إلا وملك ساجد أو راكع»**[1] يعني أنها ممتلئة من الملائكة، ولما عرج به ﷺ رأى البيت المعمور ـ وهو بيت في السماء السابعة ـ تتعبد الملائكة بالطواف عليه كما يتعبد بنو آدم بالطواف على الكعبة، وقد أمرهم الله جلّ وعلا بذلك، يقول ﷺ: **«فإذا يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إلى مثلها أبداً»**[2] يعني ما تتهيأ لهم الفرصة أن يعودوا مرة أخرى من كثرة الملائكة، وكذلك ما جاء في حديث الشفاعة والحشر وأنهم يحيطون بأهل الأرض كلهم جنهم وإنسهم، فملائكة السماء الدنيا يحيطون بهم من خلفهم وملائكة السماء الثانية بهؤلاء من خلفهم وهكذا إلى السماء

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب. ورواه ابن ماجه (٢/١٠٢) رقم (٤١٩٠). وأخرجه الحاكم (٢/٥١٠) من حديث أبي ذر ﷺ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي. قال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (١٠٢٠) في «صحيح الجامع».

(٢) البخاري (٣٢٠٧)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة؛ ومسلم (١٦٤)، كتاب الإيمان، باب معراجه ﷺ إلى السماوات، الجنة في السماء، من حديث مالك بن صعصعة ﷺ. قال البخاري: صحيح. انظر حديث رقم (١٢٧) في «صحيح الجامع».

السابعة؛ لأن السماء الثانية أوسع من الدنيا والثالثة أوسع من الثانية وهكذا، وأعظم المخلوقات وأوسعها العرش الذي ليس فوقه مخلوق، وإنما استوى عليه رب العالمين جلّ وعلا، فهذا الإيمان بالملائكة على حسب ما جاء في الكتاب والسنة.

وَكُتُبِهِ

ويكون على نحو الإيمان بالملائكة، فيؤمن بأنها هدى وأنها كلام الله تكلم بها وأنزلها على من شاء من رسله، وهي كثيرة لا يعلم عددها إلا الله جلّ وعلا، فالذي ذكر في القرآن بعينه هي: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف إبراهيم وموسى والقرآن هو آخرها وهو المهيمن عليها، أي: حاكم عليها، فما جاء به ووافق ما فيها صُدق وأومن به، وما خالفه فإنه يُعلم أنه ليس من كتب الله جلّ وعلا، أما المسكوت عنه فهذا الذي نقول فيه آمنا بما أنزل الله من كتاب، فلا نرده ولا نقبله ولا نصدقه ولا نكذبه، بل نتوقف حتى يتبين شيء من ذلك، وإلا نبقى متوقفين، أما القرآن فالإيمان به على التفصيل ويجب أن يؤمن به حرفاً حرفاً، فمن جحد حرفاً منه فهو غير مؤمن من فاتحته إلى خاتمته، والإيمان به يقتضي تصديقه وقبوله والانقياد لأوامره والانتهاء عن نواهيه، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتاً عظيماً جداً، فمنهم المؤمن إيماناً ضعيفاً ضئيلاً بحيث لو شكك في القرآن لشك، ومثل هذا إذا ستر الله جلّ وعلا عليه وبقي بلا افتتان وبلا امتحان ومات على ذلك فهو يرجى أن يكون من أهل الجنة، ومنهم ما هو أعلى من ذلك، ومنهم من يكون الإيمان عنده مثل الجبل ما يتزعزع مهما ناله من الامتحان والابتلاء، وهذا فضل الله

تعالى يؤتيه من يشاء، فالمقصود أن الإيمان بالكتب يكون بها مجملة ويكون بالمفصل مفصلاً، والذي فصل لنا تفصيلاً تاماً كاملاً هو القرآن، فيؤمن الإنسان بأنه كلام الله حقاً حروفه ومعانيه كما سيأتي، وأنه تكلم به وأوحاه إلى جبريل ﷺ، وجبريل ﷺ سمعه من الله ثم أداه إلى محمد ﷺ كما سمعه من الله ليس فيه زيادة ولا نقص، بل جاء به على النحو الذي سمعه تاماً كاملاً ليس فيه حرف زائد ولا نقص منه حرف، ولهذا الأوامر التي فيها الأمر للنبي ﷺ جاءت كما هي مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤] قالها له جبريل ﷺ هكذا؛ لأنه مبلغ عن الله جلّ وعلا، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله والرد على المخالفين في هذا؛ لأن كثيراً منهم يجعل الكلام هو المعنى القائم بالنفس كقول الأشاعرة، وهو كلام باطل من وجوه كثيرة جداً، فيحتجون بمثل قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠] والقول في الواقع قد يضاف إلى من يبلغه، وقوله هنا واضح جلي بأن الرسول مبلغ لأنه قال: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] فالرسول يبلغ رسالة مرسله وهو لا ينافي قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الزمر: ١] وغير ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ثم إنه يجب الاكتفاء بالقرآن علماً وعملاً وحكماً عن الكتب الأخرى ولا يجوز تعديه إلى غيره، ولا سيما والله أخبرنا أنه فصل لنا فيه كل شيء، والرسول ﷺ لما رأى في يد عمر ﷺ ورقة من التوراة بها كلام أعجبه فجاء إلى النبي ﷺ يعرضه عليه غضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: «لقد جئتكم بها نقية، والله لو كان أخي موسى حياً ما وسعه

إلا اتباعي»[١] يعني أن الله أغنانا بالقرآن عن كل ما كان من الكتب السابقة، هذا من العمل والحكم والاهتداء، أما الكتب السابقة فنؤمن بأنها حق وهدى لمن أنزلت عليهم، ولكن دخلها التبديل والتحريف فلم تحفظ، أما القرآن فإن الله جلّ وعلا تكفل بحفظه كما قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩] فمن حفظه العظيم الذي هو ظاهر جداً أن الصحابة نقلوه عن النبي ﷺ والأمة نقلته عن الصحابة ثم صارت الأمة تتناقله كتابة وحفظاً، فلو أن ملحداً حاول أن يبدل حرفاً فيه أو كلمة، لرد عليه الصبيان الذين يقرؤون في الحلق والمدارس فضلاً عن العلماء العارفين بذلك، فهذا من حفظه، وهذا يعني أن حروفه قد حفظت عن التغيير والتبديل بخلاف الكتب السابقة، وإنما التحريف والتبديل تسلط من أهل البدع وأهل الضلال على معانيه، وهذا من الابتلاء الذي يبتلي به الله جلّ وعلا عباده.

ثم إن الدين كله ينحصر في الإيمان بهذه الأصول، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»** فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم»**[٢] فجعل الدين محصوراً في ذلك، والنصيحة لله هي أن تؤمن بالله جلّ وعلا وتقبل عنه وتأتمر بأمره وتنتهي عند نهيه، والإيمان بكتابه أن تؤمن به وتقبله وتهتدي به وتدعو به.

---

(١) رواه أحمد (١٤١٠٤)، والدارمي (٤٣٥)، باب ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ، وذكره البيهقي في «شعب الإيمان»، وأبي يعلى في «المسند».

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، من حديث تميم الداري.

وَرُسُلِهِ

والإيمان برسل الله يكون على نحو الإيمان بالملائكة وبالكتب، يعني يؤمن بهم على وجه التفصيل لمن فصل وذكر اسمه في القرآن، وعلى وجه الإجمال لمن لم يذكر، ومن الإيمان بهم الإيمان بأنهم صادقون فيما أخبروا ومصدوقون فيما أوحي إليهم، وبأن الهدى معهم وأن الطريق إلى الله جلّ وعلا خلفهم فقط، فمن حاد عن نهجهم فهو من أهل النار، وأنهم بلغوا ما أرسلوا به من رسالات ربهم كما أخبر الله جلّ وعلا، وأنهم نصحوا لأمتهم ولم يألوا جهداً في ذلك، والذين سموا من الرسول في القرآن خمسة وعشرون، فعلى هذا يتعين معرفتهم؛ لأن في الإيمان التفصيلي لا بد أن تؤمن بهم بأن تعرف أسماءهم، فالذين ذكرت أسماؤهم في القرآن خمسة وعشرون وهم: آدم ونوح وإدريس وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وإلياس وذو الكفل وزكريا ويحيى وسليمان وداود وأيوب وعيسى واليسع ويونس ومحمد، وهم كثر لا يعلم عددهم إلا الله لأنه جلّ وعلا يقول: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] فهناك رسل لم يذكروا في القرآن، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن بين الأمم المذكورة أمم لا يعلمها إلا الله.

وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

الذين بعث فيهم النبي ﷺ قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] وهذا يوجد اليوم بكثرة؛ لأن بعض الناس يرى أن الحياة مادة وأنه ليس هناك إله تجب عبادته أو خالق خلق الكون وقدره، وأن الناس يرجعون إليه فيحييهم بعدما أماتهم ويحاسبهم ويجزيهم بأعمالهم، وأول الإيمان في هذا هو الإيمان بما أخبر الله جلّ وعلا به وأخبر به رسوله ﷺ من القيامة الصغرى، وقد ذكر الله جلّ وعلا ذلك في آيات

عدة، ففي سورة الواقعة ذكر في أولها القيامة الكبرى وذكر في آخرها القيامة الصغرى، فذكر المحتضر كما قال: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [الواقعة: ٨٤ ـ ٨٧] يعني الروح، ثم ذكر أحوالهم ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] يعني في حالة خروجها يُتلقى بذلك ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝﴾ [الواقعة: ٩٠ ـ ٩٣] والنزل: هو ما يعد للضيف أول ما ينزل، فهذا الذي يعد له حينما تخرج روحه على حسبما ذكر، وهذا شيء مشاهد، ولكن الأمور التي تحصل له لا نعرفها ولا نعرف تفاصيلها، وإنما نعرف المجمل حسبما ذكر والتفاصيل التي ذكرت في الكتاب والسنة، وأن الروح تُتلقى إما بنعيم وإكرام وإما بجحيم وحميم وإهانة، بل وقبل هذا وهو على فراشه وروحه مستقرة في بدنه لم تخرج بعد يبدأ العذاب، فإن الملائكة الموكلون بنزع الأرواح يأتون إليهم فإما أن يضربوا وجوههم وأدبارهم ويقولوا لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وإما أن يقولوا لهم: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٦٨] كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ [فصلت: ٣٠] هذا القول يحصل للإنسان وهو لم تخرج روحه بعد يسمعه حقيقة ويشاهد القائل، ولكن الحاضرون لا يسمعون القول ولا يشاهدون الملائكة، ولهذا أخبر الله جلّ وعلا أنه عند معاينة الملائكة أن التوبة لا تقبل ولا تفيد، وقال ﷺ: «**إن الله يقبل التوبة ما لم يعاين**»[1] يعني يعاين الملائكة، ثم

(١) ابن ماجه (١٤٤٣)، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في المؤمن يؤجر في =

ما بعد ذلك مما يكون في القبر من النعيم والعذاب، ثم بعد ذلك البعث، فالجسد صار تراباً فيعود مثل ما كان؛ لأن ابن آدم خلق من تراب فتعود الأجساد تراباً ما عدا أجساد الأنبياء فإن الله حرمها على الأرض أن تأكلها فهي غضة طرية، وكذلك بعض من يشاء من الشهداء، وهذا قد يكون مؤقتاً وقد يكون مطلقاً إلى أن يبعث فتصور أجساد الناس تراباً، وهذه الأرض التي نطؤها والتي نقيم عليها أكثرها من أجساد مخلوقين سبقونا لأن الناس كثير جداً، ثم إذا نفخ في الصور النفخة الأولى يموت من كان حياً، ثم ينفخ فيه أخرى فيحيون بإذن الله ويجمعهم الله جلّ وعلا، الأجزاء المتفرقة في التراب وتعود مثل ما كانت في الحياة، إلا أنها تركب تركيباً لا يقبل المفارقة مع الروح، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية دخلت كل روح في جسدها الذي خرجت منه فيبقى حياً بدون موت، فإما أن يعذب وإما أن ينعم، ثم قبل ذلك هناك حشر ومناقشة ومحاسبة وتطاير الصحف وأخذها إما باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر والعبور على الصراط وإلى غير ذلك كما سيأتي تفصيله، وهذا واجب على كل أحد أن يؤمن به، فهو أصل من الأصول.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ

هو الإيمان بأن الله جلّ وعلا قدر الأشياء التي ستقع، يعني أنه جلّ وعلا علمها وكتبها في كتاب عنده شاءها وخلقها وسيأتي تفصيله على هذه الدرجات الأربع:

الأولى: أن يؤمن الإنسان بأن الله جلّ وعلا علم كل شيء وأنه لا يخفى عليه شيء.

= النزع؛ وعبد الرزاق في «المصنف»، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

الثانية: أن يؤمن بأنه جلّ وعلا كتب الأشياء قبل وجودها كما جاءت النصوص ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] يعني نخلقها، وفي الحديث الذي في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو **«أن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»**(١) يعني قبل خلق المخلوقات بخمسين ألف سنة.

الثالثة: أن يؤمن بأن الله جلّ وعلا هو الخالق لكل شيء.

الرابعة: أن يؤمن بأن الله هو الذي تنفذ مشيئته ولا لأحد مع مشيئته مشيئة، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فهذا هو الإيمان بالقدر مجملاً، وهو أن كل حركة وكل سكون وكل موجود وكل ما يمكن أن يوجد قد علمه الله جلّ وعلا وكتبه في كتاب لا يمكن أن يتأخر عن وقته ولا أن يتقدم ولا يمكن أن يزاد فيه ولا أن ينقص، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه الخالق وما سواه مخلوق، وسيأتي الخلاف في هذا، أما علم الله جلّ وعلا فإنه بكل شيء عليم، والكتابة فإنها لم يختلف فيها وإنما الخلاف في الخلق وفي المشيئة، فإن أهل القدر خالفوا في ذلك، فيزعمون أن مع الله خالقين كما سيأتي وأن معه من يشاؤها أشياء لا يشاؤها الله تعالى وتقدس عن قولهم، فهذه الأصول التي سيفصلها فيما بعد، وهي التي عليها مدار مسائل الإيمان كلها، وهي واجب أن يؤمن بها كل مؤمن ومؤمنة ولا يجوز أن يجهلها أحد، فمن قصر في هذا فهو مقصر بما وجب عليه.

---

(١) صحيح. وأخرجه أيضاً أحمد (١٦٩/٢)، والترمذي وصححه دون قوله: «وكان عرشه..» وهو رواية لمسلم. ورواه البيهقي في «الأسماء» (٢٦٩)، وفي رواية له: «وفرغ الله ﷻ من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة».

وَمِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ الإِيْمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ

الوصف هو التحلية، وصفت الشيء حليته بكذا ونعته به، والصفة هي التي تقوم بالموصوف والله جلّ وعلا له أسماء وصفات، والفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن الأسماء تدل على الذات، فالله يدل على الذات المقدسة، والرحمٰن الرحيم يدل على الذات المقدسة.

الثاني: أن الصفات تدل على معنى يقوم بالذات، وأنها هي الأصل في الأسماء، والأسماء مشتقة منها وليس العكس كما يتوهمه بعض طلبة العلم، فالرحمٰن مشتق من الرحمة والله مشتق من التأله، ولهذا قال ابن عباس: معنى الله ذو الألوهية يعني صاحب الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وذلك أن أسماء الله جلّ وعلا أخذت من معانٍ عظيمة وليست أعلاماً كما هي أسماء المخلوقين، ولا يعني ذلك أن السمع والبصر مثلاً في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] سبق التسمية، فالاشتقاق لا يعني أن المشتق منه كان سابقاً والمشتق كان لاحقاً، بل يعني أنها أخذت من معانٍ عظيمة دلت عليها وليس الاشتقاق الصناعي الذي يقوله النحاة.

والخلق وضعت أسماؤهم ليتميز واحد من الآخر، فهذا عبد الله وهذا عبد الرحمٰن وهذا أحمد وهذا محمد وهذا بكر وهذا زيد، حتى تفرق بين هذا وهذا بهذه الأسماء فقط، وليس لهم من ذلك معنى، فهم كلهم عبيد متعبدون لله جلّ وعلا، وكلهم فقراء ومحدثون وجدوا بعد أن لم يكونوا وسيعدمون ويموتون، أما أسماء الله جلّ وعلا فهي أعلام وأوصاف، وصفاته وأسماؤه يجب أن تكون توقيفية يعني يوقف فيها على النص، ولهذا نص المؤلف على هذا فقال: «**بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي**

كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ» يعني أن نقف حيث أوقفنا الله جلّ وعلا، فالشيء الذي سمّى الله جلّ وعلا به نفسه أو وصف به نفسه يجب علينا أن نسميه وأن نصفه به، وكذلك رسوله إذا سماه باسم أو وصفه بصفة وجب أن نسميه بذلك الاسم وأن نصفه بتلك الصفة، ولا يجوز أن نتعدى هذا؛ لأن الله جلّ وعلا لا مثيل له فيقاس على غيره فيعطى المُشَبَّه حكم المُشَبه به تعالى الله وتقدس، هذا شيء.

والشيء الثاني: أنه جلّ وعلا غيب، فلم يشاهده أحد حتى يصفه ولن يشاهده أحد، وإنما الخلق لا يحيطون به تعالى وتقدس، والرؤية التي تحصل لأهل الجنة هي رؤية لوجهه فقط تعالى وتقدس، فيرونه ولا يحيطون به، فليس هناك طريق لمعرفة الله جلّ وعلا إلا الطريق الذي عرفنا إياه وهو عن طريقه تعالى بما أوحاه لرسوله ﷺ، فالقياسة العقلية لا دخل لها في هذا، فيجب أن نؤمن بما قاله الله جلّ وعلا وبما قاله الرسول ﷺ مسمياً بذلك ربه أو واصفاً إياه، وأسماء الله جلّ وعلا التي سمّى بها نفسه كثيرة وصفاته أكثر، وفي كتاب الله لا يخلو آية من آيات القرآن إلا وفيها عدد من الصفات والأسماء، ولكن الصفة قد تكون صفة فعلية كالنزول والمجيء والاستواء وما أشبه ذلك، وقد تكون صفة ذاتية كالحياة والقدرة والعلم والعزة والقوة، وكلها حق يجب أن يؤمن بها على ما قاله الله جلّ وعلا وعلى ما قاله رسوله ﷺ، فيؤمن بها على المراد الذي أراده الله جلّ وعلا، أي: أنه يجب على العبد أن يتطلب المعنى المراد، والمعنى ليس بعيداً ولا غامضاً بل هو واضح.

وأسماء الله وصفاته ليس فيها متشابه كما يزعمه كثير من المتأخرين، فإنهم زعموا أن صفات الله من المتشابه، وهذا خطأ واضح، بل صفاته من المحكم البين الواضح الجلي التي يشترك في فهمها الناس عموماً حتى العوام، وليس معنى الاشتراك أنهم يستوون في فهمها، ولكن يدركون شيئاً من المراد، يعني يشتركون في شيء من

المراد بها لظهورها ووضوحها، فالرحمٰن يعلمون أنه ذو الرحمة وأن الرحمة صفته وأنه يرحم بالرحمة، ولا يجوز تأويل الصفة بل يجب أن يؤمن بها على ما يليق بالله جلّ وعلا.

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ

التحريف مأخوذ من الحرف وهو أن يكون الشيء على جانب حرفه إذا جعله على جانب وأماله عن السمت المقصود، والتحريف من سمة اليهود، وقد يكون باللفظ وهو قليل وقد يكون بالمعنى وهو الكثير.

التحريف اللفظي: قد وقع من كثير من المبتدعة كقولهم في قوله جلّ وعلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] قالوا: استولى، فزادوا اللام، وهي كنون اليهود التي زادوها لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فقالوا: حنطة، فهؤلاء شابهوهم، وكذلك من التحريف اللفظي كونها تغير التشكيل مثلاً كقراءة بعضهم: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] قالوا: وكلم اللهَ موسى تكليماً حتى يكون المتكلم هو موسى ﷺ، وهذا من التحريف اللفظي، وغير ذلك مما حاولوا أن يحرفوا، ولكن هذا قليل، أي: التحريف اللفظي.

والتحريف المعنوي: كثير جداً وهو منهج الأشاعرة والمعتزلة قبلهم والكلابية، فإنهم حرفوا الصفات التي لم يستطيعوا ردها، أما المعتزلة فقد ردوها جملة وآمنوا بالأسماء ولكنها أسماء جوفاء لا معنى لها؛ لأنهم يبادرون إلى نفي المعنى الذي يتبادر من اللفظ فيقولون: عليم بلا علم وحكيم بلا حكمة وعزيز بلا عزة تعالى الله وتقدس، فالتحريف هو أن تأول على غير المراد الذي أراده الله جلّ وعلا، كقولهم: إن الرحمة هي إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام وما أشبه ذلك، فهذا من التحريف، والمحرف دعاه للتحريف التشبيه، ولهذا كل محرف مشبه.

وَلا تَعْطِيل

والتعطيل هو تعطيلها عن معانيها التي دلت عليه، وأصل التعطيل مأخوذ من العطل: وهو الخلو والفراغ، وفي هذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥] يعني معطلة عن العمل فيها، ويقال: جيد عاطل، والجيد: هو رقبة المرأة، فإذا قيل: إنه عاطل أي: أنه خالٍ من الحلي، فكل معطل محرف ومشبه، فالمقصود من التعطيل هو أن تخلى الأسماء عن معانيها التي دلت عليها، فأهل السنة ـ الفرقة الناجية ـ برآء من ذلك ولا يحرفون ولا يعطلون، بل يؤمنون باللفظ الظاهر على ما قاله الله جلّ وعلا وعلى ما قاله رسوله ﷺ، ولكن على ما يليق بعظمة الله جلّ وعلا وجلاله، كما قال الشافعي رحمه الله: «آمنت بالله وبما قال الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما قاله رسول الله على مراد رسول الله ﷺ بلا تحريف ولا تمثيل».

التحريف والتعطيل والتمثيل بعضها قريب من بعض وهي متداخلة، والذي يقع في شيء منها لا يخلو من الآخر غالباً، وكذلك الإلحاد وهو الميل بها وبمعانيها عن المراد الذي أراده الله جلّ وعلا، والتعطيل ينقسم إلى أقسام ثلاثة:

الأول: تعطيل المخلوق عن خالقه كقول الفلاسفة والدهرية وملاحدة اليوم وغيرهم، فهو من أعظم التعطيل وهو مذهب فرعون الذي قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال لوزيره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: ٣٦] أي: يريده أن يبني له بناء حتى يصعد فوقه ويطلع، وهذا تمويه على الناس، ويكذب موسى عليه السلام لما أخبره أن الله فوق العالمين وأنه في السماء للتمويه، وإلا فالعقلاء يعرفون أنه لا يستطيع ذلك، المقصود أنه من أعظم المعطلين، وكذلك الذي قال إبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فهذا تعطيل المخلوق عن خالقه.

الثاني: تعطيل حقوق الخالق، أو أن تجعل بينك وبينه مخلوق، وهو أن يعبد مع الله غيره أو لا يعبد الله جلّ وعلا مع الإيمان به والإقرار به، وهذا هو الكثير الذي وقع في الناس.

الثالث: تعطيل الله جلّ وعلا عن أوصافه وأسمائه، وهو الذي فيه الكلام الآن؛ لأنه هو الذي وقع في هذه الأمة بسبب الانحراف الذي حدث في الفرق التي أخبر الرسول ﷺ أنها افترقت على اثنين وسبعين.

أما التمثيل فهو التشبيه، والشيخ في هذا تحرى لفظة التمثيل لأن هذا الذي ورد في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] واجتنب لفظة التشبيه لأنها لم تأتِ في القرآن لا نفياً ولا إثباتاً وكذلك في أحاديث نبيه ﷺ، وهو في هذه العقيدة تحرى الألفاظ التي دلت عليها النصوص.

وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ

لما قال الرجل الذي سأل مالك ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟.

أجابه مالك بجواب شافٍ كافٍ لجميع موارد السؤال في مثل هذا في الصفات كلها، فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، يعني الكيفية، فالاستواء معلوم المعنى وليس معلوم الورود كما يقول أهل البدع أنه معلوم وروده في الكتاب والسنة، فهذا لا يسأل عنه لأنه شيء مثل تحصيل الحاصل، وإنما هو معلوم المعنى أنه العلو على الشيء والارتفاع عليه والاستقرار عليه، وهو معلوم في لغة العرب ولا يجهل، والكيف مجهول للخلق، والإيمان بالاستواء ونحوه من الصفات واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة وكل بدعة ضلالة، وهكذا يقال في النزول وفي المجيء وفي اليد وفي جميع الصفات، فاليد

معلومة والإيمان بها واجب والسؤال عن كيفيتها بدعة لأن كيفيتها مجهولة، وهكذا في صفات الفعل وغيرها.

وَلَا تَمْثِيلٍ

التمثيل هو أن يكون له مثيل يماثله، والمثيل يكون في الذات ويكون في الصفة ويكون في الفعل ويكون في الحقوق، فهو جلّ وعلا لا مثيل له في هذه الأمور الأربعة، فلا مثيل له في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله ولا في حقوقه التي أوجبها على عباده الذي هو التوحيد وعبادته وحده، فيجب أن يكون هذا له وحده ولا يجوز أن يكون لأحد من الخلق منه شيء، فإن وقع ذلك فهذا الشرك الذي يكون صاحبه خالداً في النار، وليس كما يقول أهل البدع في هذا: واحد في ذاته فلا قسيم له، واحد في ملكه فلا شريك له، واحد في صفاته فلا شبيه له، وهذه كلها ترجع إلى شيء واحد، وإنما المعنى المقصود أنه جلّ وعلا - كما هو متفق عليه بين الفرقة الناجية وبين مخالفيهم - أنه لا مثيل له في ذاته، فهذا لا أحد يقول به، فإذاً الصفات تبع للذات، فإذا كان لا مثيل له في ذاته بالاتفاق فيجب أن يكون لا مثيل له في الصفات، وكذلك أفعاله جلّ وعلا لا مثيل له فيها، وليس كما يقول الذين هم مشبهة الأفعال معطلة الصفات، فشبهوا أفعال الرب جلّ وعلا بأفعال الخلق فقاسوه على خلقه، تعالى الله وتقدس، وهو الأصل الذي سموه العدل من أحد أصولهم الخمسة، فوضعوا له شرعاً من أنفسهم فقالوا: يجب على الله أن يفعل كذا ويجب عليه أن يفعل كذا ولا يجوز أن يفعل كذا، وبناءً على ذلك أنكروا أصولاً عظيمة، وأعظمها وصف الله جلّ وعلا وتفرده بصفاته، وأنكروا تبعاً لذلك الأصل - الذي يقولون إنه العدل - وجود الجنة والنار، بناءً منهم على أنه لا يحسن بالعاقل من بني آدم أن يبني بيتاً ويودعه صنوف الأثاث والمأكولات وغيرها ثم يغلقه ويعطله،

ويقولون: هذا سفه، ويقولون: لا يجوز على الله جلّ وعلا أن يوجد الجنة ويودع فيها أصناف الملذات ثم يتركها بلا سكان، وإنما سيخلقها ويوجدها يوم القيامة، ولم يلتفتوا لما تكاثرت فيه النصوص في هذا؛ لأن دينهم مبني على العقل والقياس، ولهذا ضلوا.

والمقصود للمثال فقط وإلا لا شغل لنا في ضلالهم، وإنما الواجب أن نفهم ما قاله ربنا جلّ وعلا وما قاله لنا رسولنا ﷺ فنستغني بذلك عن أفكارهم وعن ضلالاتهم.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

يعني أن هذه الآية أصل لأهل السنة، ففيها النفي والإثبات، وفيها أن النفي يكون مجملاً، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] هذا إجمال وهو أبلغ في التنزيه وأبلغ في مفهوم انفراده بالكمالات؛ لأن هذا يدل على أنه متفرد بأوصافه وأسمائه تعالى وتقدس، والكاف في قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ يقولون إنها زائدة، وليس معنى الزيادة هنا أنها لا معنى لها، بل معناها التقوية والتأكيد، فليس ﴿كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في أوصافه ولا في أفعاله ولا في ما يجب له، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهنا الإثبات جاء مفصلاً وهذه طريقة القرآن وهي أن يأتي النفي مجملاً كقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] هذا كله إجمال، وكذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أما الإثبات فيذكره مفصلاً، فيذكر له العلم والسمع والبصر والحياة ويذكر أنه حي قيوم وغير ذلك مما ذكر جلّ وعلا من أوصافه مفصلاً، فالفرقة الناجية أهل السنة والجماعة اتبعوا القرآن في ذلك، وسبق أنهم لا يقولون إلا بما قال الله وقاله رسوله ﷺ، فهنا شيء

لم يوجدوه من أنفسهم، وإنما هي قواعد دلهم وأرشدهم الله جلّ وعلا عليها، فهم يهتدون بقول الله جلّ وعلا ويتبعونه في هذا، فإذا قيل: إن قاعدة أهل السنة أن النفي يكون مجملاً والإثبات يكون مفصلاً؛ فمعنى ذلك أنهم يتبعون كتاب الله ولا يأتون بشيء من عند أنفسهم.

يقول بعض العلماء: إن ختم هذه الآية بهذين الاسمين الدالين على صفتي السمع والبصر بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يدل على أن الله جلّ وعلا ينبهنا بأن لا يدعنا طلب التنزيه والإبعاد عن المماثلة ألا نصف الله جلّ وعلا بالسمع والبصر الذي يتصف به المخلوق؛ لأن المخلوق متصف بالسمع والبصر والله جلّ وعلا متصف بذلك، ولكن صفته تخصه وتليق به ولا يشاركه المخلوق فيها، كما أن المخلوق سمعه وبصره يخصه والله لا يشاركه في صفة سمعه وبصره، أي: لا تتوهموا أن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أنه يجوز أن يوصف أو يسمى بالشيء الذي قد يوصف به ويسمى به المخلوق؛ لأن الاسم والصفة إذا أضيفتا إلى الله جلّ وعلا أصبحتا تخصه لا يشاركه فيها غيره من المخلوقات، كما أن الصفة والاسم إذا أضيفت إلى المخلوق فإن الله جلّ وعلا لا يشارك المخلوق في هذه الصفة، وأهل البدع خالفوا هذه الآية فجاءوا بالنفي مفصلاً وبالإثبات مجملاً، فيقولون في الإثبات أن الله موجود وهو شيء، ويقولون في النفي: ليس فوق وليس تحت وليس يميناً وليس شمالاً وليس داخل العالم وليس خارج العالم ولا يجري عليه زمان ولا يكون في مكان ولا تصح إليه الإشارة، إلى آخر الهذيان الذي يقولونه، كما ذكره أبو الحسن الأشعري[(١)] في مقالاته وغيره، فيأتوت بالتفصيل في النفي

(١) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد سنة ٢٦٠هـ، مات أبوه وهو صغير، فتزوّجت أمه برجل من أئمة المعتزلة، هو أبو علي الجُبائي، فتلمذ على =

على هذا النحو عكس ما في القرآن، فهم خالفوا القرآن في اللفظ وفي المعنى، وذلك أنهم ضلوا، وهذا جزاؤهم جزاءً وفاقاً؛ لأنهم أعرضوا عن كتاب الله، والله جلّ وعلا يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ويقول جلّ وعلا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني أن الذي يرد الحق أول مرة يكون جزاؤه أن يقلب قلبه وبصره، فيصبح الحق عنده باطلاً والباطل عنده حقاً ـ نسأل الله العافية ـ.

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ

مقصوده في هذا أن الفرقة الناجية تتبع القرآن والأحاديث ولا يضيرها تشنيع المشنعين ولا يلتفتون إلى أقوال أهل البدع ووصفهم إياهم بأنهم حشوية وبأنهم مجسمة وبأنهم نابتة وبأنهم مشبهة، من الألقاب التي يلقبونهم بها، ويعلمون أن ذلك لا يضيرهم شيئاً لأنهم عرفوا الحق فتمسكوا به، وهذه الأمور طنطنة لا تضر، بل ربما تنفع وتزيدهم تمسكاً وحباً للحق؛ لأنهم رأوا أن هؤلاء عندهم عقول وعندهم أفكار ولكن عقولهم وأفكارهم لم تنفعهم بشيء، فأصبح الحق عندهم مبغضاً ومكروهاً وأهله كذلك مبغضين ومكروهين لديهم. فصاروا يحمدون الله جلّ وعلا على توفيقه إياهم وهدايته لهم، وعلى معرفتهم لما أنزله جلّ وعلا على رسوله ﷺ فيتمسكون به أشد التمسك، فلا يعدلون عن قول الله جلّ وعلا وقول رسوله ﷺ في الشرع كله، ولكن في هذا

= يده، وأخذ عنه، فنشأ على مذهب الاعتزال، ثم هداه الله فتبين له ضلال هذا المذهب فتركه وسلك مذهب الكلابية، فأثبت الصفات السبع العقلية، وأول الصفات الخبرية واشتهر بين الناس بهذا المذهب، وهو الذي على أصوله أشاعرة اليوم، فأيقظ الله بصيرته فسلك مذهب سلف الأمة، وأثبت جميع الصفات من غير تأويل أو تشبيه، فألف كتاب «الإبانة» وأعلن فيه انتسابه إلى عقيدة الإمام أحمد بن حنبل، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ.

خصوصاً؛ لأن هذا هو أصل الإسلام ولبه، لب دعوة الرسول ﷺ وهو الذي تبنى عليه الشرائع والأحكام وغيرها، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه لتشنيع مشنع أو كثرة ضال عن ذلك.

وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

كفعل أهل الباطل الذين يقتدون باليهود، فإنه من صفة اليهود التي وصفها الله جلّ وعلا أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بعد معرفتهم، وهؤلاء كذلك، والعجيب أن هؤلاء ضلوا بعد معرفة الحق والعلم اليقيني بأن هذا القرآن جاء به رسول الله ﷺ، فأعرضوا عنه واعتاضوا بأفكار الفلاسفة وما استجلب من كتب اليونان وغيرهم، وأهل السنة الفرقة الناجية إذا رأوا هذا حمدوا الله جلّ وعلا وتمسكوا بالحق واغتبطوا به، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه لا تحريف اللفظ ولا تحريف المعنى، بل يطلبون المراد لله جلّ وعلا فيتمسكون به، وليس معنى ذلك أنهم يمسكون الألفاظ على وتيرة واحدة دائماً بل ينظرون ماذا أراده الله جلّ وعلا، فإذا عرفوا مراد الله جلّ وعلا تمسكوا به، ومثل ذلك أن الله جلّ وعلا يقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠] فيعلمون أن إتيان الله حقيقة، وأن هذا الذي أخبر الله جلّ وعلا عنه بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٨، ٦٩] يعني أنه يأتي إلى الأرض فتشرق بنوره، يأتي لفصل القضاء بين عباده، وكذلك قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] فيؤمنون بهذا على ما قاله الله لأنهم عرفوا أن هذا هو المراد، فإذا جاء قوله جلّ وعلا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] يقولون هذا عذابه لأن سياق الكلام يدل على أن الذي يأتيهم من القواعد هو عذابه، فالله لا

يأتي من سيسان الحيطان، لا يأتي من تحت؛ لأن الله جلّ وعلا فوق، وكذلك إذا قال الله جلّ وعلا: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] هذا في يهود بني النضير، يقولون: إن هذا الإتيان هو إتيان عذابه بأيدي جنده من الملائكة والرسول والمؤمنين وليس هو إتيانه بذاته جلّ وعلا، ولا يكون هذا تأويلاً، بل هذا هو الظاهر؛ لأن السياق والقرائن تدل عليه، فهذا الذي أراده المتكلم، فهم يأخذونه على ظاهره، وليس في ذلك تناقض كما قد يتوهمه متوهم، وهكذا في جميع موارد الكلام ينظرون ماذا أراده الله، فإذا تبين لهم مراد الله أخذوا به، فيكون هذا هو الظاهر وليس ذلك تأويلاً.

وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ

الإلحاد هو الميل عن المقصود، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه حفرة يمال بها عن سمت الحفرة إلى جهة القبلة، فيوضع فيها الميت، والقبر نوعان:

النوع الأول: لحد وهو حفرة مائلة عن سمت الحفرة إلى جهة القبلة.

النوع الثاني: شق يشق في وسطه فيوضع الميت ثم يوضع عليه اللبن.

المقصود أن الإلحاد هو الميل والعدول عن المقصود بالكلام، وأهل السنة لا يلحدون في ذلك فهو قريب من تحريف الكلام، والإلحاد يكون في أسمائه وصفاته ويكون في آياته ويكون في أوامره، وأهل السنة الفرقة الناجية بريئون من هذا كله، لا يلحدون لا في أسمائه وصفاته ولا في أوامره ونواهيه.

وَلَا يُكَيِّفُونَ

سبق أن معنى التكييف أنه طلب الكيفية، ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس نفي التكييف أن الله ليس له كيفية، ولكن المقصود أن الخلق لا يعرفون ذلك ولا يصلون إليه؛ لأن الكيفية هي معرفة الشيء على الهيئة والحالة التي هو عليها، وهذا لا يعلمه أحد من الخلق، فالمنفي هو العلم بها وليست الكيفية.

وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ

هذا التعليل «لأنه سبحانه لا سمي له» يعني لا مثيل له كما قال جلّ وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] يقول ابن عباس في رواية الوالبي: هل تعلم له مماثلاً ومشابهاً أو مثيلاً أو شبيهاً[(١)]؟.

وجاء عنه أيضاً في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] يعني هل تعلم من يسمى الله أو من يسمى الرحمٰن؟.

وهذا وإن كان جاء بلفظ الاستفهام؛ فمعناه الخبر أنه لا سمي ولا مثيل له جلّ وعلا، والمعنى أنه جلّ وعلا ليس له مماثل يماثله لأنه الخالق المتصرف ولأنه الإله ولأنه الرحمٰن في جميع أسمائه وصفاته، هذا هو الذي تدل عليه الآية، لهذا قال: لأنه لا سمي له يعني لا مثيل له يماثله تعالى وتقدس، وسبق أن هذا في أمور أربعة: في ذاته وفي أسمائه وصفاته وفي أفعاله وفي حقوقه.

---

(١) رواه جرير في «التفسير»، والبيهقي في «الشعب» و«الاعتقاد»، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلى ابن أبي حاتم في «التفسير»، وإسناده ضعيف لانقطاعه. ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وعلي عن ابن عباس مرسل كما نقل ذلك ابن أبي حاتم عن أبيه «المراسيل» (ص١٤٠).

وَلَا كُفْءَ لَهُ

الكفء هو المكافئ المماثل المناظر، فهو جلّ وعلا ليس له كفء في هذا، فلا يجوز أن يلحق بغيره ولا أن يشركه في خصائصه أحد من الخلق، يعني أن هذا معناه أن أهل السنة يثبتون له الكمالات ويثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وسائر الكمالات، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ومن ذلك التمثيل، ينقسم إلى قسمين:

الأول: تمثيل وقع فيه أكثر الخلق وهو تمثيل المخلوق بالخالق، وهذا كثير جداً حتى في هذه الأمة، فإنهم يلحقون بعض المخلوقين بالله جلّ وعلا، ويجعلون لهم ما لله من العبادة كالدعاء، وهذا كان شرك المشركين الذين بعث بهم الرسول ﷺ أنهم مثلوا بعض المخلوقين بالله جلّ وعلا.

الثاني: هو عكس الأول وهو تمثيل الله في خلقه، وهذا قليل وإن وجد، وهذا هو الذي يتكلم به المتكلمون في كتب الكلام، يسمونهم المشبهة، ولكن إذا نظر الإنسان في مقالات الناس ومذاهبهم لا يجد طائفة معينة من الناس لها كتب ولها أئمة وعلماء تسمى المشبهة، وإنما هذا يختلف باختلاف اعتقاد القائل الناسب الذي ينسب هذا الرجل إلى التشبيه، فالمعتزلة قد يسمون الأشعرية مشبهة، والأشعرية يسمون أهل الحديث والحنابلة مشبهة؛ لأنهم يثبتون الأشياء التي يعتقدون أن فيها تشبيهاً، مثل العلو والاستواء واليد والرجل والعينين وما أشبه ذلك، فمن أثبت ما اعتقدوا أنه تشبيه سموه مشبهاً، فكثر الكلام من أجل هذا، وإلا التشبيه في الواقع كما قال الإمام أحمد وغيره من العلماء: أن يقال إن يد الله مثل أيدينا وعينه مثل أعيننا وسمعه مثل أسماعنا وبصره مثل أبصارنا تعالى الله وتقدس، فهذا هو التشبيه، وهذا قاله أفراد قليلون جداً وبعد ذلك لم يثبتوا على قولهم، والذين قالوه متهمون في دينهم، وصفوا

بأنهم يشربون الخمور وبأنهم يتركون الصلاة وبأنهم يسبون الصحابة، فإذا كانوا بهذه المثابة فهل يقتدى بقولهم أو يمكن أن يقال: إنهم أصحاب مقالات أو أصحاب مذاهب؟.

أما ما ينسب إلى مثل سليمان بن مقاتل فالظاهر أنه كذب عليه لم يثبت، بدليل أن كتابه التفسير قد طبع الآن وانتشر وليس فيه شيء من ذلك، وتفسيره هو مظنة ذلك، بل الذي فيه أنه على مذهب أهل السنة في ذلك، وقد جاء أنه قال له بعض الأمراء: إن الناس يقولون: إنك مشبه. فقال: أما أنا فإني أقول إن الله مستوٍ على عرشه، وأنه ينزل كل ليلة إلى السماء، كما قال الرسول ﷺ، فالظاهر أن هذا الذي قيل له ونسب إليه أنه كذب وتزوير.

وَلا نِدَّ لَهُ

الند: هو المثل ولو في صفة من الصفات، يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] وهذا النهي يكون في العبادة وفي خصائص الله من أوصافه وأسمائه وأفعاله، فالله ليس له ند تعالى وتقدس ولا يقاس بخلقه أبداً لا قياس تشبيه وتمثيل ـ الذي يكون قياساً تستعمل به الكليات ـ ولا قياس الأفراد والجزئيات الذي يستعمله أهل الأصول، يعني جميع الأقيسة، لا قياس تمثيل ولا قياس شبه، لا يجوز أن تستعمل في حق الله جلّ وعلا، ولكن علماء أهل السنة يقولون: إنه يثبت له قياس الأولى، وهذا لأنه جلّ وعلا أثبت ذلك، ومعنى قياس الأولى أن الكمال الذي يثبت للمخلوق وليس فيه نقص؛ أن الله أولى به؛ لأن الله جلّ وعلا لما ذكر قول المشركين أنهم أضافوا له الولد تعالى وتقدس وجعلوا الولد أنثى؛ أخبر الله جلّ وعلا عنهم كيف أنتم تنزهون أنفسكم عن الأنثى وأحدكم إذا بشر بها يناله ما يناله، ثم تجعلون لله الولد الذي هو أدنى الدرجات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] ويكون مفكراً في نفسه يعني يذهب؛ لأنه صدم أمام القوم صدمة لا يستطيع أن يقابلها، فأصبح يتوارى عنهم ويذهب لئلا يعيروه بهذا ويسموه بهذا العيب، وهو مفكر في نفسه كيف يصنع بهذا المُبشر به، أيمسكه على إهانة واحتقار وازدراء أو يأخذه ويدسه في التراب حيا؟.

المقصود أن الله جلّ وعلا له قياس الأولى ـ المثل الأعلى ـ وهو أن كل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص فالخالق أولى به، وهذا ليس مخترعاً إنما دل عليه القرآن فأثبت بدلالة القرآن.

وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ ﷻ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ

وهذا تعليل آخر لكون أهل السنة اتبعوا ما جاء في القرآن وفي أحاديث رسوله لأنه جلّ وعلا أعلم بنفسه وبغيره، فهم يتبعون قوله ويعلمون أن قوله هو الهدى وهو النور، وأنه ليس لإنسان خيار في ذلك، بل هو ملزم بأن يتبعه ويأخذ به وإلا يعاقبه ويعذبه الله جلّ وعلا، يؤخذ من هذا قاعدة لأهل السنة ـ وكل قواعدهم مأخوذة من كتاب الله ـ، وهي أن الهدى في كتاب الله جلّ وعلا، ففيه الهدى والنور والشفاء والحق، وأن من انصرف عنه فهو ضال، فلا بد من اتباعه، فالله جلّ وعلا أعلم بخلقه وبنفسه وبغيره، وقد وصف نفسه وسماها جلّ وعلا بهذه الأسماء التي قالها وتكلم بها جلّ وعلا وتعرف بها إلى عباده.

وَأَصْدَقُ قِيلاً

يعني أن قوله صدق وحق، ومعلوم أنه لا أحد يجرؤ أن يرد كلام الله جلّ وعلا، فالصدق هو الخبر المطابق للواقع، والكذب هو الخبر الذي لا يطابق الواقع، والله جلّ وعلا أعلم بنفسه وأصدق حديثاً

من خلقه، فكل من وصف الله جلّ وعلا بصفة خلاف ما وصف الله جلّ وعلا فهي مردودة بهذا، يعني بقول الله جلّ وعلا الذي هو الصدق والحق.

وَأَحْسَنُ حَدِيثاً مِنْ خَلْقِهِ

يعني أن كلام الله جلّ وعلا جلي واضح لا خفاء فيه وليس فيه احتمالات ولا أمور ملتبسة ولا أمور مشتبهة قد تخفى على المخاطب، بل هي واضحة وجلية وفيه الهدى والنور، فهو جلّ وعلا أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه، فإذاً لا بد أن يتبع قوله جلّ وعلا.

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ

صادقون فيما يقولون، والصدق: هو الخبر المطابق للواقع ـ كما سبق ـ والكذب ضده، فهم صادقون في قولهم ومصدقون فيما قيل لهم وفيما يأتيهم من السماء من الله جلّ وعلا، والذي أوحي إليهم صدق، أما مصدقون فلا تصلح في هذا لأن أكثر الأمم كذبوهم، وقد يأتي رسول الله إلى أمة فلا يتبعه واحد منهم، كما قال الرسول ﷺ: **«عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ـ ممن آمن به ـ والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد»**[1] يعني يرسل إلى قوم فيأتي وحده، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمصدقون قليل، وإنما الرسل صادقون فيما قالوه لأنهم لا ينطقون عن الهوى، يقولون وحياً من الله جلّ وعلا ومصدقون فيما أوحي إليهم.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٤٨).

بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون من المتكلمين من جهمية أو أشاعرة أو معتزلة أو غيرهم فإنهم كاذبون؛ لأنهم يقولون ذلك تخرصاً وتوهماً ويقولونه عن خيالات يزعمون أنها دلائل وبراهين عقلية، وهي في الواقع زبالات أفكار يجب أن يرمى بها في الزبالة ولا يجوز أن يعتاض بها عن كتاب الله جلّ وعلا وعن ما جاء به الصادق المصدوق ﷺ، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن القول عليه بلا علم هو أعظم الذنوب على الإطلاق كما قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] فبدأ بما هو أسهل ثم ذكر ما هو أعظم، فذكر أن القول عليه بلا علم أعظم من الشرك الذي حرم الله جلّ وعلا الجنة على صاحبه، والقول على الله بلا علم أعظمه القول في أسمائه وصفاته، وإن كان القول في دينه وأحكامه داخل في هذا، ولكن هذا أعظم.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

﴿سُبْحَانَ﴾ هذا اسم مصدر وهو يدل على التنزيه والتقديس، ومأخوذ من السبح وهو سرعة الجري في الماء، وكذلك جري الفرس يسمى سبحاً، وتسمى الفرس سبوح لسرعة جريها وإبعادها في الجري، فهو مأخوذ من بعدها في ذلك، فالتسبيح معناه تنزيه الله جلّ وعلا وإبعاده عن النقائص وعما يصفه المشركون الذين لا يقدرونه قدره تعالى وتقدس.

﴿رَبِّكَ﴾ أضافه إلى المخاطب الذي هو النبي ﷺ لتشريفه بذلك، والرب في اللغة هو المالك المتصرف المدبر، وهو لا يطلق عند وجود «ال» إلا على الله جلّ وعلا، ولكن بالإضافة أطلق على المخلوق مثل: رب الكتاب، ورب الدار وما أشبه ذلك، والرب والإله من الألفاظ التي

تعاقب، بمعنى أنه إذا جاء أحدهما مفرداً يدخل فيه الآخر، وبهذا يجاب عن قول القبوريين الذين يقولون: إنه يكفي كون الإنسان يعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، أما الدعوة: كونه يدعو نبياً أو ولياً ويستنجد به فهذا لا يضر؛ لأنه ليس هناك نص، ويستدلون على هذا بما جاء في حديث سؤال الملكين للمدفون «**يقولان: من ربك وما دينك**»[1] يقولون: فلم يقل: من إلهك وما معبودك؟ قالا: من ربك، فيقال: إن هذا يدخل فيه الإله الرب الذي خلقه وتصرف فيه وأوجده وأماته، فهو الذي يجب أن يعبد، فإن عبد غيره فإنه لم يعرف الرب في الحقيقة، وهذا من باب اللزوم، أما من باب التعاقب فهو واضح، يعني أنه إذا ذكر هذا وحده مفرداً دخل فيه الآخر، أما إذا ذُكرا جميعاً فلكل واحد منهما معنى، وهذا كثير في اللغة، مثل المؤمن والمسلم والفقير والمسكين وما أشبه ذلك.

﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ رب هنا بدل عن السابق، ولكنه بمعنى صاحب العزة، يعني الموصوف بالعزة، والعزة هنا أضيف الرب إليها ليس من إضافة مخلوق إلى خالقه كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ لأن هذا إضافة رب إلى عبد، أما قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فهذا إضافة صفة إلى موصوف، ولكن رب هنا بمعنى صاحب العزة، والعزة المقصود بها هنا القوة، ففي اللغة يقال لمن امتنع إنه قوي عزيز، والغالب القاهر عزيز، فيقال: عز يعَز وعز يعِز وعز

(١) صحيح. انظر: «أحكام الجنائز» (ص١٥٦ ـ ١٥٩).

قال شاكر: رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٨٧ ـ ٢٨٨، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، طبعة الحلبي، مطولاً، ونقله ابن كثير في «التفسير» (٣/٤٧٤ ـ ٤٧٥)، عن المسند. ورواه أبو داود (٤٧٥٣ ـ ٤٧٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/٣٧ ـ ٣٩)، بأسانيد كلها من رواية الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو، وزاذان أبي عمر الكندي»، ووافقه الذهبي، وقد أطال الإمام ابن القيم في تصحيحه، والرد على من أعله في «تهذيب السنن» (٤٥٨٦) (٧/١٣٩ ـ ١٤٦).

يعُز، بالكسر إذا كان ذا قوة وبالفتح إذا كان ذا امتناع وبالضم إذا كان ذا قهر وغلبة، وكل هذه ثابتة لله جلّ وعلا وهي من صفاته، وتختلف استعمالاتها في اللغة في المضارع، يقول ابن القيم: فأعطوا أقوى المعنيين أقوى الحركات.

الذي هو الأخير، وهذا مما يرد به على الذين ينكرون الصفات مثل ابن حزم عفا الله عنا وعنه، فإنه يقول: هذا من اختراع المتكلمين وليس هناك صفات!.

فيقال له: مثل العزة والرحمة والحكمة والإحسان وغير ذلك معانٍ قائمة بالرب جلّ وعلا وهذه هي الصفات، فليس لازماً أن يقال: هذه صفة بالنص، مع أن هذه نصوص وغير ذلك جاء منصوصاً عليه، واستثنى سورة الإخلاص، يقول: لأنه جاء فيها النص؛ لأنه ثبت في الصحيح أن رجلاً كان يؤم أصحابه فيختم بسورة الإخلاص، فلما أنكر عليه قال: ما أترك هذا، إما أفعله وإما أن تأتموا بغيري، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«سلوه لماذا يصنع ذلك؟»** فقال: **«لأنها صفة ربي وأنا أحبها»**، فقال ﷺ: **«حبك إياها أدخلك الجنة»**[1]، فقال: هذه نص لأنها صفة الله، ومعروف طريقة ابن حزم رحمه الله.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] الـ «ما» في قوله: ﴿عَمَّا﴾ موصولة ويجوز أن تكون مصدرية عن وصفهم، والمقصود كل من لم يعرف الله وهذا ظاهر في حالة المشركين وكذلك حالة اليهود والنصارى، فاليهود قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى الله وتقدس عن قولهم، أما المشركون الذين يصفونه بأن له شريكاً وأن هناك آلهة تشفع بلا إذنه وأن له ولداً وأن له

(١) البخاري (٧٣٧٥)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله، وأحمد (١٢٠٥٤).

صاحبة وأن الملائكة بناته، وقالوا: ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، يعني مصاهرة تعالى الله وتقدس، فهو جلّ وعلا ينزه نفسه عن ذلك، سبحان ربك رب العزة عما يصفه المنحرفون الذين لا يتبعون الحق ولا يقولون بما قاله الله جلّ وعلا وما قالته الرسل.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ هذا تسليم من الله جلّ وعلا عليهم، وهذا يقتضي أنهم سلموا من النقص ومن العيب، وسلموا فيما قالوه وفيما اعتقدوه فيما جاؤوا به، أما ما جاؤوا به فهم معصومون عن الخطأ والكذب فيه، والله سلم رسله الذين أرسلهم بكلامه ووحيه وشرعه، المرسلين: جمع مُرسَل، والله هو المُرسِل الذي أرسلهم إلى عباده ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ظلمات الجهل والشكوك إلى نور العلم والإيمان حتى يتأهلوا لدخول الجنة، وإن لم يفعلوا ذلك فهم قرناء الشيطان في جهنم ـ نسأل الله العافية ـ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ الحمد والتسبيح يدل على الكمال، وأنه كامل لا يلحقه نقص ويستلزم الكمال، يعني يدل على التنزيه بالمطابقة ويستلزم الكمال، أما الحمد فهو يدل على الكمال بالمطابقة ويستلزم التنزيه، ولهذا جمع بينهما في هذه الآية وفي آيات أخرى، وهذا يدل على أن الله جلّ وعلا له الكمال المطلق على فعله وعلى جميع تصرفه؛ لأنه ختم ذلك بالحمد وهو من الإثبات المجمل؛ لأن الإثبات يأتي مجملاً كما أنه يأتي مفصلاً في الغالب الكثير.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب هو الذي يرب الشيء، يوجده ويملكه ويربه، يعني يربه يصلحه ويقوم عليه بما يلزم لحياته، وهذا عام في المخلوقات كلها، والعالمين هم كل خلق الله جلّ وعلا، وسموا بذلك لأنهم يدلون بوجودهم على الله جلّ وعلا، وهم عوالم متعددة، فالأنس عالم والجن عالم والملائكة عالم والبهائم والطيور وغيرها، وهو جلّ وعلا هو المالك لهم جميعاً وإليه يرجعون فيجزيهم بما يستحقون.

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ

وكونه جلّ وعلا نزه نفسه لأن الخلق لا يقومون بذلك ولا يستطيعون القيام بما يستحقه جلّ وعلا من الثناء والتنزيه، ولهذا تولى ذلك بنفسه جلّ وعلا، وأعلم الخلق بالله جلّ وعلا يقول: **«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**[1] والخلق هكذا، كلهم لا يستطيعون أن يثنوا عليه كما يستحق جلّ وعلا، لا من ناحية التنزيه والتسبيح ولا من ناحية الحمد والشكر والثناء.

وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ

فالمرسلون معصومون فيما يقولونه عن الله جلّ وعلا بالاتفاق، وأن الذي يبلغونه لهم العصمة فيه، ولو قدر أنه وقع شيء من الخطأ فإنه لا بد أن يبين، يقول شيخ الإسلام: اتفق العلماء على أن الرسل معصومون فيما يبلغون عن الله جلّ وعلا، واختلفوا: هل يقع فيما يبلغون عن الله إلقاء الشيطان ثم ينسخ الله جلّ وعلا ذلك الإلقاء ويحكم آياته؟.

وصح أن هذا يقع لقول الله جلّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢] وقال: هذا من دلائل الصدق، فمن دلائل صدقه كونه إذا وقع الشيء في ذلك اعترفوا به وأثبتوا أن الله نسخه وأحكم آياته، ثم يقول: هذا لا محظور فيه لأن الله ينسخه ويحكم آياته، وإنما فيه الابتلاء لبعض الخلق، فالابتلاء للقاسية قلوبهم ولمن عندهم ريب وشك وتردد، حتى يتميز أهل

(١) «الموطأ» (٤٤٨)، النداء للصلاة، باب ما جاء في الدعاء؛ مسلم (٤٨٦)، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، من حديث عائشة ﵂.

الصدق والاتباع للرسل من الذين إذا عرض لهم عارض من الشيطان ارتابوا وترددوا وربما انتكسوا ـ نسأل الله العافية ـ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ

فعلى هذا صفات الله جلّ وعلا تنقسم إلى قسمين:

الأولى: صفات نفي، والمتكلمون يسمونها «سلب»[1] وهذه تسمية صحيحة، ويجب أن يعلم أن النفي ليس مراداً لذاته وأن النفي لا يكون نفياً خالصاً، وإنما ينفى الشيء المنصوص عليه ويثبت كمال ضد ذلك الشيء، فحينما يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝﴾ [ق: ٣٨] فهذا نفي للغوب، والمقصود بذلك إثبات كمال قوته وقدرته جلّ وعلا مع نفي التعب والإعياء الذي يقوله اليهود أعداء الله من أنه تعب فاستراح تعالى الله وتقدس، وإذا قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فيقصد بهذا نفي الظلم أن يقع على العباد، ويقصد به إثبات كمال العدل لله جلّ وعلا، وإذا قال جلّ وعلا: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يقصد بذلك نفي النقص الذي يشبه الموت الذي هو النوم أو ما بعد النوم، ويراد من ذلك إثبات كمال حياته وكمال قيوميته تعالى وتقدس، وهكذا في جميع النفي، فلا يأتي نفي محض في صفات الله جلّ وعلا.

الثاني: صفات إثبات، وهذا واضح، وكل من النفي والإثبات يأتي

(١) أي: الصفات السلبية، وهي الصفات التي تدل على النفي المحض؛ أي: سلب ما لا يليق بالله دون الدلالة على معنى قائم به؛ كقولهم: موجود؛ أي: مسلوب عنه العدم. وقولهم: واحد؛ أي: مسلوب عنه القسمة والشركة.

مفصلاً ويأتي مجملاً، ولكن الغالب الكثير أن النفي يكون مجملاً والإثبات بالعكس يكون مفصلاً، والغالب أن النفي إذا جاء مفصلاً أنه لسبب، إما لأن ذلك النقص قد أثبته بعض الخلق وأضافه إلى الله وهذا هو الكثير، فالله جلّ وعلا ينفي الشريك والولد وينفي الصاحبة، فهذا نفي مفصل، والمقصود بهذا أن كثيراً من الخلق أثبتوا ذلك فنص عليه، وكذلك الشفيع فينفي أن يكون هناك من يشفع بلا إذنه تعالى وتقدس، فهذا كثير، وهو من النفي المفصل، أما الغالب الكثير فإنه يأتي مجملاً كقوله جلّ وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ومعلوم أن النفي المجمل يدل على الكمال وعلى ثبوت الصفات الكثيرة التي لا يمكن أن يكون أحداً من الخلق يلحق به تعالى الله وتقدس.

فَلا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

السنة في اللغة: هي الطريق الواضح.

وفي الاصطلاح: هي أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته.

إذا قيل أهل السنة فالمراد بهم الذين تمسكوا بما جاء به الرسول ﷺ عموماً من أحاديثه ومن كتاب الله جلّ وعلا، وهنا كأنه عطف الجماعة على أهل السنة، فهل الجماعة غير أهل السنة؟.

في الواقع أن الجماعة هم أهل السنة، فهم الذين اجتمعوا على الحق وهم الذين حذروا التفرق، فهم اجتمعوا على الحق خلافاً لأهل البدع، فإن أهل البدع يتفرقون كثيراً، فتجد أصحاب المقالة الواحدة يتفرع منها جماعات ومقالات كثيرة، بل تجد المقالة الواحدة عند منشئها يقولها رجل واحد، ثم يجتمع عليها خلق، ثم يتفرقون ويتفرعون عن هذه

المقالة، وكل أصحاب فرع يلعن الآخر وربما يكفره أو يضلله أو يفسقه، فهذا هو الغالب، أما أهل السنة فليسوا كذلك.

وسموا جماعة لأنهم يجتمعون على الحق، وإن وقع منهم اختلاف في بعض مفاهيم النصوص فإنه لا يكون ذلك داعياً للتفرق، بل هم يجتمعون على الأصل وعلى الاتباع، ولا يلزم كل واحد الآخر بأنه يلزمه أن يقول بما قاله؛ لأن الله جلّ وعلا فاوت بين خلقه بالفهوم، فهذا قد يفهم من الكليات ومن الأفراد ما لا يفهمه الآخر، وذلك أن كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ كلمات جوامع وكليات يدخل تحتها من الأحكام ومن الفوائد وغيرها ما لا حصر له، فالناس يختلفون في ذلك، فمنهم من يعطى فهماً أكثر من الآخر، فلا يلزم أن يتبع شخصاً بعينه، ولهذا السبب اختلف الأئمة وصار لكل إمام مذهب مثل الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم، وهذا كان موجوداً حتى في حياة الرسول ﷺ وكان يقره ﷺ، فإنه لما أرسل الصحابة قال لهم بعد وقعة الخندق: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»[1] فذهبوا وفي الطريق أدركتهم صلاة العصر فاختلفوا إلى فريقين: أحدهم يقول: لم يرد منا رسول الله ﷺ تأخير الصلاة وإنما أراد منا سرعة المضي، وفريق آخر قالوا: لا نصلي إلا في بني قريظة، فصلى بعضهم وبعضهم لم يصل إلا بعد غروب الشمس في بني قريظة، فلم يعنف فريقاً ولم ينكر الرسول ﷺ على هؤلاء ولا على هؤلاء، فمجال الاجتهاد من النصوص واسع، وهذا الذي يقصد به الجماعة، أنهم يجتمعون على الحق، وأنهم إذا كانوا يتمسكون بمفاهيم النصوص أنه لا إنكار في ذلك، وأن هذا لا يدعو إلى التفرق.

(١) البخاري (٤١١٩)، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة؛ ومسلم (١٧٧٠)، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم الأمرين المتعارضين من حديث ابن عمر ﷺ.

عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ

وهذا أمر ملزم ليس فيه اختيار.

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ

الصراط: هو الطريق الواضح العدل الواسع لمن سلكه، الموصل إلى الغاية المقصودة، لا بد أن يكون الصراط مشتملاً على هذه الأوصاف، أن يكون واضحاً مستقيماً، يعني مستوياً عدلاً ليس فيه عقبات ولا منحنيات وأن يكون واسعاً لمن سلكه ففيه الوضوح وفيه الاستقامة وفيه السعة، والصراط ينقسم إلى قسمين:

الأول: صراط معنوي وهو هذا الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ بل أديان الرسل كلها، ومعلوم أنها لم تبق وأن هذا الدين هيمن عليها كلها وأنه لا يجوز لأحد أن يسلك غيره، ولهذا يقول جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] فهم أهل كتاب ويخبر أن الرسول جاءهم يبين لهم الشيء الذي يخفونه ويعفو عن كثير مما يخفون وألزمهم أن يتبعوه، وفي صحيح مسلم يقول الرسول ﷺ: **«والله لا يسمع بي أحمر أو أبيض ثم لا يؤمن بي إلا أقحمه الله جهنم»**[(1)].

انظر كيف علق ذلك بالسماع؛ لأن الإنسان إذا سمع به وجب عليه أن يبحث عن دينه، وكذلك إذا سمع بالإسلام أو سمع بالقرآن، ولهذا أخبر جلّ وعلا أن القرآن ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فهو بلاغ ونذير وهذا عام، وأخبر أنه هدى وبيان وأنه نذير لمن بلغه، فكل من بلغه القرآن فقد أنذر وقامت عليه الحجة.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، من حديث أبي هريرة ﷺ، وأحمد (٧٨٥٦).

الثاني: الصراط الحسي: وهو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة ويعبر عليه المؤمنون، فمن كان مستقيماً على هذا الصراط المعنوي ـ الذي هو الإسلام ـ استقام وسلك على هذا وإلا سقط في جهنم وسيأتي ذكره إن شاء الله.

وأفرد الصراط لأنه واحد غير متعدد، ولهذا ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ خط خطاً مستقيماً فقال: **«هذا سبيل الله»** وخط خطوطاً على يمينه وشماله كثيرة وقال: **«هذه السبل وعلى كل سبيل شيطان يدعو فمن حاد عن الصراط المستقيم ودخل في شيء منها تولته الشياطين»**[1]، قد يشكل على هذا القول قوله جلّ وعلا: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وهذا لا يشكل في الواقع؛ لأن المقصود بالسبل هنا طرق الخير التي جاء بها القرآن من الصلاة والصوم والزكاة والجهاد وغير ذلك، فهذه كلها طرق إلى رضوان الله جلّ وعلا، واختلف في الصراط ما هو؟ لفظاً وليس معنوياً؟.

فقيل: إنه القرآن، وقيل: إنه الإسلام، وقيل: إنه الرسول ﷺ، وكلها حق وكلها مجتمعة، فالقرآن يدعو إلى الإسلام ويبين الحق والرسول كذلك.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بدل من الصراط المستقيم، ومعنى أنعم: تفضل وأحسن ونعم الله جلّ وعلا لا حصر لها ولكنها تقسم إلى قسمين:

الأول: نعم كاملة تامة، وهذه تكون للمؤمنين الذين يموتون على الإيمان ويسلمون من العذاب، فهي نعمة كاملة تامة.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٢٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٩٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١٣١)، وابن أبي حاتم في «التفسير».

الثاني: نعمة مطلقة وهي شاملة للخلق كلهم، وقد جاءت النعمة في القرآن وفي غيره بألفاظ مختلفة فجاءت: نَعمة ونِعمة ونُعمة، ونُعمة لم تأتِ في القرآن ولكن جاءت في اللغة، فالفرق بينها كالتالي:

النَّعمة بالفتح: هي المتعة المحدودة من العيش.

النُّعمة بالضم: فهي اللذة من العيش وغيره.

النِّعمة بالكسر: فهي ما ذكر، قد تكون كاملة وقد تكون مجرد نعمة، ونعم الله جلّ وعلا لا حصر لها قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ويقصد هنا بأنعم الله عليهم أي: الإنعام المطلق الكامل.

مِنَ النَّبِيِّينَ

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] هؤلاء هم الذين يكونون رفقاء لمن سلك الصراط المستقيم، يقول بعض العلماء: حتى لا يستوحش السالك من قلة من يكون معه في وقته، وحتى لا يغتر المخالف بكثرة من هلك وتنكب الصراط، فيخبر جلّ وعلا أن رفيق من سلك الصراط المستقيم رسل الله والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون، وهؤلاء هم أفضل الخلق، ويتفاوتون في الفضل بتفاوت التقى، من كان لله أتقى فهو أفضل جنسه.

والنبي مأخوذ إما من الإنباء ـ وهو الصحيح ـ أن الله أنبأهم وأخبرهم وأوحى إليهم، أو من النبوة: وهي الرفعة.

والمعنى الثاني لازم للأول، فمن أنبأه الله جلّ وعلا فقد رفعه وأعلاه على غيره من الخلق، وسبق أنهم كثيرون، ولكن قد يحتاج الإنسان إلى الفرق بين الرسول والنبي، والفرق المشهور الذي يذكره العلماء يقولون:

الرسول: من أوحي إليه وكلف البلاغ، والنبي: هو من أوحي إليه ولم يكلف البلاغ، وبعض الناس يقول: هذا لا يصح؛ لأنه في الواقع ما فهم مراد العلماء الذين عرفوا ذلك، يقول كيف آحاد الناس يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا نبي يوحى إليه ولا يكلف بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعدم تكليفه بالبلاغ؟.

ولهذا قال: لا يصح هذا التعريف، فيقال له: ليس هذا هو مراد العلماء، وإنما مرادهم هو أن الرسول يرسل إلى قوم كفار لم يأتهم نبي قبله، أو أنهم كفروا ونسيت الرسالة التي قبله ولا بد أن يكفر به من يكفر، أما النبي فلا يلزم هذا في حقه، بل يجوز أن يكون مع رسول، هذا رسول أرسل ثم نبئ رجل آخر، أوحي إليه في آن واحد وفي وقت واحد، وهذا أيضاً قد يكون في حالتين لشخص واحد، حالة يكون فيها نبياً وحالة يكون فيها رسولاً كما وقع لنبينا ﷺ فإن أول ما أوحى الله جلّ وعلا إليه قوله جلّ وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١ ـ ٥] إلى هنا، ثم توقف الوحي وبقي ستة شهور أو أكثر لم يأته الوحي، في هذه الحالة سمي نبياً، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] فهنا كلف الإنذار والبلاغ فصار نبياً رسولاً، ولهذا يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في الأصول الثلاثة: «نبئ بإقرأ وأرسل بالمدثر» يعني حصلت له النبوة لما أوحي إليه أول الوحي، أما الرسالة عندما نزلت المدثر فإنه أمر بإبلاغ الناس، فلا إشكال في هذا ولا يلزم ما قالوا.

وَالصِّدِّيقِينَ

الصديقون مبالغة في الصادق، فالصديق أبلغ من الصدوق، صدوق مبالغة ولكن الصديق أبلغ منه، والصدوق أبلغ من الصادق، فهذا أعلى

الدرجات في الصديقية ولهذا جاؤوا بعد الأنبياء، وأفضل الصحابة الصديق أبو بكر ﷺ وسموا الصديقين لأنهم كمل اتباعهم وصدقهم، فلا يكفي التصديق بل لا بد من الاتباع.

وَالشُّهَدَاءِ

وسموا شهداء قيل: لأن الله شهد لهم وملائكته بالجنة: وقيل: لأن الملائكة تشهد موتهم وتحضره وكذلك الحور تشهده، وجاء في هذا نصوص عن النبي ﷺ، وقسم العلماء الشهداء إلى أقسام ثلاثة:

الأول: شهداء في الدنيا والآخرة، وهم الذين يقتلون في المعارك بين المؤمنين والكفار مقبلين غير مدبرين مخلصين لله جلّ وعلا صادقين، وهم أفضل الناس بعد الصديقين.

الثاني: شهداء في الآخرة، وهم الحريق والغريق والمطعون والمبطون والمقتول دون ماله أو دينه أو نفسه أو حريمه، هؤلاء الشهداء في الآخرة ولكن ليست لهم أحكام الشهداء في الدنيا، فالشهداء في الدنيا لا يصلى عليهم ولا يغسلون على القول الصحيح.

الثالث: شهداء في الدنيا فيما يظهر للناس وفي الآخرة ليسوا شهداء، مثل الذي يقتل مدبراً متهزماً ويكون من المؤمنين، أو الذي يغل من المغنم، ولهذا لما قتل الغلام الذي مع النبي ﷺ، جاءه سهم غرب وهو يحل رحل النبي ﷺ فقتله قال الصحابة: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله؛ لأنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يهنئون الشهيد، إذا سقط الشهيد هنئوه قالوا: هنيئاً لك، وكل واحد يحب أنه مكانه ومثله، فكانوا يطلبون الشهادة بإقبال وصدق، ولما استعصى على خالد بن الوليد قوم في حصن تحصنوا به فصار يخاطبهم ويقول: يا هؤلاء: والله لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، ومهما عملتم فسيقيض الله

لنا ما يوصلنا إليكم، فالمقصود أن هذا الغلام الذي جاءه السهم وقالوا له: هنيئاً لك الشهادة. قال الرسول ﷺ: **«كلا، إن الشملة التي أخذها من المغانم لم تصبه القسمة لتشتعل الآن عليه ناراً»**[١] والشملة: كساء يساوي خمسة دراهم منعته من الشهادة وصارت تشتعل عليه ناراً، فلما سمع ذلك الصحابة أسرع رجل منهم فجاء بشسع نعل قال: هذه أخذتها. قال: **«شسع من نار»** فذهب آخر فجاء بشيء تافه أيضاً قال: **«هذا من النار»**، يعني القليل الذي يؤخذ والكثير يمنع الشهادة ـ نسأل الله العافية ـ فهذه أقسام الشهداء، ولكن المقصود هنا القسم الأول.

وَالصَّالِحِينَ

وهم الذين قاموا بما وجب لله جلّ وعلا وما وجب لعباده، فأدوا حق الله وحق عباده، يعني أنهم لا يؤذون عباد الله، أما إذا حصلت الأذية فليسوا بصالحين.

الْجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ

الجملة هي الطائفة من الكلام.

مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ

ومعنى الوصف كما سبق التحلية، حلاه إذا وصفه ووصفه إذا حلاه.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٣٤)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، و(٦٧٠٧)، كتاب الأيمان والنذور، باب هل يدخل في الأيمان والنذور الأرض والغنم والزرع والأمتعة؟ وأبو داود (٢٥٩٦)، كتاب الجهاد، باب في تعظيم الغلول، من حديث أبي هريرة ﷺ.

في سورة الإخلاص

السورة: هي القطعة من القرآن معلومة المبدأ والمنتهى، وسور القرآن مائة وأربعة عشر سورة، والإخلاص واجب على الخلق كلهم ولا يفيد إلا الإخلاص، فإذا لم يكن العمل أو القول خالصاً لله فلا فائدة فيه لأنه يرد، وهو يفيد وإن كان العمل قليلاً، فلهذا يجب أن يحرص الإنسان على الإخلاص، وكان السلف يوصي بعضهم بعضاً بذلك امتثالاً لقول الله جلّ وعلا: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣] والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله جلّ وعلا، فإذا لم يكن خالصاً فهو غير صالح، وإذا كان مشوباً إما لمقصد الدنيا أو لمقاصد أخرى من وجوه الناس من مدح أو غير ذلك فهو فاسد، وهذا أمر يتعين على الإنسان في كل وقت أن يذكر نفسه ويلتزم به كثيراً ويعمل جهده؛ لأن العمل الواحد في فترة قليلة قد يعتريه أمور كثيرة إن لم يحميه الإنسان بجهده بعد توفيق الله جلّ وعلا.

سميت سورة الإخلاص لأنها خلصت في وصف الله جلّ وعلا فصارت كلها وصفاً لله جلّ وعلا، وكان الرسول ﷺ يقرؤها في ركعتي الفجر وفي الطواف مع سورة الإخلاص الأخرى التي يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] فهما سورتان للإخلاص.

فالأولى: في توحيد العلم والمعرفة، توحيد صفات الله جلّ وعلا.

والثانية: في توحيد العبادة، ولهذا الرسول ﷺ يجمع بين هاتين السورتين في ركعتي الفجر وفي سنة الطواف وفي غيرهما، ومعنى ذلك أنه يختم بقراءتهما ما ختم به عمله، يختم قيام الليل والطواف وغير ذلك؛ لأن الإخلاص هو الأصل في هذا.

الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ

إذا قيل: هذا عَدْلُ هذا بالفتح فمعنى ذلك أن هذا يساويه من جنسه، وإذا قيل: عِدْلُه بالكسر فإنه يساويه من غير جنسه، وهنا ذكرها بالفتح لأن سورة الإخلاص من جنسه وتكون عدل الثلث من القرآن، واختلف في معنى ذلك، والظاهر في هذا هو ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من السلف: من أن القرآن جاء لثلاثة مقاصد رئيسية:

المقصد الأول: الأحكام والأوامر والنواهي.

المقصد الثاني: الإخبار والقصص التي فيها أخبار الرسل وما وقع لهم وما وقع لأممهم، وكذلك الخبر عما يكون يوم القيامة وجزاء هؤلاء وجزاء هؤلاء.

المقصد الثالث: ما تعلق بوصف الله جلّ وعلا.

وسورة الإخلاص خالصة لهذا القسم الثالث، فصارت تعادل ثلث القرآن، ومعنى أنها تعدل ثلث القرآن يعني أن من قرأها كأنه قرأ ثلث القرآن، فيحصل له من الثواب كمن قرأ عشرة أجزاء من غيرها وهذا فضل عظيم وإن كان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] لا تكفي عن الثلث، ولكن الثواب يتفاوت في المعنى وإن تساوى في العدد، وهذا يدلنا على أن كلام الله جلّ وعلا يتفاوت وآياته كذلك تتفاوت في التفاضل، بعضها يكون أفضل من بعض، وإن كان كله كلامه وقوله جلّ وعلا، وقد صح في الأحاديث عن الرسول ﷺ أنه قال: **«أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»** قالوا: كيف؟ قال: **«قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»**[1] وفي صحيح البخاري أن رجلاً من الصحابة سمع

---

(١) البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فيه عَمْرَة عن عائشة عن النبي ﷺ؛ مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب

رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١] ويرددها في صلاته في الليل، فكأن الرجل تقالّها، فذهب للنبي ﷺ في الصباح وأخبره بذلك فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»**[1] يعني الأحاديث في هذا ـ كما يقول شيخ الإسلام وابن القيم ـ أنها قريبة من التواتر في كونها تعدل ثلث القرآن.

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

﴿قُلْ﴾ أمر للرسول ﷺ، وسبق أن هذا يدل على رسالته ﷺ وأنه بلغ البلاغ الكامل، ووجه ذلك أنه بلغ الشيء الذي أنذر به وقيل له حيث قيل له: ﴿قُلْ﴾، فقال لنا: ﴿قُلْ﴾ كما قيل له، فلم يترك شيئاً، وقد قال جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] فامتثل ﷺ لذلك، وكان يخاف ويستشهد إذا حضره جمع كبير قال: **«إنكم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون»**[2] يعني سيُقال لكم هل بلغكم؟.

لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥﴾ [الأعراف: ٦] وهذا لا بد منه، والسؤال هذا أيضاً للمرسلين عامة وسيأتي سؤال لكل فرد ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ⑨٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑨٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] فكل فرد سيُسأل عما كان يعمل، ففي

* ما جاء في سُورَة الإخلاص، من حديث أبي هريرة ﷺ، وموطأ مالك.

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح. وهو قطعة من حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ، رواه مسلم وأبو داود والدارمي وابن ماجه وغيرهم، وقد أفردته في جزء لطيف، وضممت إليه كل ما وقع لي من الروايات والزيادات الثابتة عن جابر ﷺ في سياق واحد، وعلقت عليه بتعليقات مفيدة. ألباني.

الصحيحين من حديث عدي عن النبي ﷺ أنه قال: **«واعلموا أن كل واحد منكم سوف يلقى ربه ليس بينه وبينه ترجمان فيسأله عن عمله، يقول: يا فلان ألم أنعم عليك ألم أفعل كذا وكذا فيتلفت يميناً وشمالاً فينظر أيمن منه وأشمل منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أمامه فلا يرى إلا النار»**[1]، المقصود أن السؤال سيأتي للرسل والمرسلين، فلهذا قال الرسول ﷺ: ﴿قُلْ﴾ كما قيل له، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ يدل على التأكيد و﴿أَحَدٌ﴾ بمعنى الواحد ولكنه أبلغ، ولهذا لا يجوز أن يخبر عن مخلوق بأنه أحد إلا في حالة النفي مثل أن يقول: ما في البيت أحد، أما إن قال: البيت فيه أحد فهذا لا يجوز لأن هذا خاص بالله جلّ وعلا، وهذا من جوامع الكلم التي تدل على تفرده بالكمال، فهو أحد في أوصافه الكاملة وأفعاله، وهو كذلك في نفسه لا نظير له ولا شبيه له تعالى وتقدس.

﴿الصَّمَدُ﴾ جاء تفسيره عن السلف بأنه السيد الذي كمل في سؤدده والعليم الذي كمل في عمله والحليم الذي كمل في حلمه والحكيم الذي كمل في حكمته، يعني أنه يدل على الكمال المطلق، وجاء أن معنى ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي يصمد إليه في الحوائج، أي: يصمد إليه الخلق في طلب ما لا يستغنون عنه، وجاء أيضاً تفسير ثالث: أن الصمد هو الذي لا جوف له، وبعضهم يقول: الذي لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء، وهذا معنى لا جوف له، وهذه الأقوال الثلاثة ليس فيها اختلاف ولا تخالف، بل الصمد يدل عليها كلها، فالله صمد بمعنى أنه جلّ وعلا كامل في أوصافه، وصمد بمعنى أن الخلق كلهم فقراء ومحتاجون إليه، تصمد إليه القلوب بطلب ما لا تستغني عنه، وهو كذلك

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٢)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم؛ ومسلم (١٠١٦)، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

صمد بأنه غني بذاته عن كل شيء، وهذه معاني الصمد الثلاثة كلها حق، وهاتان الكلمتان: ﴿أَحَدٌ﴾ و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ جمعتا جميع أوصاف الكمال لله جلّ وعلا، أحدها دلت على النفي وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١] يعني أنه لا مثيل ولا نظير له، فهو أحد في أوصافه، والأخرى دلت على إثبات صفات الكمال ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ②﴾ [الإخلاص: ٢]، وقد جاء تفسير رابع عن بعض السلف أنه قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] وهذا داخل في التفسير الثالث، يعني قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③﴾ [الإخلاص: ٣] ويكون تفسيراً لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ②﴾ [الإخلاص: ٢] وهو معنى قول الذين قالوا: إنه لا جوف له وأنه لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء تعالى الله وتقدس، وقد جاء في قراءة في الآية التي في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ وهذا ثابت في نصوص أخرى، فإن الله جلّ وعلا لما ذكر رد قول الكفار النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله أو أنه الله؛ أخبر أنه بشر ممن خلق وأنه يأكل الطعام، فإذا كان يأكل الطعام فلا يصلح أن يكون إلهاً ولا غنياً، فلا بد أن يأتي بلازم ذلك لأنه مفتقر للأكل، فالله غني عن كل شيء تعالى وتقدس وكل شيء فقير إليه، يعني أنه غني بذاته عن كل شيء، فهو غني عن خلقه من العرش إلى الذرة وعن حملة العرش، بل هو الذي يحمل العرش بقوته وقدرته، وهو الذي خلق القدرة في الملائكة وقواهم على ذلك لحكمة أرادها جلّ وعلا، وإلا كونه خلق العرش والملائكة الحملة له وكونه استوى عليه لحكمة أرادها جلّ وعلا، وإلا فهو مستغنٍ عن كل شيء، فهو صمد غني بذاته وكل مخلوق فقير إليه يصمد إليه في طلب حاجاته، ولا بد للمخلوق من ذلك إما اختياراً ورغبة ورهبة فيكون عبداً من عباد الله الصالحين، أو أنه اضطراراً، يعني أن الخلق كلهم عبيد لله جلّ وعلا، فإما أن تكون العبودية اختيار وطوع أو تكون عبودية قهر واضطرار، فالخلق عباد الله، ولكن منهم

من عبد الله جلّ وعلا بالاختيار والطاعة وهم عباد الله المؤمنين، ومنهم من عبد اضطراراً وقهراً وأحكامه وأقداره جارية عليه، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] يعني ذليلاً خاضعاً لا قدرة له ولا امتناع، فهذا معنى كونهم يصمدون إليه، وقد أخبر جلّ وعلا أن كل من في السماوات والأرض أنه يسجد له، وفي الآية الأخرى استثنى كثيراً من الناس فقط من الجن والإنس، أما بقيتهم فهم مطيعون.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ لأن الولد يشبه والده وهو جلّ وعلا أحد، ولأن الولد فرع عن الوالد والله جلّ وعلا صمد، وهو أحد ليس له شبيه ولا نظير لم يكن من أصل ولا يكون منه فرع تعالى وتقدس.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ والكفء: هو المكافئ ويعني المماثل والنظير والمشابه، فليس له مشابه، فكأن هذا تأكيد للسابق في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ وبهذا صارت هذه السورة تدل على جميع أوصاف الله جلّ وعلا إجمالاً، وبهذه المعاني العظيمة صارت تعدل ثلث القرآن، فينبغي لمن يقرأها أن يتأمل ويتفهم ذلك وأن يؤمن به لأن هذا هو الذي ينفع، وأن يستشعر في نفسه أن الله يخاطبه بهذا.

> وَمَا وَصَفَ بِهِ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ الإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً وإنابة، والمفروض أن العبد يخاف ربه لأن عذابه لا يشبه العذاب، كما أنه يرجوه ويأمل خيره وفضله لأن أسماءه وصفاته تقتضي

هذا، فهو الغفور الرحيم التواب المنعم الرؤوف، وقد قال الله جلّ وعلا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ في آيات عدة وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] فيجب على العاقل أن يخاف ربه ويخشى أنه يلقيه في النار ولا يبالي، فإذا ألقي في النار يقال له اصبر أو لا تصبر سواء عليك صبرت أو لم تصبر كله سواء، فلا حيلة ولا مخلص ويخلد فيها أبد الأبدين، والإنسان إذا لم يهتم بنفسه فمن يهتم؟ ومن سيهتم به؟.

فلا ينفعه لا والده ولا ولده، فلا بد أن يهتم لنفسه، وبهذا يجتهد في طلب الحق ومعرفته، ويعلم أن شيخه أو والده أو قبيلته أنهم لا ينفعونه بشيء أبداً، وقد أخبر الله جلّ وعلا عن قوم أنهم يوم القيامة يقولون: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] ولكن ماذا يجدي؟.

فيقول: (لكل ضعف) أنتم ومن قادكم إلى هذا الفساد؛ لأن الله قد أعطاكم عقولاً وأفكاراً وأرسل إليكم رسولاً وأنزل عليكم كتاباً فلا عذر لمن اتبع فلاناً وفلاناً.

﴿إِلَّا هُوَ﴾ يعني أنه هو المألوه الذي يجب أن يألهه الخلق كلهم وأن يعبدوه ولا تلتفت قلوبهم إلى غيره، فكل من في الأرض يسمى آلهة غير الله فهو باطل ولا حقيقة له ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] يعني ليس لكم فيها حجة ولا دليل ولا أثارة من علم، وإنما هو التقليد الأعمى للآباء وأهل البلد، وهذه الكلمة التي جاء بها رسولنا ﷺ وقال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**[1] وحقها فعل

(١) سبق تخريجه.

الواجبات واجتناب المحرمات، فإن كانت خيراً فعمناها الأمر، وسبق أن ركنها النفي والإثبات، وأنها بهذا النفي والإثبات دلت على إبطال جميع الآلهة التي تأله، سواء كانت آلهة مجسدة مثل الأصنام والأولياء وغيرهم، أو آلهة معنوية مثل الرئاسات وغيرها، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ أخبر أن الدينار والدرهم والكساء والفراش قد يكون معبوداً فقال: **«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميلة تعس عبد الخميصة»**[1] يعني إذا كان الإنسان يعمل لشيء معين من أمور الدنيا فهو يعبده ولا يلزم أن يكون يصلي له أو يتوجه إليه بالدعاء، يكفي أن يترك الواجبات أو يفعل المحرمات من أجل ذلك، ولهذا قال ﷺ ـ فيما يروى ـ لعدي بن حاتم لما تلى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: إنا لم نعبدهم، وكان نصرانياً من نصارى العرب من أهل حائل فقال ﷺ: **«بلى، ألم يحرموا عليكم الحلال فتتبعوهم ويحلوا لكم الحرام فتتبعوهم»** قال: بلى فقال ﷺ: **«تلك عبادتهم»**[2] يعني أن طاعة المخلوق في المعصية هي عبادته.

﴿ٱلْحَىُّ﴾ دخلها «ال» لتدل على الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم أو موت ولا يلحقها عدم أو موت، فإذا كانت له الحياة الكاملة لزم أن يكون له السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والمشيئة وغيرها من جميع الصفات؛ لأن له الحياة الكاملة فيلزم أن تكون له الصفات كلها بالكمال.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ صيغة مبالغة من القائم، ومعنى القيوم: القائم بنفسه المستغني بها عن كل شيء وأنه قائم على كل شيء وأنه لا قيام لشيء إلا به، فالذي لم يقمه معدوم والذي لا يقوم عليه يعدم، فكل شيء فقير إليه، وقد جاء أن هذين الاسمين ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هما اسما الله الأعظم

(١) البخاري (٢٨٨٦)، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله؛ وابن ماجه (٤١٣٥)، كتاب الزهد، باب في المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، وذكره البيهقي في «الكبرى».

الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب، وقد جاء هذا بنص حديث عن النبي ﷺ[(١)] ولكن بعض العلماء يقول: أسماء الله كلها عظيمة غير أن بعضها أعظم من بعض، لهذا اختلفت الروايات في هذا، فقد جاء الاسم الأعظم في ثلاث سور من القرآن، يقول أحد التابعين: تتبعتها فوجدتها في البقرة وآل عمران وفي طه يعني الحي القيوم[(٢)]، وجاء أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام فقال: **«لقد سأل الله باسمه الأعظم»**[(٣)] وجاء غير ذلك أيضاً، فمعنى ذلك أن اسم الله الأعظم قد يكون متعدداً، يكون الحي القيوم ويكون غير ذلك، وإن كانت أسماء الله كلها عظيمة، ولكن هذا يدلنا على أن أسماءه تتفاضل، كما أن هذا الحديث الذي فيه أن الرسول ﷺ قال لأبي بن كعب: **«أي آية في كتاب الله أعظم؟»** فقال: الله ورسوله أعلم، فردد ذلك عليه ثم قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فضرب بين كتفيه أو في صدره وقال: **«ليهنك العلم أبا المنذر»**[(٤)] هذا يدل على تفاضل

---

(١) لما روي عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْحَلَبِيِّ، حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ عَنْ حَفْصٍ - ابْنِ أَخِي أَنَسٍ - عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِساً وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»**، وكذلك رواه أحمد.

(٢) روى الحاكم في «المستدرك» من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ، قال: **«إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: في سورة البقرة، وآل عمران، وطه»**. قال القاسم: «فالتمستها إنه الحي القيوم».

(٣) ابن ماجه (٣٨٤٨)، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم؛ وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٥٧)، من حديث أنس ﷺ.

(٤) مسلم (٨١٠)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي؛ أبو داود (١٤٦٠)، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي، من حديث أبي بن كعب ﷺ.

كلام الله كما أن ما سبق في سورة الإخلاص يدل كذلك، ويدل على أن أشرف العلوم علم التوحيد لأن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عدلت ثلث القرآن للمعنى الذي اشتملت ودلت ونصت عليه وكذلك هذه الآية، وعرفنا أن هذين الاسمين ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ دخل فيهما جميع الأسماء والصفات الكاملة لله جلّ وعلا وكلها كاملة سالمة من النقص والعيب، فالحي دخلت فيه صفات الذات كلها، والقيوم دخلت فيه صفات الفعل كلها، فلهذا صارت هذه الآية أعظم آية مع ما سيأتي؛ لأنه لو كان هذا فقط لكان أيضاً قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مثلها، وكذلك الآية التي في سورة طه.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ معنى (لا تأخذه) أي: لا تتطرق إليه، والسنة أي: النوم الخفيف، يعني مبادئ النوم والنعاس، يعني أنه لكمال حياته لا يمكن أن يتطرق إليه ذهول أو نسيان أو غفلة أو شيء مما يمكن أن يطرأ على العلم والفكر والنظر والسمع والبصر تعالى الله وتقدس؛ لأن هذا المخلوق، والمخلوق إذا لم ينم يموت، فالنوم يكون كمالاً له لأنه ناقص، ولكنه إذا خلق الخلقة التامة لا ينام، ولهذا سئل الرسول ﷺ عن أهل الجنة هل ينامون؟ فقال: **«النوم أخو الموت»**[1] فهم لا ينامون لأن النوم يكون نقصاً.

﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ والنوم أمر يغشى القلب فيصبح لا يشعر بشيء مما حوله، وهذا نقص والله منزه عن النقص تعالى وتقدس، فهو الحي الحياة الكاملة الذي لا يتطرق إلى حياته نقص بوجه من الوجوه.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هنا ذكر ملكه وأن كل شيء له يتصرف فيه كيف يشاء أوجده من العدم وهو تحت تصرفه، فالخلق كلهم

(١) رواه الطبراني في «المعجم» (٩١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٥٩)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

عبيده إذا شاء هداهم وإذا شاء أضلهم، وإذا شاء أنعم عليهم، ولكن نعمه كلها فضل وطاعتهم كلها فضل، أما معصيتهم فمعنى ذلك أنه منعهم فضله فقط ووكلهم إلى أنفسهم فأصبحوا عصاة فاستحقوا العذاب بذلك، والله لا يظلمهم شيئاً، فهو عدل لا يظلم، فهو الذي أوجد المخلوقات من العدم وهو الذي يملكها وهو الذي يتصرف فيها كيف يشاء، فيكون ملك بني آدم والجن إذا ملكوا شيئاً ملك إعارة وليس ملكاً حقيقياً، بل ملك مؤقت وملك تصرف فقط وفي وقت معين، ثم ينتقل منهم إلى غيرهم أو يعدم أو هم يعدمون معه، والمقصود أن كل شيء لله جلّ وعلا له ما في السماوات وما في الأرض.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهذا من تمام ملكه أنه لا أحد يجرأ لطلب الشفاعة منه رأساً، يعني لا أحد يقول يا رب أنا أشفع عندك، وإنما يشفع الشافع إذا قال له اشفع وأمره بالشفاعة ويعين له الشيء الذي يشفع فيه، والاستفهام هنا معناه الإنكار؛ لأن الكفار ومن شابههم يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم وهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي: يعلمون أنهم عبيد من عباد الله وأنهم لا ملك لهم من الله ولكن لا ذنوب لهم فنطلب منهم يشفعون لنا عند الله، فنفى الله جلّ وعلا هذا لأن له الملك التام، والشفاعة كما هو معروف عند المخلوقين قد يضطر المشفوع عنده إلى قبول الشفاعة وهو كاره لأنه ضعيف ولأنه محتاج، يأتيه مثلاً صديقه أو ولده أو قريبه أو وزيره فيشفع فيضطر إلى قبول شفاعته خوفاً أن يُنَقِّضَ عليه وأن لا يصبح له مخلصاً وإن كان كارهاً، أما رب العالمين جلّ وعلا فهو الغني الغنى التام والملك التام، فمن تمام ملكه أنه لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وسيد الخلق نبينا ﷺ الذي أعطاه الله المقام المحمود أخبر أنه إذا وقف الناس في المحشر وطال وقوفهم واشتد بهم الكرب، أن الله يلهم بعضهم فيمشي بعضهم إلى بعض وفيهم الأنبياء والرسل

يطلبون أن يشفعوا إلى الله حتى يفصل بينهم ويريحهم من عناء الموقف، فيقول بعضهم لبعض: من أولى بذلك من أبيكم آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وينتهي الأمر إلى آخر الرسل محمد ﷺ يقول: **«فأذهب أستأذن على ربي فإذا رأيته خررت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ويفتح عليّ من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن فيقول: ارفع رأسك واسأل تعط واشفع تشفع»**[1] فقبل أن يقول اشفع لا يشفع، وهذه الشفاعة الكبرى، والشفاعات الأخرى جاء أنه يقول ﷺ إذا سجد وأذن الله له بالشفاعة أن الله يحد له حداً، أي: هؤلاء الناس اشفع فيهم، فكيف بمن يذهب إلى قبر الرسول ويقول: يا رسول الله اشفع لي، فهل هذا يتفق مع هذه الأمور أو أن هذا من أسباب منع الشفاعة؟.

ويدلنا هذا المقطع من الآية على أمرين:

الأولى: وقوع الشفاعة بإذن الله جلّ وعلا ولمن يرضى.

الثاني: أن الشفاعة التي يزعمها الكفار ومن شابههم من عبّاد القبور والأولياء أنهم يشفعون لهم ولو لم يأذن الله أنها منفية وأنها لا وجود لها.

الشفاعة في اللغة: ضم شيء إلى آخر، فيكون شفعاً، كالإنسان إذا كان لوحده يكون فرداً، فإذا كان معه آخر صار شفعاً، والسائل سؤاله فرد فإذا انضم معه آخر يسأل صار شفعاً، ومعناها في الشرع: ضم طلب الشافع إلى طلب المشفوع في أمر من الأمور.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فمعنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: الأمور الحاضرة والمستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما علموه ونسوه أو ما كان سابقاً وجودهم وما يكون لاحقاً في الحال، والمعنى أنه يعلم كل

(١) صحيح. وهو في «المسند» (٢/٤٣٥) بسند الصحيحين، وهو مخرج في «ظلال الجنة» في التخريج السنة» (٨١١).

شيء». فهذا إخبار عن علمه جلّ وعلا أنه محيط بكل شيء.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ الإحاطة: هي الاستيلاء على الشيء، أن تستولي عليه من جميع جوانبه، والله جلّ وعلا يخبر أنه لا أحد يمكن أن يتحصل من علم الله شيئاً من جميع الجوانب وإن قل ﴿بِشَيْءٍ﴾ نكرة يدخل فيها القليل والكثير وإن كان قليلاً جداً، ما يمكن أن المخلوق يتحصل عليه إلا بإذن الله جلّ وعلا، وهذا من تقرير أنه جلّ وعلا كل شيء له ملك واستحقاق حتى المعلومات، وعلمه جلّ وعلا وسع كل شيء كما أن رحمته وسعت كل شيء.

﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ فإذا علم مخلوق شيئاً فهو من علم الله الذي علمه فليشكر ربه وليحمده وليسأله المزيد.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أن الكرسي صار أكبر من السماوات والأرض، ومعنى ذلك أنه أكبر من المخلوقات، وهذا مخلوق من مخلوقاته، والصواب أن الكرسي غير العرش، العرش هو أعظم المخلوقات، وجاء في الحديث أن السماوات السبع على كبرها وسعتها بالنسبة إلى الكرسي كسبعة دراهم ألقيت في أرض من فلاة[1] وأن العرش لا يعلم قدره إلا الله[2] فهو أعظم المخلوقات وأوسعها وأعلاها وليس فوقه مخلوق، وقد أخبر جلّ وعلا أنه خلق السماوات وأنه أوسعها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] يعني أنها واسعة جداً، ولهذا ذكر أن للجنة سعة هائلة جداً وهي فوق السماء السابعة، وفي الحديث الذي في صحيح البخاري في وصية النبي ﷺ يقول: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه**

---

(١) صحيح. وهو مخرج في «الصحيحة» (١٠٩).

(٢) صحيح موقوفاً. وأما المرفوع فضعيف، كما بينته في تخريج كتاب «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» للألوسي، وقد طبعه المكتب الإسلامي، وراجع له «الظلال» (١٠٢/٣٦). ألباني.

الفردوس فإنه أعلى الجنة ووسطها ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفه عرش الرحمن»[(١)] الجنان كثيرة، المقصود أن الكرسي جاء عن ابن عباس أنه قال موضع القدمين وجاء عن غيره من السلف أنه كالمرقاة تحت العرش، فإذا كان هذا عظمته فكيف بالعرش؟.

وهذا كله ليدلنا على عظمة الله وكبره، فالله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وقد قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] السماوات والأرض بكل من فيها يقبضها جلّ وعلا بيده فتكون كالخردلة في يد أحدنا[(٢)] ولله المثل الأعلى تعالى وتقدس، فكيف مثل هذا إذا كان كذلك يكون في كل مكان؟.

تعالى الله وتقدس أو أنه في الأرض أو أنه في كذا وكذا، ولهذا قال العلماء: إن الله تعالى إذا نزل إلى السماء الدنيا كما أخبر الرسول ﷺ في آخر الليل من كل ليلة ينزل إلى السماء الدنيا وهو على عرشه ولا يكون شيء فوقه لا سماء ولا غيرها، فلا سماء تقله ولا تظله تعالى الله وتقدس، فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فالمقصود أن الله جلّ وعلا ـ لنعرف قدره ونعظمه ـ قد شرع لنا التكبير عند الخفض والرفع في الصلاة وفي غيرها، إذا كان الإنسان سائراً في سفر ثم هبط في منخفض يسن له أن يكبر، وكذلك إذا رأى شيئاً يطلب العلو مثل النار فطبيعتها أنها تطلب العلو، وقد جاء أن التكبير يطفئها بإذن الله جلّ وعلا.

(١) البخاري (٢٧٩٠)، كتاب الجهاد والسِّير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٧٤٢٣)، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) لما روي عن ابن عباس أنه قال: السماوات السبع، والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم. أخرجه أحمد (٢/٣٤٧)؛ وابن بطة في «الإبانة»، وأبو الشيخ في «العظمة».

المقصود أن قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أنه أخبر بأن الكرسي أوسع وأكبر من السماوات والأرض مجتمعة، والكرسي بالنسبة للعرش صغير جداً.

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ لا يكرثه ولا يثقله حفظ السماوات والأرض، يعني لا يكترث به وليس عليه ثقيلاً بل سهلاً ميسوراً، وهو الذي يمسكها جلّ وعلا أن تزول وهو الذي يحفظها على ما يريد، والتثنية في قوله: ﴿حِفْظُهُمَا﴾ للسماوات والأرض، فهو الحافظ لها ولمن فيها تعالى وتقدس، ولا يخفى عليه ذرة في البحار ولا أصغر من ذلك، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وهو العليم بكل شيء وهو العظيم الذي ليس شيء أعظم منه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ختم هذه الآية بهذين الاسمين العظيمين وجاء بـ«ال» فيهما فقوله: ﴿الْعَلِيُّ﴾ يدل على أمور ثلاثة:

الأول: علوه بنفسه تعالى وتقدس، فهو أعلى وعلوه من لوازم ذاته، أي: أنه لا يمكن أن يكون شيء فوقه أبداً، فهو العالي دائماً.

الثاني: علو القدر، فله القدر العالي في أسمائه وأوصافه، وكذلك له علو القدر في قلوب عباده المؤمنين الذين قدروه حق قدره من الملائكة والرسل والمؤمنين.

الثالث: علو القهر. فهو العالي على كل شيء قهراً، فهذه المعاني الثلاث ثابتة الله.

﴿الْعَظِيمُ﴾ اسمه ووصفه جلّ وعلا، ومعلوم أن كل اسم يدل على وصف لأنه مأخوذ منه، فهو العظيم وأعظم من كل شيء، وفي الحديث: **«من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»** وثبت في صحيح البخاري وغيره في ثلاثة أماكن مسنداً وليس معلقاً كما قال بعضهم، عن أبي هريرة أنه ﷺ وكله في حفظ الصدقة ـ زكاة الفطر ـ جمعت في المسجد فأمر أبا هريرة أن يحفظها،

يقول: بينما أنا في الليل إذ شيء يحثو من التمر ـ أي: يأخذ بيديه ـ فأمسكته وقلت له: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال: دعني إني فقير وعلي عيال، فتركه لأجل ذلك، فلما غدوت على رسول الله ﷺ قال: **«ما فعل أسيرك يا أبا هريرة»**؟ قال: زعم أنه ذو حاجة وعليه عيال فرحمته وتركته فقال: **«أما إنه سيعود»** يقول: فعرفت أنه سيعود، فلما كانت الليلة الثانية عاد فأمسكته فقال مثل مقالته الأولى فرحمه وتركه، ثم تكررت المسألة، فأتى إلى النبي ﷺ فقال له مثل ما قال سابقاً فقال: **«أما إنه سيعود»**، يقول: فلما كانت الثالثة أمسكته وقلت له: لن أتركك، فقال لي: دعني أخبر بشيء ينفعك الله به فقال: نعم، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، يقول: فلما غدوت على رسول الله ﷺ قال: **«ما فعل أسيرك»**؟ فأخبره قال: **«صدقك وهو كذوب، أتدري من هو؟»** قلت: لا، قال: **«ذاك شيطان»**[1] وجاءت قصص تشابه هذه أيضاً، المقصود أن هذا يدل على أن من قرأ هذه الآية إذا أوى إلى فراشه أن الله يحفظه من الشيطان لا يقربه وأنه لا يزال عليه من الله حافظ من الشيطان ومن غيره، وجاء في رواية إذا دخل الإنسان بيته فقرأها أنه يُحفظ، وفي حديث آخر صحيح أن الآيتين من آخر سورة البقرة من قرأهما كفتاه[2] يعني في الحفظ أيضاً، فينبغي للإنسان أن يقرأ آية الكرسي والآيتين من آخر سورة البقرة عندما يأوي إلى فراشه، وهذا أمر سهل ميسور ولا ينبغي أن يفرط

---

(١) البخاري (٢٣١١)، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز؛ الترمذي (٢٨٠٥)، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح لإخراج الصحيحين له. وعزاه في «الجامع الصغير» لأصحاب السنن الأربعة فقصر. انظر: «صحيح الجامع» (١٣٤١). ألباني.

فيه ويتركه لأنه أمر عظيم، والحفظ لما اشتملت عليه من هذه المعاني العظيمة، يعني أن قارئها ينبغي أن يتفطن لهذه المعاني ويتعرف عليها حتى ينفعه ذلك.

الْجَمْعُ بَيْنَ عُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ وَأَزَلِيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

هذه الآية فيها أوصاف الله جلّ وعلا بالأولية والآخرية والظهور والبطون بهذه الأسماء الأربعة المتقابلة، وهذا لا يكون إلا لله جلّ وعلا؛ لأن المخلوق من كان أولاً لا يكون آخراً ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً، وإنما هذه تدل على الإحاطة وتدل على عظمه وكبره جلّ وعلا، فهو الأول بلا بداية فليس لأوليته مبدأ تعالى وتقدس، وهو الآخر بلا نهاية فليس لآخريته نهاية، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو القاهر لكل شيء، وهو الباطن دون كل شيء، وقد جاء تفسير ذلك عن رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم فلا يجوز أن تعدل عن ذلك، فقال في الحديث الذي فيه التوسل والدعاء ـ وينبغي أيضاً أن يحفظ ـ **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقضِ عني الدين وأغنني من الفقر»**[(١)] فهذا تفسير واضح ويكفي في هذا، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء وهو

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨٨)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، من حديث أبي هريرة ﷺ في حديث أوله: «وكان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول...».

الباطن الذي ليس دونه شيء»، فبطونه معناه أنه مع خلقه ولا يخفى عليه شيء، بل هو أقرب إلى أحدهم من حبل الوريد، وقربه ومعيته لا تخالف ظهوره، فهو الظاهر مع أنه الباطن، وهذا ذكر في بعض هذه الآية أيضاً كما سيأتي في الآية التي تليها نصاً فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٤] فذكر أنه مستوٍ على العرش وذكر أنه معنا أينما كنا، فمعيته لنا لا تنافي استواءه وعلوه وفوقيته تعالى وتقدس، كما أن ظهوره لا ينافيه بطونه كونه الباطن؛ لأن الخلق كلهم بسماواته وأراضيه إذا شاء قبضها في يده فصارت أصغر من الخردلة في يده تعالى وتقدس، فهو المحيط بكل شيء، والمقصود أن هذه الأسماء فيها إحاطة زمنية ومكانية، ولكن لا ينبغي أن تقول: إن لله مكاناً لأنه لم يأت، ولا يجوز أن يوصف الله جلّ وعلا إلا بما وصف به نفسه، فالزمنية هو قوله: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ وقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ المكانية، والمقصود أن هذه الأسماء من خصائصه جلّ وعلا ولا يتصف بذلك غيره جلّ وعلا، وهي تدل على غناه الكامل بذاته جلّ وعلا، وهذا هو المعنى الذي يقوله المتكلمون إنه واجب الوجود وأنه لا مبدأ له ولا نهاية له وأنه غير محتاج لشيء بل هو الغني بذاته عن كل شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ختم بهذه ليدلنا جلّ وعلا على أن قوله ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أن المقصود الإحاطة العلمية وأنه محيط بخلقه ولا يخفى عليه شيء، وليس مداخلاً للخلق وحالاً فيهم تعالى الله وتقدس. وسيأتي البحث في القرب والمعية كما سيذكره المؤلف.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

هذا أمر من الله جلّ وعلا لعباده بالتوكل، ومعنى التوكل: الاعتماد

على الله وتفويض القلب إليه بعد فعل السبب، يعني أن التوكل لا بد فيه من فعل السبب الذي أمر به، فيفعل السبب ويعتمد على الله جلّ وعلا في حصول المراد، وقد قسم العلماء التوكل إلى قسمين:

القسم الأول: التوكل على الله.

القسم الثاني: التوكل على المخلوق، وهذا جعلوه ثلاثة أقسام:

أولاً: التوكل على المخلوق في حصول ما لا يقدر عليه إلا الله مثل هداية القلوب ومغفرة الذنوب وإنالة المطلوب وتفريج الكروب وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر وصاحبه يكون خالداً في النار إذا مات عليه.

ثانياً: التوكل على القوة من صناعة أو تجارة أو وظيفة أو كبير أو أمير أو سلطان أو غير ذلك في أنه ينيله مراده ومقصوده في الأمور الظاهرة التي يستطيعها، فهذا من الشرك الأصغر، لا يخرج من الإسلام ولكنه أكبر من الكبائر.

ثالثاً: التوكيل في الأمور العادية التي يكلها الإنسان إلى غيره بأن يفعلها، وهذا جائز غير أنه لا يجوز أن يعتمد على مخلوق في حصول المراد، وإنما يوكله في التصرف كالبيع والشراء، كأن يأتي إليه بما يكله إليه من الأمور العادية.

وفي هذه الآية دليل على أن التوكل فريضة وواجب على العبد أن يتوكل على الله، وقد جاء قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] مما يدل على أنه لا يجوز أن يخل بالتوكل، وليس التوكل معناه تعطيل العمل أو السبب، فإن هذا لا يسمى توكلاً شرعياً، بل يسمى عجزاً، ولهذا أفضل المتوكلين رسول الله ﷺ كان يحتاط في الأمور، وفي يوم أحد ظاهر بين درعين، أي: لبس السلاح واللأمة والدرع الذي يقيه، واستعد وهيأ أصحابه ورتبهم وحذرهم من المخالفة في أمور معروفة أن هذه سنته ﷺ.

وفي حديث عمر الذي رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما كالإمام أحمد أن الرسول ﷺ قال: **«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**[١] يعني تذهب من أوكارها جائعة ثم تروح في آخر النهار إلى أوكارها ومأواها ممتلئة البطون، فأثبت لها الرواح والغدو، طلباً للرزق والعمل، فدل على أن العمل لا يكون منافياً للتوكل بل لا بد منه، وأما الحديث الذي في الترمذي عندما سأل النبي ﷺ الرجل: أأعقلها أو أتوكل؟ ـ يعني ناقته ـ قال: **«اعقلها وتوكل»**[٢]. وقد قال يحيى القطان: إنه حديث منكر، وعلى كل حال هو موافق لغيره من النصوص في المعنى.

﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ هذا المقصود من الآية، وصف الله جلّ وعلا بالحياة وأن الحياة كاملة لا يلحقها نقص ولهذا قال: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ وغيره من الخلق يموتون، فلا أحد من الخلق إلا وقد سبق بالموت أو سيلحقه، حتى من في الجنة من الحور العين وغيرها، فالله جلّ وعلا هو الحي الذي له الحياة الكاملة التي لا يلحقها فناء ولا موت ولا نقص ولا يعتريها نسيان ولا ذهول يعني نقص، فهو ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ الفعل المضارع هنا يدل على الاستقبال، فإن هذا ثابت لله جلّ وعلا في الماضي والاستقبال فهو الدائم أبداً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

﴿الْحَكِيمُ﴾ الله جلّ وعلا موصوف بالحكمة فهو حكيم، واسمه الحكيم يدل على شيئين:

---

(١) الترمذي (٢٣٤٤)، كتاب الزهد، باب التوكل على الله، ابن ماجه (٤١٦٤)، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين؛ أحمد (٢٠٠)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) الترمذي (٢٤٤١)، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ؛ والبيهقي في «شعب الإيمان»، وهي من حديث أنس ﷺ. ورواه ابن حبان (٧٣٢)، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل، من حديث أمية الضمري.

الأول: أنه جلّ وعلا يفعل لحكمة ويضع الأمور في مواضعها، وهذه الحكمة تكون في خلقه وفي أمره وفي تقديره تعالى وتقدس، وهو وصفه وصفته التي يكون متصفاً بها، من آثارها ما يصنعه في خلقه.

الثاني: أنه يدل على أنه الحاكم وهو الذي يحكم بين خلقه وأن له الحكم، يعني له التصرف الكامل في كل شيء، وأنه لا يجوز للعبد أن يتعدى حكمه الذي يحكمه، وهذا يكون في أمره الذي يكون كلف به العبد، وكذلك حكمه النهائي بين خلقه، فهو الحكم الذي يحكم بينهم فلا يتولى الحكم فيهم غيره لا ملائكة ولا غيرهم، فهو الذي يفصل بين خلقه ويحكم بينهم جلّ وعلا بنفسه فهو الحكيم، ويدل كذلك بالمفهوم على العلم.

﴿الْخَبِيرُ﴾ والخبير: هو الذي يبلغ علمه دقائق الأشياء فصار علمه في بواطن الأشياء ودقائقها كعلمه في ظواهرها، وهذا أيضاً من خصائصه تعالى وتقدس.

وذكر صفة العلم بنصوص واضحة، وكان فيما مضى بعض أهل البدع ينكرون علم الله جلّ وعلا بالمستقبلات، والحقيقة أن علمه الأزلي أحاط بكل شيء في الاستقبال، ولكن هؤلاء انقرضوا؛ لأن هذا كفر ظاهر، ولهذا قال الشافعي فيمن أنكر القدر: ناظروهم في العلم فإن أقروا به خُصموا وإن أنكروه كفروا؛ لأن منكر علم الله جلّ وعلا يكون كافراً، وكذلك غير هذا من الصفات كما قال جلّ وعلا: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ وكفرهم بالرحمن إنكارهم هذا الاسم لأنهم قالوا: ما نعرفه، وهذا قد يكون عناداً وقد يكون جهلاً.

إحاطةُ علمِهِ بجميعِ مُخلُوقاتِهِ

قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝﴾ [سبأ: ٢]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] الولوج: هو الدخول، يعني يعلم الشيء الذي يدخل فيها دقيقاً أو جلياً سواء علمه العباد أو لم يعلموه، فالذي يعلمه العباد مثل الماء الذي ينزل في الأرض فيدخل فيها، ومثل الأموات الذين يدفنوا في التراب، وغير ذلك كثير جداً، المقصود أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض الذي يدخل فيها يعرفه من حيوان وغيره، وكذلك الذي يخرج منها يعرفه بجميع ما دب ذرة وما فوقها.

والأمور التي تدخل في الأرض وتخرج منها وتنزل من السماء وتعرج فيها خفية على الخلق لا يعلمون إلا نزراً يسيراً منها جداً، والله جلّ وعلا يعلمها ولا يخفى عليه شيء، ولكن مثل الذي ينزل من السماء من أوامره ورحمته وعقابه وعذابه وهدايته، وكذلك من الرزق الذي يكون فيه حياة الأرض، والملائكة والذي يعرج فيها الشيء الذي نعرف مثله الأعمال المقبولة التي تصعد ومثل الملائكة والرياح وغيرها، والله جلّ وعلا لا يخفى عليه شيء في الكون كله لأنه هو العليم بكل شيء.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]

﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ إما أن تكون طرقه التي يمكن أن يعرف بها أو أصوله، وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت»**[1] فجعل

---

(١) البخاري (٤٦٢٧)، كتاب التفسير، باب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ مسلم (٩)، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الأمور الخمسة هي مفاتح الغيب وهذا نوع منها، وذلك أن كل واحد منها يشير إلى جنس من أجناس الغيوب، والغيب يكون مطلقاً بمعنى أنه لا يعلمه إلا الله، فلا يعلمه لا نبي مرسل ولا ملك من الملائكة، وغيب يكون نسبياً يعني قد يطلع الله جلّ وعلا عليه من يشاء من خلقه، فيكون لمن اطلع عليه ليس غيباً ولكنه لمن لم يطلع عليه غيب، يعني بالنسبة لمن أعلمه الله إياه يكون ليس غيباً، وبالنسبة لغيره من الخلق يكون غيباً، وهذا معنى كونه غيباً نسبياً، فهو غيب بالنسبة لمن لم يعلمه.

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ المجيء بضمير الفصل يدل على أن هذا خاص به جلّ وعلا، وأنه ليس من الغيب النسبي بل من الغيب المطلق، وذكر الرسول ﷺ للأمور الخمسة ليس فيه إشكال، لأنه قد يستشكله بعض الناس فيقول: إن مجيء المطر مثلاً قد يعرف وقته، وهذا في الواقع غير صحيح، فلا أحد يعرف مجيئه وإنما يتوقعون توقعات لأمور ظاهرة كرطوبة الجو وغيره، ولهذا كثيراً ما يتخلف عن قولهم، فهي إذاً توقعات قد تقع وقد لا تقع، فالواقع أن هذا لا يقدح فيه، والأرصاد والتوقعات التي تذكر ليست في علم الغيب من شيء.

أما ما في الأرحام فقد يقول قائل: الآن يعرف ما في الرحم أنه ذكر أو أنثى، فنقول: إن هذا يعرف في وقت محدد وبأجهزة معينة، ومع ذلك فهي معرفة محدودة جداً وقد لا تكون صحيحة، ولهذا يحصل حوادث غريبة من هذا النوع وقد يفتن الناس في هذا ـ نسأل الله العافية ـ ذهب رجل مرة بزوجته إلى المستشفى فقال له الطبيب بعدما كشف عليها: إن الجنين مشوه وينبغي أن تتخلصوا منه، ولكن الزوجة كانت عاقلة، أما الزوج فقد ألح إلحاحاً مؤكداً فأبت الزوجة وفي النهاية طلقها من أجل ذلك، ثم وضعت جارية معتدلة من أجمل الجواري وأحسنها، غير أنه كان على رأسها شعر وقد غطى بعض وجهها، عند ذلك ندم

الزوج وأراد الرجوع إلى زوجته فأبت، وهناك حوادث من هذا القبيل كثيرة، وقد يعرفون بعض الشيء، فليس المقصود بالآية هو معرفة ما في الرحم من أنه ذكر أو أنثى أو أنه معتدل أو غير معتدل، بل المقصود أن الله جلّ وعلا يعلم هذا المخلوق هل هو مؤمن أم كافر وهل هو تقي أم شقي وهل هو سليم أم معيب وهل هو كامل الخلقة في أعضائه كلها أو غير ذلك؟.

فهناك تفاصيل كثيرة جداً، وهذه كلها لا يطلع عليها أحد من الخلق ولا يعرفونها، وكذلك وقت ولادته ووقت حمله قد يصلون فيه إلى أمر تقريبي فقط، فالمقصود أن هذه الأمور لا تقدح في أن هذا من الغيب، أما كون الإنسان ما يدري ماذا يعمل في الغد فهذا شيء لا أحد يفكر أنه يعرفه، وكذلك كونه لا يدري أين يموت فهذا من خصائص الله، أما علم الساعة فهو ظاهر جداً، فإنها قد أخفاها الله جلّ وعلا، حتى قال في خطابه لموسى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] فالله قد أخفاها عن الخلق، لهذا قال المفسرون في قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يعني عن نفسي لو أمكن ذلك، وهذا مبالغة في إخفائها، فهي خافية على الخلق، ولكن علامات ودلائل قربها قد أخبر الله جلّ وعلا بها كما قال جلّ وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] ومن علامات قربها بعثة النبي ﷺ، فإنه نبي الساعة وقد قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(١)] وليس المقصود النسبة بين الأصبعين في الطول والقصر، ولو كان هذا هو المقصود لأمكن أن تعرف الساعة ولو بالتقريب، ولكن المقصود أن هذا ملاصقة لهذه، فهي تأتي على أثره ملاصقة، وهذا نص ظاهر في أن الخلق لا يعلمون الغيب، وبهذا يصبح الذي يدعي أن النبي ﷺ يعلم

---

(١) البخاري (٤٩٣٦)، كتاب التفسير، سورة النازعات، من حديث سهل بن سعد؛ مسلم (٥٢٤٥)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث أنس ﷺ.

الغيب يكون مكذباً للقرآن، ومعروف حكم من كذب القرآن، وإنما الرسول ﷺ كسائر الرسل يطلعه الله جلّ وعلا على ما يشاء من الغيب ليكون هذا دليلاً على نبوته، كما علل ربنا جلّ وعلا ذلك باطلاعه على من يشاء من رسله على الغيب ويكون دليلاً على نبوتهم وصدقهم، أما أن يدعي ويقول: أطلعه الله على الغيب؛ فهذا يحتاج إلى دليل والدليل على خلافه، وإنما أطلع على أشياء ذكرها، فالأمور التي لم تذكر لم يطلع عليها، وقد علم أنه ﷺ يخفى عليه أشياء كثيرة في يومه وفي حياته، فقد رميت زوجته بالفجور وبقي وقتاً لا يعلم حتى جاءه الوحي، وكانت تضل ناقته وغيرها ويرسل من يطلبها ويبحث عنها، وكان يسأل عن الطريق والأماكن وعن الكفار وعددهم وعن ما معهم وأين هم كما وقع له في غزوة بدر وغيرها، فهذا أمر واضح جداً، ولكن من أراد الله جلّ وعلا غوايته وضلاله فلا ينظر إلى الأدلة الواضحة، بل يسلك طريقاً معيناً ويعمى عن الأدلة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه عامة مطلقة سواء كانت مصدرية أو موصولة، فهو يعلم ما في البر والبحر من كل شيء، لا يخفى عليه شيء من حي وميت ودقيق وجلي.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هذا يدلنا على شيئين:

الأول: علم الله الشامل لكل شيء، فإنه لا يخفى عليه دقيق ولا جلي.

الثاني: كتابته لكل شيء قبل وجوده، وأن الكتابة شاملة وعامة وأنه لا يخرج منها شيء، حتى خلجات عروق الإنسان وإرماشه بعينه، يعني كل دقيق وجلي وكل حركة وسكون مكتوب كتبه الله جلّ وعلا، وهذا يدل على كمال العلم وأنه علم الأشياء قبل وجودها فكتبها، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله

كتب مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1] فهذه قبل خلق السماوات والأرض بهذا المقدار، وسيأتي تفصيل هذه الكتابة في ذكر درجة القدر إن شاء الله.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ يعني وقت العلوق والحمل لا يعلمه إلا الله جلّ وعلا، وكذلك وقت الوضع.

﴿بِعِلْمِهِ﴾ هذه صفة من أوضح وأدل الأدلة على اتصافه بالعلم، فهي من أبلغ ما يرد به على الفرقة الضالة المعتزلة الذين ينكرون اتصاف الله جلّ وعلا بالعلم ويقولون: كونه عليم معناها أنه لا يجهل، ويأبون أن يصفوه بأنه بكل شيء عليم ومن أنه يتصف بالعلم، تعالى الله وتقدس، ومعلوم أن نفي الجهل عن الشيء لا يدل على اتصافه بالعلم، فمثلاً يجوز أن نقول للجماد أنه لا يجهل ولكنها لا تعلم، يعني لا يتصف بهذا ولا بهذا، والمعنى أن هذه الأمور الظاهرة للناس العادية التي يعتادونها ويتعارفونها فيما بينهم أنها لا تقع إلا بعلم الله جلّ وعلا، وإن كان قد قدر لها أسباباً يعملها الناس ويعرفونها، فكل شيء بعلم الله جلّ وعلا سواء كان من الأمور التي يعتادها الناس ويباشرون أسبابها أو من غير ذلك.

وَقَـوْلُـهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وهـذا بـعـد قـولـه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني خلق لكم هذه الأمور الظاهرة والدلائل الكبيرة الدالة

(١) سبق تخريجه.

على قدرته وعلمه حتى يكون ذلك دليلاً لكم على معرفة الله جلّ وعلا، هذا هو المقصود من الآية والله أعلم، فهو جلّ وعلا يعلمنا كيف تتعرف عليه وعلى أوصافه وقدرته وعلى ما ينبغي أن يعرفه المؤمن به فيعبده وحده.

﴿شَيْءٍ﴾ نكرة عامة، فقدرة الله جلّ وعلا ولا يمكن أن تحد بحد كما أن علمه عام، وسيأتي الكلام في القدرة؛ لأن الآية قصد بها في السياق إثبات صفة العلم لله جلّ وعلا، ولكنّ كثير من المتكلمين أخطئوا في هذا خطأً واضحاً، ولم يقدروا الله حق قدره في كلامهم على قدرة الله جلّ وعلا، وبعضهم توهم أوهاماً وجعلها أموراً واقعة، وبعضهم وسوس إليه الشيطان وساوس فنفثها في صدره فجعل يتكلم على ضوئها في صفات الله جلّ وعلا، فمن الأوهام والوساوس التي ألقاها الشيطان في نفوس بعض أهل البدع ـ وقد اغتر بها من نظر فيها ـ أنهم حددوا قدرة وقالوا: إنه على كل شيء قدير مما هو مقدور له أو مما لا يدخل تحت الممتنع أو من الأمور الممكنة، أما غير الممكنة فلا تدخل تحت القدرة، والجواب عن هذا أن الممكنة نوعان:

أحدها: ممكن ممتنع، مستحيلاً لذاته أو لغيره فهذه ليست شيئاً ولا يصح أن تقول إنها شيء، ولا يجوز أن تدخل تحت قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ بل هو لا شيء، ومن أمثلة ذلك قولهم: هل يقدر الله جلّ وعلا على أن يخلق مثله؟.

هذا من الأمور الممتنعة التي لا يمكن وجودها، فليست بشيء، وإيراد مثل هذا وسوسة ولا يجوز أن يراد بها أصلاً؛ لأنه إيراد فاسد وذكر شيء لا حقيقة له ولا وجود له، ومن ذلك قول السيوطي في تفسيره في آخر سورة المائدة ﴿وَهُوَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ قال: وخص العقل من ذلك ذاته فليس عليها بقادر، وهذا كلام جنون، فالعقل لم يخص شيئاً والله على كل شيء قدير، فوجود رب آخر

غير داخل في الإمكان تعالى الله وتقدس، وقد ذكر جلّ وعلا أنه لو كان في الأرض أو في السماء آلهة أخرى لفسدتا، فكيف يكون له نظير أو يمكن أن يكون له نظير تعالى الله وتقدس؟.

يعني أنه لا يمكن أن يُوجد موجود، وأخبر أنه لو كان هناك خالق غيره لتميز بخلقه واعتزل به فيحصل التفاوت، والواقع خلاف هذا، ولهذا يقول العلماء: إن الإيمان بالله جلّ وعلا أمر لا يعذر بجهله أحد، ومن خالفه فهو كافر لظهور الأمر جلياً؛ لأنك ترى من الذرة إلى السماء كلها تدل على خالق واحد فقط، لهذا أنكر الله جلّ وعلا على الكفار عدم إيمانهم، فهل وجدوا خلقاً لخالق آخر غير الله جلّ وعلا؟.

حتى يمكن أن يلتبس الأمر عليهم، فالمقصود أن هذا من الوساوس ولا يدخل هذا تحت (شيء) فإن العدم ليس شيئاً وما ليس شيئاً فهو عدم ولا يدخل تحت قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بل يدخل فيه الممكن الموجود وهو الثاني، والذي لا يمكن لغيره لو أمكن، فإنه يعلمه جلّ وعلا أنه يكون على كذا وكذا وقدرته صالحة، وقد قال الله جلّ وعلا: ﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فأخبر بالشيء الذي لا يمكن أنه لو كان يكون كذا وكذا، فمعنى ذلك أن قدرته كعلمه جلّ وعلا محيط بكل شيء.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الإحاطة: هي العلم بالشيء علماً دقيقاً بحيث لا يخفى منه شيء، فالله لا يخفى عليه شيء في الموجود وفي الذي لا يوجد أنه سيوجد على صفة علمه لا يتعداها في الصفة وفي القدر وفي المكان وفي الزمان، ولا يمكن أن يقع شيء على خلاف علمه جلّ وعلا، ثم علمه كامل ولا يستفيد بوجود الأشياء بعد أن لم تكن علماً زائداً عن علمه الذي علمه قبل ذلك لكمال علمه.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات: ٥٨]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «أنا الرزاق ذو القوة المتين» وهذا تأكيد بعد تأكيد.

﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ صيغة مبالغة، يعني كثير الرزق، وهذا اسمه جلّ وعلا، وصفته الرَّزق بالفتح: وهو العطاء الذي ينال كل أحد، والرِّزق بالكسر أعم من هذا، يدخل فيه النافع والضار، فيدخل فيه الرزق المطلق الذي يكون للمؤمنين من الإيمان والتقوى وأكل الحلال الذي يهيئه لهم وييسر أسبابه، ويدخل فيه حماية قلوبهم من الشيطان أن يصدهم عن المراد لله جلّ وعلا وكذلك غيره، وقسم العلماء الرزق إلى قسمين:

الأول: الرزق المطلق، ويكون موصولاً بالسعادة الأبدية وهذا يكون للمؤمنين، ويدخل فيه المأكول المطعوم ويدخل فيه المعلوم والمعمول به، يعني ما يؤكل ويشرب وما يعمل به من العلم والإيمان الذي هو أفضل الرزق.

الثاني: الرزق الذي يكون قوتاً لحياة البدن، وهذا يشمل المؤمن والكافر والبهائم وغيرها، وقد قسموه إلى قسمين:

- ما يكون مأذوناً: وهو الحلال.
- ما يكون غير مأذون به: وهو الحرام.

ومع ذلك هو رزق الله جلّ وعلا، ولكن إن كان موافقاً لأمره فالإنسان مثاب عليه إذا حصلت النية، وإن كان مخالفاً لأمره فالإنسان معاقب عليه إذا كان عاقلاً مكلفاً.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ بمعنى صاحب، والقوة صفة من صفاته جلّ وعلا لأنه جلّ وعلا لا يعجزه شيء، فهو قوي وقوته أيضاً متعلقة بذاته ولها آثار تظهر لخلقه.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾ والمتانة تدل على الشدة ومبلغ النهاية في ذلك، ولا يمكن أن يقال: إن الله جلّ وعلا اكتسب شيئاً بعد أن لم يكن له، يعني أن أوصافه لم تزل قائمة به، ولكن علم الخلق محدود جداً ولا يمكن أن يحيطوا بمعاني أوصاف الله جلّ وعلا؛ لأن فكر الإنسان سينتهي إلى شيء محدد، والله جلّ وعلا لم يزل موصوفاً بهذه الصفات، والصفات لا بد أن يكون لها آثارها.

إِثْبَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ للهِ سُبْحَانَهُ

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

المقصود هنا ذكر السمع والبصر، وسمع الله غير بصره، فهو يسمع بسمع ويبصر ببصر تعالى وتقدس، وبسمعه يدرك المسموعات ولا يفوته شيء وإن دق، كما قالت عائشة ﵂: سبحان من وسع سمعه جميع الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها وأنا في طائفة البيت يخفى علي بعض كلامها، والبيت عبارة عن غرفة لم تتسع إلا للقبور الثلاثة، هذا هو البيت الذي تقصده وهي غرفتها الصغيرة ﵂، وكان فيها المنام والأواني والمطبخ ومكان الوضوء وكل شيء فيها، واتسعت هذه الغرفة لقبر النبي ﷺ وصاحبيه فقط، وتقول ﵂ جاءت وإني يخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ﴾ [المجادلة: ١] يعني قولها: إلى الله أشكوا صبية إن ضممتهم إلي جاعوا وإن تركتهم ضاعوا، والرسول ﷺ يقول: «حرمتي عليه»، هذه هي المحاورة، فالله جلّ وعلا سميع بصير يسمع ويبصر - وهو على عرشه - دبيب النملة السوداء في ظلمة الليل على الصخرة الصماء، ويسمع ما في جوف البحار وبطونها، بل وما في جوف الأرض من حركة وغيرها، فسمعه محيط بكل حركة وإن دقت وخفيت، وبصره كذلك لا يخفى عليه شيء، فببصره يدرك

المبصرات ويراها جلّ وعلا، وهذا هو حقيقة الاتصاف بالسمع والبصر، وقد ثبت في سنن أبي داود وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ قوله جلّ وعلا: ﴿كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه والأخرى على عينه تحقيقاً لصفة السمع والبصر، وليس كما يقوله أهل المجاز وأهل الكلام[1] ـ الذين لم يعرفوا من أوصاف الله جلّ وعلا إلا ما عرفوه من أنفسهم ـ تعالى الله وتقدس.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2] والسبحات: هي بهاؤه ونوره وجماله، فلو كشف جلّ وعلا الحجاب لاحترق الخلق من نوره جلّ وعلا، فلهذا لما سأل موسى ﷺ الرؤيا أخبره جلّ وعلا أنه لا يستطيع، ثم جعل له علامة قال: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فتجلى الله جلّ وعلا قليلاً للجبل فتدكدك وزال، عند ذلك صعق موسى ﷺ، فلما أفاق من صعقته قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت**»[3] وهو في حديث الدجال.

---

(١) وسمو أهل الكلام لأنهم كانوا يسلكون الطرق الصعبة الطويلة، والعبارات المتكلفة، وليس لذلك فائدة إلا تضيع الزمان وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذيان، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، ولكون هذه الطرق التي سلكوها، والحدود التي ذكروها لا تفيد الإنسان علماً لم يكن عنده، وإنما تفيده كثرة الكلام فقط.

(٢) مسلم (١٧٨)، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝﴾، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/٤٣٣)، عن عمرو بن ثابت الأنصاري عن بعض =

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]

هذه مثل التي قبلها، والمقصود بها ذكر صفة السمع، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ في الصناعة النحوية أن ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص، ومعنى ماضٍ: أي الذي وقع في الزمن الماضي، فالأفعال عندهم مقسومة إلى قسمين: فعل ماضٍ وفعل مستقبل، فهل يشكل أن الله كان؟.

وجاء عن ابن عباس إن الله كان ولا يزال، يعني ليدل على أن اتصافه بهذه الصفات لم يزل ولم يكن له مبدأ، ما كان لاتصافه مبدأ، فهو مثل وجوده ليس له مبدأ، فهو كاملاً بصفاته، يعني أنه ما اكتسب شيئاً كان له تعالى الله وتقدس.

إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ للهِ سُبْحَانَهُ

وَقَـولُـهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٩].

(الجنة) هي البستان الذي استجنت أرضه يعني غطيت من الأشجار وما نبت فيه، وقوله: (جنّ الأرض) يعني غطاها، سميت جنة لأنها تغطي الأرض بالنبات، وهذا ذكره الله جلّ وعلا في محاورة المؤمن للكافر الذي كفر وألحد بالله جلّ وعلا قال له: ﴿وَلَوْلَآ﴾ يعني هلّا، يعرض عليه ذلك ويأمره بهذا، وهذا يدل على العرض والأمر، هلّا قلت ذلك؟.

= أصحاب النبي ﷺ بنحوه؛ والترمذي (٢٢٣٥)، كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة الدجال، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه (٤٠٧٧)، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، بلفظ: «حتى تموتوا». وذكره ابن كثير في «تفسير سورة النساء آية (١٥٩)»، ذكر الأخبار الواردة في نزول عيسى، وعزاه إلى ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح (٥٠٨/٤) «سنن الترمذي».

وفيه تأنيب له وإنكار عليه.

﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمقصود هنا ذكر مشيئة الله جلّ وعلا؛ لأنه لما دخل جنته قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فكفر بالله جلّ وعلا واعتقد أن هذه الحياة الدنيا ما بعدها حياة أخرى.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يعني أن القوة لله جلّ وعلا، وأن ما حصل للخلق من غرس أشجار أو بناء بيوت أو كري أنهار أو ما أشبه ذلك أنه ليس بقوتهم، وأن هذا من الله جلّ وعلا، هو الذي قواهم على ذلك وهو الذي أقدرهم على ما يعملونه وما يفعلونه وأن كل شيء واقع بمشيئته، يقول بعض السلف: إن الإنسان إذا عجب من الشيء ينبغي له أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فإنه لا يحصل له ما يسوؤه فيه بإذن الله تعالى.

وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يمتثلون ويتبعون أمر الله جلّ وعلا ويدعون إليه، لهذا قال هذا الرجل لصاحبه الذي يحاوره - وقد كفر بالله جلّ وعلا -: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يعني هلّا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، والمعنى أن ما شاء الله جلّ وعلا كان ووجد وما لم يشأ هو الذي يكون معدوماً، وأن أفعال الإنسان لا تؤثر بمشيئة الله جلّ وعلا ولكنها تكون تابعة لمشيئة الله.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

مشيئة الله جلّ وعلا شاملة عامة، بيّن الله جلّ وعلا أن الأفعال التي تقع في أعمال الناس الذين لهم الاختيار ولهم القدرة أنها تقع بمشيئته، وأنه لا يخرج منها شيء عن مشيئته، سواء كان موافقاً لأمره الديني أو مخالفاً له.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ قال في أول الآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ وهذا

يدلنا على أن المشيئة هي الإرادة، ولكن الإرادة تنقسم إلى قسمين:

الأولى: إرادة كونية قدرية وهي موافقة ومرادفة للمشيئة.

الثانية: إرادة دينية أمرية شرعية فلا تكون مرادفة للمشيئة.

وهذا دل عليه كتاب الله جلّ وعلا وهو قول أئمة السلف وهو المذهب الحق الذي يجب اتباعه، أما من أنكر ذلك من المعتزلة والأشاعرة ومن سلك طريقهم من المتأخرين فلا دليل له، والدليل الواضح في هذا أن الله جلّ وعلا لما فرض الصوم وأنه أيام معدودات يقول: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فهذه الإرادة تتعلق بأمره الديني؛ لأنه جلّ وعلا لم يرد من الخلق كلهم اليسر ولا العسر، فالكفار الذين لم يلتزموا هذا لم يرده الله منهم، وإنما أراد اليسر والتسهيل لمن التزم أمره، فهذه إرادة تتعلق بأمره الديني الذي يأمر به العباد ويشرعه لهم، وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] هذه إرادة دينية تتبع دينه وشرعه وأمره، وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨] هذه كلها إرادة دينية، فأكثر الناس لم يتب، فهل تتخلف إرادة الله؟

نقول: هذه إرادة تعلقت بأمره، فالذي امتثل الأمر هو الذي أراد منه ذلك جلّ وعلا، أما الذي خالفه فلم تقع هذه الإرادة في حقه، أما الإرادة الكونية القدرية التي تكون مرادفة للمشيئة فهي ما ذكر في هذه الآية: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

فهذه إرادة كونية لا يخرج عنها شيء»، فالإرادة الدينية داخلة فيها، وبيان ذلك أن كل ما يقع في الكون يكون كالتالي:

أولاً: أن تتعلق به الإرادتان الدينية والكونية وهذا ما يقع من الطاعات وامتثال الأوامر، فقد اتفقت فيه الإرادة الدينية الشرعية، فالإرادة الدينية كونه أراد هذا أمراً وديناً، ولولا الإرادة الكونية ما وقع شيء من ذلك.

ثانياً: أن تتعلق فيه الإرادة الدينية فقط دون الأمرية، وهذا في الأوامر التي أراد أن تفعل فلم يمتثلها العصاة والكفار بل خلفوها فلم تقع، فهذه تعلقت بها الإرادة الدينية فقط وتخلفت الإرادة الكونية فلم توجد من أجل ذلك.

ثالثاً: أن تتعلق به الإرادة الكونية فقط، وهذا كل ما يقع من الكفر والفسوق والمعاصي وغيرها التي لم يأمر الله جلّ وعلا بها؛ لأن الله لا يحبّ الكفر ولا الفسوق ولا يأمر به ولا يرضاه جلّ وعلا، وإنما يريده كوناً وقدراً.

رابعاً: أشياء لم تتعلق به الإرادة الدينية ولا الكونية، فهذا الذي لا يكون وهو العدم وهو ليس بشيء.

فعلى هذا يتبين لنا أن الإرادة الدينية الأمرية تستلزم الأمر والرضا والمحبة، وأما الإرادة الكونية فقد يوجد ذلك في مرادها وقد لا يوجد، إن وافقت الإرادة الدينية وجد، وهذا يكون في طاعة المطيعين وإيمان المؤمنين، وإن تخلف ذلك فإنها تنفرد الإرادة الكونية فقط، فالإرادة الكونية لا يلزم من مرادها أن يكون مرضياً لله ولا محبوباً ولا موافقاً لشرعه وأمره ودينه، هذا الذي تدل عليه الأدلة، وساق المؤلف هذه الآيات ليبين هذا التفصيل، فهو واضح في الآيات لمن تأملها، ثم إن كل ما يقع قد أراده الله جلّ وعلا، وكل فعل لله فيه إرادة، وليست

الإرادة كما يقول الأشاعرة: إنها واحدة، هذا خطأ محض وضلال، وإنه يلزم من هذا أن تكون إرادة الكفر وإرادة الإيمان شيء واحد وهذا مقتضى قولهم، بل هم يصرحون بهذا، وهو خلاف النصوص التي جاءت في كتاب الله جلّ وعلا وخلاف مقتضى النظر والعقل.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①﴾ [المائدة: ١]،

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ بهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم، وسميت بهيمة لأنها لا تتكلم.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ يعني المحرم، فإن الصيد عليه حرام حتى يحل من إحرامه ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني يأمر ويشرع، فهذه إرادة دينية وله الأمر الذي يجب أن يمتثل، ولا يجوز أن يكون للخلق مع أمره شيء، بل يجب أن يمتثلوه ويتبعوه، أما إن ردوه فإن ذلك ينافي الإيمان كما قال جلّ وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ⑥⑤﴾ [النساء: ٦٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعني يجعل صدره متسعاً للأوامر راضياً بها قابلاً لها مغتبطاً بها.

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أو حرجاً، والحرج في اللغة: هي الأرض الملتفة بالأشجار التي لا يوصل إليها لكثرة

أشجارها، وهنا ﴿حَرَجًا﴾ يعني ضيقاً متحرجاً من قبول ذلك، فلا يستطيعه ولا يتسع له، وهذا يدلنا على أن الهداية والضلال بيد الله جلّ وعلا، وأن الإنسان لا يملك أن يهدي نفسه ولا أن يهدي غيره، وإنما الهداية لله وحده، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وهذه الهداية هي الانشراح للأمر وقبوله، أو هي خلق الهدى في القلب وتحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق، وهي بيد الله جلّ وعلا ولا أحد يستطيعه، وإنما الإنسان من الرسل وأتباعهم يملكون هداية البيان والإرشاد والدلالة كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] يعني تبين وتوضح وتدل، فمقتضى البيان والإيضاح ما يقتضي الهداية، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ووضحنا لهم إيضاحاً زائداً عن الإيضاح للأمم الأخرى، حيث اقترحوا على نبيهم أن يخرج لهم ناقة كبيرة تكفيهم كلهم حليباً من الجبل، يعني وهم يقولون هذا يريدون التعجيز لأن الجبل لا يلد النوق، ومع ذلك لما أخذ نبيهم ميثاقهم فقال لهم: تؤمنون وإلا يصيبكم العذاب؟ قالوا: نعم. فصار الجبل يتمخض كما تتمخض الناقة فخرجت منه الناقة العظيمة الكبيرة فولد الجبل ناقة، فصاروا يشربون من لبنها وترويهم كلهم، وهذه آية باهرة وواضحة وجلية جداً، فهذا البيان والدلالة على أن الله جلّ وعلا هو الذي أرسل صالحاً، وأنه هو الذي أمرهم، والمقصود أن الهداية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هداية لله وحده لا أحد يملكها وهي هداية القلوب، بأن يخلق الهدى فيها ويحسن ويزين فيها ويقبح ضده من الكفر والفسوق والعصيان.

القسم الثاني: هداية جعلها الله جلّ وعلا لمن يبين عنه أوامره من الرسل وأتباعهم وهي هداية الدلالة والإرشاد، وهذه لا تقتضي فعل الهدى.

وهذه الآية واضحة في أن الهداية والضلال بيد الله، وقد خالف في هذا أهل البدع، فالمعتزلة يقولون: معنى قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أن يبين ولا يخلق شيئاً في القلب، بل الإنسان هو الذي يخلق ذلك في قلبه، الإنسان إن شاء كفر وإن شاء آمن، وليس لإرادة الله جلّ وعلا دخل في هذا، وهذا شرك في الربوبية وجعل أرباب مع الله جلّ وعلا، وأي ضلال فوق أن يقال: إن الله أراد من الكافر أن يؤمن وأراد الكافر أن يكفر فحصلت إرادة الكافر ولم تحصل إرادة الله؟.

هذا هو قول هؤلاء الضلال الذين لا يعرفون الله في الحقيقة ولا يقدرونه حق قدره تعالى الله عن قولهم، ولهذا هم لا يخرجون عن الشرك إما شرك في الربوبية أو شرك في العبادة أو شرك في الأسماء والصفات، يعني أن يجعلوا أوصاف الله جلّ وعلا كأوصاف الخلق وهذا شرك في الصفات، والشرك أقسام ثلاثة كأقسام التوحيد، يعني أن كل قسم يقع فيه الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من المعلوم أن الصعود فيه صعوبة بالغة وقد تكون مستحيلة وممتنعة على الإنسان، فالذي لا يريد الله هدايته كذلك يجد في نفسه ضيقاً وحرجاً، ما يستطيع أن يقبل الإسلام نهائياً، بل يكرهه أشد الكراهية ولا يرتاح فيه، ولهذا يتبين الأمر لبعض الناس بياناً واضحاً جلياً لا إشكال فيه ثم يعرض عنه ولا يقبله، وإذا قيل له أمامك النار قال: أهلاً وسهلاً بالنار ولا أفعل كذا ـ نسأل الله العافية ـ.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إذا جاءت معرفة يقصد بها السماء المبنية والتي أخبر الله جلّ وعلا أنها سبع سماوات كل واحدة فوق الأخرى وهي حقيقة ثابتة، فالله جلّ وعلا أخبر أن لها أبواباً حيث قال: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وأخبر أن لها سكاناً وعُماراً يعمرونها، وأخبر أنها سبع

طبقات بعضها فوق بعض، فقول الملاحدة أنه ليس سماء وإنما هو فضاء تسبح فيه الكواكب؛ هذا تكذيب للقرآن، وذلك أنهم لا يؤمنون إلا بما يشاهدونه، فهم يقولون: إذا صعدنا للأعلى زالت الزرقة التي نراها، وهذا دليل على أن هذا انعكاسات أبخرة تتصاعد من البحار أو من غيرها فتصبح بهذا اللون فقط، ثم إذا أبعد الإنسان عن هذا المكان الذي فيه الأبخرة ذهب ذلك وأصبح لا يراه، فهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وهذه الزرقة التي نراها هي السماء الدنيا كما قال الله جلّ وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦] هذا دليل على أنها مبنية ومزينة وليس لها فروج أو خروق أو خروم أو شقوق كما هو في رأي الناظر، أما كونهم إذا أبعدوا عن الأرض أصبحوا لا يرونها فهذا دليل على بعدها المتناهي، فهي لا ترى إلا إذا كان العاكس قرب الذي تنعكس فيه الرؤية مثل الأرض، أما إذا أبعدوا عن الأرض وأصبحت الانعكاسات لا أثر لها فيزول هذا الذي يرى للبعد الشاسع، وقد أخبر الله جلّ وعلا أنه يعرج إليه الأمر من الأرض إلى السماء في يوم مقداره ألف سنة، فمثل هذا لا يطمع فيه الإنسان أن يصل إليه، فهم يقفون عن ما يشاهدونه ويرونه فقط، ولكن نحن نؤمن بالوحي بقول الله جلّ وعلا وقول رسله ولا نؤمن بقولهم بل نكذبهم.

إِثْبَاتُ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَوَدَّتِهِ لأَوْلِيَائِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

هذه الآية في ذكر المحبة وأنها من صفات الله جلّ وعلا وأن المحبة تكون من الجانبين، يعني من جانب الرب يتصف بها ويكون العبد متصفاً بها، فالعبد يحب والله يحب، ومحبة الله التي هي صفته غير محبة العبد التي هي صفة العبد كسائر الصفات، والمحبة كثر كلام الناس فيها

جداً، ولكن كما يقول ابن القيم: لا تفسر بأوضح وأجلى من لفظها من أنها محبة، فكل التفسيرات تعميها وتزيدها غموضاً، قد ذكروا أن درجاتها عشر:

الأولى: العلاقة.

الثانية: الإرادة.

الثالثة: الصبابة.

الرابعة: الغرام؛ لأنها تدل على ملازمة القلب وتلزم صاحبها، والله جلّ وعلا يقول: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] يعني لازماً لا يزول وهي جهنم.

الخامسة: المودة، والود، وهي صفو المحبة وخالصها ولبها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

السادسة: الشغف؛ لأنها وصلت إلى شغاف القلب.

السابعة: العشق: وهو الحب القاتل الذي يقتل صاحبه.

الثامنة: التتيم.

التاسعة: التعبد.

العاشرة: الخلة.

ويوصف الله جلّ وعلا بالإرادة - كما سبق - والخلة وكونه معبوداً، أما العشق وغيرها فلا يجوز أن يوصف الله جلّ وعلا به مما هو نحوها والسبب في هذا أمران:

الأول: أن العشق حب مع شهوة.

الثاني: أن هذا لم يرد في النصوص فلا يجوز أن يوصف الله به.

المقصود أن الله جلّ وعلا موصوف بالمحبة وأنه يحب عبده، أما حب العبد فهو أمر لازم لأن الحب هو التأله والله جلّ وعلا هو الإله، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً ورجاءً.

وتدل هذه الآية أيضاً على أن الجزاء من جنس العمل وأن الله يحب مقتضى أسمائه وصفاته، فإنه هو المحسن وهو يحب من أحسن، وفيها الإيضاح بأن الله يحب، وقد أنكر هذه الصفة أهل الكلام من أشاعرة وغيرهم، وزعموا أن المقصود بمحبة الله للعبد كونه يثيبه فقالوا: يحبه يعني يثيبه ويجزيه، أما كون العبد يحب الله أي: أنه يحب طاعته وهذا من أعجب ما يكون، فكيف ينكرون أصل التوحيد الذي هو حب الله جلّ وعلا؟.

والعلة في هذا عندهم أن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ـ تعالى الله عن قولهم ـ وهذا هو بلاء القوم كما سبق، فلا يعرفون من صفات الله جلّ وعلا إلا ما عرفوه من أنفسهم، فالتشبيه عندهم كامن في نفوسهم، فهو يشبهون أولاً ثم يعطلون ثانياً خروجاً من التشبيه المستكن في أنفسهم على حد زعمهم، والله جلّ وعلا قوله حق وجلي واضح لا إشكال فيه، ثم يقال: المجانسة لفظ مجمل يحتمل حقاً ويحتمل باطلاً، فالمجانسة تحتمل أن تكون من جنس الشيء يعني أنه متولد منه، ويحتمل أنه محتاج إليه أي: أن كل واحد محتاج إلى الثاني، ويحتمل أنه مماثل له ومشابه له، وهذا كله باطل، ويحتمل أنه موافق له في الأمر والإرادة وهذا حق، فلو كان ذلك وارداً قلنا به، ولكن يكتفى بما ذكره الله جلّ وعلا، غير أن الباطل يجب أن يرد ويوضح لمن يلتبس عليه الأمر، فهم مرة يقولون: المجانسة، ومرة يقولون: المناسبة، فالمحبة عندهم لا تكون إلا بين متجانسين أو متناسبين وكلها معنى واحد.

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسن: هو الذي بلغ النهاية في إحسان عمله وجاء بالأمر على ما أمر وبالغ في تحسينه فلم يترك في فعله مما يحبه الأمر ويريده شيئاً، فالإحسان هو النهاية في الإتيان بالعمل على الوجه المطلوب الذي يريده الله جلّ وعلا.

﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]

ومعنى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ يعني اعدلوا، فالإقساط: هو العدل، والمقسط هو العادل، والله جلّ وعلا يأمر بالعدل ويفعله.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]

الاستقامة هي لزوم أمرٍ أمر الله جلّ وعلا به، وهنا يقصد به لزوم العهد الذي بين المسلمين والمشركين، فما قاموا موفين بالعهد مستقيمين عليه فاستقيموا لهم، يعني أوفوا بما التزمتموه لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتقي هو الذي يجعل بينه وبين المخوف وقاية وهو فعل المأمور وترك المحظور بأن يفعل ما أمر به ويجتنب ما نهي عنه خوفاً من الله ورجاءً وحباً، لا بد من هذه الأمور الثلاثة؛ لأن عبادة الله يجب أن تكون بالخوف والرجاء والحب، أما إذا عبد بواحدة من هذه فهذا ضلال، وإنما هذا حتم لازم على كل عابد أن يعبد الله جلّ وعلا بالخوف والرجاء والمحبة، لا بد أن تجتمع هذه الأمور الثلاثة في العبادة وهذا فرض، وهذا معنى التقوى، وقد قال طلق بن حبيب: تقوى الله أن تفعل أمره على نور منه ترجو ثوابه وتخاف عقابه، وتترك معصيته على نور منه ترجو ثوابه وتخاف عقابه، وهذه هي حقيقة التقوى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ هم كثيروا التوبة الذين يكررونها ويكثرونها، ومعنى التوبة: الرجوع إلى الله، تاب إذا رجع وآب وأناب كلها معنى واحد، آب إليه إذا رجع، فالله يحب الرجاعين الذين يرجعون إليه من فعل المخالفات، ومعلوم أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بالأمر على الوجه المطلوب كما يحب لله، ولهذا يجب عليه أن يتوب، وهي واجبة حتمية

على كل عبد، وإن ترك التوبة فهو ظالم كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فيدل على أن التوبة واجبة، وهي تجب من جميع الذنوب ولا يجوز تأخيرها، ومعلوم أن كل أحد يكون مذنباً فلا يستطيع الإنسان أن ينفك عن الذنوب، ولكن من رحمة الله جلّ وعلا أنه يحب التوابين، فمعنى ذلك أنه يقبل التوبة ويحب من تاب، وهذا رحمة منه وفضل يجب أن يشكر على ذلك.

﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ظاهر الآية أن هذا تطهر من الأحداث، ولكن تدل بالمفهوم على أن المقصود هو التطهر من أقذار الذنوب وأوساخها لأنه جلّ وعلا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ فالشطر الأول يدل على هذا، ولكن ظاهر اللفظ يدل على أنه يحب المتطهرين الطهارة الشرعية، وهذا كله حق، فهو يحب المتطهرين الطهارة الشرعية بالماء من الأحداث، ويحب كذلك المتطهرين من أقذار الذنوب وأنجاس وأوساخ المعاصي، وهذا أبلغ وأوكد وألزم للإنسان، وإن كان الأول لازماً أيضاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]

يقول الحسن البصري(١): إن هذه الآية هي آية المحنة، يعني أن الله امتحن من يدعي أنه يحب الله بذلك، فإذا ظهر من عمله أنه متبع للرسول ﷺ فهذا دليل على المحبة، وإن كان مخالفاً فهو كذاب، فحبه زائف بل يكون ممن يحب الشيطان، وهذا يدلنا على أن اتباع الرسول فرض لازم في كل أمر أمرَ الله جلّ وعلا به؛ لأن الله يحب أن يمتثل

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري، من أكابر التابعين، وعلامة عصره. قال فيه الذهبي: حافظ علامة، من بحور العلم، فقيه النفس، كبير الشأن، عديم النظير، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأس في أنواع الخير، مات رحمه الله سنة ١١٠هـ.
«تذكرة الحفاظ» (١/ ٧١)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦٣)، «الأعلام» (٨/ ٢٢٦).

أمره، وأمره جاء عن الرسول ﷺ، والآية ظاهرة في أن اتّباع الرسول ﷺ يقتضي محبة الله جلّ وعلا، وأن من اتبع الرسول ﷺ فإن هذا سبب لحب الله جلّ وعلا له، واتباع الرسول ﷺ يكون في الظاهر والباطن، أما الظاهر فواضح، وأما الباطن فيجب أن يحب ما جاء به ويغتبط به ويرى أن الله خصه بذلك بنعمة كبرى ما يستطيع أن يشكرها حيث جعله من أتباع الرسول ﷺ؛ لأن هذا هو سبب السعادة الأبدية، وكل ذلك بنعم الله جلّ وعلا وفضله.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]

هذا بعد قوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ والارتداد: هو الرجوع عن الإسلام والخروج منه إما أن يكون بالقول أو بالفعل أو بالاعتقاد أو بالشك، كل ذلك يكون ردة عن الإسلام، وقد وعد الله جلّ وعلا أنه سوف يأتي بمن ينصر هذا الدين، وتكملة الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه صفات المؤمنين، يحبون الله ويتبعون الرسول ﷺ ويكونون أذلة للمؤمنين، بمعنى أنهم يكونون للمؤمنين كالولد وكالعبد للسيد يخضعون ويلينون لهم ويرفقون بهم ويرحمونهم ويودونهم، أما الكافرون فيكونون عليهم أشداء كالأسد على فريسته كما قال الله جلّ وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] هذه صفة المؤمنين، وليس من صفة المؤمن أنه يكون موافقاً للكافر فضلاً عن أن يوده، فإن جاءت المودة فقد زال الإيمان ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومن صفاتهم كذلك يجاهدون في سبيل الله، والجهاد أقسام: أعلاه قتال الكفار وجهادهم بالمال والنفس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقط وكلمة الكفار هي

السفلى، كما أجاب بذلك رسول الله ﷺ لما سئل: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله؟ قال: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[1] وما عدا ذلك هو في السبل الأخرى، وكذلك كونهم لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يكترثون بأقوال الناس ولا أنظارهم ولا كتاباتهم، بل ربما اغتبطوا بذلك، وإنما الذي أمامهم هو أمر الله جلّ وعلا وطاعته هو مرادهم، فالله يحب من كان بهذه الصفة، وباقي أقسام الجهاد هو جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الفساق بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والجهاد لا ينفك عنه إنسان مؤمن، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق، فمقتضى الإيمان أن العبد يحب الجهاد في سبيل الله جلّ وعلا، وقد تكاثرت النصوص في فضل الجهاد في سبيل الله حتى قال الرسول ﷺ: **«وددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل»**[2] مرات عدة، والشيء الذي يوده الرسول ﷺ هو أعلى شيء، قال مرة لجابر بن عبد الله: **«أتدري ما قال الله لوالدك؟»** قال: الله ورسوله أعلم قال: **«إنه قال له: يا عبدي تمنَّ علي، قال: تحييني حتى أقتل في سبيلك مرة أخرى»**[3] وذلك لما رأى من الكرامة، وقد كلمه جلّ وعلا كفاحاً - يعني مواجهة - وهذا قبل أن تقوم القيامة، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن الشهداء أحياء

---

(١) البخاري (٦٩٠٤)، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾؛ مسلم (٣٥٢٦)، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) البخاري (٣٥)، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان؛ مسلم (٣٤٨٧)، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الترمذي (٢٩٣٦)، كتاب التفسير عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة آل عمران؛ ابن ماجه (٢٧٩٠)، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤] فلا نعرف هذه الحياة، فهم أحياء حقيقة يأكلون ويشربون ويتنعمون.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ كون الإنسان يحب الله هذا ليس عجباً؛ لأن الإنسان عبد وضعيف فهذا مقتضى الفطرة ومقتضى وجوده أن يحب خالقه الذي أوجده من العدم وأنعم عليه بالنعم الكثيرة مع أن هذا واجب، ولكن العجب كون الله جلّ وعلا يحبه، فهذا يدل على الكرم والجود من الله جلّ وعلا، فالله غني بذاته عن كل أحد، ليست محبته لأجل أنهم نفعوه أو لأجل أنهم قاموا بشيء يعود على ذاته تعالى الله وتقدس، فهو جلّ وعلا يقول: **«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ـ إلى أن قال ـ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**[1] فالله يحب عبده المؤمن التقي المجاهد كرماً وجوداً وإحساناً منه وليس لحاجة تعالى الله وتقدس، أما العبد فهو محتاج فقير لا بد من حبه لمولاه وربه جلّ وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]

﴿صَفًّا﴾ يعني صفوا أمام الكفار وتراصوا في صفوفهم فأصبحوا كالبنيان الذي يكون ثقل بعضه على بعض ليس فيه خلل ولا فرج، مما يدل على الثبات وأنهم ثابتون في ذلك وأنهم لا يخافون أمام الكفار وأن

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الذي يطلبونه هو الموت في سبيله، كما كان الصحابة إذا سقط أحدهم مقتولاً أصبحوا يهنئونه ويقولوا: هنيئاً لك الشهادة وكل واحد يود أنه مثله، جاء في الحديث: «**إن الله يضحك إلى ثلاثة: الصفوف في القتال والصفوف في الصلاة والرجل يثور من الليل تاركاً فراشه وزوجته إلى الصلاة**»[1] ومن ضحك الله إليه فمعنى ذلك أن هذا بلغ درجة يستحق فيها الإكرام فإنه يرضي الله جلّ وعلا بهذا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٤]

﴿الْغَفُورُ﴾ صيغة مبالغة، وهو اسمه ولكن الغفار أبلغ، وقد جاء غافر وغفور وغفّار، كلها وردت وهي أسماء لله، والغفر: هو الستر والوقاية، ومنه المغفر الذي يوضع على الرأس ليقيه من السلاح، وليس كل ما غطى الرأس يكون مغفراً، فالعمامة لا تسمى مغفراً لأنها لا تقي من السلاح، ومعنى ﴿الْغَفُورُ﴾: كثير المغفرة، والمغفرة: هي الستر من الذنوب ووقاية أثره، أي: أنه جلّ وعلا يستر على عبده ويعفو عن زلته فلا يصيبه شيء، وربما صار الذنب حسنة إذا بدل الله جلّ وعلا سيئاته حسنات كما أخبر، فالله جلّ وعلا إذا تفضل ففضله لا نهاية له، وإذا غفر فمعنى ذلك أنه يستر عبده من الفضيحة التي قد تناله في الموقف من الناس، وكذلك يقيه العذاب الذي يترتب على ذنوبه، ففي حديث عبد الله بن عمر الذي في الصحيحين لما سئل عن النجوى - كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يدني عبده المؤمن فيضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: عملت كذا وكذا، فإذا رأى**

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٨)، حدثنا أبو خالد الأحمر عن مجاهد، عن أبي الوداك، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى ثلاثة: القوم إذا صفوا في الصلاة وإلى الرجل يقاتل وراء أصحابه وإلى الرجل يقوم في سواد الليل**».

أنه قد هلك قال: **أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم»**[(١)] ومعنى يضع عليه كنفه يعني ستره؛ لأنه إذا قرر بالذنوب يتغير وجهه، فلو رآه الناس عرفوا أنه قد أجرم، فالله يستره في ذلك الموقف، وهذا معنى مغفرة الله جلّ وعلا.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ هو من أسماء الله جلّ وعلا وهو مأخوذ من صفة المودة، الود: هو خالص الحب وصافيه.

إِثْبَاتِ اتِّصَافِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ سُبْحَانَهُ

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهي صفة الله جلّ وعلا بالرحمة، والرحمٰن أبلغ من الرحيم؛ لأن الرحمٰن هي صيغة المبالغة وما يدل على كثرة الرحمة، والرحيم ليس من الأسماء الخاصة بالله، والرجل يسمى رحيماً بخلاف الرحمٰن فإنه خاص بالله جلّ وعلا، ومثل الرؤوف فقد يسمى الرجل رؤوفاً، ولكن الله معنى اسمه لا يشاركه العبد فيه، وكذلك الله جلّ وعلا لا يشارك العبد في اسمه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يدل على الرحمة العامة التي تتعلق بذاته جلّ وعلا، أما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنه يدل على تعلقها بالمرحوم، ولهذا جاء ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وما يروى عن ابن عباس قال: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر[(٢)]، أي: أن أحدهما أرجى من الآخر، فهما يدلان على الرجاء، ولكن أحدهما أكثر رجاة من الآخر وهو الرحمٰن.

---

(١) البخاري (٢٤٤١)، كتاب المظالم، باب قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مسلم (٢٧٦٨)، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) «تفسير الطبري» و«البغوي» وفي «الدر المنثور».

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]

هذا من كلام الملائكة الذي تكلم الله جلّ وعلا به ذاكراً أنهم يقولونه، يتوسلون إلى الله جلّ وعلا بالإيمان به وتسبيحهم له واستغفارهم للمؤمنين، وهم الملائكة الذي يحملون العرش ومن حوله، يعني الحملة ومن يحف به يستغفرون للمؤمنين يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فيستغفرون للتائبين وكذلك الذين يتبعون سبيله ويطلبون منه جلّ وعلا أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا من صفات الملائكة أنهم يستغفرون للمؤمنين، ولكن المقصود أنهم توسلوا بسعة رحمته وجلعوا الرحمة مقرونة بالعلم، ومعلوم أن علم الله جلّ وعلا محيط بكل شيء، وكذلك رحمته وسعت كل شيء مما يدل على عظم رحمة الله جلّ وعلا وسعتها.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

هذه الأيات تدل على سعة رحمة لله جلّ وعلا، وأنه جلّ وعلا كتب على نفسه أنه يرحم، والكتابة تدل على الإيجاب وهي تأتي على نوعين:

النوع الأول: كتابة تدل على أن هذا الشيء واجب مثل: كتب عليكم الصوم، وهي كتابة أمرية شرعية مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] فهي كتابة إيجاب، وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

النوع الثاني: كتابة تدل على القضاء والفراغ من الشيء والنهاية، وهي كتابة قدرية كونية فمثل قوله جلّ وعلا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ولكن الكتابة التي تكون منه جلّ وعلا تدل على الرضى وإرادة الشيء، بخلاف التي تكون على الخلق فإنه لا يلزم إذا كانت كونية كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤] فالكتابة الكونية التي تتعلق بالخلق قد تكون موافقة للأمر وقد تكون غير موافقة فيكون حصولها ومقتضاها أن الله يكرهه ويبغضه.

ثم الرحمة التي أضيفت إلى الله جلّ وعلا على نوعين:

النوع الأول: رحمة هي صفته وتقوم بذاته جلّ وعلا وبها يرحم خلقه.

النوع الثاني: رحمة مخلوقة مفعولة كما جاء في الحديث الصحيح: «**أن النار والجنة احتجتا إلى ربهما فقالت النار: ما لي يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة: ما لي يدخلني سقط الناس والضعفاء والمساكين. فقضى الله بينهما فقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء**»[1] فهذه رحمة مخلوقة، ومن ذلك وصف المطر بأنه رحمة الله، ومن ذلك الحديث الصحيح: خلق الله مائة رحمة فأنزل واحدة بين الخلق بها يتراحم الخلق كلهم حتى الوحوش وأمسك عنده تسعاً وتسعين، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين فرحم الخلق[2]، والمعنى أن الرحمة على

---

(١) البخاري (٤٨٥٠)، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، مسلم (٥٠٨٣)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) البخاري (٦٤٩٦)، كتاب الرقائق، باب الرجاء والخوف، مسلم (٤٩٤٤)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذه الأجزاء والجزء من مائة هو الذي جعل بين الخلق، ثم يوم القيامة يضاف هذا الجزء إلى الأجزاء الباقية فيرحم الله جلّ وعلا بها خلقه، وفي لفظ جعل الله الرحمة مائة جزء، أي: الرحمة التي يتراحم بها الخلق والتي هي من آثار رحمة الله وليست صفته، الكتابة التي ذكر جلّ وعلا أنه كتب على نفسه، هذه كتابة تفضل وإحسان وكرم وجود، تفضل بذلك وكتب على نفسه ولا أحد يلزمه ذلك تعالى الله وتقدس، فلو شاء لعذب خلقه وهو غير ظالم لهم، وإذا رحمهم فرحمته خير لهم من عملهم، لهذا يقول الرسول ﷺ: **«لا يدخل الجنة أحد بعمله»** قالوا: ولا أنت؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»**[(١)] فعلى هذا مهما أوتي العبد من المقدرة والقوة والاجتهاد فإنه لا يستطيع أن يقوم بالواجب عليه لله جلّ وعلا، وإنما الله جلّ وعلا بكرمه وجوده يقبل اليسير ويعفو عن الكثير ويجازي على ذلك، أما الضُّلّال من المعتزلة ونحوهم فهم يوجبون على الله مثل ما يوجبون على المخلوق، فلهذا كانوا مشركين بهذا القول حيث شبهوا الله جلّ وعلا بخلقه من باب القياس، لهذا يسميهم أهل السنة: مشبهة الأفعال معطلة الصفات، فهم جمعوا بين الشر كله بين التعطيل والشرك ـ نسأل الله العافية ـ وكذلك الذين اتبعوهم في هذا، وهدى الله جلّ وعلا الذين اتبعوا كتابه وسنة رسوله ﷺ للحق فوصفوا الله جلّ وعلا بما وصف به نفسه فقالوا: إن الكتابة التي يكتبها الله جلّ وعلا والحق الذي يحقه على نفسه كتابة تفضل وإحقاق إحسان وكرم كما في حديث معاذ: **«أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟»**[(٢)] فالحق الذي يكون للعباد عليه حق هو تفضل به وليس

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، من حديث أبي هريرة ﷺ؛ مسلم، عن أبي هريرة وجابر وعائشة بألفاظ متقاربة.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس ومخرّج في «الإرواء» (٨٥٥).

لهم حق يطالبون الله جلّ وعلا به بأعمالهم، فالأعمال تكون سبباً لرضى الله جلّ وعلا، ودخول الجنة يكون برحمة الله، ثم يتقاسمون منازل الجنة بأعمالهم، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١] وما أشبهها، فالباء هنا باء السببية عند أهل السنة، خلاف ما يقوله المعتزلة من أنها باء العوض، يعني عوضاً لأعمالهم، وعندهم أنه يجب على الله أن يجازي العامل ويعاقب المجرم، ويجعلون هذا أحد أصولهم الذي يسمونه العدل ويسمون أنفسهم أهل العدل، وهذا في الواقع هو الضلال والجور.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]

يعني أنه جمع بين اسمين هما الغفور والرحيم، فيكون لكل واحد منهما معنى، فالغفور: هو الواقي الساتر، والرحيم: الذي رحم خلقه برحمته جلّ وعلا، وتكون هذه الرحمة عامة، فرحمته تنقسم إلى قسمين بالنسبة لتعلقها بالمخلوق:

القسم الأول: مطلق عام وهو الذي يكون للمؤمنين الذين يموتون على إيمانهم، هي أن يجعل عبده مؤمناً به وأن يوفقه لسلوك الصراط المستقيم، ثم يموت على ذلك فتتصل حياته الدنيا بالحياة السعيدة وهي الآخرة.

القسم الثاني: عام للخلق مقيد في هذه الحياة، كالبهائم والكافر والمؤمن وغيره، فمن رحمته أنه أنزل المطر وأخرج به النبات الذي تأكل منه أنفسهم وأنعامهم، وكذلك جعل الماء سائغاً شرابه ولم يجعله أجاجاً، وكذلك جعل الأرض التي يستقرون عليها صالحة للحياة عليها وحماهم ممن يتخطفهم من الشياطين وغيرهم، فآثار رحمته كثيرة جداً، ولكن هذه رحمة مقيدة، رحمة في هذه الحياة، وهذه مقتضى ربوبيته جلّ وعلا.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]

حفظ الله لعباده ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: حفظ في الدنيا كحفظ الصحة والعافية والحفظ مما قد يتسلط عليه، حتى إن الرجل يكون في البراري فينام ويفتح فاه ومنخريه مفتوحين وأعينه وأذنه، فيحفظه الله جلّ وعلا من الهوام والنوامس التي لو جاءت لأذنه يدخولها في فمه أو في منخره أو في عينه أو في أذنه، ولكن الله يحفظه، وإلا فهو عبارة عن ميت لا يستطيع أن يتحرز من شيء، ولهذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١] هذه الملائكة التي تتعاقب عليه تحفظه.

القسم الثاني: حفظ إيمان المؤمن عليه بأن لا يزول أو يدخله الشك، فيحفظ جلّ وعلا على عباده المؤمنين إيمانهم، وهذا الذي قال فيه الرسول ﷺ في وصيته لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك**»[1] يعني احفظ أوامره بأن تحتفظ عليها، وكذلك النواهي التي نهاك عنها احفظ نفسك من أن تقع فيها فإن الله يحفظك؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فحفظه لعبده المتقي أن يجعله مستقيماً على أمره حتى يلاقيه على ذلك، وهو حفظ خاص يكون لعباده المؤمنين.

﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إذا جاءت صيغة التفضيل فلا يلزم أن يكون لها مقابل، ولكن مثل هذا مقابل، والذي لا مقابل له كقوله جلّ وعلا: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤] فلا يقابل أهل الجنة بأهل النار، فهم أحسن مستقراً وأحسن مقيلاً من أهل

(١) صحيح لغيره. وقد خرّجته في «السنة» لابن أبي عاصم (ص٣١٦ ـ ٣١٨). الباني.

النار؛ لأنه ليس هناك نسبة، فمثل هذا يأتي في اللغة العربية ومن ذلك قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فلا خالق غير الله جلّ وعلا فهو الخالق وحده، أما هنا في قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يدل على أن المخلوق يرحم ولكن لا تكون رحمته كرحمة أرحم الراحمين جلّ وعلا، فعلى هذا تكون صفات الله مختصة به وصفات المخلوق مختصة به كما سبق، وقوله: ﴿أَرْحَمُ﴾ هذه صيغة مبالغة أفعل التفضيل، ففي هذه الآيات إثبات صفة الرحمة لله جلّ وعلا، وقد أنكرها المعتزلة وإخوانهم من الأشاعرة الذين هم أصلهم كلابية، ولكن لكثرة النصوص ما استطاعوا أن يكذبوها ويردوها فأولوها، والمشهور من تأويلاتهم أمران: إما أن يكون شيئاً مخلوقاً، أو أنهم يأولونها بصفة أخرى وهذا عند الأشاعرة، فيجعلون الرحمة الثواب أو الجزاء أو العطاء أو الإكرام، وقد يقولون: هو إرادة الإحسان؛ لأنهم يقرون بالإرادة، وهذا تأويل من أبطل الباطل، وقد علم أنه خلاف كلام الله جلّ وعلا وخلاف ظاهر خطابه فلا يلتفت إليه، ومعلوم أن الواجب على العبد أن يتقبل من ربه جلّ وعلا ما قاله له وأن لا يحاول أن يصد ويلتفت عن ذلك، فهذا التأويل من تحريف الكلام.

ذِكْرُ رِضَى اللهِ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ وَكَرَاهِيَتِهِ وَأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ

قَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]

من صفات الله جلّ وعلا أنه يرضى على من يشاء من عباده، وهذه من صفات الأفعال، وأهل السنة يؤمنون بصفات الأفعال وصفات الذات بدون تفريق، غير أن الفرق معقول بين المعنيين؛ لأن صفة الذات هي الصفة التي تكون ملازمة للذات لا تنفك عنها بوقت من الأوقات دائماً

وأبداً، أما صفة الفعل فهي التي تتعلق بمشيئته فيفعلها إذا شاء، ورضى الله جلّ وعلا يكون لعبد بعد أن كان مسخوطاً عليه وبالعكس، وكله يتعلق بمشيئته جلّ وعلا، وقد أخبر جلّ وعلا أن رضاه أكبر من كل نعيم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] لما ذكر نعيم الجنة عطف ذلك عليه، وفي الحديث الصحيح أن الله جلّ وعلا يقول لأهل الجنة: «**هل رضيتم؟ فيقولون: نعم، وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين. فيقول: إن لكم عندي ما هو أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً**»[1] هذا النعيم الذي ليس فوقه نعيم، فمعنى ذلك أن رضوان الله أكبر من الجنة وأفضل، وهو صفة تتعلق بمشيئته جلّ وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فهنا جعل القتل مقيداً بالمؤمن، فغير المؤمن لا يكون بهذه الصفة، والمتعمد أخرج الخطأ وهو أن يحصل القتل بغير قصد، أما التعمد فهو: أن يقصد من يعرف أنه مؤمن فيقتله بما يقتل.

﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ جهنم علم على طبقة من طبقاتها ودركاتها لأنها دركات بعضها تحت بعض، والدرك الأسفل منها مسكن المنافقين الذين يكونون مع المؤمنين في الدنيا يصانعونهم وهم في الواقع مع الكافرين.

﴿خَالِدًا﴾ يقول العلماء في الخلود: إنه المكث الطويل، ولهذا يوصف أهل الدنيا بشيء من ذلك، وإذا قيل: خلد في المكان يعني

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

مكث فيه طويلاً، ولكن إذا جاء موصوفاً بالتأبيد فهذا معناه أنه لا ينتهي، ووصفه بالتأبيد جاء بالنسبة للكفار في ثلاثة مواضع من القرآن.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ الغضب من صفات الفعل التي اتصف الله جلّ وعلا بها وكذلك اللعن، كونه يلعن من يشاء فيغضب على من يشاء ويلعن من يشاء، كما أنه يرحم من يشاء ويرضى عمن يشاء، فهذه كلها صفات يتصف الله جلّ وعلا بها كما ذكر ويجب الإيمان بها، وفي حديث الشفاعة أن آدم ﷺ ومن بعده ممن يطلب منهم الشفاعة يقول: **«إن ربي اليوم غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»**(1)، أما اللعن فمعناه الطرد والإبعاد عن الخير والرحمة، والله يلعن من يشاء كما أنه يرحم من يشاء، ويكون اللعن بالفعل وبالقول.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]

يعني أن الله يوصف بأنه يسخط، وأن فعل بعض عباده يغضبه ويسخطه.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]

الأسف يأتي على معنيين:

الأول: شدة الغضب.

الثاني: الحزن، هذا لا يوصف الله جلّ وعلا به، بل هو كما قال الله جلّ وعلا عن يعقوب ﷺ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] بمعنى الحزن.

---

(1) صحيح. وهو في «المسند» (٤٣٥/٢) بسند الصحيحين، وهو مخرّج في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٨١١). ألباني.

الانتقام: هو إيقاع ما يستحقه المذنب به من العقوبة ومعاجلته بذلك، وهذا في ذكر قصة فرعون وقومه، فإن الله انتقم منهم فأغرقهم في البحر، فصارت أجسامهم للغرق وأرواحهم للحرق في جهنم ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]

يعني أن الله جلّ وعلا يوصف بالكراهة وبأنه يكره بعض أفعال عباده كما أنه يكره بعضهم، فهذه يجب أن يؤمن بها على ما جاءت.

وقـولـه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣]

المقت: هو شدة الكراهة، فالله يمقت الفعل ويمقت صاحبه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠] وذلك أن الكافرين إذا حقت الحقائق يعودون على أنفسهم بالمقت لأنهم قد تمكنوا من الإيمان وكثرت آيات الله أمامهم وأصبحوا يكفرون على عمد فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ والسبب أنكم قد دعيتم إلى الإيمان فكفرتم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهذه الآية يقول العلماء: إنها تدل على وجوب الوفاء بالوعد؛ لأن الله يمقت على إخلافه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ فهذا الوعد وكون الإنسان يعد الشيء ثم لا يفي به، فإنه يجب عليه أن يفي كي لا يقع في مقت الله جلّ وعلا، وقد مدح الله جلّ وعلا بعض أولياءه بأنه صادق الوعد.

ذِكْرُ مَجِيءِ اللهِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]

أخبر جلّ وعلا أن الكفرة الذين لم يؤمنوا بالرسول ﷺ ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وهذا يوم القيامة ويدل على قربه وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معنى ذلك أن الملائكة أيضاً تأتي بالغمام.

والغمام: هو السحاب الرقيق، وسمي غماماً لأنه يغم، ويقول ابن جرير(١) رحمه الله: إذا جاء وصف الملائكة بالإتيان للخلق فهو على قسمين:

الأول: عند الموت لقبض أرواحهم، ويدخل فيه إتيانهم لتعذيبهم إذا كانوا كفرة، مثل الضيوف الذين أضافوا إبراهيم ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤] وذكر أيضاً أنهم ذهبوا إلى لوط بصفة شباب حسان الوجوه زيادة في فتنة هؤلاء المفتونين ـ نسأل الله العافية ـ فصار العذاب، أخبروا أنهم رسل الله وأنهم سيرسلون عليهم حجارة مسومة من طين، فكان جبريل عليه السلام ومن معه، فحملوا بلادهم وطاروا بها ثم قلبت وأتبعوا بالحجارة، فهذا إتيان للعذاب وهو قبض الأرواح، وأخبر الله جلّ وعلا أن الكفار تأتيهم الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ويقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] يعني أخرجوا أرواحكم من أبدانها، وكذلك المؤمن تأتيه الملائكة تقبض روحه

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أحد الأعلام والمتبحرين، قال الخطيب: كان ابن جرير أحد الأئمة يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله.. له مؤلفات كثيرة من أشهرها: «كتاب تاريخ الأمم» و«التفسير»، توفي سنة ٣١٠هـ.
«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٦٧)؛ «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧١٠)، «الأعلام» (٦/ ٢٩٤).

كما قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فهم يقولون للمؤمن أبشر ولا تخف مما أمامك ولا تحزن من الشيء الذي تخلفه من أهل وأولاد وأموال فلا قيمة لها، ففرق بين هؤلاء وهؤلاء، ولهذا أولئك قال إنها ملائكة العذاب وهؤلاء ملائكة الرحمة.

الثاني: يوم القيامة، فهم يأتون ويصفون خلف بني آدم والجن، وقد مدت الأرض مداً وزيد فيها زيادة أكثر مما كانت، وأزيل منها الجبال وغيرها حتى تتسع للوقوف، ومع ذلك كل شخص لا يستطيع أن يحصل إلا موطئ قدميه واقفاً بلا جلوس ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦] في يوم مقداره خمسين ألف سنة وهم وقوف والشمس فوق رؤوسهم تدنو منهم، ولا يوجد لا أكل ولا شرب ولا كساء بل عراة حفاة غرلاً، وهذا اليوم يجب ألا ينساه الإنسان، وأن يتذكره دائماً وأن يكون نصب عينيه وأن يخاف؛ لأنه يوم شره مستطير كما قال الله جلّ وعلا، ثم يأتي الله جلّ وعلا بعد إتيان الملائكة، فقد جاء في الحديث: أنها تتنزل ملائكة السماء الدنيا ثم الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وكلما نزل ملائكة قال بعض من هو واقف: هل فيكم ربنا؟[1] فالله جلّ وعلا يأتيهم وهم في الأرض، يقول ابن القيم رحمه الله: قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في نزول الله جلّ وعلا إلى الأرض.

لكن يجب أن يعلم أن نزوله إلى الأرض يكون وهو على عرشه تعالى وتقدس، وأنه لا يكون شيء فوقه لأنه أكبر من كل شيء وأعظم

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» وقال: رواة هذا الحديث عن أخرهم محتج بهم غير علي بن زيد بن جدعان القرشي وهو وإن كان موقوفاً على ابن عباس فإنه عجيب بمرة. ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

من كل شيء، والأرض والسماء إذا شاء قبضهما بيده فصارت صغيرة ليست بشيء بالنسبة إليه، فلا يكون شيء فوقه تعالى وتقدس، فمجيئه إلى الأرض ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة وهو على عرشه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ هذا الإتيان يكون في الدنيا لقبض أرواحهم بخلاف الآية التي قبلها.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يعني يوم القيامة للفصل بينهم وجزائهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيل: طلوع الشمس من مغربها، وهذه الآيات إذا وقعت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت ولا تقبل التوبة.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٢]

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما يزعمه هؤلاء الكفرة من أنه لا بعث بعد الموت.

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دك الأرض: هو تسويتها بحيث لا يكون فوقها شيء مرتفع لا بناء ولا جبل، وكرر هذا للتأكيد ولأنه يتكرر، فالأرض تتزلزل وتضطرب وتصبح الجبال هباء منثوراً، أي: كالغبار الطائر من شدة التدكدك والزلزلة.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ والملك هنا يعني الملائكة يأتون صفوفاً، يصفون خلف بني آدم محيطين بهم، ويجيء الله للفصل، وقد جاء تفصيل هذه المذكورات في هذه الآيات في السنة تفصيلاً كأن الإنسان يشاهده مما ذكره الرسول ﷺ.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]

تشقق السماء بالغمام لتنزيل الملائكة ولنزول الله ﷻ، وهذه الآية كالتي قبلها تدل على نزول الله جلّ وعلا ليحكم بينهم، وفي هذه الآيات وصف الله جلّ وعلا بالمجيء والإتيان وهو مجيء حقيقي بالفعل، يأتي بنفسه جلّ وعلا على ما وصف إلى الفصل والحكم بين عباده وهم في الأرض ولا يتولى الحكم والفصل غيره وهو سريع الحساب تعالى وتقدس.

إِثْبَاتُ الْوَجْهِ لِلهِ سُبْحَانَهُ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]،

وهنا إثبات صفة الوجه لله جلّ وعلا، وقد تكاثرت النصوص في ذلك عن الرسول ﷺ كما جاء في القرآن، وسيذكر المؤلف ﷾ من السنة بعض الأحاديث على ذلك.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ الضمير هنا يعود على الأرض، وقيل: إن الضمير يعود على الحياة، أي: أن كل من كان حياً سوف يفنى، والفناء لا يدل على الاضمحلال والزوال والانعدم نهائياً، ولكن يدل على نهاية الحياة، وإذا كان المقصود بالخليقة كل من كان حياً فهو فانٍ فهذا يشمل الأحياء كلهم، وقد استثنوا ثمانية أشياء من هذا، ولكن بعضها لا يدخل مثل العرش والكرسي والجنة والنار والأرواح لأنها قد تكون تصعق، وقد جاء ذلك صريحاً، كما في الحديث الذي في الصحيحين، وإن كان مشكلاً على البعض وهو حديث أبي بكر وغيره لما ضرب أبو بكر اليهودي حينما سمعه يقول: لا والذي أكرم موسى ﷺ على العالمين قال: تقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلطمه فذهب اليهودي يشتكي لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: **«لا تفضلوني على موسى ﷺ فإن**

الناس يوم القيامة يصعقون فأكون أول من يفيق فأجد موسى ﷺ باطشاً بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»[1]، وبعض العلماء كابن القيم حمل هذا الحديث على صعق يكون في الموقف بعد نفخة الصور الثانية، ولكن هذا غير صحيح؛ لأنه ثبت في الصحيحين: «**يعني ممسكاً قائمة من قوائم العرش، فلا أدري أبعث قبلي ـ في رواية نفض التراب قبلي ـ أم جوزي بصعقة الطور**»[2]، وموسى ﷺ كما هو معلوم قد مات ثم بعث، فمن هنا يأتي الإشكال الذي أشكل على كثير من العلماء والله أعلم بمراد رسوله ﷺ، ولكن المقصود أن الذي استثني في قوله جلّ وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فهل يكون العرش والكرسي كما يقول السيوطي وغيره؟.

فهذا يصح في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦] أما للعرش والكرسي فلا يصح أن يوصفا بالصعق، وقد قيل: إن هذا للحور العين، وقيل: إنه للشهداء، وقيل: إنه لبعض الملائكة، والله أعلم من هم المستثون.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ يقول الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ فلا تقف بل صل، وهذا لأن ذكر الفناء والموت ليس فيه مدح وإنما المدح الذي أراده جلّ وعلا هو توحده بالبقاء تعالى وتقدس، وأهل البدع حاولوا أن يكون المراد بالوجه هنا الذات، أي: أن معنى قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ويبقى ذات ربك، وقالوا: يدل على هذا أنه لو قلنا بهذا أنه قد يفهم أن غير الوجه ما يبقى، وهذا فهم خاطئ؛ لأنه قد يذكر الشيء ويذكر أشرف ما فيه ويكون الباقي تابعاً له فلا يدل

(١) متفق عليه. قال أحمد شاكر: انظر: «صحيح مسلم» (٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٢) سبق تخريجه.

هذا على الذي قالوه، ولكن قصدهم أن الله ليس له وجه تعالى الله وتقدس، وبعضهم يقول: إن الوجه صلة، وهذا يعني أن ذكره زائد والمعنى: ويبقى ربك، وبعضهم يقول: إن قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هنا شيء آخر وهو ثواب ربك أو جزاء ربك أو ما أشبه ذلك من الأمور التي هي مخلوقة، وكل هذا تكذيب لكلام الله جلّ وعلا وتحريف له، والآية تدل بلفظها على إبطال هذه الأقوال فقال جلّ وعلا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ فوجهه هو الباقي وهو العامل ليبقى وهو مضاف إلى ربك، ثم جاء النعت ﴿ذُو﴾ والنعت هنا للوجه وهذا يبطل قولهم؛ لأنه لو كان مثل قولهم لقال ذي الجلال والإكرام كما قال في آخر السورة.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]

هذه الآية في آخر سورة القصص فيها إثبات الوجه لله تعالى، وقد تكاثرت النصوص عن رسول الله ﷺ في ذكر وجه الله الكريم جلّ وعلا، مرة يسأل به ويتوسل إليه ومرة يعوذ به ومرة يذكر أنه جلّ وعلا يكشف الحجاب عن وجهه فيراه أهل السعادة أهل الجنة وهناك أحاديث كثيرة، وأهل الباطل ينكرون أن يكون لله وجه، تعالى الله وتقدس عن قولهم؛ لأنهم أهل إلحاد وليسوا أهل إيمان، ومعلوم أنه لا يثبت إيمان إنسان حتى يشهد لرسول الله ﷺ بأنه المبلغ عن الله جلّ وعلا وبأنه أكمل الخلق نصحاً للخلق، وإذا تأمل الإنسان بأن الرسول ﷺ قد أعطي البيان الكامل؛ فلا أحد يستطيع أن يبين كبيانه وأعطي النصح الكامل للأمة وأعطي الخوف من الله جلّ وعلا، وأنه لم يترك شيئاً من الأمور فيه التباس أو اشتباه على الأمة، ولهذا كان كثيراً ما يقول في الجمع الكبير إذا اجتمع عنده: «**إنكم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون؟**»[1] يتلمس أن يكون

(١) سبق تخريجه.

هناك شيء من التقصير فيستدركه، ولكن يشهدون له بأنه بلغ البلاغ المبين، فيستشهد ربه على قولهم كما وقع له في عرفات صار يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينكسها عليهم ويقول: «**اللهم اشهد**»[1] اشهد عليهم أنهم شهدوا لي بأني بلغت، والله جلّ وعلا كذلك قوله فيه الشفاء وفيه الهدى، ومن ابتغى الهدى من غيره فلا بد أن يضل، كل هذا إذا تصوره الإنسان علم أن الحق فيما قاله الله وأن ظاهر قول الله جلّ وعلا هو الذي يجب أن يؤمن به ولا يتعدى ذلك لا بتأويل ولا يطلب أمر آخر من أقوال الكبراء المتبعين من أصحاب المذاهب الذين يكون لهم أتباع، فإن هؤلاء إذا جاؤوا بخلاف قول الله أو قول رسوله فإنه يجب أن يرد عليهم قولهم، وألا يعتاض بقول الله رسوله ﷺ بشيء من الأشياء، ولهذا يقول الإمام أحمد وغيره: لا نزيل صفة من صفات الله لشناعة المشنعين؛ لأن أهل الباطل يشنعون على أهل الإثبات ويسمونهم مشبهة ومجسمة ونابتة وحشوية وغير ذلك مما هو إرث من المشركين القدامى الذين يرمون الرسل بما هم أولى به منهم، وهذا يقال في كل موضع يذكر فيما هو واجب على العبد إثباته لله جلّ وعلا، ثم إن الوجه واليدين والرجلين وغيرها من صفات ربنا جلّ وعلا يجب أن يؤمن بها على ظاهرها، ولا نذهب لنبحث ونقول: إنها ليست كذا وليست كذا كما يقول البيهقي رحمه الله وعفا عنا وعنه في كتابه (الصفات): إثبات الوجه لا من حيث الجارحة، إثبات اليدين لا من حيث الجارحة، الله خلق آدم ﷺ بيديه لا بمماسة ولا بكذا وكذا.

هذا كله من الباطل الذي أغنانا الله جلّ وعلا عنه فلا يجوز أن نقول ذلك، بل نقول ما قاله الله جلّ وعلا وما قاله رسوله ﷺ؛ لأن

---

(١) صحيح. وهو قطعة من حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ. رواه مسلم وأبو داود والدارمي وابن ماجه وغيرهم، وقد أفردته في جزء لطيف، وضممت إليه كل ما وقع لي من الروايات والزيادات الثابتة عن جابر رضي الله عنه في سياق واحد، وعلّقت عليه بتعليقات مفيدة. ألباني.

هؤلاء إذا ذكر الوجه وذكرت اليدين أول ما يتبادر إليهم جوارح وأعضاء الإنسان ـ تعالى الله وتقدس ـ وقد عرفنا أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وهذا عام في الذات وفي الصفات وفي الأفعال وحتى في الحقوق.

﴿كُلُّ﴾ هنا من أدوات العموم، ولا سيما إذا أضيفت إلى شيء أصبحت عامة شاملة، ولكن سياق الكلام هو الذي يحدد المقصود، فهنا سياق الكلام يدل على أنه لا يبقى على الحياة أحد إلا الله جلّ وعلا، ولا يفهم من هذا أنه يقصد الوجه فقط دون الذات ـ تعالى الله وتقدس ـ كما يقوله بعض القاصرين في العلم أو المحرفين؛ لأنه معروف في لغة العرب يعبر عن الشيء بأشرف ما فيه ويكون الباقي تبعاً، أما إذا جاءت ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] في سياقات أخرى؛ فالسياق هو الذي يحدد المراد كقوله جلّ وعلا: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] يعني تدمر كل شيء أمرت بتدميره ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] فالمساكن شيء، والجبال شيء، فلم تدمرها، وكذلك قوله جلّ وعلا في ملكة اليمن: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وفي هاتين الآيتين إثبات الوجه لله جلّ وعلا حقيقة على ما يليق بكرمه وجوده وعظمته.

إِثْبَاتُ الْيَدَيْنِ للهِ تَعَالَى

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]

وهذه الآيات فيها إثبات اليدين لله جلّ وعلا، وكلا يديه كاملة تامة وقد جاء في الحديث الصحيح في قصة آدم ﷺ لما قال: **«فقبض قبضتين، فقال: اختر، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين»**[(١)] يعني كلتا يدي ربي كاملة لا يلحقها نقص، ولا يجوز أن يتوهم ما

(١) الترمذي (٣٤٩٨)، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن، من حديث أبي هريرة ﷺ.

يتوهمه بعض الجهال أن معنى قوله: «**كلتا يدي ربي يمين**» أنها من جانب واحد ـ تعالى الله وتقدس ـ فإن هذا شوهة ولا يجوز مثل هذا، وثبت في صحيح مسلم أن الله جلّ وعلا يقبض السماوات بيمينه والأرضين بشماله[1] وكذلك ثبت عن ابن عباس أنه قال: إن الله يقبض السماوات والأرضين بيده وتكون شماله فارغة، وإنما يستعين بشماله من كانت يمينه مشغولة، ولكن قوله: «**كلتا يدي ربي يمين**» المقصود به كلتاهما كاملة ما يحلقها نقص كيد المخلوق، فإن يد المخلوق الشمال أنقص من يده اليمين، ولهذا يخاطبنا الله جلّ وعلا باللغة التي نعرفها، لما ذكر أن كلامه هذا الذي أنزله على عبده ورسوله أنه وحيه قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٥، ٤٦] لأن العرب يعرفون في خطاباتهم واصطلاحاتهم أن الأخذ باليمين أقوى وأشد، فهو يخاطبهم بما يتعارفون عليه، وإلا فربنا جلّ وعلا كل صفاته كاملة ليس فيها نقص.

وفي قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] هذه التثنية خاصة بآدم ﷺ أنه باشر خلقه بيديه جلّ وعلا، يعني إكراماً له من بين المخلوقات، فالملائكة قال لهم: كونوا، فكانوا وكذلك سائر المخلوقات يخلقها بقوله بقدرته وتكوينه، وآدم ﷺ باشر جلّ وعلا خلقه بيده من التراب، فلما كمل خلقه أمر الملائكة أن تسجد له، فأبى إبليس أن يسجد حسداً وكبراً، فعاتبه الله جلّ وعلا بهذه الآية، يعني أنا لم أتكبر ـ وهو الكبير المتعال جلّ وعلا ـ عن مباشرة خلقه بيدي وأنت تتكبر عن السجود له، ولو كان كما يقول أهل البدع: أن المقصود هنا باليد القدرة

(١) البخاري (٤٨١٢)، كتاب التفسير، باب ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ومسلم (٢٧٨٨، ٢٧٨٧)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، من حديث أبي هريرة ﷺ.

لكان المعنى: ما منعك أن تسجد لما خلقت بقدرتي، فهل لله جلّ وعلا قدرتين؟.

الأشاعرة يقولون: إن كل المقدورات بقدرة واحدة، ليس هذا معناه، بل معناه أن قدرته في إيمان المؤمن وكفر الكافر وإسلام المسلم شيء واحد عندهم، وإلا فقدرة الله واحدة ويوجد بها المقدورات، ولكن المقدورات تختلف، فهذا يرضاه وهذا يسخطه حسب أوامره وحسب تقديره جلّ وعلا، وكذلك لا يصح أن يقال: إن المقصود باليد هنا النعمة، فتكون: بما خلقت بنعمتي؛ لأنه يقال لفلان: عندي يد، فهذا لا يصح بهذا التركيب، فالله نعمه كثيرة جداً، مع أننا قلنا: إن الواجب الإيمان بالظاهر على ما خاطبنا الله جلّ وعلا به كما آمن الصحابة، فلو أن طالب علم أو عالم ذهب يفتش عما روي في دواوين الإسلام من كتب حديث أو كتب تاريخ أو غيرها؛ ما يجد حرفاً واحداً يدل على أن الرسول ﷺ قال: «لا تعتقدوا أن ظاهر هذا مراد أو قال شيئاً مما يدل على ذلك، أو أن الصحابة شكوا في ذلك، أو أنهم سألوا ما المقصود باليدين، هل هي القدرة أو النعمة أو اليد الحقيقة؟.

مما يدل على أنهم علموا أن هذا هو الحق فآمنوا به على ظاهره، ولو لم يكن على ظاهره ـ كما يقول هؤلاء ـ لسألوا، وقد سألوا عن أشياء أقل من هذا قدراً كالمحيض والأهلة واليتامى وعن أشياء لا تساوي ذلك، فهذا من الأمور التي يقطع بها قطعاً ولا تردد فيه، ولكن ليس لمن غيرت فطرته وتلقى دينه عن الفلاسفة وعن أهل الباطل، فهؤلاء قعدوا قواعد أبطلوا بها كتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله ﷺ، وجعلوا أقوالهم براهين عقلية ـ حسب زعمهم ـ وهي أقيسة فاسدة وتشكيكات، أما كتاب الله فجعلوه ظواهر لا تعطي يقيناً ولا تفيد العلم، فلا بد أن ترجع هذه الظواهر إلى اليقينيات والبراهين، وهكذا يبطلون شرع الله الذي جاء به رسول الله ﷺ، وللناس طرق في إبطال أمر الله جلّ وعلا.

وقد جاءت اليد مثناة في كتاب الله جلّ وعلا وفي أحاديث رسوله ﷺ، وجاءت مفردة وجاءت مجموعة حسب السياق، ولكن المقصود بالإفراد وبالجمع يتبين عند الإضافات، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «إن الله لم يباشر بيده إلا ثلاثة أشياء: خلق آدم ﷺ بيده وغرس جنة عدن بيده وكتب لموسى بيده»[1] وفي حديث الشفاعة الثابت أن أهل الموقف يذهبون إلى آدم ﷺ ويقولون: **«إن الله جلّ وعلا خلقك بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ألا ترى ما نحن فيه اشفع لنا إلى ربك»**[2] أمر معلوم للأمم كلها لأن الله جلّ وعلا أنزله في كتبه وجاءت به رسله، والأحاديث كثيرة في هذا.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]

لا يلزم أن اليهود كلهم قالوا هذا وإنما قال قائل منهم؛ لأنهم يرضون بذلك، إذا قال كبير من كبرائهم وعالم من علمائهم فهم تبع له، ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: يعنون بذلك أن الله بخيل، والعادة التي جرت في الناس أن الناقص يرمي غيره بما فيه، والبخل معروف أنه من أوصاف اليهود، فالله لم ينكر على اليهود وصفهم إياه بأن له يداً، وإنما أنكر عليهم بأنهم وصفوه بالنقص والعيب تعالى الله وتقدس، لهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ وفي الصحيحين عن النبي أنه قال: **«يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض»**[3] فيد الله ملأى، وإذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن

(١) «السنة» لعبد الله بن أحمد (١٥٦٩) (١/٢٩٥)، ما جحدته الجهمية الضلال من كلام رب العالمين.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري (٤/٤٦٤، ٤٥٤)؛ وأحمد (٣/١١٦)، في حديث الشفاعة من حديث أنس. ألباني.

(٣) البخاري (٤٦٨٤)، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾؛ ومسلم

يَحْكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وليس هناك شيء يمكن أن ينتفع به حي إلا من الله جلّ وعلا، فقول هؤلاء الكفرة من أكبر البهت وأعظم الظلم، والمقصود من هذا إثبات اليدين لله جلّ وعلا وهو أمر واضح جداً؛ لأن التثنية لا تقبل لا مجاز ولا تقبل أيضاً حذف أو احتمال، لهذا أعيت هؤلاء الذين يؤولون حتى جاؤوا بأمور مضحكة في تأويلاتهم.

إِثْبَاتُ الْعَيْنَيْنِ للهِ تَعَالَى

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]

صفة العينين لله جلّ وعلا لم تأتِ مثناة في كتاب الله جلّ وعلا، ولكن جاءت مثناة في أحاديث الرسول ﷺ، ففي الصحيح أن الرسول ﷺ قال: **«واعلموا أن ربكم ليس بأعور»**[1] وهذا في حديث الدجال؛ لأن الدجال يأتي إلى الناس ويقول إنه ربهم، وهو أعور العين اليمنى وعينه كعنبة طافية، وفي حديث ـ ولكنه ضعيف ـ **«إذا قام العبد في الصلاة فإنه بعيني الرحمن، فإذا التفت قال الله جلّ وعلا: إلى خير مني»**[2]، والسبب في كون العينين لم تأتِ مثناة أنها جاءت إما مضافة إلى ضمير العظمة، والقاعدة أنها إذا أضيفت إلى ضمير الجمع تجمع وهي اللغة الفصحى، وأما إذا جاءت مضافة إلى المفرد فتفرد، وهذا لا يدل على أن له تعالى عيناً واحدة أو أعيناً كما يشنع به بعض أهل البدع ويقولون: يلزمكم أن تثبتوا أعيناً كثيرة أو تثبتوا عيناً واحدة.

= (٩٩٣)، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١) البخاري (٧١٣١)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال؛ ومسلم (٢٩٣٣)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) أبو داود (٧٧٥)، كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة؛ النسائي (١١٨٢)، كتاب السهو، باب التشديد في الالتفات في الصلاة، من حديث أبي ذر ﷺ.

قوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾ هذا أمر بالصبر، والصبر في اللغة: هو الحبس، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس الجوارح عن اللطم والشق، وحبس القلب واللسان عن الشكوى، وجعله العلماء ثلاثة أقسام:

الأول: صبر على طاعة الله.

الثاني: صبر عن معاصي الله.

الثالث: صبر على أقدار الله.

ولا بد للعبد من الصبر، فالذي لا صبر له لا دين له ولا إسلام له، ولهذا جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، أنه قال: «الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد» إذا زال الرأس مات الإنسان، فإذا قيل: قتل صبراً إذا أسر ثم قيد ثم قتل، وسمي الصيام صبراً لأنه حبس للنفس عن تناول المفطرات كذلك غير البدن.

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وحكم الله نوعان:

الأول: شرعي أمري.

الثاني: كوني.

ويجب أن يصبر لحكم الله سواء كان شرعياً أمرياً أو كان كونياً، وحكم الله جلّ وعلا شامل للخلق كلهم وأنه يجب أن يمتثلوه، ولكن أكثر الناس لم يمتثلوا الحكم الشرعي وكفروا به، وإنما امتثله المؤمنون.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني بمرأى منا، والرؤيا تكون بالعينين، يعني أنه لا يخفى عليه عملك وتقلبك وما يكون منطوياً عليه ضميرك، فإن الله لا يحجب نظره شيء، كما أن سمعه لا يفوته شيء من المسموعات تعالى الله وتقدس.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝﴾ [القمر: ١٣، ١٤]

وهذا في قصة نوح ﷺ، والألواح هي الخشب الكبير الذي تصنع منه السفينة، والدسر: المسامير، أي: ألواح مرتبطة بالدسر والمسامير.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني بمرأى منا وحفظ وكلاءة.

﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاء للكفار الذين أغرقوا، وكذلك حملها وجريها وحفظها جزاء لمن كان كُفِر، وهو نوح ﷺ لما كفر به قومه وقد بقي معهم زمناً طويلاً جداً، وهو يدعوهم وهي ألف إلا خمسين سنة في دعوته، ولم يترك مجالاً إلا وطرقه في علاجهم، فدعاهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ولما يأس منهم دعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] لأنه كان ينتظر أولادهم علّهم يهتدون وكلما جاء جيل فإذا هو كافر مثل آبائهم. فأغرقهم الله جلّ وعلا ولم يبق على وجه الأرض إلا من كان مع نوح في السفينة، ومع ذلك الذين معه في السفينة لم يعقبوا، وإنما جعل ذريته هم الباقين، فهو الأب الثاني للبشر، الأب الأول آدم ﷺ، ثم هلك أولاده كلهم بالغرق، ولم يبق إلا من مع نوح ﷺ في السفينة، وصارت ذرية نوح ﷺ هم الباقين، وهم ثلاثة: حام وسام ويافث.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وهذا في قصة موسى ﷺ، وهذا يعني أن الله حببه إلى خلقه وأحبه الله جلّ وعلا، وهذا منّة من الله وفضل، فكل من رأى كليم الله أحبه، ولا عبرة في الكفرة والفجرة الذين نكست عقولهم وقلوبهم، فإن فرعون عدوه ومع ذلك ألقي له محبة فتربى في بيته وأكل من طعامه، وهذا من عجيب صنع الله جلّ وعلا؛ لأن فرعون قبل

له: إنه سيولد مولود من بني إسرائيل يكون زوال ملكك على يده فقال: إذاً يقتل كل مولود منهم وتبقى النساء، وقد ذكره الله جلّ وعلا: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤] فلما كاد يفنى بنو إسرائيل خشوا أنهم ينتهون بموت الكبار وقتل الصغار فلا يبقى إلا النساء، فقيل له في ذلك فقال: نتركهم سنة ونقتلهم سنة، فولد هارون في السنة التي ليس فيه قتل، وولد موسى ﷺ في السنة التي يقتل فيها الأولاد، فأوحى الله جلّ وعلا إلى أمه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] فجعلته في خشبة وغلقت عليه وألقته في النيل، فخرج أقرباء لفرعون من قصره وهو على النيل فوجدوا هذه الخشبة فأخذوها فلما فتحوها وجدوا فيها الغلام، فجيء بها إلى فرعون فقال: اقتلوه. قالت زوجته: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [القصص: ٩] فتركه فصار فطلبوا له المراضع فلم يقبل ثدي امرأة، وقد أرسلت والدته أخته تتطلع وتقص أثره وتنظر ماذا صار عليه، فرأتهم قد تعبوا يبحثون عن مرضعة فقالت: هل أدلكم على من يكفله؟.

فأرجعه الله إلى أمه ترضعه ولها أجر، فالمقصود أن الله جلّ وعلا ألقى عليه محبة منه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ يعني تربى على نظري وعلى مرأى مني وحفظ وكلاءة وهذا يقتضي حفظه والعناية به من الله جلّ وعلا وفيه إثبات العين لله جلّ وعلا.

إِثْبَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ للهِ سُبْحَانَهُ

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]

هل هناك فرق بين البصر والعين؟ أليس البصر هو العين؟ أو أن البصر يحصل بالعين؟.

لأن البصر هو إدراك المبصرات وإدراكها بالعين، والله جلّ وعلا ليس كمثله شيء تعالى وتقدس، ولكن الواجب أن يثبت ما في القرآن، إذا جاء بلفظ العين أثبتنا العين وإذا جاء بلفظ البصر أثبتنا البصر وإذا جاء السمع أثبتنا السمع، فلم يأت أذن تعالى الله وتقدس، فبعض الذين كتبوا يقولون: يسمع بأذن، وهذا خطأ ولا يجوز مثل هذا؛ لأن الله جلّ وعلا لا يوصف إلا بما وصف به نفسه.

والمرأة المذكورة في الآية هي خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت لما ظاهر منها قائلاً: أنت علي كظهر أمي، وهذا معروف كان حتى في الجاهلية أن مثل هذا طلاق وأقره الله جلّ وعلا وجعل له كفارة بسبب هذه الواقعة، فجاءت إلى النبي ﷺ فدخلت عليه في بيته عند عائشة، وكان ﷺ له تسع نساء كل واحدة منهن لها غرفة واحدة، وقد أدخلت كلها في المسجد لأنها كانت ملاصقة للمسجد ويكون على المسجد فتحة يدخل منها ﷺ، وكان غيره كذلك اقتدوا به فجعلوا لهم بيوتاً ملاصقة للمسجد وفتحوا فتحات عليه يدخلون معها، وفي مرض موته ﷺ أمر أن تسد كل خوخة مفتوحة على المسجد إلا خوخة أبي بكر، فدخلت عليه فأخبرته فقال: «**حرمتي عليه**»، فصارت تشكوا وتقول إلى الله أشكو صبية إن ضممتهم إلي جاعوا وإن تركتهم عنده ضاعوا فيقول: «**حرمتي عليه**»، ولما قال لها ذلك قالت: إلى الله أشكو[1]، فأنزل الله جلّ وعلا هذه الآية، وهذا يدل على أن الشكوى إلى الله عبادة وأن الله جلّ وعلا يستجيب، بخلاف الشكوى إلى المخلوق فإنها قد تكون شكاية لله جلّ وعلا، وسبق أن الصبر واجب والشكاية تنافي الصبر، إلا إذا كانت لمعنى كالإخبار للطبيب أو غيره حتى يساعده أو مجرد إخبار لجواب

---

(١) ابن ماجه (٢٠٥٣)، كتاب الطلاق، باب الظهار؛ وذكره البيهقي في «الكبرى»، من حديث عائشة رضي الله عنها.

سؤال، فإن الرسول ﷺ كان إذا دخل على المريض قال: كيف تجدك؟.

يسأله عن حاله فيجيب: أجدني كذا وكذا، فمثل هذا لا ينافي الصبر، وكذلك الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر.

﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ المجادلة والمحاورة شيء واحد هنا لأنه قال بعدها: ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ والتحاور هو الكلام الذي حار من واحد إلى الآخر، يعني يرجع، وكذلك المجادلة رجوع الكلام.

﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعني له السمع والبصر، فيسمع جلّ وعلا بسمعه ويبصر ببصره تعالى وتقدس، وسمعه وبصره كلاهما لا يفوتهما شيء، وكثيراً ما يقرن جلّ وعلا بين السمع والبصر، وقد عاب جلّ وعلا على المشركين أنهم يدعون ما لا يسمع ولا يبصر، وأن السمع والبصر يدل على الكمال، فلو أن هذه الناقصات اتصفت بهذه الصفات لكان هناك شيء من العذر لمن يدعونهم، ولكنها أنقص من الداعين.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]

هذا أيضاً من قول اليهود، وقوله: ﴿لَّقَدْ﴾ هذا قسم من الله جلّ وعلا وإن كان قد حذفت الواو وتقديره: والله لقد، والله جلّ وعلا كثيراً ما يقسم لنا في كتابه، ومعلوم أن خبره حق وصدق ومطابق للواقع، ولكن كثيراً من الناس يتردد في ذلك، فإذا أكدت الأخبار ربما يكون أدعى لقبوله، فإنه يدعوه ذلك للنظر والتأمل، فإذا نظر وتأمل تبين له الحق، وهذا من الحكمة في الإقسام، وهذا القول من بعض اليهود لما نزل قول الله جلّ وعلا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال بعض اليهود: إنه محمد فقير يستقرضنا ـ تعالى الله وتقدس ـ فأنزل الله جلّ وعلا هذه الآية، وهي تدل على التهديد والتوعد وأنه

سوف يجازيهم بما يستحقون، خلاف الآية الأولى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ فإنها تدل على الرحمة وعلى قبول الشكاية والاستجابة، والمقصود إثبات السمع لله جلّ وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٨٠].

في الصحيح عن عبد الله بن مسعود يقول: إنه كان عند البيت ثلاثة من كبراء المشركين كثيرة شحوم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقال واحد منهم وهم يتحدثون: أترون الله يسمعنا في كلامنا هذا؟.

قال الآخر: إذا جهرنا سمعنا وإذا أخفتنا لا يسمعنا. فقال الثالث: إن كان يسمعنا إذا جهرنا فهو يسمعنا إذا أخفتنا، فأنزل الله جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٨٠] يعني أنه جلّ وعلا لا يفوته شيء ويسمع كل ما تحرك به اللسان، سواء كان سراً بين العبد وبين نفسه ما يسمعه أحد وإنما يقوله في نفسه، أو يسره إلى من هو بجواره، أو كان نجوى لشخص أو لشخصين أو لأكثر ولكن يخفونه بحيث لا يسمعه غيرهم، والمقصود بهذا ذكر تمام سمع الله جلّ وعلا وأنه لا يفوته مسموع مهما دق، وفي هذا تهديد وتوعد أن الله جلّ وعلا سوف يجازيهم بأقوالهم وأعمالهم فإنه قد سمعها وحفظها عليهم، ومع ذلك ملائكته يكتبون كذلك أعمالهم ولا يفوتهم شيء، يكتب ويسجل والله يسمعه، فإذا كان يوم القيامة عرض المكتوب عليهم وأنبأهم الله جلّ وعلا بأخبارهم وأعمالهم، ولكن كثير من الناس ما ينبأ ولا يقام له وزن لأنه ليس له إلا سيئات، فمثل هذا يؤمر به إلى جنهم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ وإنما يحاسب المخلط، ومع ذلك تعرض عليهم حتى يعذروا من أنفسهم، ولهذا أخبر الله جلّ وعلا أن المجرمين إذا جيء بكتابهم يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا﴾ والصواب أن هذا هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة، فالملائكة تكتب كل شيء ينطق به الإنسان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ رقيب مهمته يترقب مستعد للكتابة إذا تلفظ بها كتبها، وكل شيء يكتب وقد يمحى ما يشاء الله جلّ وعلا، فإنه جاء في قول الله جلّ وعلا: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أن هذا المحو والإثبات على أحد الأقوال الثلاثة للعلماء:

القول الأول: أنه في صحائف الملائكة التي تكتبها.

القول الثاني: أنه في الشرائع التي ينسخها الله جلّ وعلا، وهذا هو الصواب والله أعلم.

القول الثالث: أنه الكتابة التي كتبت على العبد أزلاً، ولكن هذا ضعيف.

جاء في الأثر أن رجلاً كان راكباً حماراً، فعثر الحمار فقال الراكب: تعس الحمار. فقال الملك الذي يكتب الحسنات: ليست حسنة فأكتبها. فأوحى الله جلّ وعلا إلى الآخر الذي يكتب السيئات، إذا لم يكتبها ملك الحسنات اكتبها، ومعنى ذلك أن الذي ليس خيراً ولا يكتب في صحيفة العبد خيراً يكتب في الصحيفة الأخرى.

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

هذا خطاب لموسى ﷺ وأخيه هارون، يقول جلّ وعلا: لا تخافا من فرعون ومن سلطته وجبروته فإني معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى ماذا يصنع وناصيته بيدي، فهو يدل على الحفظ والكلاءة مع الرؤيا، فالله معهما دون فرعون، مع أنه يخاطبهم ويكلمهم ويقابلهم لأن هذه معية خاصة، والمعية تنقسم إلى قسمين: خاصة وعامة، وكلاهما معناه المصاحبة، وليس شيء منهما يقتضي الاختلاط والامتزاج تعالى الله وتقدس، فهو مع موسى ﷺ وأخيه هارون وهو فوق عرشه تعالى

وتقدس، ولكن الفرق بين المعية الخاصة والعامة: أن المعية الخاصة تدل على النصر والتأييد والحفظ والكلاءة، والعامة: تدل على التخويف والمراقبة والمحاسبة وأن الله جلّ وعلا لا يخفى عليه شيء، فمقتضى المعية العامة التخويف كقوله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وإلا فمعنى المعية في كلام العرب: المصاحبة كقولك: معي مالي أو معي زوجتي، يقول الله جلّ وعلا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني على الإيمان والتقوى وقتال الكفار والدعوة إلى الله، وسمع من كلام العرب قولهم: سرنا مع القمر وسرينا مع القمر، ومعروف أن القمر في السماء، والذي يسير في الأرض فالذي يفهم أن المعية تقتضي الاختلاط والامتزاج لم يعرف كلام العرب.

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ بيّن مقتضى هذه المعية بقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فهو يدل على مقتضى المعية ويدل على إثبات السمع والبصر لله جلّ وعلا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] ويدل على الرأفة والرحمة، ويدل على التهديد ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ويأتي ويراد به الاستجابة كقول الإمام: سمع الله لمن حمده، يعني استجاب، وكذلك قول: إنك سميع الدعاء يعني تستجيبه، ويأتي السمع ويراد به إدراك المعاني كقوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] ومعناها أدركوا المعنى واستجيبوا له واعملوا به، ويأتي السمع ويراد به القبول كقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] يعني يقبلون كلامهم، أما الذي يقول معناها أن فيكم جواسيس ونظراء ورقباء فهو غير صحيح، فهذه معاني السمع التي جاءت ومنها قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] هذه إدارك المعاني والقبول، فالمقصود أن سمع الله جلّ وعلا لا يفوته شيء فهو سميع بسمع كما أنه بصير جلّ وعلا، وهذا يدلنا على أن الأصل في الأسماء الصفات؛ لأن الأسماء أخذت من هذه المعاني القائمة بذات الرب جلّ وعلا، وهذا معنى قول العلماء إنها مشتقة.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤].

هذا تهديد لمن نهى من يصلي، أي: ألم يعلم بأن الله يرى فعله وتقلبه وأنه سوف يجازيه؟.

فإنه يرى عمله وفعله وما يزاوله وسوف يجازيه على ذلك، فهو يدل على التخويف كما أنه يدل على إثبات الرؤيا لله جلّ وعلا بأنه يراه ولا يفوته شيء.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢٢٠]

وهذا خطاب للرسول ﷺ يدل على العناية به والحفظ له والكلاءة وأن الله جلّ وعلا لا يضيعه بل سوف ينصره ويعلي دعوته، فقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ حين تقوم للعبادة وحين تقوم إلى الدعوة داعياً إليه.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: كونك تسجد لله جلّ وعلا مع الساجدين، ويؤخذ من هذا فضل الصلاة في الجماعة، والمعنى أن الله لا يخفى عليه شيء، وأنه مهما كان من حركة فهو يشاهدها ومهما كان من صوت فهو يدركه ويسمعه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ وهذا تحقيق لما ذكر من أنه يسمع ويرى، والعلم محيط بهذا كله، فهو العليم بمآل الأمور كما أنه عليم بها قبل وجودها، فسوف يجازي أصحابها بما يستحقون.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤] فقسم الناس وذكر أن المنافقين يعتذرون إلى الرسول ﷺ بالكذب وأخبر أن قوماً منهم خلطوا عملاً صالحاً ليسوا من المنافقين وآخر سيئاً، وأخبر جلّ وعلا أنه يأخذ الصدقات ويقبل التوبة، ففيه الحث والحض على الإقبال على الله جلّ وعلا، وبعد ذلك جاءت هذه الآية ومعناها الحث على العمل، والرؤيا التي تقصد بها هي رؤية المشاهدة بعد بروز الشيء المعلوم، وهذا جاء له نظائر في القرآن فيما يقارب ثلاثة عشر موضوع، في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني علم مشاهدة وعمل بارز ظاهر بعدما علمه جلّ وعلا قبل وجوده، فهو يقع على وفق علمه السابق، ففي الآية الحث على العمل وأن عملهم لن يخفى، إذا كانوا منافقين من كلامهم ومن أعمالهم ما يدل على كذبهم، وإن كانوا صادقين فسيظهر لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ولمن يشاهدونهم، ففيه الحث على الإخلاص والعمل، والمقصود قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فقوله: ﴿فَسَيَرَى﴾ يرى: فعل مضارع يدل على الاستقبال، فالمعنى أنه إذا وجد يراه، وهذه الرؤيا تقتضي المجازاة والعمل فيه، وقد علم أن من جزاء العمل الصالح عمل صالح يوفق الإنسان إليه وبالعكس، وهذه الآية تشير إلى هذا، فليس المعنى أن الله لا يعلم بالشيء حتى يوجد ـ تعالى الله وتقدس ـ وإنما المقصود هنا علم الظهور الذي يقتضي المجازاة، ولهذا يقول بعض العلماء أن العلم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: علم يتعلق بالعالم وهو يشمل كل شيء.

القسم الثاني: علم يتعلق بالعمل وظهوره، وهذا الذي يقتضي المجازاة والجزاء، وهو الذي ذكر في هذه الآية ونحوها.

إِثْبَاتُ المَكْرِ وَالْكَيْدِ لله تَعَالَى عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]،

﴿الْمِحَالِ﴾: هو الأخذ بقوة، فهو شديد العقاب جلّ وعلا، فإذا أخذ فأخذه أليم شديد لا يشبه أخذ خلقه - تعالى وتقدس - ولهذا ترى مثلاً من يعمل الإجرام والظلم والأمور المنكرة جداً، ثم يأكل مع الناس ويصحب الناس ويعيش مع الناس ويموت مع الناس ولم يحدث له شيء، وهذا عقابه في الدنيا سهل، فلو أخذ في الدنيا مات بسرعة وقد لا يموت إلا بعد سنين، ولكن كله سهل، وإنما يؤخر للعقاب الأليم الذي لا ينقطع، ومن هذا المعنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] حتى يشتد العذاب والنكال، فعذابه وأخذه جلّ وعلا لا يشبه عذاب الخلق فعذاب الخلق مهما كان فهو ينتهي وينقطع بالموت، والمقصود هنا ذكر شدة عذاب وأخذ الله جلّ وعلا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]،
وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠].

هذا فيه ذكر المكر وأن الله يفعله، ولا يجوز أن نقول: إن الله يوصف بالمكر فضلاً من أن يقال: إنه يؤخذ له اسم منه - كما قاله بعض الذين أخطئوا خطأ فاحشاً، ووقعوا في مأزق عظيم - وإنما يجب أن يطلق على الله هذا الفعل حيث أطلقه ولا يتعدى ذلك، فيقال: إنه خير الماكرين، وأنه يمكر بأعدائه الذين يمكرون بأوليائه أو يمكرون بدينه فإن الله يمكر بهم.

ومعنى المكر: هو إظهار فعل والمقصود ضده وغيره، ولهذا جاء عن السلف: إذا رأيت الإنسان مقيم على معصية الله والله جلّ وعلا يغدق عليه

الرزق ويصح بدنه فإن ذلك مكر واستدراج، والأخبار التي يخبر بها عن الله والأفعال التي يفعلها الله لا تدخل في باب الأسماء والصفات، وإنما تطلق عليه كما أطلقها ولا يتعدى ذلك ولا يزاد عليه، هذا هو الصواب في مثل هذا، فلا يجوز أن يقال: إن الله وصف نفسه بالمكر، والسبب في هذا أن أسماء الله حسنى، والمكر يأتي في الخير والشر، يعني أنه يأتي محموداً ويأتي مذموماً، فكل ما احتمل فيه الحمد والذم فهذا لا يدخل في أسماء الله الحسنى، وقد علم أن باب الخبر وباب الفعل أوسع من باب التسمية وباب الوصف، فالله يخبر عنه بأنه شيء ويخبر بأنه موجود ولكن لا يسمى شيئاً، ولا يسمى موجوداً، وإنما يسمى بما سمى به نفسه جلّ وعلا، وكذلك المكر، فمثلاً: أخبرنا الله أنه يقول ويتكلم، فلا يجوز أن نسميه القائل أو المتكلم أو المريد أو الجائي وما أشبه ذلك من الأفعال التي ذكرها الله جلّ وعلا أنه يفعلها، وكثير من الناس يغلط في هذا فينبغي أن يتنبه له، والقول على الله أمر أعظيم جداً، فيجب أن يكون الإنسان على ثقة وعلى علم إذا قال شيئاً من ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]

يعني أن الكافرين يكيدون لرسول الله ﷺ لقتله والقضاء على دعوته والله يكيدهم بأن يعكس أعمالهم عليهم، فينصره عليهم ويؤيده ويعلي كلمته ويجعل عملهم وبالاً عليهم، ثم يوم القيامة يكون الأمر أشد وأنكى، وليس هذا من التأويل، بل هذا الذي يقوله الصحابة والتابعون لهم ويفسرونه بهذا.

وَصْفُ اللهِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْقُدْرَةِ

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]

﴿إِن﴾ شرطية يدخل فيها القليل والكثير، وقوله: ﴿تُبْدُوا خَيْرًا﴾

يعني تظهروه وتعملوه ظاهراً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني تعملوه سراً، وسواء كان الخير من الخير اللازم لكم الذي يتعداكم كالصلاة والذكر والصوم والحج وما أشبه ذلك، أو الخير المتعدي إلى العباد كالصدقة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك من الأمور التي تتعدى، مع أن بعضها لا يأتي إلا ظاهراً مثل الجهاد.

﴿أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ العفو: هو عدم المؤاخذة على الذنب، يعني تعفوا عمن ظلمكم سواء كان بالأعراض أو بالأموال أو بغيرها، والسوء: كل ما ساء الإنسان فعله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يعني: أنكم إذا فعلتم ذلك فالله أولى بالعفو عنكم والتجاوز عن إساءتكم، ومعنى ذلك: أن الجزاء من جنس العمل، وقوله: ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يعني أن عفوه بعد مقدرته وهذا هو أكمل العفو وأعلاه بأن يكون عفواً عن مقدرة، أما إذا كان عفواً عن عجز وأنه يكون بعد مشادة وجهد فهذا أقل تأثيراً وثمرة، والمقصود هنا وصف الله جلّ وعلا بأنه عفو وبأنه قدير، والعفو: هو المتجاوز عن عباده الذي يعفو عن سيئاتهم وإن كثرت، وعفوه وسع الخلق جلّ وعلا، ولو يؤاخذ الله جلّ وعلا الناس بظلمهم أهلكهم وعاجلهم العقوبة ومنعهم الرزق وما ترك على ظهرها دابة، ولكنه أصبر على أذى سمعه من كل صابر، يدعون له الولد فيرزقهم ويعافيهم كما قال رسول الله ﷺ، فهذا من سعة عفوه جلّ وعلا، وقد يفعلون الأفعال القبيحة ويبالغون بأن يقتلوا أولياء الله، فالله جلّ وعلا يدعوهم بعد ذلك إلى التوبة كما قال جلّ وعلا: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ٧ - ١٠] فهنا دعوة لهم إلى التوبة مع أن أعمالهم سيئة، فهم يخدون الأخاديد ويضرمون بها النيران ويلقون المؤمنين فيها أحياء ويجلسون على كراسيهم يتفرجون على

حريق المؤمنين، ومع ذلك العفو الكريم يدعوهم إلى أن يتوبوا.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]

هذه الآية نزلت في قصة عائشة في أصحاب الإفك الذين رموها، وكان ممن تحدث وصار يسمع الحديث وينقله مسطح ـ وهو ابن خالة أبي بكر ـ وكان فقيراً مهاجراً بدرياً، فلما حصل ذلك منه أقسم أبو بكر ﷺ ألا ينفق عليه، فلما نزلت هذه الآية وقرأها رسول الله ﷺ عليه قال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إليه نفقته وكفر عن يمينه.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ هذا أمر من الله جلّ وعلا لنا أن يعفو بعضنا عن بعض، وقوله: ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ الصفح: هو الإعراض وهو أبلغ من العفو، فكأنك توليه صفحة عنقك أو صفحة خدك ولا تكترث بما حصل منه ولا تلتفت إليه، يعني أنه ليس معه معاتبة، أما العفو فقد يكون معه معاتبة وقد يكون معه شيء من العقاب، أما الصفح فلا.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فهذا تعليل أن المغفرة جزاء للعفو، يعني أن الله يأمرنا أن يعفو المظلوم عن الظالم وأن يصفح وأن هذا يكون من داعي مغفرة الله وعفوه جلّ وعلا للعافي، وهذا مما يدل على كرم الله جلّ وعلا وجوده إذا كان يأمرنا أن يعفو المظلوم عن الظالم منا وأن يصفح، فهو أولى بالتطول بالعفو والإحسان على الظالم من خلقه ـ تعالى وتقدس ـ وهذا كما سبق مراراً أنه يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما أنه يدل على أن أسماء الله مشتقة من الصفات، ووجه ذلك أنه يذكر بأن المغفرة تتعلق باسمه الغفور والعفو باسمه العفو، ولهذا لا يحسن أن تقول: اللهم اغفر لي إنك أنت العزيز المنتقم، ولو كانت غير مشتقة لكان كله سواء.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وسبق أن ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة، وأن هذا الاسم جاء على ثلاثة أوصاف:

أحدها: ﴿غَفُورٌ﴾.

والثاني: ﴿غَافِرِ﴾.

والثالث: (غفار).

وأبلغها (غفار) ويليه ﴿غَفُورٌ﴾، والمعنى كثير المغفرة ـ تعالى وتقدس ـ ولهذا ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لو يعلم الخلق ما عند الله من الرحمة والمغفرة ما آيس من رحمته كافر**»[1] كل الكفار يتطاولون، وجاء أن إبليس يتطاول يوم القيامة لعله يناله شيء من رحمته، ومع ذلك لا يجوز للإنسان أن يتجرأ على معاصي الله ويستهين، فإن الله جلّ وعلا يقول: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ولهذا يقول بعض العلماء: لا تأمن أن الله يدخلك النار بذنب واحد ولا يبالي، وقد أخرج آدم ﷺ من الجنة بذنب واحد، فلا يجوز أن يتجرأ الإنسان على المعاصي، ولكن لا يجوز أن يكون قنوطاً آيساً، والعبادة لها أركان كما لها شروط كما سيأتي فيجب أن يراعى هذا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]،

وجاءت «ال» في ﴿الْعِزَّةُ﴾ تدل على الكمال، فالعزة كلها لله جلّ وعلا، والعزة أقسام ثلاثة:

القسم الأول: عزة بمعنى الامتناع، يكون عزيزاً ممتنعاً.

القسم الثاني: عزة بمعنى القوة، ومنها أرض عزاز يعني قوية.

القسم الثالث: عزة بمعنى القهر والغلبة.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٩١٥٣).

وكل هذه ثابتة لله جلّ وعلا فله العزة، فهو القوي وهو المنيع الذي لا يضره شيء ولا يصل إليه أذى مؤذٍ أو ضر، أما بنو آدم فقد يؤذون الله كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ويقول في الحديث الصحيح القدسي: **«يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره»**[1] لأن الأذى: هو ما خف وضعف أثره بخلاف الضر، فإنه لا يناله ضر جلّ وعلا، والخلق لن يضروا الله فهو القوي المنيع جلّ وعلا، وهو جلّ وعلا الغالب القاهر، يقول الأصمعي: قلت لأعرابية: كيف تعيشون في الصحراء أما يضركم البرد والحر؟ فقالت: لا سواء. قلت: كيف؟ قالت: الحر أذى والبرد ضر.

يعني لا تجمع بين هذا وهذا؛ لأن الحر يؤذي ولا يقتل، أما البرد فيقتل، فالمقصود أن الأذى لما ضعف أثره.

﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن عزة رسوله بعزة الله جلّ وعلا؛ لأنه أطاعه واتبع أمره وكذلك المؤمنون، يعني أن عزة الإنسان بحسب طاعته لله جلّ وعلا، فإذا كانت طاعته تامة فهو عزيز ولا يمكن أن يغلبه أهل الأرض ولو اجتمعوا عليه أو ينالوه بشيء لأنه عزيز بعزة الله جلّ وعلا، ولهذا يقول بعض السلف: إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك والرؤساء ولن يجدوها إلا بطاعة الله جلّ وعلا، فمن أراد العزة فليطع ربه جلّ وعلا.

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

وهذا عن إبليس لعنه الله، وهو ربه، فهو يقسم بصفته أن يغوي بني

---

(١) البخاري (٤٤٥٢)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية، مسلم (٢٢٤٦)، كتاب الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر، من حديث أبي هريرة ﷺ.

آدم أجمعين، لكنه استثنى عباد الله المخلصين لأنه يعرف ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠] وقعد لهم بكل مرصد وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم في الأموال والأولاد، ولهذا تجد بعض الأولاد شبيه بالشيطان، والسبب أن الشيطان شارك والده في أمه لأنه لم يسم، فيتعين على الإنسان أنه إذا أراد أن يأتي زوجته أن يسمي ويذكر الله حتى يطرد الشيطان ويكون حرزاً لولده أن يكون للشيطان مشاركة فيه، والآية تدل على أن العزة لله جلّ وعلا وأنها صفة من صفاته وأنه يجوز القسم بصفة من صفاته، ولا فرق بين الصفة والاسم ولا بين صفة وأخرى فكلها يجوز أن يقسم بها، ولكن يجب أن يحفظ الإنسان نفسه في هذا.

إِثْبَاتُ الاسْمِ للهِ وَنَفْيُ المِثْلِ عَنْهُ

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨]

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم وتعالى، والتسبيح والتبارك يضاف إلى الاسم كما أنه يقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني سبح ربك ذاكراً اسمه، فاسم الله عظيم، والبركة التي تضاف إلى الله على نوعين:

الأولى: يأتي فعلها ماضٍ غير متصرف مثل هذا، وهذا لا يجوز إلا على الله فقط ولا يتعداه، ونسمع بعض العوام يقول: تباركوا بالأماكن وبالنواصي والبقع، وهذا خطأ ولا يجوز، وهو من الأخطاء التي يجب أن ينبه عليها كما أن بعضهم يقول: وعزاه لفلان أو لكذا، وهذا قد يكون من إرث الجاهلية السابق، فالعزّى صنم كبير من أصنام الكفار.

الثاني: أنه جلّ وعلا يبارك لمن يشاء، وفعلها مبارك وبارك، وهي مصدر مبارك كما قال جلّ وعلا على عبده ورسوله عيسى ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي

﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فالمبارك هو الذي يجعله الله مباركاً، ومعنى كونه مباركاً أينما كان يعني أنه أينما وجد نفع الخلق بالتعليم والدعوة إلى الله.

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني صاحب العظمة وكثرة الخير والصفات العظيمة وهذا لا يجوز أن يطلق إلا على الله أيضاً، وهذه من الأسماء العامة التي تدل على معانٍ كثيرة.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ يعني احصر عبادتك في الله جلّ وعلا فاعبده ولا تعبد غيره وهو أمر للنبي ﷺ، والعبادة: هي فعل الطاعة واجتناب المعصية امتثالاً لأمر الله جلّ وعلا، ومنهم من يقول: هي فعل المأمور وترك المحظور على وجه التقرب، يعني أنه لا بد فيها من النية حتى تكون عبادة صحيحة، ومنهم من يعرفها تعريفاً غير هذا ويقول: هي الامتثال على وجه التعبد ولو لم يكن هناك مقتضى عقلي ولا عرفي، يعني أن العقل والعرف لا دخل له فيها، وشيخ الإسلام ابن تيمية يعرفها بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وهذا شامل عام.

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ يدل على أن الصبر أمر واجب، وأن أفضل الصبر هو الصبر على العبادة، أما الصبر على المقدور أو المحظور فهو أسهل من الصبر على العبادة، وللعبادة ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون عابداً مؤمناً ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤] وهذه جملة حالية، أي: أنه حالة كونه يعمل مؤمناً؛ لأنه لو كان كافراً يتعبد فعبادته لا قيمة لها.

الثاني: الإخلاص.

الثالث: المتابعة وهي أن تكون العبادة بما جاء به الرسول ﷺ.

وللعبادة أركان ثلاثة: وهي الخوف والرجاء والحب، أن تكون خائفاً راجياً محباً للمعبود جلّ وعلا.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ وهذا المقصود من الآية؛ لأن المؤلف من هنا بدأ بالقسم الثاني مما ذكر من أن الله جلّ وعلا وصف نفسه به في كتابه، فهو أراد هنا النفي، يعني هل تعلم له مثيلاً أو نظيراً أو مشابهاً أو نديداً يستحق العبادة تعالى الله وتقدس؟ فلا سمي له ولا نظير له ولا مثل له ولا شبيه له.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]

هذا مثلها وقد سبق الكلام عليها.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ مرتب على ما سبق وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] فعلمهم الذي يعلمونه هو أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم، وهو الذي جعل لهم الأرض فراشاً، وهو الذي جعل لهم السماء بناءً، ويعلمون أنه ما شارك الله أحد في ذلك، فإذا كانوا يعلمون ذلك فكيف يجعلون له في العبادة نداً؟ وهل يجوز هذا؟.

وهذا كثيراً ما يحتج الله جلّ وعلا به على الكفار، فيذكر إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم وهو المتصرف في الكون وحده لا شريك له، فيحتج به على وجوب إخلاص العبادة له، وهذا يدل على أن من فعل

هذه الأفعال أنه يجب أن تكون العبادة له، فلا تجدون مشاركاً له في خلق السماوات والأرض وإنزال المطر وإنبات النبات وخلق الناس وغير ذلك، بل تقرون بأنه وحده هو الذي فعل ذلك، فيلزمكم أن تقروا له بالإخلاص وأن تعبدوه وحده.

﴿أَندَادًا﴾ الند: هو الشبيه والنظير والمثيل ولو في صفة واحدة، والله جلّ وعلا لا ند له لا في ذاته ولا في أوصافه ولا في أفعاله كالخلق وغيره، ولا فيما يجب له في حقوقه التي أوجبها على عباده، فهذا عام، فلا تجعلوا له مثيلاً في الصفات ولا في الأسماء ولا في الأفعال ولا فيما يجب له من العبادة؛ لأنه في نفسه جلّ وعلا لا مثيل له.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أنهم يعلمون أن الله هو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، أي: أنهم يقرون بتوحيد الربوبية ويعرفونه ويؤمنون به، ولكنهم أنكروا توحيد العبادة، وبهذا يتبين الفرق بين التوحيدين، وأن الذي يقول إن الذي فرق بينهما ابن تيمية وابن عبد الوهاب أنه جاهل لا يعرف أو مغالط مكابر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

الأنداد هنا في المحبة، والذي يتخذ لله نداً في المحبة معناه أنه مشرك، وهذا هو التنديد الواقع من الخلق؛ لأنه لا أحد جعل لله نداً في الخلق، ولم يعرف في الأمم السابقة من ينكر ربوبية الله جلّ وعلا إلا أفراداً مكابرين مثل فرعون والنمرود، مع أنهم في قرارة أنفسهم يقرون بهذا ولكن تكبراً وعناداً فقط، فمعنى ذلك أن الحب يجب أن يكون لله جلّ وعلا وحده وأنه لا يجوز أن يكون له تنديداً في ذلك، والمحبة يوصف بها الله جلّ وعلا وأن العباد يجب أن يحبوا ربهم، وهذا الحب يجب ألا يكون فيه مشاركة، والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة خاصة، وهي ما اقتضت التعظيم والذل، وهذه تكون لله وحده ولا يجوز أن يشرك أحداً فيها لا نبي ولا ملك ولا ولي ولا غيرهم، ولهذا سميت خاصة، أي: أنها خاصة لله جلّ وعلا وحده، وهي محبة الذل والخضوع والتعظيم، فتحب الله مع ذل وتعظيم، والذل يكون خضوعاً.

القسم الثاني: محبة مشتركة وهي أنواع شتى: منها محبة طبيعية كحب الظمآن للماء وحب الجائع للطعام، وتسمى محبة طبيعية لأن الله طبع عليها الإنسان والحيوان، وكل حي يأكل ويشرب، ومحبة رحمة مثل محبة الوالد لولده، ومحبة ألفة واستئناس مثل محبة المتشاركين في أمر من الأمور، فتجد بينهم ألفة ومصاحبة وأنس حتى البهائم، فالبهائم إذا جمعتها في مكان ثم أخذت واحدة منها تجدها تصيح لأنها فقدت إلفها، ومحبة تقدير واحترام مثل محبة الولد لوالديه، فهذه المحبة مشتركة بين الخلق، أما محبة الله الخاصة فلها توابع، فمن توابعها ومكملاتها: محبة الرسول ﷺ، ويجب أن تحبه أكثر من حبك لنفسك ومن ولدك ووالدك والناس أجمعين، ومحبته تكون في الله ولله جلّ وعلا، فتحبه لأن الله يحبه ولأن الله أمرك بحبه ولأن الله أرسله وجاءك بالهدى والنور فتحبه لأجل هذا، ويتبعها محبة المؤمنين أهل الطاعة، فهي محبة لله وفي الله، وليست محبة مع الله لأن المحبة مع الله محبة شرك، ثم إنه يلزم من لوازم هذه المحبة طاعته ومتابعته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومن لوازمها بغض من يبغضه ويعاديه، وإذا وجد خلاف ذلك فمعناه أن المحبة مفقودة كما قال الله جلّ وعلا: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ووجه إيراد الآية مع أنها في شرك العبادة؛ أن من زعم أن لله جلّ وعلا مثيلاً أو أن صفاته تشبه صفات المخلوقين فقد جعل لله أنداداً، بل هو أعظم من تنديد المشركين،

فالنهي عن جعل أنداد لله تعالى يدخل فيه توحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الملك والتصرف.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني أن المشركين يحبون أندادهم كمحبتهم لله، فهذا يدل على أنهم يحبون الله ولكن أشركوا في هذا الحب وجعلوه موزعاً بين الله جلّ وعلا وبين الأنداد، وهذا هو الشرك الأكبر الذي أخبر جلّ وعلا في آخر الآية أنهم بسببه ما هم بخارجين من النار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الذين آمنوا وحدوا الحب فجعلوه واحداً لواحد، جعلوه لله جلّ وعلا ولم يفرقوه ويجعلوا جزءً منه لغيره، فكانوا أشد حباً لله.

نَفْيُ الشَّرِيكِ عَنِ اللهِ تَعَالَى

وَقَـوْلُـهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]

هذا أمر من الله جلّ وعلا لرسوله ﷺ والأمة تبع له في ذلك، فهم مأمورون أن يقولوا هذا القول، وهذه الآية تسمى آية العز، وقد جاء في الحديث أنها ما قرئت على شيء إلا وحماه الله جلّ وعلا.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناء بالجميل الاختياري، و«ال» فيه للاستغراق، فالحمد يكون على الأوصاف القائمة بالمحمود وعلى الكمالات، والكمال كله لله جلّ وعلا، والشكر يكون على النعم التي يسديها، فالحمد يكون باللسان والقلب، أما الشكر فيكون باللسان وبالقلب وبعمل الجوارح.

﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تزعمه طوائف من المشركين ومن النصارى ومن اليهود قاتلهم الله جميعاً، فالنصارى زعموا أن عيسى ﷺ

ابن الله تعالى الله وتقدس، واليهود زعموا أن عزيراً ابن الله والمشركون زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى الله وتقدس، فنزه الله تعالى نفسه وأمر بأن ينزه عن هذه الدعاوى الخبيثة النجسة.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فالملك كله له تعالى وتقدس وليس له فيه مشارك ولا معاون ولا مساعد ولا مظاهر فضلاً عن أن يكون مالكاً، فالملك الحقيقي لله جلّ وعلا، أما ما يملكه العقلاء في هذه الدنيا فهو أمر مستعار، فسرعان ما يسلب منهم أو يسلبون منه ولا بد، أما إذا انتهت هذه الدنيا فإن الناس لا يملكون شيئاً أصلاً، ويأتون إلى الله جلّ وعلا كيوم ولدتهم أمهاتهم عراة حفاة غرلاً، ولهذا يقول ﷺ في بعض من يكرمهم الله: «**يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله**»[1] يعني في ذلك اليوم ما أحد يملك شيئاً ظاهراً، فالظل كله لله والملك كله لله تعالى الله وتقدس، فهو كقوله جلّ وعلا: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩] فهناك يظهر الملك الحقيقي ويظهر الإنسان على حقيقته ويصبح فقيراً ذليلاً لا يملك شربة ماء، بل لا يملك خرقة يغطي بها سوأته.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ فهنا قيد الولي بأنه من الذل، فإن الله جلّ وعلا له العز المطلق وله الملك وله القهر وهو الجبار المتكبر جلّ وعلا، فليس له ولي من الذل تعالى وتقدس، فإن الخلق كلهم بقبضته يتصرف فيهم كيف يشاء جلّ وعلا، وفي مفهوم هذا أن له ولي من إحسانه وفضله وكرمه، أن له أولياء تكرم وأحسن عليهم فتولاهم فصاروا أولياء لله كما قال جلّ وعلا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:

---

(١) البخاري (٦٦٠)، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة؛ ومسلم (١٧١٢)، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

٦٢، ٦٣] يعني يتقون أن يقعوا فيما حرم الله عليهم أو أن يقصروا فيما أوجب الله عليهم.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وهذا أمر بأن يكبره عبده وقوله: ﴿تَكْبِيرًا﴾ مصدر للتأكيد والتكرار، يعني أنه يفعل ذلك ويكرره ولا ينسى تكبير ربه جلّ وعلا.

كل جملة في هذه الآية تدل على كمال الله جلّ وعلا، فمعنى ذلك أنه اتصف بالكمالات المطلقة التي يحمد من أجلها ولا يستطيع الخلق أن يحصوا ثناءً عليه، ولهذا أثنى هو على نفسه جلّ وعلا لأن الخلق لا يستطيعون ذلك، فالكمال يثبت بالحمد وكذلك لكونه غنياً لم يتخذ ولداً؛ لأن الولد يتخذ للفقر والحاجة والمعاونة والإرث، وكذلك كونه جلّ وعلا هو القهار الذي قهر كل شيء وعلا كل شيء، وكذلك كونه جلّ وعلا له الكبرياء والعلو المطلق، فهذا كله يدل على الكمالات.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن: ١]

في قوله: ﴿مَا﴾ في الغالب يعبر عنها لما لا يعقل، وقد تأتي ويقصد بها العاقل وغيره، ولكنها هنا عامة، وفي آية ذكر الله جلّ وعلا أنه يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشجر والدواب، وأخبر أن كثيراً من الناس أيضاً يسجدون وأن كثيراً منهم حق عليهم القول، فمعنى ذلك أن بعض بني آدم العقلاء استثنوا من السجود لله جلّ وعلا فهم كفرة عصاة، بخلاف الجمادات فإنها تسجد لله جلّ وعلا وتسبح، ثم الصواب في هذا أن التسبيح بلسان المقال، أي: أنها تسبح حقيقة وليس كما يقوله كثير من المفسرين من أن ذلك بلسان الحال، يعني أنها تدل على الله جلّ وعلا بحيث إذا نظر إليها العاقل سبح لله جلّ وعلا، هذا معنى كونها بلسان الحال، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه

قال: «**إني أعرف حجراً كان يسلم علي**»[(١)] هذا يعني أنه يتكلم بكلام يسمعه الرسول ﷺ حقيقة، وكذلك ثبت أنه ﷺ كان يخطب على جذع نخلة يابس ثم صنع له منبر من طرفاء الغابة ـ أي: من الأثل ـ فأول ما قام على المنبر الذي صنع له سمع للجذع حنيناً كحنين الناقة إذا فقدت ولدها، حتى نزل ﷺ من المنبر والتزمه فصار يهدأ مثل ما يهدأ الصبي الذي يبكي فأخذته أمه، وقال ﷺ: «**لو تركته لصار يحن إلى يوم القيامة**»[(٢)] وذلك لأنه فقد الذكر والعلم والنور الذي يذكر عليه فصار يحن عليه وهو جذع هامد، وكذلك كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه ويسمعون تسبيح الحصى أحياناً، فمعنى ذلك أنه يتكلم كلاماً الله أعلم كيف هو؛ لأننا لا ندرك ذلك، ولكن الله جلّ وعلا على كل شيء قدير، وقد قال الله جلّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] فهذه الجلود والأسماع والأبصار تتكلم وتنطق، وكذلك في آية أخرى أخبر أنه يختم على أفواههم وأنها تتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وهذا أمر حقيقي، وبهذا يرد على الضُلال الذين يقولون: إن الكلام يحتاج إلى مخارج حروف وإلى لسان وإلى لهوات وإلى حنجرة وإلى حبال صوتية وإلى آخر ما يقولون، ويقولون: لو أثبتنا الكلام لله جلّ وعلا للزم أن نثبت له هذه الأدوات، وهذا في الواقع يدل على أنهم لم يعرفوا من الله جلّ وعلا إلا ما عرفوه من أنفسهم ـ تعالى الله وتقدس ـ وهذا هو البلاء الذي جاءهم الانحراف منه، كونهم نظروا إلى أنفسهم أولاً ثم أرادوا أن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦)، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٧٧)؛ وابن ماجه (١٤٠٥)، كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب ما جاء في بدء شأن المنبر، من حديث أنس رضي الله عنه.

يعرفوا صفات الله جلّ وعلا على وفق ما عرفوه من أنفسهم، فمعنى ذلك أن التشبيه مستكن في نفوسهم أولاً وإن لم ينطقوا به، ثم حملهم هذا التشبيه على التحريف أو التعطيل، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه جلّ وعلا ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه، والمقصود هنا أن التسبيح يكون بالنطق مما في السماوات والأرض، وقد يقول قائل: إننا نرى كثيراً من العقلاء لا يسبحون، فنقول: إن الله أخبر أن ظِلَّهُمْ يسبح له جلّ وعلا، يعني أن هذا يكون مما أخبر الله جلّ وعلا أنه يطيعه بخلقه وفعله، أما الطاعة التي تكون عن الاختيار فهذه لا تكون إلا من المؤمنين.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١] سبق أن معنى التسبيح: هو التنزيه والبعد عن النقائص، فالله جلّ وعلا يسبح له كل شيء، يعني ينزهه عن النقائص كل المخلوقات ما عدا الجهمية[1] والأشاعرة ومن أشبههم من أهل الانحراف ـ نسأل الله العافية ـ وقد يقول قائل: الأشاعرة هم أهل السنة، وهم الذين ملئوا الأرض بالكتب، وهم الذين فتحوا المدارس في كل مصر من أمصار المسلمين، وهم الذين قاموا بالدفاع عن الإسلام.. إلخ، فنقول: لا ننكر حسناتهم، فإن لهم

(١) (الجهمية): هم المعطلة نفاة الصفات، سموا بالجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان، أبي محرز، مولى بني راسب، تلميذ الجعد بن درهم، يلقبه البعض بـ: الترمذي، والبعض الآخر بـ: السمرقندي، وقد ظهرت بدعته بترمذ وقتله سَلْم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية سنة ١٢٨هـ، وقد اشتهر مذهب التعطيل باسم الجهم وإن كان أخذه من الجعد بن درهم، الذي قتله خالد بن عبد الله القسري في يوم عيد الأضحى سنة ١١٩هـ؛ لأنه أول من عمل على نشر المذهب، والجعد أخذه عن أبان بن سمعان، وأبان عن طالوت، وطالوت عن لبيد بن عاصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وهم القائلين بنفي الصفات، وأن الجنة والنار يفنيان، وقالوا بالإرجاء، والجبر، وخلق القرآن.
انظر: «التحفة المهدية» (ص٤٥)، «الملل والنحل» للشهرستاني (١/١٠٩)، «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/٣٣٨)، «الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٢١١).

حسنات ولهم فضل، ولكن الباطل يجب أن يرد على من قاله، والحق أعز من أن ينظر إلى وجوه الناس، والحق يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم إن الإنسان إذا أخطأ لا يلزم أن يكون خرج من الدين الإسلامي ولا يلزم أن يكون في الآخرة من الخاسرين، فإنه قد يكون معذوراً وقد يكون مأجوراً حسب نيته واجتهاده، ولكن ما يكون مثل من أصاب الحق ودرج عليه وتفضل الله جلّ وعلا عليه إلى أن يلقاه بذلك، ثم لا يجوز أن يترك الباطل، بل يجب أن يبين حتى لا يُغتر به، فقد يكون الإنسان معذوراً ولكن تابعه غير معذور.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وسبق أن الملك الحقيقي لكل شيء هو لله جلّ وعلا، حتى الملاك الذين يزعمون أنهم يملكون فالله يملكهم ويتصرف فيهم كيف يشاء فهم ملكه وعبيده، وهو يدل على الكمال.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ وهذا أيضاً يدل على الكمال، يعني أنه يدل على صفات كثيرة وهذا من الإثبات المجمل.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكل ما سمي شيئاً فهو عليه قدير جلّ وعلا، أما المعدوم أو الممتنع الذي لا يمكن وجوده فهذا لا يسمى شيئاً فلا يعترض به على ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ١، ٢].

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم وتعالى وتقدس، وهذا فعل ماضٍ لم يأتِ له مضارع، ولا يجوز إطلاقه إلا على الله جلّ وعلا.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزّل صيغة مبالغة لكونه نزله مفرقاً على حسب الوقائع وحسب الحاجة، والفرقان المقصود به القرآن لأنه فرق بين الحق

والباطل، فهذا أولاً يدلنا على عظمة الله ويدلنا على علوه وأن القرآن قوله نزل من عنده جلّ وعلا.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ الإضافة هنا تدل على الإكرام والتشريف، وسبق أن الإضافة إلى الله تكون على نوعين: إما إضافة معانٍ مثل العلم والرحمة والقدرة والعزة والحياة وما أشبه ذلك، فإذا كانت إضافة معنى فهي إضافة إما صفة إلى موصوف أو موصوف إلى صفته، أما إذا كانت أعياناً قائمة بأنفسها مثل عبد الله ومثل ناقة الله وبيت الله؛ فهذه معناها إضافة مخلوق إلى خالقه، ولكنها تدل على التشريف والتكريم حيث أضيفت إلى الله جلّ وعلا لما فيها من معنى العبودية أو لما فيها من معنى الربوبية ولا تخلو من هذين، أو لأنها جمعت بين الأمرين، وهذا مما يدل على كرم رسول ﷺ على الله، وأن هذا من أفضل الثناء عليه حيث يدل على تكميله عبودية ربه، ولهذا ذكره بلفظ العبودية في أشرف المقامات وهي أربعة:

الأول: مقام التحدي كما في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

الثاني: مقام الإنزال كما في هذه الآية، وهو من أشرف المقامات وهو تنزيل الوحي عليه.

الثالث: مقام الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

الرابع: مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

﴿لِيَكُونَ﴾ واللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لام التعليل، وهي في كلام الله جلّ وعلا لا حصر لها؛ لأن الله جلّ وعلا يفعل لعلة ولحكمة، ولهذا فإن الأحكام التي لا تظهر لها علة قليلة جداً بالنسبة لغيرها.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ سبق أن العالمين هم كل مخلوق سوى الله، ولكن هنا لها مفهوم آخر غير السابق وهو الإنس والجن فقط؛ لأن الرسول ﷺ أرسل إلى الجن والإنس، والنذير: هو الإعلام بمواقع

الخوف، والبشير: هو الذي يبشر بالخير، والقرآن جاء بشيراً ونذيراً كالرسول ﷺ فإنه نذير وبشير، ولهذا كان من تأويل رؤية الرسول ﷺ أنها قد تكون نذارة أو بشارة، فإن كان ممن يخالف أوامره ويرتكب نواهيه فهي نذارة، ويجوز أن يقع فيه العذاب ويجوز أنه حق عليه القول، أما إذا كان مستقيماً على سنته ورآه في النوم فإنه قد تكون هذه بشارة له، والمقصود أن الإنذار هو التخويف وأن حالة الخوف قريبة، وإذا جاء النذير فيجب أن يستعد المُنذر ويستعتب وإلا فإن العذاب قريب، وفي هذا دليل على أن القرآن حجة لمن بلغة وهو ظاهر، وقد جاء أيضاً في آية أخرى ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وبلوغه هو وصوله للإنسان ولا يلزم أن يفهمه؛ لأن الفهم شيء آخر، والله جلّ وعلا أخبر عن الكافرين عندما يدعوهم الرسول ﷺ بالقرآن فكأنما يتادي البهائم التي لا تسمع إلا مجرد النداء، وأخبر أنهم صم بكم عمي، وأخبر جلّ وعلا في آيات أخرى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] وأخبر في آية أخرى أنهم قالوا: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] أي: لا نفهم ماذا تقول؟ ومع ذلك كله فقد قامت عليهم الحجة، والمقصود هنا أن الله أنزل القرآن على محمد ﷺ للنذارة والبشارة، ففي هذه الآية إثبات الكمالات لله جلّ وعلا وإثبات الرحمة له حيث أرسل رسولاً إلى العالمين رحمة بهم، وكذلك أنزل عليهم الفرقان رحمة بهم، وفيها دليل على علوه جلّ وعلا وعلى تكلمه.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تزعمه الطوائف الضالة من المشركين والنصارى واليهود.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما تقوله المجوس[1] والقدرية ونحوهم ممن خالف في هذا وأشرك في الربوبية.

---

(١) (المجوس): هم الذين يعبدون النار؛ لاعتقادهم أنها أعظم شيء في الوجود.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سبق أن كل شيء يكون على حسب ما أريد به، فلا يجوز أن يدخل في هذا صفات الله ﷻ ويقال: إنها شيء، فهي مخلوقة؛ لأن الصفات تبع للموصوف، والصفات لا تقوم بأنفسها حتى يقال: إنها شيء قائم بنفسه، فهي داخلة في ذلك، فكلامه ورحمته وعلمه وحكمته وحياته، وغير ذلك من صفاته كلها قائمة به، فهي تبع للذات المقدسة، فعلى هذا؛ فاستدلال الجهمية والمعتزلة بهذه الآية على خلق القرآن استدلال داحض باطل وفي غير موضعه، فإن الجهمية لما قالوا: إن القرآن شيء فيكون داخلاً في هذا العموم ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال لهم أهل السنة: القرآن صفة من صفات الله جلّ وعلا، وصفاته جلّ وعلا تقوم به، والقائمة بالله جلّ وعلا ليست من الخلق في شيء، بل هو الخالق بصفاته جلّ وعلا، فهو يقول للشيء كن فيكون، واستدلوا بحديث خولة الذي فيه أن الرسول ﷺ قال: «من نزل منزلاً فقال: **أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من ذلك المكان**»[1] والرسول ﷺ ذكر أن الاستعاذة بغير الله شرك، فإذاً الكلمات من صفاته، فالمستعيذ بها مستعيذ بصفة من صفات الله جلّ وعلا.

﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ومعنى ذلك يدل على الإتقان وعلى أنه أعطى كل شيء خلقه الذي تحصل به حياته ويحصل به ما أريد منه، وأنه كذلك يقع شيئاً فشيئاً على حسب علم الله وإرادته جلّ وعلا، وأنه لا يقع شيء قبل

= ويسجدون للشمس عند طلوعها، ويقولون بالأصلين النور والظلمة كالثنوية، ويستحلون نكاح المحارم.
«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ص١٣٤)؛ «الملل والنحل» (٢/٧٠).

(١) مسلم (٢٧٠٨)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره؛ الترمذي (٣٤٥٩)، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً، من حديث خولة بنت حكيم ﵂.

ما أراده الله جلّ وعلا، فقد علم الأشياء قبل وجودها وكتبها ثم قدرها فتقع على وفق علمه وكتابته.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وهذه نافية للرد على المشركين ونحوهم ممن زعم أن الله جلّ وعلا اتخذ ولداً تعالى وتقدس، والمقصود ـ كما سبق ـ أن المؤلف لما ذكر صفات الإثبات بالتفصيل أراد أن يذكر الصفات التي تدل على النفي؛ لأنه أخبر أن الله وصف نفسه بالإثبات والنفي، والنفي يأتي مجملاً وهنا جاء مفصلاً، والسبب أن ذلك ادعى له جلّ وعلا فصار النفي لهذه الدعوة الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وهذا كله رد على المشركين لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: إن أصنامهم آلهة كذباً وزوراً وبهتاناً بل هي مجرد دعاوي لا حقيقة لها.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا من البرهان القاطع الذي يدل دلالة واضحة على أن الله جلّ وعلا له الملك وحده وأنه الإله الواحد وبهذا الدليل قال العلماء: إن المشرك لا عذر له أصلاً لأن هذه الآية وغيرها تدل على أن الكون كله بتدبير دقيق وإتقان متناهي بالحكمة والدقة، وكله يدل على خالق واحد وإله واحد، فلا عذر لمن أعرض عن ذلك لظهور ذلك ووضوحه، فإنك لو شاهدت من الذرة إلى السماء فكلها تدل على إله واحد، وهذا يسمى دليل التمانع في الآلهة، وقد ادعى بعضهم أنهم في الوجود، ولكن هذا من لازمه، وذلك كما ذكر الله جلّ وعلا أن التقديرات ثلاثة:

الأول: لو قدر أن الخالقين متعددين فلا يخلو أن يكون كل واحد مكافئ للآخر ومتعاونين، وهذا يدل على العجز وأنهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة لأنهم عاجزون، لهذا أعرض عن هذا.

الثاني: ألا يستطيع كل واحد مغالبة الآخر فينفصل كل واحد عن الآخر بملكه وبما يحوزه كما يفعله ملوك الأرض، وتجد كل واحد له مملكة خاصة ولها حدود ويكون الآخر منفصل عنه لأنه ما استطاع أن يستولي على الآخر، والواقع يدل على خلاف هذا لأنه ليس في الخلق انفصال، وإنما هو متقن يدل على نظام واحد ونسق واحد، فإذاً هذا باطل.

الثالث: أن يكون واحد منهم هو الذي قهرهم واستولى عليهم وغلبهم، فإذاً المقهورون المغلوبون لا يصلحون أن يكونوا آلهة، فصار الأمر إلى الواقع، وأن الذي أتقن كل شيء وأوجد كل شيء إله واحد ويجب أن يكون التأله له، فله الملك وله الحمد وله العبادة وحده.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يصفه هؤلاء الظلمة بأن له ولداً، وقد علم أن الولد من جنس الوالد، وهذا تشبيه لله جلّ وعلا، وكذلك الولد يتخذ للعجز؛ لأن الوالد يموت ويرثه هذا الولد، ولأنه عاجز فيساعده ويعاونه على ما يلزم، فالولد يتخذ من النقص، أما الكامل الذي هو غني بذاته عن كل شيء فيتعالى عن ذلك، فهذا من العيب والنقص الذي ينزه عنه جلّ وعلا.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وسبق أن علم الله شامل لكل شيء وأنه لا يخفى عليه شيء، وأنه يعلم ما يكون أنه يكون في كذا على وفق كذا، وأنه إذا كان لا يزيد في علمه ذرة ويقع على وفق علمه، يعني أن الأشياء استوت في علمه الحاضر والذي سيحضر وكذلك الماضي الذي مضى، فهو يعلم الأمور الغائبة على وفق الحاضرة، والغيب يكون غيباً مطلقاً

وغيباً نسبياً، فهو لمن غاب عنه غيب ولمن شاهده وعرفه يكون غير غيب، ولكن هناك غيب مطلق لا يعلمه أحد من الخلق وإنما يعلمه الله جلّ وعلا وحده، والشهادة يعني الشيء المشاهد.

﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تعالى أي: ارتفع وتعاظم وتقدس عما يقوله هؤلاء المشركون.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: ٧٤]

الأمثال هي الأقيسة، والقياس يحتاج إلى أصل، فالفرع هو المقيس، ولا بد أن يكون هناك علة لإلحاقه من أجل ذلك، سواء كان قياس شبه أو قياس تمثيل وكلها ممنوعة في حق الله جلّ وعلا، ولكن قياس الأولى سيأتي أنه يثبت لله جلّ وعلا، وهو أن كل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص في وجه من الوجوه فالخالق أولى به، وكل تنزه وعيب تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه تعالى وتقدس لأنه هو واهب الكمال، فلا يجوز أن يكون المخلوق أكمل من الخالق تعالى الله وتقدس.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ لأن الأمثال أقيسة والأقيسة تشبيه، يعني تشبيه الفرع بالأصل، فالله جلّ وعلا ليس كمثله شيء، فهذا نهي يدل على كمال الله جلّ وعلا وأنه منزه عن الأقيسة وعن المثلاء والنظراء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ علم الله محيط بكل شيء، أما المخلوق فليس له من العلم إلا ما وهبه الخالق جلّ وعلا، فيجب أن يتبع قول الله ولا يجوز أن يعتمد على فكره وعلى نظره، فإن قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يدل على أن ما يسمى بالبراهين العقلية أنها مجرد دعاوي لا يجوز الاعتماد عليها لأنها جهل، والسبب أنها خلاف العلم الذي علمنا الله إياه.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]

هذه الآية فيها تحريم القول على الله جلّ وعلا بلا علم، والقول على الله بلا علم يدخل فيه القول في الحلال والحرام، وأعظم منه القول عليه في العبادة، وأعظم منه القول عليه فيما يتعلق بذاته من الأسماء والصفات، ولهذا يقول ابن القيم: إن هذه الآية رتبت على مراتب أربع، هذه المحرمات جاء تحريمها في الشرائع كلها ليس في هذه الشريعة فقط، فالأولى أسهل من الثانية والثانية أسهل من الثالثة والثالثة أسهل من الرابعة، فالرابعة أعظمها وأشدها وهي القول على الله بلا علم.

ففي **الأولى**: تحريم الفواحش، وهو كل ما فحش في نفسه وفي نفس أهل الاستقامة مما يتعلق بالمحرمات، فالفواحش محرمة مطلقاً مثل الزنا واللواط وشرب الخمر.

الثانية: البغي التعدي والظلم، فهو أعظم وأكبر حرمة من الفواحش؛ لأن البغي يدخل فيه أكل أموال الناس وكذلك الاستطالة في أعراضهم والكلام فيهم بالظلم وكذلك ظلمهم مطلقاً، وقد قيل: إن الإثم يراد به شرب الخمر، هذا على قول؛ لأن الخمر هي أم الخبائث، فإذا وقع الإنسان فيها فقد وقع في التعدي وفي غيره، ولكن البغي أعم من هذا ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هذا فيه التعدي الظاهر، وقيل: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هذا قيد وهو مثل القصاص، فإذا وجب على الإنسان قصاص أو ما أشبه ذلك فهذا لا يكون بغياً إلا بحق.

والثالثة: هي الإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً وهي أعظم من التي قبلها، وقد جاء أن الشرك أعظم المحرمات، ولكن هذه الآية تدل على أن القول على الله بغير علم أعظم من الشرك، وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

سُلْطَٰنًا﴾ هذا قيد وقع في الغالب لأنه لا يوجد شرك أنزل الله جلّ وعلا به سلطاناً، فكل الشرك ليس فيه سلطان، والسلطان المقصود به الحجة، فليس عند المشرك أي حجة وأي برهان على شركه، ولكن المقصود بهذا أنكم تقعون في الشرك مع ظهور البراهين على بطلانه.

والرابعة: هي القول على الله بغير علم وهي ختام الآية بهذا وهو يدخل فيه المقصود من سياق الآية، فوصف الله بما لم يصف به نفسه هو قول عليه بلا علم، فيجب أن نتقيد بوصف الله بما جاء به عن الله وعن رسوله ﷺ لئلا نقع في القول عليه بلا علم الذي هو أعظم من الشرك، وقيل: إنه أعظم من الشرك لأنه يدخل فيه الشرك وزيادة.

إِثْبَاتُ اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فِي سَبْعِ مَوَاضِعَ[١]

الاستواء صفة من صفات الله الفعلية التي فعلها بمشيئته واختياره وقدرته، والمقصود أن الله جلّ وعلا له صفات اختيارية وبعض العلماء يسميها الصفات الفعلية، وكثيراً ما يقول شيخ الإسلام فيها: الصفات الاختيارية، يعني أنه يفعلها باختياره تعالى وتقدس، وجاءت صفة الاستواء على العرش في آيات كثيرة مثل ما ذكر، ولكن لسبعة المواضع هذه جاء ذكرها مرتباً بلفظة ﴿ثُمَّ﴾ على خلق السماوات والأرض مما يدل على الترتيب الزمني، ومعروف أن ﴿ثُمَّ﴾ تأتي للعطف وللتراخي بخلاف الواو فإنها تدل على مطلق الجمع، فهي تدل على الترتيب، يعني أن هذا ذكر أولاً ثم جاء بعده ذلك، وليس معنى ذلك أن العرش لم يوجد إلا بعد خلق

---

(١) الآيات هي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤].

السماوات والأرض، فقد ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»**[1] وفي حديث عمران بن حصين الذي رواه البخاري وذكره في أربعة مواضع من صحيحه وهو حديث فرد لم يأتِ إلا عن عمران بن حصين فقط فإنه قال: أتيت إلى مسجد النبي ﷺ فعقلت راحلتي عند الباب ودخلت فإذا رسول الله ﷺ فدخل عليه بنو تميم فقال: : **«يا بني تميم أبشروا»** قالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم دخل الأشعريون من أهل اليمن فقال: **«يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم من بني تميم»** قالوا: قبلنا، جئناك نتفقه في هذا الدين ونسألك عن مبدأ هذا الأمر فقال ﷺ: **«كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»**[2] فهذا يدل على أن الكتابة وقعت والعرش على الماء، فعلى هذا؛ قوله ﷺ في حديث عبادة بن الصامت وغيره: **«أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح. ورواية: «معه» لم أجدها عند البخاري، وقد أخرج الحديث في موضعين من صحيحه: «بدء الخلق» و«التوحيد» بالروايتين الأخيرتين: «قبله» و«غيره» وبالأخرى منهما أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦، ٢٧٠). ورواه أحمد (٤/ ٤٣١) بالرواية الأولى منهما، لكن بلفظ: «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء». وعزاه الذهبي في «مختصر العلو» (٩٨/ ٤٠) للبخاري وقال: «حديث صحيح». انظر: المقدمة (٢٧) وكلام الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث يشعر بأن هذه الرواية: «معه» لم يقف عليها، فقد قال (٦/ ٢٠٦): «تنبيه: وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان» وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبه على ذلك العلّامة تقي الدين ابن تيمية، وهو مسلم في قوله: «وهو الآن إلى آخره»، وأما لفظ: «ولا شيء معه» فرواية الباب بلفظ: «ولا شيء غيره» بمعناها».

قلت: «فلو كان عند الحافظ علم بهذه الرواية لذكرها، واستغنى بذلك عن الاحتجاج عليها بمعنى الرواية التي ذكرها، كما هو الظاهر، والله أعلم». ألباني.

فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، ليس المقصود به الإخبار عن أولية الخلق، وإنما المقصود به الإخبار عن القلم أنه أمر بالكتابة بعد خلقه مباشرة بلا فاصل؛ لأن الكتابة هي التي ذكرت في حديث عبد الله بن عمرو قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء، والقرآن أيضاً يدل على هذا؛ لأنه جلّ وعلا ذكر أنه خلق السماوات والأرض وأن عرشه كان على الماء، وقوله: كان، تدل على المضي، قد يأتي سؤال وهو: أنه إذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض بأزمان طويلة فلماذا قيل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الجواب: أن الاستواء الذي ذكر بعد خلق السماوات والأرض هو استواء خاص، وسيأتي كمال البحث فيه إن شاء الله.

الاستواء خاص بالعرش، والعرش في اللغة: هو سرير الملك الذي عليه، وعرش الرحمٰن جلّ وعلا هو سقف المخلوقات فليس فوقه شيء، وهو أكبر المخلوقات على الإطلاق وأرفعها، ولهذا ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ووسطها وسقفه عرش الرحمٰن ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1] فالفردوس هو أعلى الجنان وسقفه عرش الرحمٰن جلّ وعلا، وقد أنكر العرش بعض أهل البدع وقالوا: العرش هو الملك. وهذا إنكار لما ثبت في كتاب الله جلّ وعلا وجاءت به الرسل وهو كفر بالله جلّ وعلا.

أفعال الله التي يفعلها قسمان:

الأول: لازم: وهو الذي لا يتعدى إلى مفعول كالاستواء والنزول والمجيء وما أشبه ذلك.

(١) صحيح. وأخرجه الإمام أحمد أيضاً، وهو مخرج في «الصحيحة» (٩٢١)، و«الظلال» (٥٨١). ألباني.

قال شاكر: هو جزء من حديث رواه البخاري (١٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠) من «فتح الباري».

الثاني: المتعدي كالخلق والإحياء والإماتة والتصرف وغيرها.

وهي كلها يفعلها بمشيئته ولهذا سميت صفات الأفعال وسميت الصفات الاختيارية لأنه يفعلها باختياره، وقد أنكر الاستواء أهل البدع كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم زاعمين أنه يدل على التشبيه، إذا أثبتوا الاستواء قالوا: يلزمنا التشبيه، والقاعدة ـ مثل ما سبق ـ أنهم لم يعرفوا من أوصاف الله جلّ وعلا إلا ما عرفوه من أنفسهم، فتخيلوا التشبيه في أنفسهم ثم دعاهم ذلك إلى تعطيل الرب جلّ وعلا مما يتمدح به ويتعرف به إلى خلقه تعالى وتقدس، وقد جاء عن الإمام مالك قوله لما سئل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى ؟ قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ولا أراك إلا رجل سوء.

فقوله: الاستواء معلوم يعني معلوم في اللغة ولا يحتاج للسؤال، وأما الكيفية فممتنع على الخلق معرفتها؛ لأنها ـ كما سبق ـ تتطلب المشاهدة أو يكون للمسئول عنه مثيل يعرف به تعالى الله وتقدس، وكلا الأمرين ممتنع، فالخلق وإن رأوه في الآخرة فإنهم لا يحيطون به، أما في الدنيا فالرؤيا غير واقعة، وإن كانت كما يقول العلماء: إنها غير ممتنعة بدليل أن كليم الرحمن سألها، والرسل لا يسألون شيئاً ممتنعاً، وبدليل تعليق إمكانها باستقرار الجبل، ولكن ما يستطيعها الخلق في هذه الحياة لأن خلقه في هذه الحياة خلق ضعيف وإنما يرونه يوم القيامة إذا تمت خلقتهم وأصبحت غير قابلة للموت وسيأتي الكلام في رؤية الله جلّ وعلا.

قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] هنا يذكر ذلك جلّ وعلا صفة مدح بأنه استوى على العرش، فهو من صفات الكمال.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال في سورة يونس ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

﴿إِنَّ﴾ تأتي للتأكيد، والله جلّ وعلا هو أصدق القائلين، فإذا قال قولاً وجب على الخلق تصديقه والإيمان به وقبوله، ولكنّ كثيراً من الناس لا يقبل فاحتاج إلى التأكيد والقسم وغير ذلك من المؤكدات.

﴿رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ سبق أن معنى الرب: هو المالك المتصرف الذي يملك ويتصرف بالمملوك كيف يشاء، وهنا معنى الرب غير معنى الله، فالله: هو المألوه الذي يؤله ويعبد، وسبق أن هذين الاسمين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، يعني أنهما يتعاقبان، أي: أن الرب إذا ذكر وحده يدخل فيه معنى العبادة؛ لأن الرب المالك المتصرف هو الواجب أن يعبد، وعبادة غيره باطلة، وإذا ذكر اسم الله جلّ وعلا وحده فإنه يدل على أنه المألوه الذي يؤله، والمألوه هو الذي يملك النفع والضر وهو الذي يتصرف فيدخل فيه معنى الرب.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الخلق: هو الإنشاء والإيجاد والإبداع على غير مثال سابق وقد يطلق الخلق على التقدير.

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وبهذا أجيب عن الإشكال الذي ورد في قوله جلّ وعلا: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] مع قوله جلّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٩] قالوا: إذاً التقدير أنه جلّ وعلا خلق الأرض، يعني قدر خلقها تقديراً ثم خلق السماء بالفعل بعد ذلك، وابن عباس يفسر هذا بما بعده، يقول دحوها

هو إخراج مائها ومرعاها وإرساء الجبال فيها ولا يكون بعد ذلك إشكال.

السماوات والأرض هي أعظم المخلوقات وأكبرها ويذكرها جلّ وعلا كثيراً، وكثيراً ما يذكر السماوات مجموعة والأرض مفردة، وقد جاء أنها سبع طباق وأن بينها مسافات هائلة وأنه جلّ وعلا أوسعها إيساعاً لا يعلمه خلقه، ويقول جلّ وعلا: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤] يقول بعض السلف: إن المسافة بين الأرض والعرش هي العروج خمسين ألف سنة، والسماوات مبنية حقيقة ولها أبواب ولا يدخل إليها إلا مع أبوابها، وقد أخبر جلّ وعلا أن أبواب السماء تغلق عن الكافرين، وفي حديث عروج النبي ﷺ أنه جبريل ﷺ لما صعد به ووصل إلى السماء الدنيا استفتح الباب فقيل له: **«من؟ فقال: جبريل ﷺ فقيل له: من معك؟ فقال: محمد، فقالوا: أبعث؟ فقال: نعم، ففتحوا»**[1]، وهكذا في السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأول هذه الأيام هو يوم الأحد وآخرها هو يوم الجمعة، والله أعلم ما هي هذه الأيام؛ لأن وقت الخلق ليس فيه شمس ولا قمر ولا شيء يعرف به الليل، ويجوز أن هناك مخلوقات وأجرام أخرى الله أعلم بها؛ لأن الله جلّ وعلا ـ كما سبق ـ أول بلا بداية وما كان معطلاً من الفعل والخلق والإيجاد حتى خلق السماوات والأرض، بل كان يخلق ويفعل ما يشاء تعالى وتقدس، ولكن عقول الناس ما تتحمل أكثر مما أخبروا به، ثبت أن آخر الأيام هو يوم الجمعة وفيه تقوم

(١) حديث الإسراء صحيح، وهو ملتقط من أحاديث متفرقة، ومن ذلك هذا اللفظ كما بيّنه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (الإسراء) ومن قبله البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٤٠ ـ ٤٤٢). ألباني.

الساعة وفي آخر ساعة منه خلق آدم ﷺ وأخرج ولم يكمل ذلك اليوم في الجنة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سبق أن ﴿ثُمَّ﴾ تدل على الترتيب مع التراخي، يعني ترتيب الاستواء على العرش على خلق السماوات والأرض، أما السؤال الذي قد يخطر على بال الإنسان، إذا كان مثلاً ذكر هذا مرتباً على خلق السماوات والأرض، فهل كان قبل ذلك مستوٍ على عرشه؟.

فنقول: الله أعلم، هذا ما وصل إليه علمنا، مع أن بعض العلماء أجاب عن هذا وقال: هذا الاستواء الذي ذكر مرتباً على خلق السماوات والأرض استواء خاص بعد الخلق، ولا ينفي أن يكون مستوياً على عرشه قبل ذلك، وقد سبق أن ذكرنا حديث عبد الله بن عمرو الذي في صحيح مسلم أن الله كتب مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء، وكذلك حديث عمران بن حصين الذي فيه سؤال أهل اليمن للنبي ﷺ عن مبدأ هذا الأمر، وقولهم «هذا الأمر» يعني الإشارة إلى هذا الشيء الموجود من السماء والأرض والجبال والشجر والمخلوقات، ولهذا جاء الجواب: كان الله ولم يكن شيء قبله ثم خلق السماوات والأرض وكان عرشه على الماء، فعلى هذا يتبين لنا أن استواء الله جلّ وعلا خاص على عرشه، ولا يجوز أن نقول كما تقول الجهمية من أن معنى استوى على العرش هو استولى على العرش؛ لأنه جلّ وعلا مستولٍ على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى المخلوقات وعلى كل شيء، فأي فائدة تكون بعد ذلك؟.

ويستدلون بحديث مصنوع مبتدع، والغريب أنهم يستدلون ببيت شعر مصنوع، ولو استدل عليهم بآية من كتاب الله لم يقبلوها لأن الهوى وافق ذلك، وبيت الشعر هو:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

ويقولون: إن هذا البيت للأخطل مع أنه ليس موجوداً في ديوانه وأنكر أن يكون له، وإن قدر أنه له فهو نصراني منحرف في العقيدة انحراف النصارى، فكيف يستدل ببيت من أشعاره ويترك كلام الله وأحاديث رسوله ﷺ وإجماع السلف على ذلك، فهذا هو الضلال البين الواضح.

في هذه الآية دليل على أن أول المخلوقات هي التي نشاهدها، وفيها أن المخلوقات تدل على وجود الله جلّ وعلا وأنه إذا نظر الإنسان بفكره وعقله يدعوه إلى معرفة الله جلّ وعلا.

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]

السماء فوق من جميع الجهات، مع أن الأرض محصورة والسماء محيطة بها من كل جانب وهي فوقها دائماً، ولا يمكن أن تكون السماء تحت؛ لأن الجهات الحقيقية جهتان فقط: فوق وتحت، أما البقية فهي وهمية ولا حقيقة لها أو إضافية، ومعنى كونها إضافية أن يمينك تكون شمالاً لغيرك، وخلفك أمام لغيرك، فهي إضافية بالنسبة للمخلوق الصغير الحقير، أما الجهات الحقيقية فهي الفوق والتحت فقط وليس هناك جهات أخرى، والسماء دائماً فوق، أما التصور الذي قد يتصوره الإنسان كأن يقول: الجانب الذي تحتنا من الأرض تكون السماء تحته، هذا تصور خاطئ؛ لأن جانب الأرض الآخر ليس تحتنا، والذي يكون تحتنا هو مركز الأرض وقلبها، حيث إنه لو قدر أنه يُخْرَقُ خرقٌ من جانب وخرق مقابله من الجانب الآخر وكلاهما يذهب تحت فيلتقيان في مركز الأرض، ولو قدر أن إنساناً يدخل من جانب وآخر يدخل ومن الجانب المقابل من الأرض فستلتقي أرجلهما ورؤوسهما إلى الفوق من الجانبين، والسماء فوق الأرض من جميع الجهات، والسماء

الثانية كذلك فوق الأولى، والثالثة فوق الثانية بهذا الجانب، يعني أن السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا والثالثة محيطة بالثانية والرابعة محيطة بالثالثة، والعرش فوق السماوات كلها، غير أن العرش جاء أن له قوائم وحملة كما في حديث الأوعال أن ملائكة يحملونه وهم حملة العرش، وقد ذكر الله جلّ وعلا ذلك في كتابه وجاء في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] يعني يوم القيامة يكونون ثمانية بدلاً من أربعة لحكمة أرادها جلّ وعلا، ولأنه جلّ وعلا إذا غضب ما تحمله الملائكة ولا غيرهم إلا بقدرته جلّ وعلا، فعلى هذا نعرف أن العرش هو أعلى المخلوقات وأكبرها وأعظمها والله أكبر من كل شيء.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من تمام القدرة، وليس المعنى أن هناك عمداً ولكنها لا ترى، ولكن المعنى: ترون السماء قائمة فوق الأرض وليس لها عمد تمسكها وإنما يمسكها رب العالمين جلّ وعلا، ولو ترك إمساكها فمن الذي يمسكها؟.

والمعنى أننا نرى السماء بعيدة جداً ولا نشاهدها إلا إذا كنا على الأرض، أما إذا ارتفع الإنسان عن الأرض وأصبحت الأض لا تأثير لها في الانعكاس تختفي السماء، وهذا الذي غر هؤلاء الملاحدة فقالوا: ليس هناك سماء وإنما هو فضاء تسبح فيه الكواكب فقط، وبعض الفلاسفة يجعلون السماء الأفلاك؛ لأنهم برصدهم أدركوا أن الأفلاك سبعة، ولكن جاء بعدهم من زادت عنده الأفلاك وصار تسعة، والآن وصلت إلى أكثر، وهذا كله يدل على أن النجوم والأفلاك دون السماء، وأما قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ فهي في مرأى العين كأنها مصابيح في السماء زينة لها، والعلم عند الله جلّ وعلا ولكن هذا هو الظاهر.

وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]

الآية الأولى جاءت مقدمة والثانية عكسها، مما يدل على أن الاستواء حقيقي، وأنه لا يجوز أن يتأول بأنه القصد أو القهر أو الملك أو التصرف كما يقوله أهل التأويل كابن العربي المالكي صاحب «العواصم من القواصم» فإنه قال فيها قاصمة: إذا قال لك المشبه ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾ فقيل: للاستواء خمسة عشر معنى فأيها تقصد؟.

فيقال له: كلا والله، ليس للاستواء إلا معنى واحد، أما الأربعة عشر فهي مخترعة من عندكم ولم يدل عليها القرآن ولا كلام رسول الله ﷺ ولم يقل بها أو ينطق بها أحد من سلف الأمة، وإنما هي مبتدعة مخترعة فترد على قائلها.

وَقَالَ فِي سُورَةِ الم السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

يعني أن المسافات والفضاء كلها مخلوق لله جلّ وعلا، ولكن هذه محاطة بالسماء وفيها من المخلوقات ما الله به عليم من النجوم والرياح وغيرها.

وَقَالَ فِي سُورَةِ الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

في كلها أطرد ذكر الاستواء على خلق السماوات والأرض، والاستواء جاء في لغة العرب على معنيين:

الأول: استواء معدى بعلى كما في هذه الآيات ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو يدل على العلو والارتفاع.

الثاني: استواء معدى بإلى كقوله جلّ وعلا: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو كذلك يدل على العلو والارتفاع.

وهناك استواء يتعدى بنفسه كقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ هذا معناه تم وكمل وهو بإجماع أهل اللغة، وهناك استواء يأتي مقروناً بالواو مثل: استوى الماء والخشبة، وهذا معناه المساواة أي: أنه صار مساوياً له، وليس هناك معنى ثالث في اللغة، وإنما قولهم: أن معنى استوى استولى مثل ما يقول ابن القيم رحمه الله: إن هذه اللام تشبه نون اليهود، وهما زائدتان في وحي الله، فلا معنى لها ولا يعرف عند العرب أن استوى بمعنى استولى، فقد أنكرها أئمة اللغة، وإنما قاله المتأخرون من النحويين الذين صاروا أشاعرة وأثبتوه في كتبهم، هذا لا يجوز أن يعتمد عليه ولا ينظر إليه ولا يغتر به، والاستواء معناه جاء معبراً عنه بأربعة ألفاظ، وهي ثابتة عن السلف بالأسانيد كما ذكرها اللالكائي في شرح أصول أهل السنة والأجري والبخاري والدارمي وغيرهم مثل الطبري ومفسري السلف وهي:

الأول: أن معنى الاستواء عبروا عنه بالعلو، أي: علا على العرش.

الثاني: ارتفع على العرش.

الثالث: استقر على العرش.

الرابع: صعد على العرش.

وهي كلها واضحة ومعناها واحد، وإنما كلٌّ يعبر باللفظ الذي يفيد السامع وإلا فهي مترادفة، فإذاً معنى الاستواء معلوم كما قال الإمام مالك وإنما المجهول كيفيته؛ لأن الكيفية تتطلب المشاهدة والله جلّ وعلا لا يُشاهد، ثم إن هذا الذي ذكر في هذه الآيات من الاستواء دليل على علو الله، والاستواء دليل سمعي وهو بالوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، والاستواء من صفات الفعل.

إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللهِ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]

عيسى ﷺ لم يمت، ومعنى وقول الله جلّ وعلا: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ فيه قولان للعلماء:

الأول: أن المقصود بالتوفي هنا النوم، والنوم يسمى توفٍ كما قال الله جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

الثاني: أن هذا توفٍ لا يلزم منه الموت، توفاه الله ولكنه لم يمت، وسينزل في آخر الزمان ونزوله من أشراط الساعة الكبرى، وقد جاءت الأحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى ﷺ وأنه سيصبح حكماً عدلاً مقسطاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل الجزية ويقبل الإسلام فقط، وهو من هذه الأمة لأنه لا يأتي بشريعة وإنما يحكم بهذا الشرع؛ لأن هذا هو الشرع الأخير الذي أنزله الله جلّ وعلا، وأما كونه لا يقبل الجزية فهذا من الأمور التي أوحيت إلى النبي ﷺ من شرعه وهو ليس شيئاً جديداً.

فهو حي في السماء بدليل قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ فالضمير في ﴿مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلى عيسى، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الموجود في وقت نزوله من اليهود والنصارى ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

في هذه الآية تصريح بالرفع، والمعروف عند العقلاء أن الرفع يكون من الأسفل إلى العلو، فقوله جلّ وعلا: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دليل على أن الله جلّ وعلا في العلو، فوجه الدلالة واضحة.

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]

لأن اليهود تدعي أنهم قتلوه وصلبوه، فأخبر الله جلّ وعلا أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل رفعه الله إليه وألقى شبهه على أحد المجرمين من اليهود، فقتلوه زاعمين وظانين أنه هو وليس كذلك بل رفعه الله إليه، وهذه نصوص واضحة في أن عيسى ﷺ رفع إلى السماء وأن الله فوق.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى الله، فالضمير هنا يعود على الله جلّ وعلا.

﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ مثل الذكر والتلاوة التكبير والتسبيح وغير ذلك، فإن هذا الكلم الطيب إذا كان خالصاً مقصوداً به وجه الله جلّ وعلا.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ الضمير هنا اختلف فيه، هل هو يعود إلى الله وأن الله يرفع العمل الصالح ويكون هذا عموماً بعد خصوص، وهذا ما يأتي كثيراً، أو أن الضمير يعود على العمل الصالح، وأن العمل الصالح يكون سبباً لرفع الكلم الطيب؟.

الأول أظهر والله أعلم، وعلى كلٍ فالمقصود أن هذا صريح في أن الله جلّ وعلا في العلو.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

هذا صريح في أن موسى ﷺ أخبر فرعون أن الله في السماء، فلهذا صار يموه على السذج أشباه البهائم أتباع كل ناعق، ويقول لوزيره: أوقد على الطين وابن لي صرحاً حتى أصعد في الصرح وأنظر هل صدق موسى ﷺ أم كذب؟.

وإني أظنه كاذباً، فزعم أنه يبني بناءً ويصل به إلى السماء، ومع

ذلك يُصدق ويُتبع؛ لأن أكثر الناس كالبهائم إذا نعق بها راعيها تبعته بدون فكر ونظر، فهذا يدلنا على أن علو الله جلّ وعلا اتفقت عليه الشرائع، والرسل جاءت بذكر علو الله جلّ وعلا وأخبرت حتى الجبابرة مثل فرعون، وفرعون هو اسم علم لكل ملك كافر يملك القبط في مصر، كما أن كسرى اسم لكل من ملك المجوس، وقيصر اسم لكل من ملك الروم، والنجاشي اسم لكل من ملك الحبشة، والنمرود اسم لمن ملك الكنعانيين.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧]

﴿ءَأَمِنتُم﴾ فيه تخويف، أي: كيف تعصون الله جلّ وعلا وتأمنونه وهوَ فوقكم في السماء أن يخسف بكم كما خسف بغيركم كقارون وأشباهه؟.

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذه فيها معنيان:

الأول: أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى على، أي: ءأمنتم من على السماء، وهذا كثيراً ما يأتي، وهو أن يعبر بـ«في» ويقصد بها «على» كما قال جلّ وعلا في قصة فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يعني عليها، وليس المعنى أن يدخلهم في وسطها، وقوله جلّ وعلا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني فوقها، وليس المعنى أن يدخلوا فيها.

الثاني: أن يكون المقصود بالسماء هنا العلو، بمعنى ءأمنتم من في العلو، وليس السماء المبنية.

ولا يجوز غير هذين الأمرين، وأما أمر ثالث فهو باطل.

﴿تَمُورُ﴾ أي: لا تستقر وتتجلجل، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه

قال: **«بينما رجل في حلة له يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»**[1] فهذا فيه المراقبة والخوف وعدم الأمن من عذاب الله جلّ وعلا لا سيما لمن يكون مصراً على المعصية.

﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني كيف تأمنونه وقد علمتم ما فعل بمن كان قبلكم؟.

والحاصب: هي الحجارة التي ترسل على العصاة كما أرسلت على قوم لوط وغيرهم، وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه في حوادث أربعمائة وكذا سنة يقول: إنه نشأت سحابة سوداء تكاد تمس الأرض لها صوت مزعج فأمطرت حجارة على شمال أفريقيا، وذكر أنها أهلكت كل من مرت عليه، وهذا يجوز؛ لأن الله جلّ وعلا يخوف عباده ويعاقب إذا شاء، وقد ذكر جلّ وعلا - لما ذكر قصة قوم لوط - أنه جلّ وعلا قلب مدائنهم فجعل عاليها أسفلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، وقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝﴾ [هود: ٨٣] يعني ما هي من ظالمي هذه الأمة ببعيد، وثبت في الحديث الصحيح أنه يكون في آخر الزمان قذف وخسف ومسخ، يعني يقذف أناس بحجارة من السماء ويخسف بآخرين ويمسخ آخرون قردة وخنازير.

هذه الآيات صريحة في إثبات العلو لله جلّ وعلا، والأدلة على هذا لا حصر لها، يقول ابن القيم رحمه الله: إنه أحصى أكثر من ألف دليل، ومعلوم أن إكثار الأدلة على من لا يؤمن بها ولا يقبلها لا يزيده إلا تمادياً وبعداً، والله جلّ وعلا خاطب رسوله قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف: ١٤٦] فالإنسان الذي يكون مقصده الباطل؛ مهما

(١) البخاري (٥٧٨٩)، كتاب اللباس، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء، ومسلم (٣٨٩٤)، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أكثر له من الأدلة وبيّنت ووضحت ما تنفعه أنه يتبع هواه، وإلا فأنواع الأدلة التي جاءت تدل على علو الله أنواع ظاهرة، وهي أنواع منها: كونه جلّ وعلا يصرح في عدة آيات بأنه فوق عباده ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وتأتي أدلة بأن الله جلّ وعلا يذكر أن عنده من له ميزة ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وقد جاء في عدة آيات وفي الحديث الذي في الصحيحين: «**إن الله كتب كتاباً إن رحمتي تغلب غضبي ووضعه عنده في العرش**»[1] فهو وضَعَ عنده، وفي ذكر قصة امرأة فرعون قولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] في عدة آيات، ومرة يأتي تصريح بأنه تنزل منه الملائكة وينزل منه الأمر والوحي ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [الجاثية: ١، ٢] ﴿حم ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [فصلت: ١، ٢] ومعلوم أن النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، ولا يجادل في هذا عاقل، وتارة يذكر الصعود إليه وأن الملائكة تعرج إليه ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾ [المعارج: ٤]، ومرة يذكر أن الأعمال الصالحة تصعد إليه كما ذكر في هذه الآية، ومرة يذكر أنه استوى على العرش كما سبق، أنواع متعددة كثيرة لو أن الإنسان تكلف إحصاءها لتعب، فأي دليل أوضح من هذا وأجلى، ثم إن الفطر تدل على هذا، ومعلوم أن الإنسان وغير الإنسان أنه في هذه الحياة لا بد أن يحتاج ويمسه ضر ويقع في مشكلات وكربات، والناس إذا وقعوا في الكرب لجئوا إلى الله، حتى المشركين، ولهذا جعل الله جلّ وعلا ذلك دليلاً على وجوب توحيده فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فالإنسان إذا وقع في شيء من ذلك دعا ربه رافعاً يديه إلى السماء ويجد

(١) متفق عليه. هو مخرّج في «الظلال» (ص٦٠٨ ـ ٦٠٩). ألباني.

هذا في نفسه ويدفعه، لهذا كان إمام الأشاعرة في وقته «الجويني»[1] في مسجد النبي ﷺ موضوع له كرسي ويقرر التعطيل ويقول في نفي العلو: كان الله ولا مكان وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان. فقام رجل من الحاضرين فقال: أخبرني عن ما في نفسي وفي نفسك وفي نفوس جميع الناس ودعني من هذه الأدلة والمجادلات التي تقول، وأخبرني عن الضرورة التي أجدها في نفسي وأنت تجدها في نفسك وكل داعٍ إذا دعا ربه يجد أن هناك دافعاً يدفعه أنه يطلب ربه من الفوق وليس من الأسفل ولا من اليمين ولا من الشمال، فكيف ندفع هذه الضرورة بدليل وشيء مقنع؟.

ففكر ثم وضع يده على رأسه ونزل من على الكرسي وصار يبكي وقال: حيرني الرجل.

فهل هذا علم، وهل هذه طريقة أن يحتار وهو يسمى إمام الحرمين؟ فحار في دينه فأصبح لا يعرف ربه، وهذا شيء تعرفه العوام، لما خرج فخر الدين الرازي من بيته في نيسابور وصار يمشي في الشارع وخلفه أكثر من ثلاثمائة تلميذ من تلامذته؛ وقفت عجوز في بابها فسألت

(١) هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشهير بـ«إمام الحرمين»، وهو من أئمة الشافعية، ومن أكابر الأشاعرة، وآخر أمره التفويض، والعجيب أن الإمام الذهبي زعم أن الجويني رجّح مذهب السلف، ووافقه على ذلك محقق «السّير»! والحق أن الجويني رجع عن مذهب الأشاعرة إلى مذهب التفويض وأصبح من زعماء هذا المذهب البدعي، وهو أيضاً ممن يزعم نسبة هذا المذهب إلى السلف، وهذه فرية عظيمة منه كَلَلْله ومحض افتراء على عقيدة السلف، قال في «العقيدة النظامية» (ص٢٣): وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. من مؤلفاته المطبوعة: «غياث الأمم» و«البرهان في أصول الفقه»، توفي الجويني سنة ٤٧٨هـ.

«سير أعلام النبلاء» (٤٦٨/١٨)؛ «البداية والنهاية» (١٣٦/١٢)؛ «الأعلام» (٤/ ١٦٠).

أحد التلاميذ: من هذا الملك؟ فقال: هذا ليس ملك، هذا فخر الدين الرازي، وهو يعرف على وجود الله ألف دليل، فضحكت العجوز وقالت: والله لو لم يكن عنده ألف شك ما احتاج إلى أن يعرف على وجود الله ألف دليل.

وهل وجود الله يحتاج إلى أدلة؟ فبفطرتها أجابت بذلك، ولهذا: هذا الرجل لما حضرته الوفاة صار يتمنى أنه يموت على عقائد عجائز نيسابور، ولكن هذا لا يمكن؛ لأن الذي في القلوب لا ينمحي، فالمقصود أن الفطر تدل على علو الله جلّ وعلا، وقد تغير الفطرة من قبل المعلم أو المربي.

والعقل يدل على هذا، فلو قلنا مثلاً: إنه من المعلوم أن الله هو الخالق وحده، والخلق كله خلق الله، فنقول: لما خلق الخلق أين خلقه، هل خلقه في ذاته؟.

تعالى الله وتقدس، يعني أنه لا يخلو الأمر، فإما أن يكون خلق الخلق في ذاته أو خارج ذاته، فإذا كان خارج ذاته فلا يمكن أن يكون أسفل بل هو أعلى، فوق، فهو جلّ وعلا العلي الأعلى، فأدلة العلو سمعية فطرية عقلية إجماعية، والعلو من صفات الذات.

إثباتُ معيّة الله لِخلقِه

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]

المعية في لغة العرب: المصاحبة، وليست المعية معناها المداخلة والممازجة والمخالطة كما يزعمه الذين لا يعرفون اللغة، والمعية لا تخالف العلو.

ذكر في هذه الآية الجمع بين العلو والمعية، فذكر جلّ وعلا أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وذكر مع ذلك أنه معنا أينما كنا، وهذه المعية معية عامة بالنسبة للخلق كلهم، والمعية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ المضافة إلى الله جاءت على قسمين:

الأول: معية عامة شاملة، وهي تفيد التخويف؛ لأنها تدل على المراقبة وأن الله مطلع على أعمال الخلق وأنه لا يخفى عليه خافية منهم وأنه محيط بهم، ومقتضاها الخوف، بأن يخاف العبد ويراقب ربه، فقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدل على مراقبة الله لنا وأنه لا يخفى عليه خافية من أفعالنا وأعمالنا، فهي تدل على الخوف وتقتضي الإحاطة والاطلاع، يعني البصر والسمع وليس مجرد العلم فقط، فالعلم من وراء ذلك كله، فالله محيط بنا يسمع قولنا ويرى مكاننا ويعلم ما في ضمائرنا ولا يخفى عليه خافية.

الثاني: معية خاصة، وقد جاءت بالنسبة للرسل وللمتقين وللمحسنين، فقد قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ويقول لموسى ﷺ وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وفي الآية الأخرى التي جاءت عامة ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥] فهذه دخل فيها فرعون وغيره، كذلك قوله ﷺ لصاحبه: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»** لأن أبا بكر قال: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا[1]، فهذه المعية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة.

وبهذا يتبين أن المعية ليست الاختلاط والامتزاج، ولو كانت

(١) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم: أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي ﷺ؛ مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، من حديث أنس ﷺ.

الاختلاط ما صح أن تقسم، وهذا بإجماع السلف، أما أهل البدع فلا عبرة بأقوالهم واستنتاجاتهم؛ لأنهم مثل ما يقول أهل السنة: أهل أهواء، وصاحب الهوى لا ينظر إلى الحق والدليل وإنما ينظر إلى هواه، بل يحاول أن يكون الدليل متفقاً مع هواه إن أمكن ذلك ولو بالتعسف به حتى يوافق ذلك.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

هذه الآية تدل على المعية العامة، وتوجد هذه الآية في كتب السلف كثيراً ويقولون: هو معنا بعلمه؛ لأن الآية بدأت بالعلم وختمت به، قال جلّ وعلا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧] وهذا قول الإمام أحمد وغيره.

وقولهم هذا لا يعني أن المعية العامة مقتضاها العلم فقط: ولكن يذكرون هذا لوضوحه وليردوا على الذين يقولون: إن الله في كل مكان كالجهمية، فالجهمية ينقسمون إلى قسمين:

الأول: جهمية غلب عليهم التعطيل، فعطلوا الله جلّ وعلا، فآل الأمر إلى أن يعبدوا عدماً؛ لأنه لا يعقل أن يكون هناك معبود ليس داخل العالم ولا خارجه ولا محايد ولا مقابل ولا فوق ولا تحت ولا يميناً ولا شمالاً ولا في مكان ولا يجري عليه زمان إلا العدم.

الثاني: جهمية غلب عليهم التعبد فلم يقبلوا هذا القول، فتصوروا أن الله هو الكون كله وداخل في كل شيء حتى في نفوسهم، فقالوا: إنه في كل مكان، وهؤلاء هم أهل الحلول، ثم صار منهم من بالغ في ذلك فقال: ليس هناك حلول بل اتحاد: فالمخلوق هو عين الخالق والخالق

هو عين المخلوق، ولا يوجد اثنان بل هم شيء واحد، وهذا النهاية في الكفر - نسأل الله العافية - فلهذا قال السلف: إن الله معنا بعلمه، أما ذاته جلّ وعلا ففوق العرش، ولهذا لا ينفون اطلاعه وسمعه وعلمه بما في القلوب، وإحاطته كون الخلق بقبضته جلّ وعلا، ولكن يذكرون الشيء الظاهر، وهذا هو السبب في كونهم يقولون: هذه معية العلم.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ النجوى: ضد النداء، وهي الكلام الخفي الذي بين اثنين أو ثلاثة ولا يريدون أن يتعداهم الكلام، وبهذا يتبين أن الله جلّ وعلا ما يكون من ثلاثة إلا هو رابعهم، أي: أنه لا يخفى عليه مناجاتهم، فيسمع ذلك ويرى تقلباتهم وهم في قبضته، وإحاطته وهذا هو معنى المعية هنا.

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ في لغة العرب أن المضاف إليه إذا كان من جنس المضاف قيل: ثالث ثلاثة ورابع أربعة وخامس خمسة، أما إذا كان من غير جنسه قالوا: رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة، ولهذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ لأنهم جعلوا الله جلّ وعلا من جنس عيسى وأمه تعالى الله وتقدس، وفي هذه الآية يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنه ليس من جنسهم تعالى وتقدس، أما كون العدد هنا أدنى الأفراد الذي يتفق معه الفرد والشفع، والثاني هو الذي يجمع الشفع والوتر، فقد يكون هذا مراداً وغير مراد، الله أعلم؛ لأن الثلاثة جمعت الشفع والوتر، والخمسة كذلك جمعت الجمع المجتمع والوتر المنفرد.

﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعني ولا أدنى من هذا العدد، والأدنى من هذا العدد هو الاثنين، هذا هو الذي يمكن أن يكون فيه نجوى، ولكن الله جلّ وعلا أخبرنا أنه يعلم السر وأخفى، فالسر: هو الذي يسره الإنسان

في نفسه ولا يتكلم به ولا يطلع عليه أحد، والأخفى منه هو الشيء الذي لم يخطر بالبال ولم يدر في الخيال، فالله يعلم أنه سيدور في باله في وقت كذا بكذا وكذا ولا يخفى عليه شيء.

﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنه حافظ ذلك عليهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم وهو الرقيب جلّ وعلا.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا عام لا يخرج عنه شيء، فهذه المعية العامة ذكرت في هاتين الآيتين لا تخالف علوه واستواءه على عرشه جلّ وعلا، فهو على عرشه عالٍ على خلقه، وهو كذلك معهم باطلاعه وسماعه وبصره وإحاطته.

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

هذا ذكره الله جلّ وعلا من قول الرسول ﷺ لما هرب من الكفار حينما اتفقوا على قتله، فأمره الله جلّ وعلا بالخروج من مكة، فخرج ومعه أبو بكر الصديق فذهبا واختفيا في غار ثور الذي في مكة وبقيا وقتاً حتى يرجع الطلب، فجاءوا بالقافة يقصون الأثر ويبحثون وداروا على الغار فرجعوا، وبعدما علموا أنه في الظاهر الذي يظهر لهم أنه ليس في هذا، سار ﷺ وقد وعد ابن الديل ـ وهو رجل كافر ـ أن يأتيه بعد ثلاث، جاء برواحلهما وسار متجهاً إلى المدينة كما هو معروف، فالمقصود أن أبا بكر رضي الله عنه في هذه الحالة ظهر عليه الخوف الشديد على رسول الله ﷺ وظهر ذلك جلياً، فصار يطمئنه الرسول ﷺ ويقول: **«لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**[1] يعني لن يصلوا إلينا، فحفظهم الله جلّ وعلا، فهذه معية خاصة، فقد كانوا على الغار محيطين به، والله مع رسوله وصاحبه دونهم؛ لأن هذه المعية مقتضاها النصر والحفظ والتأييد، فالحفظ خاص برسوله وبصاحبه في هذا المقام.

(١) سبق تخريجه.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]

وهذا قوله جلّ وعلا لموسى ﷺ وأخيه لما قال موسى ﷺ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ لأنه معروف بالجبروت والطغيان والقتل، فقال الله جلّ وعلا: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أسمع ما يقول وما تقولان له وأرى ذلك وهو ناصيته بيدي أتصرف فيه كيف أشاء، فمقتضى هذا الاطمئنان وعدم الخوف والثقة بنصر الله جلّ وعلا وحفظه وتأييده، فهو جلّ وعلا في هذا مع موسى ﷺ وأخيه دون فرعون ووزرائه وكبرائه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ اتقوا أن يتركوا ما أمرهم الله جلّ وعلا به، واتقوا أن يرتكبوا ما نهاهم الله جلّ وعلا عنه، يعني جعلوا بينهم وبين المخوف وقاية وساتراً يسترهم وهو فعل الأوامر وترك النواهي، وهذا هو حقيقة التقوى، ولا بد أن يكون مع ذلك الخوف والرجاء والمحبة.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ المحسن أعلى من المتقي درجة؛ لأن المحسن هو الذي جاء بغاية ما يمكنه من إحسان العمل، وأحسن ما يكون من العمل وجاء به على الوجه المطلوب، والإحسان يكون بعضه أعلى من بعض كما في حديث الرسول ﷺ لما قال له جبريل ﷺ: أخبرني ما الإحسان؟ قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] وهذا هو أعلى الدرجات، ومعلوم أن العبد إذا صار يشاهد ربه فإنه لا يمكن أن يدخر شيئاً من إحسان العمل، بل سيأتي به على الوجه الذي يستطيعه،

(١) البخاري (٥)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان من حديث أبي هريرة ﷺ؛ ومسلم (١)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في منكري القدر، من حديث ابن عمر ﷺ.

ولا يترك جهداً وذخراً في إحسانه إلا أتى به، ثم قال: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** وهذه الدرجة الثانية، يعني إذا لم تستطع أن تعبد الله على أنك تراه وتشاهده؛ فاعبده على العلم اليقيني إنه يراك ويبصرك، وهذه أقل درجة من الأولى، وكلاهما محسن في هذا.

والله جلّ وعلا مع المتقين والمحسنين بحفظ أديانهم وقلوبهم وإيمانهم، وهذا أعظم منة عليهم من الله جلّ وعلا، كذلك هو معهم في الأمور الأخرى التي هي أقل من هذه، سواء كانت من أمور الدنيا أو من غيرها، وفي الآية قد يكون تقديم المتقين على المحسنين أن المتقين أكثر والمحسنين أقل، فلذا ذكر المتقين أولاً.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]

وهنا أمر بالصبر، وقد سبق أن الصبر واجب وأنه لا يجوز الإخلال به.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بنصره وتأييده؛ لأن هذا في ذكر القتال ومواجهة الأعداء، والله جلّ وعلا مع الصابرين بالنصر والتأييد والحفظ.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

﴿فِئَةٍ﴾ هذا جمع وليس له مفرد من لفظه في اللغة، والفئة هم الجماعة.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معهم بالنصر والتأييد، وهذا مع الآية التي قبلها يدلنا على أن النصر ليس بالكثرة وليس بالعدد والآلات، وإنما هذه أسباب وقد أمر الله بها فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أما النصر فإنه من الله جلّ وعلا؛ لأنه جلّ وعلا أخبر في

موضع آخر أنها لا تغني الكثرة إذا لم ينصرهم الله، وأن المنصور من نصره الله ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ وأمر الله جلّ وعلا بالصبر لأنه من أسباب النصر، ووعد عليه أنه مع الصابرين بنصره وتأييده، وهذه الدنيا لا بد فيها من العمل، والعمل يكون بجهد وببذل المستطاع، والقتال هو بذل الجهد في مدافعة العدو وفي قتله، فإذا حصل مع التقوى فإن الله جلّ وعلا ينصر عباده المؤمنين، فقد وعدهم بذلك ووعده حق لا يخلف، ففي هذه الآيات التي ذكرها المؤلف بعدما ذكر العلو ليبين لنا أن معية الله جلّ وعلا لا تخالف علوه، بل هو عالٍ على خلقه، وهو العلي الأعلى القاهر فوق عباده وهو معهم، فإذاً يكون معنى المعية العام مجرد المصاحبة، والمصاحبة تختلف بالاختلاف ما أضيف إليه حتى بين المخلوقين، فالإنسان يقول مثلاً: معي مالي، ويقول: معي صاحبي، ويقول: معي علمي، فمعية العلم نوع ومعية المال نوع ومعية المصاحبة نوع، ولكن كلها لا تدل على الامتزاج؛ لأن العلم صفة والصفة لا بد أن تقوم بالموصوف، ولا يمكن أن تكون قائمة بنفسها، مثل اللون، كونه مثلاً أبيض أو أحمر، فلا يوجد اللون إلا بذات يقوم بها، فالعلم كذلك والجهل والمرض والصحة، يعني كون صحته وعلمه معه نوع؛ لأن هذه معية الصفة، ومعية المال نوع آخر، فالمال ينفك عنه ولهذا يقول: معي مالي وإن كان هو في بلد والمال في بلد آخر، وهكذا يقول: معي زوجتي وإن كانت في بلد وهو في بلد شاسع بعيد عنها، ولهذا سمع من كلام العرب: سرنا مع القمر، فالقمر في السماء وهم في الأرض وهو كلام صحيح، فإذا كان هذا يصح فرب العالمين جلّ وعلا الأعلى فوق خلقه وهو أكبر من كل شيء وهو المحيط بكل شيء وهو العليم وهو الذي لا يفوت بصره شيء ولا يفوت سمعه شيء، فإذا قال إنه مع خلقه أو مع عباده المخلصين؛ فإن هذا لا يدل على المخالطة كما يفهمه أهل الجهل

وأهل الانحراف، لهذا قال الله جلّ وعلا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] فلا أحد يفهم من قوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ داخلون في ذاته، بل الذين معه على الإيمان وقتال الكفار، وكذلك قوله في قصص الأنبياء: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] يعني معه على الإيمان، وهكذا المعية إذا تأملها الإنسان كلها فهذا معناها، وبهذا يتبين أن معية الله جلّ وعلا لا تخالف علوه، بل هو العالي في علوه وهو القريب في دنوه جلّ وعلا، فهو على عرشه وهو معنا، ولا يجوز أن يلحق الله جلّ وعلا في خلقه بصفة من الصفات أو في معنى من المعاني، ولكن المعية في اللغة لا تدل على الممازجة والمخالطة مطلقاً، أما إذا قال الإنسان: اللبن مع الماء، فهذا لأنه خلط ومزج ولأنه من نوعه وجنسه تقريباً ويختلط به.

إِثْبَاتُ الْكَلامِ للهِ تَعَالَى

والمسألة في الكلام فيها اختلاف كبير جداً، ولا يزال الأمر فيها عند كثير من الناس شائكاً ولا يزالون على الباطل ـ نسأل الله العافية ـ مع وضوحها وظهورها وأنها صفة للمتكلم، والأدلة على إثبات الكلام لله جلّ وعلا حقيقة على ظاهره أنه يتكلم جلّ وعلا كلاماً يسمع، ومعلوم أن الكلام المسموع لا بد أن يكون بحروف وصوت، وهذا هو الذي يعقل ومع ذلك يغالط كثير من الناس في هذه المسألة، وطالب العلم يهمه معرفة الحق بدليله، مع أنه قد يحتاج إلى معرفة كيفية رد الباطل؛ لأنه قد يوجد من يشبه عليه ويلبس، ولأن أهل الباطل يلبسون الحق بالباطل ويخلطونهما حتى ينطلي على الناس، وإلا لو كان الباطل متجرداً خالصاً ما فيه شيء من الحق؛ لتبين ولم يتبعه أحد ولا يُنظر إليه، فمسمى الكلام الذي يوصف الله جلّ وعلا به هو للكلام المنطوق المسموع وللمعنى الذي دل عليه، وجملة ذلك هو كلام الله جلّ وعلا، ويهمنا معرفة مذهب الأشاعرة؛ لأن المعتزلة أمرهم واضح، فهم

يقولون: إن كلام الله مخلوق، وقد يقولون: إن الله يتكلم بمعنى أنه يخلق الكلام، فالكلام عندهم مخلوق وهو من صفات الأفعال، وصفات الأفعال ليست الصفات التي تقوم بالرب جلّ وعلا، بل عندهم تكون منفصلة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وهم في هذا الباب والأشاعرة شيء واحد، إذا قالوا صفة فعل فهذا هو مقصودهم أنه مفعوله؛ لأنهم لا فرق عندهم بين الفعل والمفعول، وتعريف الكلام عند الأشاعرة: هو المعنى الواحد القائم بذات الرب جلّ وعلا، وهو عبارة عن خبر واستخبار وأمر ونهي.

والمقصود بالاستخبار: الاستفهام، أما الكتب المنزلة كالقرآن والتوراة والإنجيل وغيرها فهي عبارة عبر بها عن كلام الله جلّ وعلا، وإلا في الواقع فهي مخلوقة، والكلابية يقولون: حكاية حكت كلام الله، فالأشاعرة لم يرضوا هذه العبارة وقالوا: الحكاية تشبه المحكي واختاروا أن تكون عبارة، فعندهم أن الكلام المسموع والملفوظ مخلوق، وهذا لا يجوز أن يتكلم الله جلّ وعلا به، بل بعضهم يجعل هذا مستحيلاً مثل الأكل والشرب والنوم ـ تعالى الله وتقدس ـ فإذا كان الأمر هكذا فكيف تثبت النبوة؟ وكيف عرفت الأوامر؟.

فيقولون: عبر عن أوامر الله بهذا، والعجيب أنهم يقولون: كلام الله هو المعنى الواحد القائم بذات الرب، وهذا من أعظم الباطل وأظهر التناقض، ولهذا لا فرق عندهم بين آية الكرسي وآية الدين، ولا فرق بين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وبين ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١] بل ليس هناك فرق بين القرآن الكريم والإنجيل والتوراة، ولكن إذا كان الكلام الذي عبر عنه عما في نفس الله عربياً سمي قرآناً، وإن كان المعبر به لغة أخرى كالسريانية فهو توراة، فعندهم التوراة والإنجيل والقرآن شيء واحد لأنه عبارة عن شيء واحد، وكون الإنسان يتصور هذا المذهب تصوراً تاماً يكفي عن رده، فظهور بطلانه جلي.

قد يقال: ما الذي حملهم على هذا القول؟.

نقول: حملهم على هذا الذي حملهم على تأويل الصفات الأخرى، وجود التشبيه المستكن في نفوسهم؛ لأنهم ـ كما سبق ـ ما عرفوا من صفات الله جلّ وعلا إلا ما عرفوه من أنفسهم تعالى الله وتقدس، فقالوا: الكلام الملفوظ المسموع يتطلب لساناً وشفتين ولهاة وحنجرة وحبالاً صوتية، هذا لو قلنا بالكلام المسموع الملفوظ الذي هو حروف وكلمات للزم أن نقول بإثبات هذه الأدوات، وهذا مما اعتلّوا به، وقالوا: أمر آخر ـ وقد أخذوه عن المعتزلة أيضاً ـ وهو أن الكلام بالحروف والأصوات متعاقب، ومعنى متعاقب أي: أنه إذا قال قائل: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فحرف الباء قبل حرف السين، وحرف السين قبل حرف الميم، وهكذا، والنطق بحرف الباء يحتاج إلى وقت وكذلك حرف السين والميم، ومعنى هذا أن التكلم بذلك يكون حدثاً والحدث لا يجوز أن يكون حالاً في الله جلّ وعلا؛ لأن من كان محلاً للحوادث فهو حادث.

ويقولون: نحن استدللنا على وجود الله جلّ وعلا بوجود الأعراض التي تعرض للمخلوقين وتنتهي، فهم مخلوقون لأجل ذلك، والعرض: هو الذي لا يقوم إلا بغيره ولا يكون له زمن فينتهي، وقد عرف أن هذا القول باطل، ومصدر هذا كله التشبيه المستكن في نفوسهم، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في إبطال هذا المذهب كتاباً سماه هو أو غيره «التسعينية» وهو في إبطال الكلام النفسي من تسعين وجه، وكل وجه من هذه التسعين يكفي في إبطال هذا المذهب الخبيث، ويقول بعض علماء الحنابلة: إن هذا من أشر المذاهب وأخبثها، بل هو أخبث من مذهب المعتزلة؛ لأنه لبس فيه واختلط على كثير من الناس واشتبه الأمر فيه مع أنه من أبطل وأمحل المحال، ويكفي أن نذكر دليلين فقط أو ثلاثة في إبطال هذا؛ لأن التطويل في ذكر الباطل وإبطاله ليس له داعٍ، فتعليلهم بأن الكلام يتطلب كذا وكذا؛ نقول: إنه باطل من وجوه ويكفي بعضها:

الأول: أن الله جلّ وعلا ليس كمثله شيء، ولا يجوز أن نقول: إن صفته يلزم لها ما يلزم لصفة المخلوقين؛ لأن هذا تشبيه وتمثيل لله تعالى وتقدس.

الثاني: قد علمنا ربنا جلّ وعلا أن هناك أشياء تتكلم ولا تتطلب هذه الأمور التي ذكروها، فقد أخبرنا ربنا جلّ وعلا عن السمع والبصر والجلود أنها تنطق وتتكلم كما علم ذلك في كتاب الله في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١] وكذلك صح أن حجراً كان يسلم على النبي ﷺ[1]، وقد سبق أن قول الله جلّ وعلا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] أنه تسبيح حقيقي ونحن لا نعرف كيفيته، فإذا كان هذا يوجد في المخلوق فكيف يلزمون رب العالمين الشيء الذي يكون في نفوسهم، تعالى الله وتقدس.

الثالث: أن الله جلّ وعلا قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٨] أترى أن الله جلّ وعلا يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بشيء في نفسه؟.

لا يمكن هذا، تعالى الله وتقدس، فهو يتحداهم أن يأتوا بشيء من هذا القرآن الذي هو حروف وكلمات.

فهذا من المذاهب الباطلة والواضح بطلانه، والمشكلة أنه ينشر في العالم الإسلامي على أنه مذهب أهل السنة ويقرر في الجامعات الكبيرة مثل الأزهر ونحوه، وإن كانت الأمور الآن صارت أقل مما سبق؛ لأن الباطل لا استقرار له ولا يتمادى، ولا بد أن ينتهي ويضمحل كما قال الله جلّ وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝﴾ [الإسراء: ٨١]

(١) سبق تخريجه.

وقال: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝﴾ [سبأ: ٤٩] فالباطل لا استقرار له، بخلاف الحق فإنه مستقر ثابت، ولكن هذا المذهب موجود في الكتب الكثيرة التي ملأت الدنيا ويقرر ويستدل عليه ويجعل هو مذهب أهل السنة، والإنسان الذي لا خبرة له في أقوال العلماء في مثل هذا يغتر بذلك، وقد وجد الآن كتب صدرت حديثاً من أعجب ما يكون، تقرر مذهب المعتزلة والأشعرية على أنه مذهب أهل السنة.

فعلى هذا يتبين لنا أن هذا القول مثل قول إخوانهم المعتزلة باطل ظاهر البطلان، فيكون القول الحق في هذا أن الله يتكلم بكلام يسمع وبحروف، وتكون هذه الحروف متعاقبة واحد بعد الآخر، وأن هذا يكون بمشيئته جلّ وعلا، والكلام يكون صفة فعل وصفة ذات، فالكلام عند أهل السنة من حيث الأصل صفة ذات لأنه قديم النوع، فنوعه قائم بذات الله، أما آحاده وأفراده فإنها توجد بعد أن لم تكن موجودة، يعني أن الله يتكلم بها إذا شاء، فقد كلم آدم وناداه في وقت معين في قوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ والنداء المعروف عن أهل اللغة: هو الكلام برفع الصوت حتى يسمعه من بعُد، بخلاف المناجاة: فهي الكلام الذي يكون لمن هو حاضر عندك وقريب منك، وسبق أن النداء ذكر في كتاب الله في إحدى عشر آية، وهو من أبلغ ما يستدل به على أن الله يتكلم كلاماً بحروف وصوت يسمع، ولكن الكلام يكون صفة لمن قاله منشئاً مبتدئاً لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً، فقول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] يعني يسمع كلام الله من المبلغ الذي بلغه عن الله، سواء كان الرسول ﷺ أو كان من بلغ عن الرسول ﷺ من آحاد أمته، ولكن المسموع هو كلام الله، غير أن الصوت الذي بُلغ به مخلوق، فصوت المتكلم بالقرآن مخلوق، والمُصوت به المقروء المُتلفظ به هو كلام الله، ولكن الحبر المكتوب به والورق هذا فعل الخلق، فهم كتبوه وفعلهم مخلوق ولكن المكتوب هو كلام الله جلّ وعلا، كذلك إذا قرأ

القارئ القرآن، فما يتلفظ به ويقوله في قراءته هو كلام الله، ولكن حركة لسانه وشفتيه والصوت الذي يؤديه هو صفة القارئ ومن فعله وفعله مخلوق، ولهذا جاء عن الإمام أحمد أنه قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع»[(١)].

وقد يخفى هذا القول على بعض الناس حتى قال ابن قتيبة كَلَّلهُ في كتابه «الاختلاف في اللفظ»: ما أظن هذا ثابتاً عن الإمام أحمد لأن مقصود الإمام أحمد أن مثل هذه المسألة التي فيها دقة وخفية ما ينبغي للإنسان أن يدخل فيها؛ لأنه قد يجعل شيئاً من صفات الله صفة للمخلوق أو بالعكس، فقال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي»؛ لأن اللفظ هنا فيه احتمال، فقد يراد به الملفوظ وقد يراد به المصدر يعني التلفظ وهو فعل القارئ، والمصدر الذي هو فعل القارئ مخلوق، أما المتلفظ به فهو كلام الله، وإذا قال: إنه غير مخلوق فهو مبتدع؛ لأنه جعل فعل الآدمي غير مخلوق، والصحيح أن فعل الآدمي مخلوق، فعلى هذا يكون الأمر واضحاً ليس فيه خفاء.

أما ما ذكر المؤلف كَلَّلهُ في الآيات التي ذكر فيها نزول القرآن وأنه وصفه بأنه القرآن ومرة وصفه بأنه الكتاب فلا فرق بين كونه يقول: قرآن، وقوله كتاب الله أو كلام الله، خلافاً للكلابية وغيرهم من أهل البدع، فإن الكتاب عندهم هو المكتوب المخلوق، كما عرفنا أن الحروف والألفاظ عندهم مخلوقة، تعالى الله وتقدس عن قولهم، فهم يجعلون الله جلّ وعلا بمنزلة الأخرس الذي يشير لشيء عن نفسه ولكن لا ينطق ويعبر عنه غيره، وهناك شيء يشبهون به، وهو أنه جاء في القرآن قول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/١٦٥)؛ ورواه الخلال أيضاً في «السنة»، كما في كتاب «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/٢٦١).

﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٢] فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ يقولون: يدل على أن القرآن قول الرسول، فالرسول هو المعبر عنه، والصحيح أن هذه الآية ولها نظير في سورة التكوير ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] ومعلوم أن هذه صفة جبريل ﷺ، وأما في سورة الحاقة فهو أضافه إلى الرسول، فنقول: إضافته إلى الرسول هي إضافة تبليغ وتأدية وليست إضافة قول وإنشاء وابتداء، فالقول قد يضاف إلى من أداه وبلغه، ولكن يقول: هذا كلام فلان، فمثلاً لو سمعنا قائلاً يقول: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»**[1] الذي يعرف يقول: هذا كلام رسول الله ﷺ وأنت تكلمت به مؤدياً له ومبلغاً وإلا فهو كلام رسول الله ﷺ، فكذلك الرسول ﷺ إذا تكلم به فهو يتكلم مؤدياً مبلغاً كما أمره الله جلّ وعلا.

مما يبين هذا أنه قال بعد ذلك في سورة الحاقة: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٣] فوصفه بأنه منزل من رب العالمين ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤] يعني الرسول ﷺ لو قال شيئاً من عند نفسه لم يؤمر به ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٤٥ ـ ٥٢] وهي تبين أن الإضافة هنا إضافة تبليغ، أما في السورة الأخرى فقد أضيف إلى الملك وهذا مما يوضح المسألة أيضاً، فقد أضافه مرة لجبريل ﷺ ومرة لمحمد ﷺ؛ لأن جبريل ﷺ ومحمد ﷺ كلاهما مبلغ، فجبريل ﷺ بلغه لمحمد ﷺ، ومحمد ﷺ بلغه الأمة، ويضاف إلى هذا أن الله جلّ وعلا ذكر عن الوحيد الذي فكر

---

(١) البخاري (١)، كتاب بدء الوحي، كيف باب كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، من حديث عمر ﷺ.

وقدر وعبس ونظر وأدبر واستكبر، ثم قال بعد ذلك في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝﴾ [المدثر: ٢٥] فقال الله جلّ وعلا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝﴾ [المدثر: ٢٦] لأنه قال هذا القول، والرسول بشر، ولو كان قوله لكان هذا الكافر الوحيد صادقاً في قوله، قد علم أن هذا كفر، فبهذا يتبين أن هذه الآية ليس لهم بها متعلق، فالقول يضاف إلى من قاله مبتدئاً وليس لمن قاله مبلغاً مؤدياً، ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ومن المعلوم أنه لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمع كلام الله ممن يبلغه سواء كان الرسول ﷺ أو غيره، أما مسألة تنزيل القرآن فإن الله جلّ وعلا ذكر تنزيله في آيات كثيرة وأنه تنزيل من الله جلّ وعلا، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] فبين جلّ وعلا أنه يحدث وأنه أصدق حديثاً وبيّن أنه أصدق قيلاً وبيّن أنه قال ويقول وأنه جلّ وعلا كلم ويكلم وأنه نادى وينادي في أمور كثيرة.

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: **«أن الله ينادي بصوت يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك ـ وهذا في الموقف ـ فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون»** هؤلاء الذين يبعثون إلى النار من ذرية آدم، عند ذلك قال الصحابة رضوان الله عليهم: أينا ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: **«أبشروا فإنكم في الناس مثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود»**[1] فلم يقل الصحابة كيف ينادي أو هل ربنا ينادي؟. بل آمنوا بذلك على ظاهره وعرفوه حقاً، وكذلك حديث أنيس الذي رواه البخاري بسنده في خلق أفعال العباد، وذكره في الصحيح في ثلاثة مواضع معلقاً، مرة جازماً ومرة ويُروى، يقول: **«إن الله**

(١) رواه البخاري (٧٤٨٣)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ومسلم (٢٢٢)، كتاب الإيمان، باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، من حديث أبي سعيد ﷺ.

جلّ وعلا ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الديان أنا الملك»[١] والذي يقرأ في الصحيحين وفي غيرهما من الكتب سيجد هذه الألفاظ مبنية للمفعول، فهم يقولون إن آدم يُنادى بصوت، وهذا لم يقله الرسول ﷺ بل الأشاعرة الذين وضعوه، ومع الأسف أنهم يتولون الكتب ويصححون ما يريدون، وقد ذكروا رواية في النسائي في حديث النزول كما سيأتي وهي: «**إن الله جلّ وعلا ينزل إذا بقي ثلث الليل الآخر إلى السماء الدنيا، فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري، فينادي هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من سائل فيعطى؟**»[٢] فقالوا: إنه جاء في النسائي فينادى، فهذه تفسر بقية الروايات وهي أن الله لا ينادي، ولكن أكثر الأحاديث رُويت بالمعنى، ومعروف أن رواية الحديث بالمعنى جائزة بشروط، وقد قال سفيان[٣] رحمه الله: لو لم أروِ لكم إلا بلفظ الرسول لم أذكر لكم إلا حديثين أو ثلاثة. وهذا الذي يقولون عنه أمير المؤمنين في الحديث.

وعلى كل حال فالأمر في هذا واضح، وثبت أن الرسول ﷺ كان يعرض نفسه على أهل الموقف في موسم الحج حيث تأتي قبائل العرب ويقول: «**من يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعتني أن أبلغ كلام ربي**»[٤]. وجاء في حديث ابن الأرت أن الرسول ﷺ قال له: «**تقرب إلى الله بما شئت، فلن تتقرب إليه بشيء**

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٧٥٨)، كتاب صلاة الليل، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، العالم الزاهد، والفقيه العابد. قال الذهبي: هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، توفي سنة ١٦١هـ.

(٤) أبو داود (٤١٠٩)، كتاب السنّة، باب في القرآن، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، الترمذي (٢٩٢٥)، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ.

مثل ما خرج منه»[1] والذي خرج منه هو القرآن وهو كلامه، ولما جاء وفد المرتدين من بني حنيفة بعدما هزموا وأخزوا وجاءوا معترفين بكونهم ارتكبوا جرماً إلى أبي بكر سألهم: ماذا يقول لكم مسيلمة؟ فقالوا: يقول: يا وبر يا وبر إنما أنت رأس وصدر وباقيك حفر ونقر. فضحك وقال: أين عقولكم؟ إن هذا لم يخرج من إل، أي لم يخرج من إله[2]، فالمقصود أن أول من أنكر أن الله يقول ويتكلم بكلام يسمع، أناس مشبوهون ليسوا من المسلمين المعروفين، بل يشتبه أنهم من اليهود، أو من أذناب اليهود وليس لهم أصول معروفة كالجعد بن درهم[3] الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري وشكره على صنيعه أهل السنة في ذلك.

فعلى هذا يتبين لنا أن صفة الكلام صفة واضحة ظاهرة وأنها صفة كمال ولو تتبعنا القرآن وجدنا أن الله جلّ وعلا يعيب على المشركين بأنهم يعبدون من لا يرد لهم قولاً ولا يسمع ولا يبصر مثل ما رد على عباد العجل وعباد الأصنام وغيرهم، ومعلوم عند العقلاء أن الذي يتكلم بكلام يسمع أكمل ممن لا يستطيع أن يتكلم، فعلى هذا فالأشعرية تعجز رب

(١) رواه أحمد (٢٢٣٦٠)، والترمذي (٢٨٣٦)، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسير سورة العصر».

(٣) هو (الجعد بن درهم) مولى سويد بن غفلة. قال عنه الذهبي: مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى، فقتل عن ذلك بالعراق يوم النحر. وهو شيخ جهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة (الجهمية) وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له: أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ.
قتله خالد بن عبد الله القسري عام ١١٨هـ بعد أن خطب في الناس في عيد الأضحى، فقال: أيها الناس! ضحوا يقبل الله، فإني مُضح بالجعد بن درهم؛ إنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً!!
«ميزان الاعتدال» (١/٣٩٩)، «البداية والنهاية» (١٠/٢١)، «الأعلام» (٢/١٢٠).

العالمين أن يكون متكلماً يبلغ كلامه من يشاء من عباده، والبخاري ﷺ في صحيحه أكثر من الرد على هذه المسألة كثيراً في كتاب التوحيد، فذكر أولاً أنه كلم وأوحى إليهم وأرسلهم، ثم ذكر أنه يكلم جبريل ﷺ ويقول: **«يا جبريل إني أحب فلان فأحبه»**[1] ثم ذكر أنه يكلم بعض أفراد الناس يوم القيامة ثم ذكر أنه يكلم أهل الجنة وذكر أشياء متنوعة ليبين أن هذا المذهب من أبطل المذاهب، أعني من أنكر كلام الله تعالى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]

في الآية وصف بأنه له حديث وأنه يحدث، والحديث هو الكلام، ليس أصدق من الله جلّ وعلا، فحديثه أصدق الحديث تعالى وتقدس.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]

لا فرق بين هذه والتي قبلها ففي الآية التي قبلها ﴿حَدِيثًا﴾ وفي هذه ﴿قِيلًا﴾ يعني قولاً، فكلامه جلّ وعلا يسمى حديثاً ويسمى قيلاً، وهو يفتي ويأمر وينهى جلّ وعلا.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]

وقوله: ﴿يَٰعِيسَى﴾ هذا نداء، وللنداء أدوات معينة تتطلب مد الصوت حتى يسمع، والنداء: هو دعاء من بعد بصوت يسمعه، وهنا أضاف عيسى إلى أمه لأنه لا أب له فولد من أنثى بلا ذكر، وسبق أن الله جلّ وعلا نوّع خلق بني آدم أربعة أنواع:

(١) البخاري (٧٤٨٥)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، ومسلم (٤٧٧٢)، كتاب البر والصلة والأدب، باب إذا أحبّ الله عبداً حبّبه إلى عباده، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الأول: أن أصلهم خلقوا من التراب.

الثاني: خلقت زوجة آدم من ذكر بلا أنثى من بضعة منه.

الثالث: أنه خلق ذكراً من أنثى بلا أب وهو عيسى.

الرابع: التناسل المعروف من الماء المهين يعني من ذكر وأنثى.

وهذا صار بين الناس كأنه أمر عادي ليس فيه عبرة، مع أنه من أعظم العبر ومن أعظم الآيات الدالة على قدرة الله جلّ وعلا، فالمقصود أن الله يكلم بهذا القول عيسى ابن مريم ﷺ يوم القيامة إذا جمع الله الرسل، فيسأل الرسل أولاً: هل بلغتم؟.

ثم تُسأل الأمم: هل بلغوكم؟ مع أن الله عليم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء ولكن لعظم الموقف، ولصعوبة الأمر جاء جواب الرسل عجيباً ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩] اللذين لم يجيبوهم كفروا بهم، فالله ينادي كما أنه جلّ وعلا يكلم من يشاء من خلقه وسيكلم عباده يوم القيامة كما سيأتي في حديث عدي وغيره **«واعلموا أن كل واحد منكم سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب يحجبه»**[1] والكلام يحصل في آنٍ واحد، فكل واحد يرى أنه يكلم هو وحده والله يكلمهم كلهم جميعاً تعالى الله وتقدس؛ لأن هذا من خصائصه وصفاته جلّ وعلا وهو على كل شيء قدير مثل ما تجد أن الأرض مليئة من الدعاة الذين يدعون الله في آنٍ واحد، يتوجهون إلى ربهم يناودنه ويدعونه، وهو يسمع لكل واحد ولا يغلطه هذا عن هذا، ويوم القيامة يجمعهم من أولهم إلى آخرهم ثم يحاسبهم كأنها محاسبة لواحد، فالمقصود أن الله جلّ وعلا يكلم من يشاء يوم القيامة ويكلم الجميع، إلا أن هناك من الخلق من لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]

﴿كَلِمَتُ﴾ هنا مفردة، والمفرد إذا أضيف يدل على العموم، فالمعنى تم كلامه تعالى وتقدس، وهذا كقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فالمقصود بـ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ النعم لأن المفرد المضاف يدل على العموم والكثرة.

والآية تدل على أن كلامه جلّ وعلا أصدق الكلام في الخبر وأعدله في الأمر والتشريع، وكلام الله جلّ وعلا ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني قدري وهو الذي يكون به الأشياء، وهو الذي استعاذ به الرسول ﷺ في قوله ﷺ: **«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»**[1] فهذه الكلمات هي الكلمات الكونية القدرية.

الثاني: الكلمات الشرعية الأمرية، فأكثر الناس تجاوزها يعني عصوها، فالكونية لا أحد يخالفها أبداً لا بر ولا فاجر، أما الأمرية الشرعية فأكثر الناس خالفوها.

وفي الآية يعم النوعين الكوني القدري والأمري الشرعي، فهو صدق في الخبر وعدل في الحكم والأمر، والحكم يكون في الكونية

(١) صحيح. رواه أحمد (٣/٤١٩)، وابن السني (٦٣١) عن عبد الرحمٰن بن خنبش مرفوعاً بسند صحيح. ألباني.
وقال شاكر: جاءت هذه الاستعاذة في حديث مرسل. رواه مالك في «الموطأ» (ص٩٥٠ ـ ٩٥١) عن يحيى بن سعيد مرسلاً. وذكر السيوطي في «شرحه» (ص١٢٦): أنه «وصله النسائي من طريق محمد بن جعفر عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة، عن عياش السلمي، عن ابن مسعود» وأنه وصله البيهقي في «الأسماء والصفات»، ومراده برواية النسائي أنه في «عمل اليوم والليلة» لا في «السنن»، ووجدته من وجه آخر في «مسند الإمام أحمد» (١٥٥٢٦ ـ ١١٥٢٧) (٣/٤١٩ من طبعة الحلبي)، من حديث عبد الرحمٰن بن خنبش. ورواه من حديثه أيضاً: ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٣١)، وذكره الحافظ في «الإصابة» (٤/١٥٧) في ترجمة عبد الرحمٰن بن خنبش.

وكذلك الأمر يكون في الكونية؛ كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] يعني أمر كوني قدري، وكذلك هو عدل، فتكوينه جلّ وعلا لا يفعل إلا الحق والعدل والخير، ولهذا يقول الرسول ﷺ في ثنائه: «والشر ليس إليك»[1] لأن الشر يكون من المخلوق لهذا قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ [الفلق: ٢] يعني شر المخلوق، فالمخلوق هو الذي يصير فيه الشر، أما صفة الله وكلماته وأفعاله فلا شر فيها بل هي خير كلها.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

إذا أكد الفعل بالمصدر الذي من جنسه فإنه يدل على الحقيقة، يعني إذا قلت: ضربت، فهذا قد يتطرق إليه أن هذا الضرب ضرب بالكلام أو ضرب في أمور أخرى، أما إذا قلت: ضربت زيداً ضرباً فهذا لا يحتمل إلا أنك ضربته بيدك، أو بواسطة آلة، وهنا تأكيد الفعل بالمصدر يدل على الحقيقة، لا يختلف في هذا أحد من أهل اللغة، ولهذا يقولون: هذه الآية من أبلغ ما يُرد به على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والذين ينكرون كلام الله جلّ وعلا، وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أنه قال: إن من بدع التفسير تفسير هذه الآية بأن الله كلم موسى ﷺ من باب الكلم، كلمه بأظافير الحكمة، من الكلم وليس من التكليم. وسمى هذا بدعاً مع أنه معتزلي؛ لأن هذا أمر ظاهر واضح أنه باطل ما يختلف فيه حتى الذي يخالف في هذه المسألة، ومعنى ذلك أن الله كلم موسى ﷺ حقيقة، هذا الذي دلت عليه الآية، كلمه بلا

(١) رواه مسلم (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

واسطة فسمع موسى ﷺ كلام ربه، ولهذا خص بذلك وقيل إنه كليم الرحمٰن، ورفع ـ كما أخبر الرسول ﷺ ـ على كثير من الأنبياء بفضل تكليم الله له، فإنه ذكر في حديث المعراج أنه رآه إما في السماء السادسة أو السابعة على حسب اختلاف الروايات، وقال: بفضل تكليم الله له، والظاهر أنه في السابعة؛ لأن الذي يدل على هذا أنه صار التردد بينه وبين رب العالمين لما نزل من عند رب العالمين وقد فرض عليه خمسين صلاة أمسكه موسى ﷺ قال: ماذا فرض الله عليك؟ قال: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. ففعل ذلك مراراً كما هو معروف.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]

هذا تكليم غير الأول، فالأول يقول الله جلّ وعلا: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤] فدل هذا على أنه في أول الأمر، وأن هذا حينما أنهى العقد الذي بينه وبين صهره الذي صاهره على أنه أجره ثماني حجج على أن يزوجه ابنته، وقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧] فلما أكمل الذي بينه وبينه جاء بأهله وسرى بالليل فأضاع الطريق فرأى ناراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [طه: ١٠] يعني اجلسوا في هذا المكان ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ

﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩] يعني وصف للطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] مما يدل على أن الوقت بارد وأنهم يحتاجون إلى الاصطلاء، وكان الذي رآه نوراً، فلما وصل إليه ناداه ربه جلّ وعلا وكلمه، هذا الذي في الآية الأولى، أما هذه الآية فهذا بعد المواعدة وهو أمر آخر؛ لأن الله كلم موسى ﷺ مرات متكررة.

ذكر ابن كثير في تفسيره أن أحد المعتزلة أو الجهمية أتى إلى أبي عمر بن العلاء أحد القراء فطلب منه أن يقرأ قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة حتى يصير موسى ﷺ فاعلاً، فقال: له هب إني قرأت كما تريد، كيف تصنع بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟. فبهت؛ لأن هذه لا تحتمل غير أن الله جلّ وعلا هو الذي كلمه، ثم ذكر نوعاً آخر من الكلام وهو المناداة ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢] قبلها ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾ فهذه جاءت مكررة، يعني مناداة الله جلّ وعلا مكررة، فهنا ذكر آيتين ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٢] هذه في سورة مريم، وذكر الأخرى في سورة الشعراء ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٠] وقد ذُكر نداء الله جلّ وعلا لموسى ﷺ في مواضع متعددة، وذكر في سورة القصص في أربع آيات، أما نداء موسى ﷺ في سورة القصص فمرة واحدة، والنداء بلفظ المناداة من أبلغ ما يستدل به على إثبات كلام الله، وقد ذُكر في القرآن ـ كما يقول ابن القيم في النونية ـ في تسعة مواضع من القرآن، والواقع أن النداء ذكر في القرآن في إحدى عشر موضع:

الأول: في سورة الأعراف ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

الثاني: في سورة مريم التي ذكرها هنا ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٢].

الثالث: في سورة طه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١١، ١٢] فالمنادي هنا هو الله جلّ وعلا وإن جاء مبنياً للمجهول؛ لأنه فسر بعد ذلك فقال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢].

الرابع: في سورة النمل ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨].

الخامس: في سورة القصص ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠] فهذا نداء من الله جلّ وعلا ولا يمكن أن يقال: إنه غيره.

السادس: في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].

السابع: في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥] هذا عام.

الثامن: في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [القصص: ٧٤] هذه مكررة في سورة القصص مرتين ولفظها واحد.

التاسع: في سورة فصلت حم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

العاشر: في سورة الصافات وإن كانت تحتمل ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] فهذه غير صريحة في أن الله جلّ وعلا هو المنادي.

الحادي عشر: في النازعات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

وكلها تدل دلالة واضحة على أن الله جلّ وعلا يكلم بكلام يسمع، ومعروف أن الكلام المسموع يكون بصوت وحروف، وقد جاء التصريح بذلك في أحاديث رسول الله ﷺ، فإنه قال كما في الصحيح: «إن الله ينادي آدم بصوت: يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك»[1].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]

الإضافة تمنع أن يكون الكلام لغيره جلّ وعلا، فإنه أضافه إليه لأنه معنى، والمعنى إذا أضيف يتعين أن يكون صفة، بخلاف العين القائمة بنفسها، فإنها تكون من إضافة المخلوق إلى خالقه كقول: رسول الله ونبي الله وعبد الله وبيت الله، فهذه وإن كان يقصد بها التشريف والتكريم والاختصاص ولكن هي من إضافة المخلوق إلى خالقه، بخلاف كلام الله وسمع الله وبصر الله وما أشبه ذلك، فإن هذا يتعين أن يكون صفة لأنها من إضافة الصفة إلى الموصوف.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ﴾ [الفتح: ١٥]

الآية الثانية في قصة الحديبية وبيعة الرضوان لما بايع الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الموت أو على ألا يفروا حسبما جاء في الحديث، وإذا كانوا لا يفرون يلزم من ذلك أن الإنسان يقاتل حتى ينتصر أو يقتل ولا بد، وأثابهم الله جلّ وعلا بأن عجل لهم مغانم خيبر التي وعدهم إياها، وعجلها لهم وأمر ألا يتبع الرسول ﷺ إلا من حضر تلك الغزوة، ولما علم بعض المنافقين وغيرهم أنه سيحصل لهم

(١) سبق تخريجه.

الغنائم وليس رغبة في الأجر أرادوا أن يتبعوهم، فأمر الله جلّ وعلا نبيه أن يقول: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥] فأمر الله جلّ وعلا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وأخبر أن اتباعهم هذا خلف لوعد الله جلّ وعلا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] ووعده بكلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ هذا على قول، والقول الآخر: أن التبديل لا يكون لخلق الله، كما قال الله جلّ وعلا: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وإنما التبديل يكون للكلام كما أخبر الله جلّ وعلا أن اليهود يبدلون كلام الله بغيره، فالكلام يمكن تبديله، ولو كان الكلام مخلوقاً ـ كما يقول أهل الباطل ـ ما أمكن تبديله، وهذا وجه الاستدلال من الآية ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فكونهم أرادوا ذلك هذا يدل على أنه يمكن، وقد أخبر جلّ وعلا أن من اليهود من بدل كلام الله، أما لو كان مخلوقاً ـ كما يقول أهل الباطل ـ فإنه لا يمكن؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] فخلق الله لا يبدل، وإذا خلق شيئاً لا يمكن أن يبدل بغيره.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]

هذا نوع آخر من إبطال قول بعض أهل البدع؛ لأنهم يفرقون بين كلام الله وبين كتاب الله، فالكتاب عندهم ما كان مشتملاً على الحروف والأصوات وما كان مكتوباً وما كان مقروءاً وما كان مسموعاً، فإن هذا عندهم كتاب الله ولكنه مخلوق ولم ينزل من عند الله، وإنما قاله الرسول، سواء الملكي أو الرسول البشري، وأمر بكتابته محمد ﷺ، ونزل إلى

الرسول ولم ينزل بشيء من عند الله، وإنما نزل بكلام الرسول الذي عبر به عن المعنى الواحد الذي قام بنفس الله جلّ وعلا، هذا حقيقة مذهبهم وقولهم، ففي الحقيقة عندهم أنه لم ينزل من عند الله كتاب وأن الله لم يتكلم بكلام يسمع ولم يكن كلامه يشتمل على حروف أو أصوات، وإنما كلامه معنى واحد قائم بنفسه وهو عبارة عن أربعة أمور هي: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، والواقع أن معناها واحد ولكن إذا عبر عنها بالأمر صارت أمراً، وإذا عبر عنها بالنهي صارت نهياً، وإذا عبر عنها بالخبر صارت خبراً، وإذا عبر عنها بالاستفهام صارت استفهاماً، فلا فرق بين هذه الأمور عندهم في الواقع، ثم كذلك إذا عبر عن هذا المعنى باللغة العربية صار قرآناً، أما إذا عبر عنه بالسريانية فهو إنجيل وإذا عبر عنه بالعبرية فهو توراة، فعلى هذا تكون آية الدين هي عين آية الكرسي، وتبت هي عين قل هو الله أحد؛ لأن المعنى الذي عبر عنه واحد قائم بنفس الله جلّ وعلا، وهذا يعقله عاقل، بل هو باطل شرعاً وفطرة وعقلاً وإجماعاً عند من لم تتغير فطرته، وهذا هو مذهب كثير من الناس إلى اليوم، والمقصود بالناس هم العلماء هذا مذهبهم، ويرون أن من المصائب الكبيرة أنهم ينسبون هذا إلى رسول الله ﷺ وهو بريء من ذلك، فأراد أن يبين بطلان هذا بذكر هذه الآيات، فالكتاب هو القرآن والتنزيل والكلام والوحي، كله سواء عند أهل الحق ولا فرق بين هذا وهذا، وإنما الذي يفرق بين هذه الأمور هم أهل البدع.

إِثْبَاتُ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

﴿وَهَذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]

والإشارة إلى ما نزل على محمد ﷺ، نزل به جبريل ﷺ وألقاه على قلبه فعلمه وعقله ثم بلغه أصحابه، وأصحابه نقلوه إلى الأمة مع الكتابة.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]

المقصود هنا لفظ التنزيل، والتنزيل الذي يعرفه أهل اللغة ويعرفه العقلاء هو ما كان من الفوق إلى التحت، فهو نزل من الله لأن الله في العلو، وهو قوله أنزله مع رسوله جبريل ﷺ إلى رسوله محمد ﷺ، وجاء النزول في القرآن على أقسام ثلاثة:

الأول: نزول مقيد بأنه من الله، وهذا كما في مثل هذه الآيات.

الثاني: نزول مقيد بأنه من السماء كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [المؤمنون: ١٨].

الثالث: نزول مطلق كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فالنزول المطلق يجوز أن يكون نزول الماء من الفحل في رحم الأنثى، وأما الحديد يجوز أن يكون من الأمكنة المرتفعة كالجبال وغيرها، أما النزول المقيد فإنه يكون من السماء، والسماء ما كان فوق، وهذا خاص بإنزال المطر، وأما النزول المقيد بأنه منه فهو خاص بالقرآن، فصار إنزال القرآن صفة من صفاته تعالى قيده بأنه نزل من عنده على عبده، وليس هناك نزول غير هذه الأمور، أما كون الجبل لو نزل عليه يتصدع ويتفطر؛ فهذا يجب أن يكون على ظاهره، وهذا مثل ما سبق من أن الجمادات لها إحساس يعلمه الله جلّ وعلا وإن كنا لا نعرفه نحن، ولكنها تسبح وتخاف الله، وقد أخبر جلّ وعلا أن بعض قلوب بني آدم تكون أشد قساوة من الحجارة، وبيّن أن من الحجارة ما يتصدع ويخرج منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] والهبوط: هو الخضوع والذل حقيقة. وفي هذه الآية يخبر أنه لو نزل القرآن على جبل، يعني خوطب الجبل به أن يخشع ويتصدع من خشية الله وإن كان حجارة قاسية، ولكن كثيراً من قلوب الناس لا تتأثر لهذا القرآن، وهذا يدل على أن التصدع والخشوع

والتسبيح أمر محسوس الله يعمله ويسمعه، وأما خلقه فإنه يسمعهم ما يشاء من ذلك، وقد علم أن الطعام كان يسبح بين يدي رسول الله ﷺ والحصى يسبح بين يديه، وجاء عنه ﷺ أنه قال: **«إني أعرف حجراً بمكة كان يسلم علي»**[1] ومن الأمور المشهورة أنه لما كان يخطب صلوات الله وسلامه عليه على جذع نخلة يابس يتخذه له منبراً في مسجده، ثم أمر أن يصنع له منبر من الخشب من الطرفة فصنع له وترك الجذع، فأول ما قام يخطب على المنبر صار ذلك الجذع يحن كحنين الناقة العشراء إذا فقدت ولدها وكل أهل المسجد سمعوا حنينه، حتى نزل ﷺ من المنبر والتزمه فصار يهدأ وينخفض صوته مثل ما إذا كان الطفل يبكي فالتزمته أمه، وهذا أمر حقيقي، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن كل شيء يسبح بحمده ولكن الناس لا يفقهون تسبيحهم، فإذاً هذا على ظاهره، وهذا هو الواجب أن يحمل الكلام على ظاهره إذا لم يأتِ دليل يمنع ذلك، ولا دليل هنا إلا الذي لا ضابط له، كلٌ يدعي أن العقل معه.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣]

المقصود بهذا الرد على الذين يقولون إن كلام الله معنى واحد، وأنه لا يبدل ولا يغير ولا ينسخ ولا يرفع منه شيء ولا يكون منه شيء بدل شيء لأنه معنى واحد، أراد بذلك الرد على هذه الفرية، وهذا في الواقع تعجيز لله جلّ وعلا، والعجب أنهم يدعون أنهم أكمل من الله

(١) سبق تخريجه.

تعالى، لا يقبلون أن يقال: إنكم تعجزون الله جلّ وعلا أن يتكلم، ولكن هذا هو الواقع حيث جعلوه جلّ وعلا غير مخاطب وغيره متكلم وغير منزل قوله، ثم من المعلوم أن هذا يلزم منه ألا يكون الرب جلّ وعلا مرسلاً أحداً، بل ولا خالقاً لشيء، بل ولا قادراً على شيء؛ لأن خلقه بقوله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون تعالى وتقدس، فمعنى ذلك أنه إنكار لصفات الكمال لله جلّ وعلا؛ لأن الكلام هو الأصل في هذا، ولهذا صار الذي ينكره يلزمه أن ينكر الرسالة؛ لأن الرسالة عبارة عن الأمر والنهي، رسالة الله جلّ وعلا عبارة عن أمره لعباده ونهيه لهم، وتشريعه لهم فمن أنكر ذلك لزمه إنكار الرسالة.

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ هذا الذي قلنا أنه يأتي مقيداً بأنه من الله، وهذا خاص بالقرآن الذي نزل من القرآن قولاً له.

قوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى﴾ يعني أن الهدى في القرآن، من اهتدى فإنما يهتدي بالوحي الذي أوحاه الله، وقد أمر الله جلّ وعلا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠] فإذا كانت هداية الرسول ﷺ بما أوحاه الله إليه؛ فغيره كذلك لا يمكن أن يهتدي إلا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى، وهذا معناه أنه لا يجوز للمسلم الذي يعبد الله أن يعبد بغير شرع الله جلّ وعلا.

قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ البُشرى بضم الباء: هي ما يُعطاه المُبشر، والبشارة مأخوذة من البشرة، والناس يُسمون بشراً؛ لأن أبشارهم بارزة ليس فيها شعور تغطيها كالبهائم، فسموا بشراً لذلك، وبشرة الوجه هي ما يقابله، وإذا بشر الإنسان فإن هذا يظهر على وجهه، فأخذ من تغير بشرة الوجه، والغالب أن البشارة إذا أطلقت تكون في الخير، أما إذا كانت في الشر فهي تقيد، وهي لا تخرج عن هذا المعنى، والله جلّ وعلا بشر المسلمين وأن هذا القرآن بشرى لهم، وذلك أن فيه وعد الله بالجنة لهم، وكذلك وعده لهم بالنصر والتأييد في الدنيا

والظهور إذا تمسكوا بهذا القرآن، والمسلم هو المنقاد للأمر المستسلم لله جلّ وعلا الذي ليس عنده نزعة اعتراض أو إباء وامتناع، بل هو منقاد مستسلم راغب غير متأبي، هذا هو المسلم حقيقة، وما كان بهذه المثابة فهو مُبشر بالنصر في الدنيا والظهور وبالجنة بعد الموت.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ هذا في قصة ذكرت أن الرسول ﷺ قبل الوحي كان يجلس إلى رجل أعجمي، فلما جاء بهذا القرآن قالوا: إن ذلك الرجل الأعجمي هو الذي علمه هذا القرآن، كيف أعجمي ويعلمه القرآن العربي المبين الفصيح؟.

لسانه أعجمي وهذا القرآن باللسان العربي البين، فهذا من الافتراء ومن الكذب الذي يدركه كل أحد.

هذه الأدلة التي ذكرها المؤلف، وهي أنه يقرر أن الله جلّ وعلا يتكلم، وأن كلامه يسمى حديثاً ويسمى كلاماً، وأنه أنزل كلامه، وإذا كان كلامه منزلاً مع رسوله فلا بد أن يكون مسموعاً مقروءاً ولا بد أن يكون بالحروف والتصويت، وكذلك لا فرق بين كونه يسمى كلاماً أو أنه كتاب أو أنه تنزيل من رب العالمين أو غير ذلك مما وصفه الله جلّ وعلا به، وأما التفريق في هذا فهو تفريق أهل البدع وهو تفريق باطل، وأما أقوالهم واحتجاجاتهم وشبههم فهي باطلة، وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، ولكن الموجود الآن مما عليه الناس من المذاهب في هذا هو الذي ينبغي أن يبين، أما الشيء الذي يخالف مخالفة تكون كفراً؛ لأنها إنكار لوجود الله جلّ وعلا لكونه يخاطب أو يتكلم أو ينزل شيئاً، فهذا معلوم بطلانه، وأن أحداً من المسلمين لا يلتفت إلى مثل هذا القول، ولكن قد يشتبه على بعض الناس إذا سمع من يقرر المذهب الباطل ويذكر بعض الشبه والتعلقات بشيء من كتاب الله جلّ وعلا، والمذاهب المشهورة المعروفة: مذهب الجهمية والمعتزلة الذين يقولون

إن كلام الله مخلوق ولا يجوز أن يتكلم الله جلّ وعلا بكلام يسمع، وذلك أن الكلام الذي يسمع ويقال يلزم منه أن يكون حالاً في المحل الذي يتكلم به، ومن المعلوم أن الكلام حروف متعاقبة والتعاقب يحتاج إلى زمن ويكون هذا بعد هذا، يعني أنك إذا قلت: بسم الله. فإن الباء قبل السين والسين قبل الميم، والقبلية والبعدية زمن والزمن يكون محلاً للحادث فهذه حوادث والله ليس محلاً للحوادث، هذه حجتهم في نفي كلام الله جلّ وعلا، القول الثاني: أن كلام الله جلّ وعلا معنى قائم في نفسه ولكنه أربعة أمور وهي: الخبر، والاستفهام، والأمر، والنهي.

وهذا قول ابن كلاب[1] ومن تبعه، وأما القرآن الذي نزل فهو حكاية عن هذه الأمور الأربعة، ومذهب ابن كلاب قد انقرض ولكن تبعه الأشاعرة، إلا أنهم غيروا شيئاً من ذلك وقالوا: إنه لا يكون أربعة ولكنه معنى واحد، ولا يكون حكاية ولكنه عبارة؛ لأن الحكاية تحاكي المحكي وتمثله، فلا يجوز أن تقول إن القرآن حكاية عن كلام الله، ولكن تقول: إنه عبارة عن كلام الله، والمعبر عندهم إما جبريل ﷺ، وإما محمد ﷺ، فإذاً يكون هذا القول كأن الله جلّ وعلا لا يستطيع أن يتكلم، فعلم جبريل ﷺ ما في نفس الله فعبّر عما في نفسه جلّ وعلا، وهم يقولون: ما علم جبريل ﷺ ولكن الله أعلمه عما في نفسه فعبّر عنه، ويقولون: إن موسى ﷺ لما سمع الكلام ما سمع من الله وإنما سمع شيئاً مخلوقاً إما في الشجرة أو في الهواء، فمعنى هذا أن الشجرة هي التي قالت: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ وهذا كفر

(١) هو عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، أبو محمد القطان، من علماء الكلام، يُقال له (ابن كُلّاب) بضم الكاف، قيل: لُقب بذلك لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده كما يجتذب الكُلّاب الشيء. له مؤلفات منها: «الصفات» و«خلق الأفعال»، مات سنة ٢٤٥هـ.
«سير أعلام النبلاء» (١١/١٧٤)؛ «لسان الميزان» (٣/٢٩٠)؛ «الأعلام» (٤/٩٠).

بالله جلّ وعلا، ثم إنهم قالوا إن دليلنا على هذا أن الله جلّ وعلا لا يجوز أن يكون مشابهاً لخلقه، فإذا وصف الإنسان ربه جلّ وعلا بأنه مثل المخلوق فهذا كفر، فلا يجوز بأن نقول بشيء يدل على التشبيه، ولو قلنا بالكلام الحقيقي للزم من ذلك التشبيه على زعمهم؛ لأن الكلام يتطلب لساناً ويتطلب شفتين ويتطلب لهوات وحبالاً صوتية ويتطلب زمناً بعد زمن ويكون متعاقباً، وهذا كله ما يخلو أن يكون مثلاً شيء حل بالله أو يكون تشبيهاً لله جلّ وعلا بالمخلوق.

وأيدوا هذا بقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [الحاقة: ٤٠] جاء هذا في آيتين من كتاب الله، الأولى: في الحاقة، والثانية: في التكوير، فهذا نص في أن الله نص على أنه قول الرسول، وإذا كان قول الرسول فلا يمكن أن يكون قول الله تعالى، هذا هو استدلالهم، واستدلوا بأشياء أخرى ولكن من أظهرها ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله عفا لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»**[1] فجعل الذي في النفس غير الكلام، وكذلك قول عمر ﷺ: «زورت في نفسي كلاماً أريد أن أتكلم به يوم السقيفة» فإذاً يصح أن نسمي ما في النفس كلاماً أو حديثاً، فصح قولنا إن الله جلّ وعلا كلامه ما قام في نفسه وسلمنا من التشبيه وأثبتنا الكلام لله جلّ وعلا على هذا الوضع، هذا هو خلاصة قولهم واستدلالهم.

والجواب عن هذا: أن مسمى الكلام يدخل فيه المعنى واللفظ، وأن كلام الله كلام حقيقي، فهو يتكلم متى شاء إذا شاء ويكلم من يشاء ولم يزل متكلماً تعالى بما يشاء، ولم يكن في وقت من الأوقات لا يستطيع الكلام ثم حدث له الكلام تعالى وتقدس، بل هو يتكلم بما يشاء في الأزل، وكلامه تعالى جنسه ونوعه أزلي لأنه من صفاته الأزلية، أما

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ. «إرواء الغليل» (٢٠٦٢)، ألباني.

أفراده فهي تتجدد وتحدث بعد أن لم تكن بمعنى أنه إذا شاء أن يكلم أحداً كلمه، كما قال الرسول ﷺ: **«إن الله يحدث من أمره ما يشاء ومما أحدث ألا تتكلم في الصلاة»**[1] يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] فحدث الله هو قوله وأمره وفعله.

فقول المعتزلة والجهمية ظاهر البطلان ولا حاجة إلى التكلف في رد ذلك والاستدلال على بطلانه لأنه ظاهر، ومن قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله جلّ وعلا؛ لأنه يجعل صفة من صفات الله تعالى مخلوقة، وإذا كانت صفة من صفاته مخلوقة، فمعنى ذلك أنه يكون تعالى وتقدس مخلوقاً، وهذا كفر لا إشكال فيه، ولهذا نص العلماء على أن من قال: كلام الله مخلوق أنه كافر، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان في المقبرة في جنازة تبعها فقال رجل: اللهم رب القرآن اغفر له، قال: مه، القرآن كلام الله ليس مربوباً؛ لأن المربوب مخلوق، فلا يُقال: رب القرآن، ولكن يُقال: الذي تكلم بالقرآن، ويُقال: بالقرآن اغفر له. فيسأل الله به ويقسم به لأنه صفة من صفاته، والله جلّ وعلا ذكر في الأوامر والنواهي والأخبار التي يخبر بها - سواء كانت في الماضي أو في المستقبل - أنه يخاطب من يشاء ويقول ما يشاء، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فقد قاله الله جلّ وعلا يخاطب الملائكة، فسمع الملائكة قوله فسجدوا إلا إبليس أبى، ثم إن الله كلم إبليس وخاطبه ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ [ص: ٧٥] فصارت محاورة، والأدلة على هذا لا حصر لها فهي كثيرة جداً، فهذا المذهب بطلانه ظاهر جداً، ولهذا نص العلماء على كفر من قال به، لظهور بطلانه وللأدلة الكثيرة التي إنكارها إنكار للضروري.

---

(١) النسائي وغيره بسند حسن، وعلقه البخاري مجزوماً. «صحيح أبي داود» (٨٥٧). ألباني.

أما المذهب الذي يقول: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، واستدلالهم بما ذكرنا هو استدلال باطل، الاستدلال الذي اشتركوا فيه مع الجهمية والمعتزلة أن الكلام يلزم منه أن يكون الرب جلّ وعلا محلاً للحوادث، فنقول: الحوادث وحلول الحوادث من الكلام المجمل الذي قد يراد به الحق وقد يراد به الباطل، فلا يجوز أن نقبله ونسلم به ولا أن نرده مطلقاً، بل إذا قالوا: إنه يدل على أن الله يكون محلاً للحوادث، نقول: ماذا تقصدون بالحوادث؟ هل تقصدون بالحوادث شيئاً من المخلوقات تحل في ذات الله جلّ وعلا؟. فهذا لا يجوز أن يقال، ومن قال بذلك فهو كافر، أما إذا قصدتم بالحوادث قوله وأمره ونهيه وأنه يفعل ما يشاء، فهذا لا يضير الحق أن تسموه حوادث، فنحن نثبت ذلك، ولكن ننفي هذا الاسم لأنه يوهم الباطل، ونقول: إن الله يفعل ويقول ويخلق ويأمر، وذلك يتعلق بمشيئته وليس ربنا جلّ وعلا محل الحوادث، وأما تسميتكم للصفات بالحوادث فهي تسمية باطلة، وهذا الجواب المجمل، وأما قولهم: إنه يلزم منه التعاقب في الزمن والحروف وهذا التعاقب لا بد أن يكون في زمن، نقول: الأمر كذلك، فالله إذا قال إنه يتكلم وأنه يقول وقوله أنزله علينا، نقول: إن الحروف متعاقبة وهذا من الكمال وليس من النقص، وقد عاب الله جلّ وعلا على المشركين أنهم يعبدون ما لا يسمع لهم قولاً ولا يكلمهم ولا يرد عليهم جواباً؛ لأن المتعين أن يكون المعبود سميعاً بصيراً قادراً على نفع عابده وضره إذا لم يعبده، وهذه لا تستطيع شيئاً من ذلك، ثم إنه بإجماع العقلاء أن الذي يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، والكمال الذي في الإنسان ليس من نفسه ولا من والده أو والدته وإنما هو من الله، فلا يمكن أن يكون واهب الكمال عادماً له، بل هو أولى بالكمال، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝﴾ [النحل: ٥٨] وهم يضيفون الولد لله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] يعني يجب أن يكون له الكمال المطلق من كل شيء، فكيف تنزهون أنفسكم عن شيء وتضيفونه لله تعالى وتقدس.

وأما قولهم: إن الكلام يتطلب أن يكون باللسان والشفتين واللهوات والحبال الصوتية، نقول: هذا كلام باطل، وهو في الواقع منشؤه التشبيه الذي هو مستكن في نفوسهم ولكنهم لا ينطقون به، فحملهم التشبيه المستكن في نفوسهم على نفي الكلام، ولهذا ذكروا الشيء الذي يكون منهم، فاللسان والشفتان واللهوات والحبال الصوتية وما أشبه ذلك؛ هذا صفة المخلوق، والله جلّ وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولا يجوز أن نصف الله جلّ وعلا بالصفات التي هي صفات المخلوق، فمن قال: إن كلام الله يلزم منه ذلك فهو مبطل؛ لأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، واللوازم التي تلزم لصفة المخلوق غير لازمة لله جلّ وعلا، وقد أخبرنا ربنا جلّ وعلا أن هناك أشياء كثيرة تتكلم ولا نعرف لها لساناً أو لهاة كالحجارة، وأن الجبل يتصدع، وأن كل شيء يسبح بحمد الله ولكن لا نفقه هذا التسبيح، وأن الجذع حن أمام الناس وشهدوا بذلك، وكان له صوت ولم يخرج هذا الصوت من فم له أسنان ولسان وشفتان، وكذلك الحجر الذي كان يسلم على رسول الله ﷺ لم يكن له لسان ولا شفتين، يقول الله جلّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] فهذا كلام الله يخبرنا أن الجلود والأسماع والأبصار والأعضاء تتكلم، فهل للجلد لسان وفم وشفتان؟!.

فإذا أمكن أن المخلوق يتكلم وهو ليس له ذلك، فكيف يمتنع على الخالق البصير العظيم الكلام إلا بهذه اللوازم الباطلة؟.

وبهذا يتبين بطلان هذا القول.

أما قولهم: إن الكلام معنى واحد قائم بالنفس، فنقول: هذا المعنى الواحد هل هو الذي سمعه موسى ﷺ كله؟. لأنهم يقولون: إنه لا يتجزأ ولا يتبعض بل هو معنى واحد، فيلزمهم أن يكون موسى ﷺ سمع جميع

كلام الله وهذا شيء، والشيء الثاني: أن الله جلّ وعلا يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] فالله جلّ وعلا لا يتحدى الناس بالشيء الذي في نفسه، والكل يعلم أن هذا من أمحل المحال، وإنما تحداهم بالشيء المنزل على محمد ﷺ أن يأتوا بشيء مثله.

أما قولهم إن القرآن دل على أنه كلام الرسول في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣] ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٨٠] وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٢] هذا استدلالهم، جعلوه قول الرسول، والقول الذي ذكره الله جلّ وعلا أنه قول الرسول يعني الرسول المبلغ، أنه بلغه؛ لأن الناس ما سمعوه من الله وإنما نزل به رسوله، ولهذا أضافه مرة إلى الرسول البشري محمد ﷺ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] ومرة أضافه إلى الرسول الملكي جبريل ﷺ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] والقول حقيقة يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قال مبلغاً مؤدياً؛ لأنه يؤدي الرسالة لذلك أضيف إليه، ولهذا اختلفت الإضافة، فمرة أضافة إلى الرسول البشري ومرة إلى الرسول الملكي، فدل على أنه لأجل التبليغ فقط، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٨٠] فلا يكون هذا تناقضاً تعالى الله وتقدس، ولكن كما في صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا رأيتم الذين يتركون المحكم ويتبعون المتشابه فاحذروهم فإنهم الذين عناهم الله جلّ وعلا بأنهم قد زاغت قلوبهم»**(١)

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾، مسلم، كتاب العلم، باب

ومعلوم أن المبطل يتعلق بالشيء الذي يدل على باطله ويترك الشيء الواضح الجلي، مع أن هذا في الواقع ليس فيه خفاء، فهو واضح والحمد لله وليس فيه إشكال، وإنما أضيف للرسول لأنه أداه مبلغاً عن المرسل، ومعلوم أن الرسول يؤدي الرسالة وأنه لا يأتي بشيء من عند نفسه، وكل من نقل كلاماً لغيره فإنه لا يخرجه ذلك النقل عن كونه كلاماً لغيره.

إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يقول ابن القيم إن الناس في رؤية الله جلّ وعلا ثلاثة أقسام طرفان ووسط:

الطرف الأول: فهم من بالغ في إثبات الرؤية حتى أثبتها في الدنيا وهم الصوفية وأذنابهم ومن تعلق بهم، فهم يثبتونها في الدنيا ويقولون: إنهم يرون ربهم، ولهذا تجد هذا كثيراً في كلامهم فيقول أحدهم: رأيت ربي البارحة. فإذا قيل له: في المنام؟ قال: لا، في اليقظة. فلا نقول إنه كذب بل هو صحيح، فقد رأوا الشيطان وهو ربهم الذي رأوه؛ لأنه يتصور لهم ويضللهم فهو معبودهم في الواقع، وهؤلاء في الواقع لا عقل لهم ولا علم ـ نسأل الله العافية ـ.

الطرف الثاني: وهم الذين يقابلونهم تماماً، نفوا الرؤية مطلقاً وقالوا: هذا لا يكون بل هو مستحيل، وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة وكذلك خوارج اليوم كالإباضية والرافضة ونحوهم، وكذلك الزيدية وإن كان بعضهم يثبت الرؤية.

الوسط: هم أهل السنة الذين أثبتوا رؤية الله جلّ وعلا في موقف القيامة، وسيأتي أن المؤلف يقول: يرونه في عرصات القيامة.

= النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، من حديث عائشة ﵂.

والعرصات جمع عرصة وهي المواقف التي يجتمعون فيها وفي الجنة، ولكن في الدنيا اختلف أهل السنة في مسألة وهي هل النبي ﷺ رأى ربه يوم عرج به إلى السماء أو لم يره؟.

أكثر الصحابة وأكثر أهل العلم أنه لم يره، وجاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: **«نور أنى أراه»**[1] وفي رواية في صحيح مسلم: **«رأيت نوراً»** فهذا يكون نفياً حيث يقول: **«نور أنى أراه»** يعني بعيد أن أراه، وقد حرفه الصوفية فقالوا: نوراني أراه. وهذا تحريف لفظي؛ لأنهم يستطيعون أن يحرفوا كلام الرسول ﷺ، ولكنه ما ينطلي على أهل العلم فيعرفون أنه تحريف، فالصواب في هذا أن الرسول ﷺ لم ير ربه ليلة الإسراء، وإنما ثبت في المسند وفي غيره أنه قال: **«رأيت ربي البارحة في أحسن صورة»**[2] يعني رؤيا منام، فهو رآه في المنام يقول: **«فقال لي: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا علم لي. فكرر ذلك فقلت: لا علم لي. فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها في ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب، فقال: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: في الكفارات ونقل الخطى إلى الصلوات... إلخ»**[3] فهذه رؤيا منام ورؤيا المنام تجوز لآحاد الناس، ولكن الإنسان قد يرى على حسب إيمانه، فإن كان إيمانه حسناً رأى صورة حسنة، ورؤية المنام ليست هي الرؤية الحقيقية وإنما هي مثل يضرب له، وفي صحيح مسلم في حديث ابن صياد حديث الدجال أنه ﷺ

(١) مسلم (١٧٨)، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝﴾، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٣٤٨٢)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب سورة ص، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الترمذي (٣١٥٧)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة ص؛ أحمد (٣٣٢٥٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال في أثناء الكلام: **«وتعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»**[(١)]

وقوله: **«تعلموا»** يعني اعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت، وهذا نص، إنما هناك مسألة يذكرها الذين يكتبون في العقائد وهي في الواقع فائدتها ضئيلة، فيقولون: هل يمكن رؤية الله في الدنيا؟ فالجواب يقولون: نعم ممكنة ولكنها غير واقعة، وممكنة لأن موسى ﷺ سأل ربه أن يراه، وموسى ﷺ لا يمكن أن يسأل شيئاً مستحيلاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ يعني ناعمة من النضرة فيها نضرة النعيم وهذه صفة أهل الجنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ بأعينها تنظر إلى وجه الله جلّ وعلا، وقد جاء تفسير هذه الآية بهذا عن الرسول ﷺ وعن الصحابة مرفوعاً، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في أن المؤمنين يرون ربهم، وإذا قرأنا في كتب أهل التأويل من المعتزلة وغيرهم مثل الزمخشري وغيره يقول: إلى آلاء ربها ناظرة. فكلامه زائد وهذا المقدر لا حاجة له، فالكلام واضح جلي ولا سيما إذا جاء تفسيره عن رسول الله ﷺ، فكل تفسير يكون خلاف ذلك فهو باطل، ومعلوم أن النظر إذا عدي بإلى وذكر الوجه فإنه نص في أن المقصود هو النظر بالأعين وليس الانتظار ولا غيره مما يقوله أهل البدع، فالمسألة في هذا واضحة جداً.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣]

هذا في صفة أهل الجنة، ﴿الْأَرَائِكِ﴾ هي السرر، يعني أنهم جالسون على سرر وينظرون إلى ربهم جلّ وعلا، وهذا أعلى النعيم.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

﴿أَحْسَنُوا﴾ في عملهم، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الزيادة على الجنة هي النظر إلى وجه الله جلّ وعلا، وقد جاء ذلك مفسراً عن رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث صهيب أنه قال: الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم جلّ وعلا[1]، وهذا نص لا يحتمل، ولا يجوز أن يلتفت إلى قول غير هذا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]

أي: لهم ما يشاءون في الجنة، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: زيادة، وفسرت الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله جلّ وعلا، وهذه الأدلة من كتاب الله واضحة على أن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم، والنظر إلى الله جلّ وعلا يكون من فوق، ولا يمكن أن ينظروه من يمين أو من شمال أو من تحت أو من خلف بل ينظرون إليه من فوق، ولهذا أثبت أهل السنة هذا من الأدلة التي تدل على علو الله جلّ وعلا، والآيات التي فيها اللقاء ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] يقولون اللقاء يتضمن المعاينة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦] فيلاقي ربه في الموقف، لكل لفظ جاء فيه ذكر اللقاء في كتاب الله وفي حديث رسوله ﷺ يتضمن الرؤية والمعاينة، وقد يقول قائل: الأشعرية يتفقون مع أهل السنة في أن الله يُرى يوم القيامة، نقول: لا، لا يتفقون وإن أثبتوا هذا في كتبهم، فأنهم يثبتون رؤى غير معقولة وليست الرؤية التي ذكرها الله جلّ وعلا، بل يجعلونها زيادة علم، والعجيب أنهم قالوا: إن

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ، من حديث صهيب ؓ، وهو قول الجمهور كما حكاه عنهم الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص١٩١).

الرؤية التي ذكرت دونها الحجب، فإذا كشفت الحجب حصلت حتى في الدنيا، فإذاً الرؤية معناها علم القلب، وبعضهم يصرح بهذا، ولكن قدماؤهم أثبتوا الرؤية وبعضهم نفى العلو، وهذا معروف عندهم، وليس قدماؤهم مثل الباقلاني والإسفراييني ونحوهما، فإن هؤلاء ليسوا من الأشعرية في الواقع، فقال لهم المعتزلة: من أين يُرى؟ قالوا: يُرى لا من جهة؛ لأن هذا لا يمكن، ولذلك اضطروا أن يفسروا الرؤية بزيادة العلم لأجل ذلك، أما المعتزلة فنفوا الرؤية لأنهم يقولون: إن الرؤية هي انعكاس الأشعة، والأشعة إذا لم يكن أمامها جسم ما يمكن أن يُرى، فالجسم الذي تصدم به أشعة النظر هو الذي تحصل به الرؤية، فالرؤية لا تكون إلا لجسم، هذا هو تعليلهم، وهو من أكبر شبهاتهم، يقولون لو أثبتنا الرؤية للزم أن نثبت أن الله جسماً وقد علم أن الله ليس بجسم.

ويجب على طالب العلم ألا يشتغل بكلامهم الباطل، والواقع أن الله جلّ وعلا هو أكبر شيء، وهو أعظم شيء، وليس كما يقولون، والرؤية التي تحصل للمؤمنين هي رؤية وجهه الكريم جلّ وعلا، أحياناً يستدلون بالآيات على مذهبهم، وإذا استدللت أنت على إبطال مذهبهم بالآيات قالوا: هذه ظواهر لا تعطي اليقين، فيستدلون على نفي الرؤية بقوله جلّ وعلا: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقوله جلّ وعلا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فهذه يقولون أدلة من القرآن تدل على عدم الرؤية، وفي قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ قالوا إن ﴿لَن﴾ تدل على النفي المؤبد، ولهذا رد ذلك ابن مالك في الألفية، قال من قال إنها للنفي المؤبد فقوله: اردد[1]، يعني قوله مردود لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وغير هذا، فقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يعني في الدنيا

(١) يشير الشيخ حفظه الله إلى قول ابن مالك في «الألفية»:
ومن رأى النفي بـ«لن» مؤبدا ... فقوله اردد وسواه فاعضدا

كما هو واضح من الدليل ومن المقام والسياق، أما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالإدراك غير الرؤية، الإدراك: هو إحاطة الشيء، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أتدركها؟ قال: لا. قال: أترى الشمس؟ قال: نعم. قال: أتدركها؟ قال: لا. قال: الله أعظم وأكبر.

فمعنى ذلك أن الإدراك غير الرؤية، ويدل على هذا قول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] أي: الجمع الذي مع موسى ﷺ والجمع الذي مع فرعون كل واحد رأى الثاني، فلما قال أصحاب موسى لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا﴾ فنفى الإدراك مع حصول الرؤية، فدل على أن الرؤية تقع والإدراك لا يقع، فالله جلّ وعلا يُرى ولا يُدرك تعالى الله وتقدس، فيبقى أن رؤية الله جلّ وعلا كما في هذه الآيات يدل على أنها أفضل نعيم الجنة؛ لأن أهل الجنة إذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، فهل هذا يكون دائماً؟ وهل الرؤية تكون لأهل الجنة مرة وتنتهي ولا تستمر؟.

جاء تفصيل ذلك في أحاديث رسول الله ﷺ وأنهم يختلفون، فمنهم من يراه في الجمعة مرة ومنهم من يراه بكرة وعشية، ولهذا جاء في حديث جرير أنه ﷺ لما سئل: هل نرى ربنا؟ قال: **«هل ترون القمر ليس بينكم وبينه قتر ولا سحاب؟»** قالوا: نعم. قال: **«إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر ليس بينكم وبينه حائل، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا»**[1] يقول العلماء: الفائدة من ذكر هاتين الصلاتين أن الرؤية تقع في هذين الوقتين.

---

(١) البخاري (٥٧٣)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، ومسلم (٦٣٣)، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِباً لِلْهُدَى مِنْهُ، تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ

الاسْتِدْلَالُ عَلَى إِثْبَاتِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ مِنَ السُّنَّةِ

ما يُذكر في هذه الأحاديث مكرر مع ما مضى من الآيات غالباً، وسبق أن السنة مع القرآن أقسام ثلاثة: إما أن تأتي موافقة له فيكون من تضافر الأدلة، أو تأتي مفسرة ومبينة له، أو تأتي مؤسسة بشيء جديد ليس في القرآن. وما سيذكر هنا كله سبق، فيكون من توافق الأدلة وتضافرها، ولكن من عادة السلف المؤلفين في العقائد أنهم يذكرون الآيات من كتاب الله جلّ وعلا ثم يذكرون أحاديث رسول الله ﷺ، كما صنع البخاري رحمه الله وكذلك ابن خزيمة وغيرهما ممن ألف في التوحيد في الأسماء والصفات.

ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

السنة في اللغة: هي الطريقة المسلوكة الواضحة، والسنة هنا المقصود بها: هي أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، ومعنى تقريراته أي: الأفعال التي تفعل بحضرته فيقرها فتكون من سنته، والسنة مع القرآن أقسام ثلاثة:

الأول: يأتي مطابقاً لما جاء به القرآن، فيكون هذا من توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: يأتي مفسراً لما أجمل أو مبيناً وموضحاً لما يحتاج إلى بيانٍ وإيضاح؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

الثالث: يأتي مستقلاً بتحريم أو تحليل ويكون مؤسساً.

وما جاء عن الرسول ﷺ وجب قبوله والإيمان به، سواء كان في باب العلميات أو في باب العمليات ولا فرق بين هذا وهذا، وكلاهما يشترط له الثبوت.

فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ

تفسير الكلام: هو كشف الغامض فيه وإيضاحه بألفاظ أوضح، وقد يكون التفسير بذكر الأمثلة وقد يكون بذكر الضد، فإن بضدها تتبين الأشياء، والقرآن على أقسام ثلاثة:

الأول: واضح تعرفه العرب من لغتها.

الثاني: ما لا يعلمه إلا العلماء، وهذا الذي أمر الله بسؤال العلماء عنه في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: ما استأثر الله جلّ وعلا بعلمه، وهو حقائق ما أخبر عنه من نفسه ومما يأتي مما في الجنة والنار والموقف وما يكون بعد الموت، فحقائقها لا تعلم حتى تأتي، كما قال الله جلّ وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله: «وتبينه» والتفسير والتبيين شيء واحد.

قوله: «وتدل عليه» يعني أنها تأتي مؤيدة له، فهي وحي من الله كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤] وفي الحديث أنه ﷺ قال: **«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»**[(١)] وفي رواية: **«ومثليه معه»**.

وَتُعَبِّرُ عَنْهُ وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ ﷻ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ

الحديث: هو ضد القديم، وأطلقت على أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته.

(١) أبو داود (٤٦٠٤)، كتاب السنة، باب في لزوم السنة؛ أحمد (١٦٥٤٦)، من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ.

الصحاح: هي السالمة مما يقدح بها، وهي ما جمعت فيه شروط خمسة:

الأول: عدالة الناقل.

الثاني: ضبط الناقل.

الثالث: اتصال السند.

الرابع: سلامتها من الشذوذ.

الخامس: سلامتها من العلة.

إذا وجدت هذه الشروط الخمسة فالحديث صحيح، والحسن يشاركه غير أنه ينزل عن درجة الضبط، ولكن الحكم واحد لأنه مما يحتج به، والحسن ينقسم إلى قسمين:

الأول: حسن لذاته.

الثاني: حسن لغيره.

والحكم واحد سواء كان حسناً لذاته أو لغيره، يعني أنه يجب قبوله كالأحاديث الصحيحة.

الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيْمَانُ بِهَا كَذَلِكَ فَمِنْ ذَلِكَ

أهل المعرفة: هم الذين يعرفون الحديث، أي: أهل الحديث وليسوا أهل الكلام وأشباههم فإنهم ليس لهم معرفة في هذا، والمعرفة هي العلم بأحوال الحديث وما يحف به، وهذا اعتنى به جهابذة من العلماء قد عُرفوا وجُربوا وامتُحنوا، فتبين أن الله جلّ وعلا ألهمهم علم هذا الأمر مما حفظ الله جلّ وعلا به سنة رسوله ﷺ، فإذا تلقوه بالقبول وجب الإيمان به وبما دل عليه، ولا يجوز رده كما يقوله أهل البدع بحجة أنها أخبار آحاد، ومعروف أن السنة فيها المتواتر لفظاً ومعنى، وفيها المتواتر معنى، وفيها الآحاد وهو أكثرها، وقد جاءت أحاديث

كثيرة وأدلة بالغة الكثرة حيث لا يستطيع الإنسان إحصاءها تدل على وجوب قبول خبر الواحد، وقد عقد الأئمة في كتبهم مثل البخاري وغيره في كتاب خاص بوجوب قبول خبر الواحد، واحتجوا بأحاديث ذكروها مما يكون حجة في هذا ويدل على ما وراءه.

ثُبُوتُ النُّزُولِ الإِلَهِيِّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[(١)]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

وفي رواية: **«حتى يطلع الفجر»**[(٢)]، قد عرفنا أن السماوات سبع وأنها طباق كما قال الله جلّ وعلا، واحدة فوق الأخرى، وأن بينها مسافات شاسعة جداً، فالسماء الدنيا هي أقربها إلينا، ونزوله جلّ وعلا لأجل ما ذكر، لهذا جاء في رواية أخرى أنه يقول: **«لا أسأل عن عبادي غيري»**[(٣)] وهذا مما يدل على جوده وكرمه وفضله جلّ وعلا، وكثير من الخلق غافلون عن ذلك، إما في لهو ومعاصٍ أو في غطيط نوم، مع أن الله جلّ وعلا هو الغني بذاته عن كل ما سواه وليس بحاجة إليهم، وإنما كرمه وجوده.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، و(٦٣٢١)، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، و(٧٤٩٤)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾؛ ومسلم (٧٥٨)، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في صلاة التراويح، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٣٥٦)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل؛ وأحمد (٧٤٦٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أحمد (١٥٦٢٦)؛ وابن بطة في «الإبانة»؛ والطبراني في «المعجم»، من حديث رفاعة الجهني ﷺ.

قوله: ﴿يَنْزِلُ﴾ النزول جاء في أحاديث رسول الله ﷺ وفي القرآن على أقسام ثلاثة:

الأول: ما كان مقيداً من الله كقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١] في آيات كثيرة، وهذا نص لا يحتمل، إلا أنه قول من الله قاله ونزل منه، كما أنه نص في علو الله جلّ وعلا، والذي يتعارف عليه أهل اللغة وكل لغة أن النزول يكون من أعلى إلى أسفل، فهو يدل على علو الله جلّ وعلا.

الثاني: ما كان مقيداً من السماء كقوله: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ٤] في آيات عدة، وهذا يقصد به المطر وقد يقصد به غير ذلك.

الثالث: المطلق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] والنزول كما هو معلوم في الأصل أنه من أعلى إلى أسفل، فنزول الثمانية أزواج من الأنعام التي ذكرها الله جلّ وعلا قد يكون مقصوداً به نزول الماء من الفحل إلى الأنثى، وأما نزول الحديد فقد يقصد أنه ينزل من الجبال أو من غيرها مما شاء الله جلّ وعلا، وليس هناك قسم رابع.

وفي هذا الحديث قال: **«ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»** فأسند النزول إلى الله، فهو فعل يفعله جلّ وعلا حقيقة، وهذا من الأفعال اللازمة وهي أفعال اختيارية يفعلها بمشيئته جلّ وعلا.

قوله: **«إلى السماء الدنيا»** وقد جاء أيضاً: **«إلى سماء الدنيا»**.

قوله: **«كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر»** أي: من هذه الليلة، وهذا يكون في الثلث الأخير إلى طلوع الفجر، وهذا لا يحتمل أن يكون مجازاً من مجاز الحذف أو نحوه كما يقوله المأولة من أن المعنى هو أنه ينزل أمره أو ملكه أو تنزل رحمته أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا يخرج

الكلام عن مفهومه بل عن نصه؛ لأنه قال: «ينزل إلى السماء الدنيا فيقول...» ومعلوم أن الأمر لا يقول، مع أن الأمر ليس مقيداً في ثلث الليل الآخر، فأمر الله ينزل دائماً في الليل والنهار وفي أي وقت، وكذلك رحمته جلّ وعلا ليست مقيدة لا في السماء الدنيا ولا في آخر الليل، ولا يجوز أن يكون الملك يقول: من يدعوني؛ لأنه ممتنع كما سبق في قول الله جلّ وعلا لموسى ﷺ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] هذا لا يجوز أن تقوله الشجرة ولا أن يقوله ملك ولا غيره، المعتزلة يقولون: خلق الله الكلام في الشجرة فتكلمت، لقوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] يعني أن الكلام خرج من الشجرة، وهذا من التحريف الواضح.

قوله: «فيقول» يدلنا على صدور القول منه حقيقة، وأنه يقول جلّ وعلا ويتكلم كلاماً يسمع بصوت، وحروف؛ لأن الكلام المسموع لا بد أن يكون بصوت وحروف.

قوله: «من يدعوني» «من» هنا فيه إشعار بالطلب، أن الله جلّ وعلا يدعو عباده أن يدعوه، والدعاء يتضمن شيئين:

أحدهما: دعاء العبادة، مثل قراءة القرآن والتسبيح والتكبير والصلاة والصدقة والحج والصوم وغير ذلك، وأي قربة تُفعل فهي دعاء عبادة؛ لأن فعلها يقصد به الإثابة في ضمنها الدعاء.

الثاني: دعاء المسألة، بأن يسأل شيئاً معيناً من أمور الدنيا والآخرة، كل هذا داخل في قوله: «**من يدعوني فأستجيب**» واستجيبَ نصب على الطلب، ويجوز رفعه على الاستئناف وقوله: «**من يسألني فأعطيه**».

بهذا يتبين لنا أن الدعاء قسمان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، فالمسألة يقال فيها: فأعطيه. والعبادة يقال فيها: فأستجيب له، يعني يقبل عبادته فيثيبه، وهذا جاء في القرآن في مواضع في قول الله

جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فمن المفسرين من قال: ادعوني أعطكم، ومنهم من قال ادعوني أثيبكم، فالذي يقول: أعطكم يعني أنه فسره بدعاء المسألة، والذي يقول أثيبكم فسره بدعاء العبادة، وكل واحد من الدعائين يستلزم الآخر، ولكن عباد القبور ينكرون دعاء العبادة ويقولون إنما الدعاء ينحصر في دعاء المسألة فقط، حتى يسلم لهم شركهم وأنهم يتجهون إلى القبور ويطوفون بها ويتقربون إليها، فيقولون: ما يسمى هذا دعاء ولا يسمى عبادة.

قوله: «**من يستغفرني فأغفر له**» الاستغفار هو طلب المغفرة: هي ستر الذنب ووقاية حوبه أي: ما كان يترتب عليه.

وهذا الحديث متفق عليه بل بلغ حد التواتر لأنه رواه من الصحابة أكثر من ثمانية وعشرين صحابي، فهو من الأحاديث التي تُيقن أن رسول الله ﷺ قالها فيجب الإيمان به وكذلك العمل به، وينبغي ألا يخل المؤمن بهذا الشيء، وكل هذا يدلنا على كرم الله جلّ وعلا وجوده، وإلا فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، ففي هذا إثبات نزول الله جلّ وعلا كل ليلة إلى السماء الدنيا، ويجب الإيمان به على ظاهره أنه ينزل حقيقة، وإذا نزل إلى سماء الدنيا فهو على عرشه عالٍ على جميع السماوات، لا يكون سماء من السماوات فوقه بل هو فوق كل شيء، وقد تقدم أن العلو من صفات الذات التي تكون ملازمة لذات الرب جلّ وعلا، أما تحديده في ثلث الليل ومحاولة أهل الكلام وأهل التأويل أن يشككوا في ذلك ويقولون: إن الليل يختلف باختلاف الأماكن، فثلث الليل هنا يكون أول الليل للآخرين وبالعكس، ولو قلنا بذلك لكان النزول مستديماً أربعاً وعشرين ساعة، فيقولون: هذا مما يبطل هذا الحديث، وهذا في الواقع على القاعدة التي مرت معنا، ونقول: إن أصل ردهم الصفات بناء على التشبيه المستكن في نفوسهم، الذي هو قياس رب العالمين على أفعالهم ونفوسهم، فهذا الذي يذكرونه: لو كان النزول كنزول المخلوق لأمكن

أن يكون ذلك، ولكن نزول الله جلّ وعلا لا يشبه نزول الأجرام والأجساد، فهو يليق به، وما يقرب هذا للفهم؛ أن الله جلّ وعلا يستمع للدعاة ويستقبل المصلين في كل بقعة من الأرض وفي آنٍ واحد، وكل واحد لا يمكن أن يشغل عن الثاني، فيسمع هذا وهذا وهذا وكلهم في آنٍ واحد، وكذلك كونه جلّ وعلا يحفظ عليهم أقوالهم وأعمالهم ووساوس صدورهم، فأفعال الله جلّ وعلا لا يجوز أن تقاس بأفعال المخلوقين، بل يجب أن تكون خاصة به، ويجب أن يُؤمن بها على ما جاءت، أما من هذه الأقيسة وكونه يكون كذا وكذا؛ فهذا للمخلوق المحدود تعالى الله جلّ وعلا وتقدس، وبهذا يعلم أن هذا الاعتراض لا قيمة له، وأنه اعتراض على نزول معهود معروف من المخلوق، أما نزول الرب جلّ وعلا فلا اعتراض عليه ولا يدخل في ذلك.

إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ يَفْرَحُ وَيَضْحَكُ وَيَعْجَبُ

وَقَوْلُهُ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

ذكر المؤلف رحمه الله جزءاً من الحديث الذي فيه الشاهد مما يدل على أنه يرى جواز رواية الحديث بالمعنى والاقتصار على جزء منه، وقد أكثر البخاري رحمه الله في صحيحه من تقطيع الأحاديث، فيذكر جزءاً يستدل به ويترك البقية وكذلك غيره من الأئمة.

قوله: «لله» اللام تكون للابتداء وليست للقسم.

قوله: «أشد فرحاً» الفرح: هو حالة تحصل للقلب عند حصول مقصوده وهي حالة فوق الرضا، فالراضي قد لا يكون فرحاً، والفرح

(١) البخاري (٦٣٠٨)، كتاب الدعوات، باب التوبة؛ مسلم (٤٩٢٨)، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صفة كمال، وصفات الله جلّ وعلا لا يجوز أن تكون مماثلة أو مشابهة لصفات المخلوقين، ولكن قد علم أن صفة الفرح كمال، فالذي يفرح أكمل من الذي لا يفرح، كما أن الذي يرضى أكمل ممن لا يرضى، وفرح الله جلّ وعلا ليس عن حاجة تعالى الله وتقدس، وإنما هو عن جود وكرم، فكرمه وجوده اقتضى أنه يفرح بتوبة العبد، وهذا يدلنا على أنه جلّ وعلا لا يحب تعذيب العباد، ولكن العباد هم الذين يحملون على تعذيبهم، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام البينات ووضح الأدلة حتى يُعذِر إلى الناس ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ففرحه من هذا القبيل.

قوله: «بتوبة» التوبة: هي الرجوع، فيقال: تاب إذا رجع، مثل ثاب إذا رجع، وحقيقة التوبة التي يفرح الله جلّ وعلا بها هي رجوع المذنب المؤمن من ذنوبه إلى الطاعة والالتزام ولها شروط قد تكون أربعة أو خمسة حسب أحوال الناس، والغالب أنها ثلاثة:

الأول: الندم على ما فرط.

الثاني: الإقلاع عن الذنب.

الثالث: العزم الجازم بأنه لا يعود.

فإن كان الذنب مظلمة يُضاف إلى هذا أمر رابع وهو أنه يخرج من هذه المظلمة إما بالتحلل وإما بردها وإما بالتمكين من نفسه للقصاص أو غير ذلك حسب الذنب، أما الشروط الأخرى التي أوصلها بعضهم إلى عشرة شروط فهي أمور واضحة، مثل كونه لا بد أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل أن تكون الغرغرة، وأن يكون مؤمناً، وأن التوبة من كافر وهو على كفره لا تصلح، وأن يكون تاركاً للذنب ولا يصر وغيرها، المقصود أن الله جلّ وعلا يحب التائب ويفرح بتوبته.

قوله: «**عبده المؤمن التائب**» هذا يوضح أن التوبة لا بد أن تكون

من المؤمن، أما توبة الكافر فيجب أن تكون من كفره ودخوله في الإيمان، ولكن هذا ابتداء.

قوله: «من أحدكم براحلته» تمام الحديث هو: من أحدكم يفقد راحلته عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة فيطلبها فييئس من وجودها، فيأتي إلى شجرة ويضع رأسه ينتظر الموت وقد يئس من الحياة، بينما هو كذلك إذا راحلته على رأسه فيأخذ بخطامها ويقول: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح.

هذا غاية ما يُتصور من نهاية الفرح، وهذا فيما يظهر أنه تمثيل من الرسول ﷺ، ليس هذا واقع من شخص أنه يقول هذا القول أو وقع منه ذلك، ومع ذلك فهذا يدل على أن الإنسان إذا أخطأ ووقع في كلام الكفر إما لدهشة فرح أو غضب أو ما أشبه ذلك أنه لا لوم عليه ولا يؤاخذ بذلك، كما أنه يدل على أن حاكي الكفر لا يكون كافراً ولا يؤاخذ بذلك، والمقصود إثبات صفة الفرح لله جلّ وعلا وأنه يفرح بتوبة عبده التائب، وقد مر معنا في الآيات التي ذكر بعضها المؤلف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والفرح فوق ذلك، فالفرح جاء وصفه بأحاديث رسول الله ﷺ فيجب أن يؤمن به ويُعتقد كما قاله رسول الله ﷺ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ليس معنى هذا أن كل واحد منهما قتل الآخر، لكن معناه أن واحداً منهما قتل ثم حصل للآخر مثل ما فعل، ولهذا جاء تفسيره كما

(١) البخاري (٢٨٢٦)، كتاب الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل، ومسلم (١٨٩٠)، كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

في صحيح مسلم أن المؤمن يقاتل في سبيل الله فيقتله الكافر ثم يسلم الكافر فيقاتل في سبيل الله فيقتل؛ فكلاهما يدخل الجنة، فالله يضحك إليهما لأن فعل الأخير من مقتضيات الغضب وجهنم؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] فإذا جاء على خلاف ذلك مما يرضي الله جلّ وعلا فإنه يقتضي الضحك، وليس الضحك بأن يأتي أمر خارج عن العلم والنظائر فيفجأ فيضحك؛ لأن هذا يكون بالنسبة للمخلوق، ومع ذلك فهذا خارج عن النظائر؛ لأن كون هذا يقتل مؤمناً ثم يقتل في نفس ما قتل فيه المؤمن؛ خارج عن مقتضى المقاتلة، والضحك صفة على ظاهرها ويجب أن نثبت لله جلّ وعلا، ولا يجوز تأويلها بالرضا أو بالإثابة أو ما أشبه ذلك كما يقوله الأشاعرة، وإنما الرضا من مقتضى الضحك، كما قال الصحابي لما ذكر الرسول ﷺ: **«إن الله ينظر إليهم أزلين قنطين فيظل يضحك»**. فقال له أحد السامعين من العرب: أويضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: **«نعم»**. فقال: لا يعدمنا خيراً إذا ضحك. وفي رواية: **«لا نعدم خيراً من رب يضحك»**. وفي رواية عائشة: أنه لما قال ذلك قال: **«إي والله إنه ليضحك»**.

المقصود أن الضحك يدل على الرضا وليس هو الرضا ولا الإثابة، مع أنه لو قيل هؤلاء الذين يفسرون الضحك بالرضا، الرضا يحتاج إلى تفسير آخر يعني تأويل، فيقولون: الرضا هو الطاعة أو الإثابة أو إرادة الإثابة، فهذا ظاهر جداً، ومعلوم أن الإنسان إذا آمن بأن رسول الله ﷺ هو أفصح الناس وأبلغهم وهو أنصح للأمة وهو أعلم الخلق بالله، وهو كذلك أشد غيرة لله جلّ وعلا من كل أحد؛ يقطع قطعاً لا تردد فيه بأن هذا حق على ظاهره وأنه يجب أن يؤمن به ويقبله كما قاله ﷺ ولكن أهل البدع ما يقبلون هذا كله، أما المبالغات التي قد تذكر لبعضهم فلا

تثبت، مثل الكلام الذي يذكر عن عمرو بن عبيد المعتزلي في حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: لو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا لقلت ليس صحيحاً، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك لقلت ليس هذا مقتضى ما جئت به، ولو سمعت جبريل ﷺ يقول ذلك لقلت ليس هذا الذي فطرنا الله عليه وعلمنا إياه، ولو سمعت الله يقول ذلك لقلت ليس هذا الذي خلقتنا من أجله.

فهذا من المبالغات التي لا تثبت ولا يجوز أن تثبت لمسلم، مع أن هذا الرجل قد عُرف بالتُقى وكثرة العبادة وكذلك التجاوز عمن يظلمه طلباً للثواب، قال له أحد الناس: إني والله لأرحمك من كثرة ما أسمع كلام الناس فيك. فقال: أو سمعتني أرد عليهم؟ فقال: لا. إذن ارحمهم.

لأن الإثم عليهم، وله كلام كثير في هذا، فكيف يقول مثل هذا القول؟.

فهذا لا يمكن أن يصدر من مسلم أصلاً، فالمبالغات في الكلام في الناس قد توجد كثيراً في كتب الردود وغيرها، فيجب أن ينظر السند وينظر من الذي روى ومن الذي قال هذا القول، فغالباً لا تجد له سنداً.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ»[1]، «يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»[2] حَدِيثٌ حَسَنٌ.

هذا الحديث رواه أبو داود وغيره، والعجب صفة أثبتها

(١) تم تعديلها من قبل الشيخ حفظه الله من «خيره» إلى «غيره» وأضاف أنه يجوز أن تكون «خيره» ولكن الرواية الثابتة بالغين.

(٢) ابن ماجه، باب فيما أنكرت الجهمية، وقال البوصيري: هذا إسناد فيه مقال، وضعفه الألباني في «سنن ابن ماجه (١٨١)» والظلال (٤٥٤).

الرسول ﷺ لله جلّ وعلا، وقد جاء في القرآن في قراءة: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ فإذا كان كذلك؛ فإن معنى ذلك أنه مسند لله جلّ وعلا ويكون الفاعل هو الله جلّ وعلا، ومعروف أنه يُحتج بالقراءات، مع أن الحديث يكفي إذا كان صحيحاً، والحسن من أقسام الصحيح يكفي بنفسه في إثبات مثل هذه المسألة، وهي من أعظم المسائل، وهي صفة كمال.

قوله: **«عجب ربنا من قنوط عباده»** القنوط: هو شدة اليأس. والذي يقنط من رحمة الله يكون مرتكباً لجرم عظيم، ولكن هذا قصد به استبعادهم نزول الغيث عندما تجدب الأرض وتمحل مع أنه قريب جداً؛ لأن من مقتضيات الرحمة بل من مقتضى الربوبية أنه ينزل الغيث على من يربهم، فهو خلقهم ورباهم بنعمه، فربوبيته تقتضي نزوله، فكونهم يقنطون؛ هذا استبعاد لقريب، وهو داعٍ للعجب؛ لأنهم قد علموا أن الله جلّ وعلا هو الذي رباهم بنعمه الصغار والكبار منذ أوجدهم، فلا يتخلى عنهم جلّ وعلا ولو كانوا كفاراً.

قوله: **«ينظر إليكم أزلين»** وفيه إثبات النظر لله، وأزلين يعني اشتد كربهم، وقد جاء أنه إذا وقع الكرب فإن الفرج قريب ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٦] وقد جاء: **«أنه لا يغلب عسر يسرين»**[1] لأن الله جلّ وعلا كرر العسر مُنكراً وجاء باليسر معرفاً فدل على أن اليسر شيئان، فإذا قلت: رأيت رجلاً، ثم قلت: رأيت الرجل، فالرجل الذي رأيته ثانية هو نفسه الأول، ولكن هذا نص في أن الإنسان إذا وقع في شدة أن الخروج منها قريب، وهذا قد جربه الخلق كلهم حتى الكفار، فلهذا يقول الله جلّ وعلا في الاحتجاج عليهم ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] فهذا شيء معروف أنه من خصائص الله جلّ وعلا وأنه يجيب المضطر إذا دعاه وإن كان من الكفرة، والمقصود

(١) «موطأ مالك» (٩٦١)، البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

هنا كون الله جلّ وعلا يعجب من فعل عباده باستبعاد الخير القريب أو تغيير حالهم التي هم فيها.

إِثْبَاتُ الرِّجْلِ وَالْقَدَمِ للهِ سُبْحَانَهُ

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ قَطْ قَطْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

يقول بعض المفسرين: إن جهنم علم على طبقة من طبقات النار، ويجوز أن تكون جهنم اسم للنار مطلقاً، وسقر اسم للنار، فأسماؤها متعددة ـ نعوذ بالله منها ـ. ويقول النحويون: إن هذه كلمة أعجمية، ولهذا منعت من الصرف للعجمة والعلمية.

قوله: **«لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول»** هذا يبين أن المقصود من الآية بالاستفهام أنه طلب المزيد، وليس كما يقوله بعض المفسرين: أنه استفهام بمعنى أنها لا تتسع لشيء، وأنها انتهت ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠] بعضهم يقول: ليس فيها مكان وقد امتلأت، فهذا الحديث يبين أنها تطلب الزيادة، وهو يرد على هذا التفسير، فيلقى فيها وهي تطلب الزيادة، فمعنى ذلك أنه ينتهي من يُلقى فيها ويبقى فيها سعة وتطلب الزيادة، وقد وعدها الله جلّ وعلا أن يملأها كما ثبت في الصحيحين: **«أن الجنة والنار اشتكتا إلى الله فقالت الجنة: ما لي يدخلوني الضعفاء وسقط الناس؟ قالت النار: ما لي يدخلوني**

---

(١) البخاري (٧٣٨٤)، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾، ورواه عن أنس تعليقاً، ومسلم (٢٨٤٨)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار جهنم أعاذنا الله منها، من حديث أنس ﷺ.

الجبارون المتكبرون وكبراء الناس وعظماؤهم؟ فقال الله جلّ وعلا للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء. وقال للنار: أنتِ عذابي أعذب بكِ من أشاء، ولكل واحدة منكما عليّ ملؤها»[1] فأما الجنة إذا دخل أهلها بقي فيها فضل مساكن، فينشئ الله جلّ وعلا لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة، وأما النار فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، فإذا انتهى من يُلقى فيها فإن الله يضع فيها قدمه فتتضايق وتنكمش وتصبح ليس فيها مكان فتقول: قط قط. يعني قد امتلأت حسبي حسبي ما وضع فيّ، فليس فيّ متسع، وهذا معنى قط قط، أما حديث أنس «أن الله ينشئ خلقاً فيلقيهم في النار» فهذا انقلب الحديث على الراوي فجعل ما للجنة للنار كما بين ذلك شيخ الإسلام، مع أن الحديث في الصحيحين.

قوله: **«لا تزال جهنم يلقى فيها»** وهم الكفرة الذين استحقوا دخولها.

قوله: **«وهي تقول هل من مزيد»** يعني تطلب الزيادة ومعناه أنه لا يملؤها من يلقى فيها، وفي هذا دليل واضح على أنها واسعة جداً، مع أن أكثر الناس كفرة، وسيأتي في حديث آدم ﷺ أن الله يأمره أن يخرج من ذريته بعثاً للنار ويقول إذا سأل ربه من بعث النار؟

فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، معنى ذلك أنه لا يدخل الجنة من بني آدم إلا واحد في الألف والباقون في النار، وكذلك الجن أولاد الشيطان فأكثرهم في جهنم، ومعلوم أن الله جلّ وعلا خلق الجن والإنس لعبادته، فإذا تركوا العبادة وعبدوا أهواءهم وشياطينهم استحقوا دخول النار، فهذا يدلنا على أن أهل النار الذين يدخلونها أكثر من أهل الجنة، غير أن الجنة ليست مساكنها كمساكن هؤلاء، فالواحد من أهل الجنة ينظر في مساكنه وما أعطي لمسافات شاسعة جداً، إذا كان

(١) سبق تخريجه.

آخر من يدخل الجنة وهو أدنى أهل الجنة يُقال له ثمن؟.

فإذا عجز قال الله جلّ وعلا: أترضى أن يكون لك مثل الدنيا؟.

فيستبعد هذا ويقول: كيف يكون لي مثل الدنيا منذ خلقت إلى أن انتهت وما فيها من النعيم؟ فيقول: لك مثلها وعشرة أمثالها معها. فهذا أدنى أهل الجنة فكيف بأعلاهم؟.

فهي واسعة جداً، وأهل النار يقرنون ويكبلون كل واحد مع شيطانه بالسلاسل - نسأل الله العافية - ثم فيه دليل واضح على أن النار موجودة وأنها لا تفنى، وليس كما يقول أهل البدع أنها غير موجودة وتفنى، وفيه دليل على أن النار تتكلم، والصواب أن هذا بالقول المسموع وليس بلسان الحال بل بلسان المقال، فأسند إليها القول: **«وتقول هل من مزيد»** تطلب الزيادة، ففيها إحساس وشعور، حنق على الكفرة، ولهذا جاء في وصفها أنها ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] على من عصى الله جلّ وعلا، وفيه إثبات صفة الرجل لله جلّ وعلا وليست رجل واحدة، فله قدمان جلّ وعلا، كما جاء أن الكرسي موضع القدمين[(١)] أي: قدمي الرحمٰن جلّ وعلا، وأنه جلّ وعلا يضع رجله فيها فتلتقي، أما قول المؤولة في هذا: إن المقصود بالرجل الجماعة من الناس، مثل ما يقال لجماعة الجراد: رجل من جراد، وجماعة الناس يقال لهم، فهذا مما يضحك لأنه تأويل سخيف جداً، ولا يجوز أن يصدر من عاقل فضلاً عن العلماء، ولكن هكذا المذاهب تحملهم على هذه الأشياء، أما احتجاجهم بقولهم: إن الله جلّ وعلا أقسم أنه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، فلا يكون لغيرها مكان؛ نقول: إن الله جلّ وعلا هو أصدق القائلين وقد أقسم وقسمه متحقق، فهي لا تمتلئ إلا من الجنة

---

(١) «السنّة» لعبد الله بن أحمد (٥٨٦) (١/٣٠١) ما روي في الكرسي وجلوس الرب عليه، عن ابن عباس ﷺ؛ وتفسير ابن كثير سورة البقرة آية (٢٥٥).

والناس، ووضع رجله جلّ وعلا حتى تتضايق على الجنة والناس الذين وضعوا فيها، فتمتلئ بهم حتى يتحقق موعوده، وقد جاء مرة لفظ الرجل ومرة بلفظ القدم مما يبطل هذا التأويل.

قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**» الانزواء هو الاجتماع، يعني أنها تجتمع بدل مما كانت متسعة.

قوله: «**فتقول قط قط**» ومعناها حسبي حسبي، ومعنى ذلك أنها امتلأت وليس فيها متسع.

إِثْبَاتُ النِّدَاءِ وَالصَّوْتِ وَالْكَلَامِ للهِ تَعَالَى

وَقَوْلِهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادِي بِصَوْتٍ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إِلَى النَّارِ»[(1)] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

سبق أنه ذُكر النداء في القرآن في أحد عشر موضعاً، والنداء من أبلغ ما يُستدل به على كلام الله جلّ وعلا، فإن النداء لا يكون إلا برفع الصوت، فهو كلام من بعد، والله جلّ وعلا قد ذكر الكلام متنوعاً واصفاً به نفسه جلّ وعلا كقال ويقول وتكلم ويكلم وحق القول مني وفي آيات كثيرة، وهنا (يقول الله) فعبر عنه بالمضارع، يعني أنه أمر متحقق، وإن كان هذا قد يدل على الحال ولكنه يدل على الاستقبال في هذا وذلك في الجمع الكبير، جمع الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم إذا أراد أن يفصل بينهم جلّ وعلا، وآدم ﷺ أبو البشر جعل ذلك إليه لأنه علم بما علمه الله جلّ وعلا أهل السعادة من أهل الشقاء.

قوله: «**يا آدم**» هذا نداء، فالياء تدل على النداء ووضعت لمناداة من بعد.

(١) سبق تخريجه.

قوله: «**لبيك**» لبيك كلمة مثناة مأخوذة من الإجابة بعد الإجابة أو أنا ملازم لطاعتك، إما أن تكون من إجابة بعد إجابة أو من الملازمة أي: أنا ملازم لطاعتك أبداً ودائماً، وهي تدل على الطاعة والمحبة، ولا يقال لمن لا يحب لبيك، وإنما يُجاب بها من يُحب.

قوله: «**وسعديك**» يعني إسعاد لك بعد إسعاد بطاعتك وامتثال أمرك، فأنا ممتثل أمرك وسعيد به.

قوله: «**فينادي بصوت**» هذا تأكيد لقوله: يا آدم. ولو لم يذكر هذا لكان قوله: يا آدم، دالاً على النداء، والمناداة لا تكون إلا بصوت، فهو يكون من الإيضاح والبيان الذي لا يدع مجالاً لمتأول، فعلى هذا يكون كلام الله جلّ وعلا بصوت، ومعلوم أن الكلام المعقول أنه ما تُلفظ به وسمعه المُكلم، أما الكلام النفسي الذي يجعلونه كلام الله جلّ وعلا فهذا لا يسمى كلاماً إلا بقرينة، فإذا أطلق الكلام في اللغة العربية فإنه يفهم منه شيئان:

الأول: التكلم بحرف وصوت مسموع لمن كُلم، ولا بد أن يكون المُكلم سامعاً له.

الثاني: أن الكلام يكون صفة للمتكلم، فهو قائم بمن تكلمه، وليس صفة لغيره كما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل البدع.

قوله: «**بعثاً إلى النار**» يعني أهل النار الذين يبعثون من الموقف إلى النار، فيقول آدم ﷺ: وما بعث النار؟.

فيقول له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، عند ذلك قال الصحابة رضوان الله عليهم: وأيّنا ذاك الواحد يا رسول الله؟.

فاشتد الأمر عليهم. فقال: «**أبشروا، من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد**»، وفي رواية قال: «**ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض**»، وفي رواية أخرى أنه قال:

«إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبروا ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»** فكبروا ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»**[(١)] يعني بالنسبة للأمم كلها، وهذا الخطاب للصحابة، والمؤمنون تبع لهم لاحقهم إلى يوم القيامة، والمقصود هنا وصف الله جلّ وعلا بالكلام حقيقة وأنه يتكلم وينادي وأن كلامه يكون بصوت وحرف، وقد أنكر أهل البدع أن يكون كلام الله بصوت وحرف، وصاروا يعيبون أهل السنة بأنهم يصفون الله جلّ وعلا بأنه يتكلم بحروف وأصوات ويصفونهم بالتشبيه في ذلك، ولكن هذا لا يضير أهل السنة لأنهم يتبعون كلام الله جلّ وعلا ويتبعون رسوله ﷺ ولا يهتمون بما يعيرهم به أهل البدع، ويعرفون أن هذا لا يزيدهم إلا شرفاً وتمسكاً بالحق.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»[(٢)].

وهذا أيضاً متفق عليه، والخطاب **«ما منكم»** للصحابة والمؤمنون تبع لهم، فعلى هذا ما يشكل عليه ما جاء في بعض الآيات من أن الله جلّ وعلا: **«لا يكلمهم»** في بعض من ذكر الله جلّ وعلا صفاتهم؛ لأن هذا خاص بالمؤمنين وذاك بغيرهم، وبعضهم قال: **«لا يكلمهم»** كلام إسعاد ورحمة. ولا حاجة لهذا فهو **«لا يكلمهم»** على ظاهره، فإن الله لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، فهذا يكون لغير المؤمنين فقوله: **«ما منكم»** يعني أيها المؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله: **«من أحد إلا سيكلمه ربه»** وهذا من أبلغ ما يُثبت به كلام الله جلّ وعلا.

قوله: **«سيكلمه ربه»** السين هنا للتأكيد والتحقيق وللاستقبال،

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

والرب جلّ وعلا هو المحاسب وهو الذي يتولى الجزاء وهو الذي يتصرف بعباده كيف يشاء.

قوله: «**ليس بينه وبينه ترجمان**» الترجمان: هو الذي ينقل من لغة إلى لغة أخرى، والله جلّ وعلا لا يخفى عليه شيء، وفي رواية «**ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب يحجبه**»[1] ومعنى ذلك أنه ينظر إليه، وهذا التكليم يكون في الموقف في حالة المحاسبة، وهو كحديث عبد الله بن عمر الذي في الصحيحين حينما سئل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يدني عبده المؤمن فيضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، ألم تعمل كذا في يوم كذا؟**».

فإذا رأى أنه قد هلك قال الله جلّ وعلا: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم**»[2] فهو داخل في هذا وعام للمؤمنين، فكل مؤمن سيكلمه ربه في الموقف بالمحاسبة، ولهذا جاء في تمام هذا الحديث: «**فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشمل منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أمامه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**»[3] والمقصود هنا إثبات كلام الله جلّ وعلا لكل أحد في الموقف من المؤمنين، فمعنى هذا أن الله جلّ وعلا تكلم ويتكلم وسيتكلم بما يشاء، فكلامه تتجدد أفراده وآحاده ويتعلق بمشيئته جلّ وعلا، وليس كما يقول أهل البدع أنه كلام قديم أزلي، تكلم ثم لا يعود يتكلم تعالى الله وتقدس، وإنما الحق في هذا أن نوع الكلام قديم أزلي، أما آحاده وأفراده فهي تتجدد وتحدث بعد أن لم تكن وتتعلق بمشيئته وإرادته، فإذا أراد أن يتكلم تكلم، فهو جلّ وعلا يكلم

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري (٧٥١٢)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم؛ مسلم (١٠١٦)، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

جبريل ﷺ بما يشاء فيناديه ويقول: **«إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ﷺ فينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه»**(١) وهذا ليس في وقت دون آخر، وكذلك يكلم جبريل ﷺ وغيره بما يشاء، أما يوم القيامة فهو ـ كما في هذا الحديث ـ يكلم أفراد المؤمنين وقد يكلم بعضهم بكلام آخر، ربما يكون محاورة معه تعالى الله وتقدس، كما ثبت في الصحيح في آخر من يدخل الجنة، رجل يصرف عن النار فيرفع له شجرة ويراها فيطلب ربه أن يوصله إلى تلك الشجرة ويعطي عهوده أنه لا يسأل غيرها، فإذا وصل إليها وبقي ما شاء رفع له شجرة أحسن منها، فيسأل أن يوصل إلى تلك الشجرة، فيقول الله جلّ وعلا **«ألم تعط عهودك ومواثيقك أنك لا تسأل غيرها؟ ما أغدرك يا ابن آدم.. إلخ»** في النهاية قال: **«أترضى أن تكون لك الدنيا ومثلها؟ فيقول: أتسخر بي وأنت رب العالمين!»** عند ذلك ضحك رسول الله ﷺ فقال: **«ألا تسألوني مما ضحكت؟»** قالوا: مما تضحك؟ قال: **«من ضحك رب العالمين»** ـ إذا قال له ذلك ضحك الله جلّ وعلا إليه ـ قال: **«لا أسخر بك ولكني على ما أشاء قدير»** ثم يقول: **«لك الدنيا وعشرة أمثالها معها»**(٢). وهذا كلام بينه وبين هذا العبد وهو أدنى أهل الجنة منزلة، وهذا الكلام يكون قبل دخوله الجنة، ثم كذلك هو يكلم أهل الجنة، ولهذا أكثر البخاري ﷺ في كتاب التوحيد من ذكر كلام الله جلّ وعلا للملائكة وأنبيائه والمؤمنين وغيرهم، وكرر ذلك ليبين أن قول أهل البدع باطل بأدلة الكتاب والسنة.

---

(١) متفق عليه، عن أبي هريرة، وهو مخرّج في «الضعيفة» تحت حديث آخر عن أنس، مخالف لهذا في اللفظ. ألباني.

(٢) البخاري (٦٥٧١)، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار؛ مسلم (٢٧٢)، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجاً، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

إِثْبَاتُ عُلُوِّ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ

وَقَوْلِهِ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ:

الرقية: هي القراءة على المريض بما يُرجى شفاؤه به، فإن كانت من كتاب الله وأسمائه جلّ وعلا وأوصافه فهي الرقية الشرعية، وإن كانت من غير ذلك فهي لا تجوز.

«رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»

سبق أن «في» تكون بمعنى على، والمعنى ربنا الذي على السماء، أو أن السماء يراد بها العلو وليست السماء المبنية، أي: تكون ربنا الله الذي في العلو ولا يجوز غير هذا، أما «في» كونها تأتي بمعنى «على» فهو كثير كما قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

تَقَدَّسَ اسْمُكَ،

تقدس من القداسة وهو التطهر والتنزه والإبعاد عما يصفه به الظالمون الذين لا يعرفونه ولا يقدرون قدره تعالى وتقدس.

أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،

يراد به الأمر الكوني والشرعي، فأمر الله جلّ وعلا يكون كونياً كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] ويكون شرعياً كقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأمر الله عام في خلقه في السماء والأرض، وهذا من التوسل بالله

جلّ وعلا في ذكر ملكه وربوبيته وقهره لخلقه وسلطانه الظاهر في كل شيء.

كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ،

جعل الرحمة في السماء، والرحمة تأتي ويراد بها أمران:

الأول: ما أضيفت إلى الله جلّ وعلا إضافة إلى الموصوف.

الثاني: ما أضيفت إلى الله جلّ وعلا إضافة مخلوق إلى خالقه.

اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ،

وهذا مما أضيف إلى الله جلّ وعلا إضافة مخلوق إلى خالقه، وهي الرحمة المخلوقة التي هي من آثار رحمته القائمة به جلّ وعلا

اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا،

الغفر: هو الستر ووقاية الأثر، والحوب: هو الخطايا والذنوب، وقوله: «وخطايانا» فهو تخصيص بعد تعميم.

أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ،

هذا توسل بربوبيته للطيبين مثل الرسل والأنبياء والملائكة والصالحين والشهداء والصديقين، ومعنى ذلك أن الربوبية تكون خاصة وتكون عامة، وهذا توسل بالربوبية الخاصة كقوله ﷺ: **«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[1]

(١) صحيح. ورواه أبو عوانة أيضاً في «صحيحه». ألباني.

ومعنى كونها خاصة أنه جلّ وعلا أنعم على هؤلاء ورباهم تربية خاصة بأن هداهم ويسر لهم معرفته وعبادته وثبتهم على ذلك وعرفهم نفسه، فعرفوه وخشعوا له وأنابوا إليه، فهذه الربوبية الخاصة فخصهم بهذا، أما الربوبية العامة فتعم الخلق كلهم، حيث هو ربهم الذي أوجدهم وهو المتصرف فيهم كيف يشاء جلّ وعلا.

«أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأ»[1] حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

هذا فعل دعاء وطلب من الله جلّ وعلا، هذا توسل بنعمه التي ينعم بها على عباده مع الاعتراف له جلّ وعلا بالفضل والإحسان، فناسب أن يكون مثل هذا الدعاء إذا رقي به مع العلم واليقين في ذلك أن يشفى المرقي، ولهذا قال: «فيبرأ» يعني يشفى من رقي بهذه الرقية، وهذا يدل على جواز الرقية، وبعض العلماء يقول: إنها مستحبة وليست جائزة فقط، يقول السيوطي وغيره: إذا كانت الرقية بكتاب الله جلّ وعلا وبأسمائه وصفاته وباللغة العربية أو بما يعرف معناه واعتقد أنها لا تؤثر بنفسها وإنما بأمر الله جلّ وعلا فإنها جائزة بإجماع العلماء.

وشروط جواز الرقية ثلاثة:

الأول: أن تكون بكتاب الله جلّ وعلا أو بأسمائه وصفاته.

الثاني: أن تكون باللغة العربية أو بما يعرف معناه.

الثالث: أن يعتقد أنها لا تؤثر بنفسها وإنما بأمر الله جلّ وعلا.

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٢)، وأحمد (٦/ ٢٠)، واللالكائي (٦٤٨)، والحاكم (١/ ٣٤٤)، وصححه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٥٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٩٢)، وابن قدامة في «العلو» (ص٤٨)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٧٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٢٣٠).

وَقَوْلِهِ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1] حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

«ألا» أداة استفتاح، وذلك أن هذا تقدمه أمر يستدعيه، وهذا لما أرسل له ﷺ علي بن طالب ﷺ من اليمن ذهبية لما تحصل من ترابها بعد، فقسمها الرسول ﷺ بين أربعة من رؤساء القبائل يتألفهم بذلك وهم عيينة بن حصن وزيد الخيل وعلقمة بن علاثة والأقرع بن حابس وقيل عامر بن الطفيل، فقال بعض أصحابه: نحن أولى بها، وهو شبه اعتراض على رسول الله ﷺ فقال هذا الحديث، ويعني أنه ﷺ لا يضع شيئاً مما يقسمه إلا بأمر الله جلّ وعلا وليس لأجل فلان أو فلان، والمقصود أنه قال هنا: «أمين من في السماء» يعني أمين الله على وحيه، قد ائتمنني على وحيه الذي أوحاه إلي فكيف لا تأمنوني على أمور تافهة من أمور الدنيا لا قدر لها ولا قيمة؟.

فهذا يدل على علو الله جلّ وعلا، قد كلف رسول الله ﷺ بإبلاغه ذلك، يعني أنه بلغنا أن الله في السماء وأن هذا مما يجب الإيمان به وقبوله، فإن رُد فيكون الراد على خطر ولم يؤمن الإيمان الواجب عليه.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[2] حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

المؤلف حسن هذا الحديث، ولكن تحسينه لغيره، وإلا فهو من

(١) البخاري (٤٣٥١)، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب ﷺ وخالد بن الوليد ﷺ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٨/ ٦٥)؛ ومسلم (١٠٦٤)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة (٧/ ١٣١).

(٢) رواه ابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (١/ ٢٤٢)؛ والبيهقي في «الأسماء والصفات» =

رواية الوليد بن أبي ثور وهو متفق على أنه ضعيف، غير أنه لم ينفرد به بل جاء من طرق أخرى، فهو كما قال المؤلف: حديث حسن، وقد نوقش في هذا في مناظرته في العقيدة فبين أن الحديث ليس ضعيفاً بل هو من أقسام الصحيح الذي يجب أن يُقبل، مع أن الأدلة الأخرى تغني عنه، فهو ليس مؤسساً في هذا بل هو له شواهد كثيرة، مع أن الحديث نفسه جاء من طرق وليس فيها الوليد بن أبي ثور ولا عبد الرحمٰن بن عميرة، مع أنه ـ على قول البخاري ـ لم يسمع من الأحنف بن قيس، يقول المؤلف: إن البخاري نفى علمه بذلك ولم ينف علم الناس، وقد علم الناس أنه سمع ذلك فهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وعلى كل حال؛ الحديث هو حديث العباس بن عبد المطلب، وقد أطال ابن القيم على هذا الحديث الكلام في تهذيب السنن، ولفظه أنه قال: كنا مع النبي ﷺ بالبطحاء وهو في مكة، فنظر إلى السحاب، فقال: **«ما تسمون هذا؟»** فقلنا: مزن. فقال: **«والمزن»** فقلنا: والمزن. فقال: **«والعنان»** فقلنا: والعنان. فقال: **«أتدرون ما بين السماء والأرض؟»** فقلنا: لا ندري. فقال: **«إما إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين أو ثلاث وسبعين سنة، وبين السماء الدنيا والثانية كذلك»** حتى عد سبع سماوات **«ثم فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك البحر ثمانية أوعال ما بين أظلافها وركبها كما بين سماء إلى سماء، والعرش فوقها والله فوق العرش لا يخفى عليه من أعمالكم شيء»** وقد كتب الكوثري مقالات عدة سماها «خرافة الأوعال» وطعن في هذا طعناً بالغاً على عادته في رد الحق الذي

= (٨٥١)، وأبو الشيخ في كتاب «العظمة» (٢٧٩)، واللالكائي في «شرح السنّة» (٦٥٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١). وقال الذهبي في «مختصر العلو»: إسناده صحيح. وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٨٦/١) للطبراني في «الكبير» وقال: رجاله رجال الصحيح.

لا يتفق مع عقيدة الجهمية، ولكن هذا لا يضير إلا نفسه، غير أن بعض الناس اغترّ بذلك، ففي هذا إثبات العرش، وسبق أن العرش في اللغة: هو كرسي الملك الذي يجلس عليه، والعرش الذي ذكر في هذا الحديث هو العرش الذي ذكر في القرآن في آيات متعددة، وقد وصفه الله جلّ وعلا مرة بأنه عظيم ومرة بأنه كريم ومرة بأنه مجيد مما يدل على عظمته وسعته وعلوه، وأخبر الرسول ﷺ أنه سقف المخلوقات وأنه ليس فوقه مخلوق، فهو أعظم المخلوقات على الإطلاق، والله فوقه جلّ وعلا، غير أن هذا الحديث تصريح بالغ ما يحتمل أي تأويل، ولهذا ذكره المؤلف كالتفسير، مع أنه يحتج به ما دام أنه من أقسام الصحيح، وهذا يدل على أن علو الله جلّ وعلا لا ينافي معيته وقربه لخلقه، فهو فوق عرشه ويعلم ما نحن عليه، فهو كقوله جلّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فعلوه لا ينافي قربه ومعيته، لهذا جمع بين العلو والقرب والمعية في الكتاب والسنة، فهو على ظاهره، هو العلي الأعلى فوق عرشه حق على حقيقته، وهو معنا على حقيقته، ولا يحتاج إلى أننا نتأول تأويلات أهل البدع، فهو معنا ونحن في قبضته وباطلاعه وبسمعه وبصره وعلمه، وهذه هي حقيقة المعية؛ لأنه سبق أن المعية هي المصاحبة، وهذا ظاهر لا إشكال فيه.

وَقَوْلُهُ ﷺ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

هذا حديث معاوية السلمي لما قال: إنه كانت له جارية ترعى غنماً في الجوانية، ويقول: فاطلعت عليها يوماً فوجدت الذئب قد أخذ

(١) قصة الجارية رواها مسلم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

شاة منها، وأنا من بني آدم آسف كما يأسفون ـ يعني أغضب ـ فصككتها، أي: أنه صكها في وجهها ثم ندم، يقول: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فعظم ذلك قلت: ألا أعتقها؟ قال: **«بلى ائتني بها»** فجاء بها، فسألها: **«أين الله؟»** قالت: في السماء، وفي رواية أنها رفعت إصبعها وقالت: في السماء، فقال: **«من أنا؟»** فقالت: أنت رسول الله، وفي رواية قالت: أنت رسول من في السماء، فقال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**[(1)].

ففي هذا دليل على أن من أقر بأن ربه في السماء وأن محمداً رسول الله ﷺ أنه يحكم بإيمانه، كما أن فيه الدليل على جواز السؤال عن الله بأين، والجهمية وأضرابهم يسمون أهل السنة الأينية، يعني أنهم يقرون السؤال بأين عن الله جلّ وعلا، مع أن قدوتهم رسول الله ﷺ ولا يأتون بشيء من عند أنفسهم، فالواقع أن هؤلاء يزرون على رسول الله ﷺ ولكن لا يتجاسرون، ويقولون: إنا نرد قول رسول الله، وإنما يصمون أهل السنة بذلك لأمرين:

الأول: أنهم جهال، ولا يعلمون أن الرسول ﷺ قال ذلك، فيتصورون أن هذا من عند أهل السنة، وهؤلاء لا يعذرون بجهلهم لأن الأمر في هذا واضح.

الثاني: من يعرفون أن الرسول ﷺ قال ذلك، ولكن يجعلون رد الحديث بأن أهل السنة هم الذين قالوا ذلك، وهم الذين اعتقدوا هذا وأثبتوا حكم هذا؛ لأن المفروض أن هذه ألفاظ ظواهر جاءت عن آحاد فلا يجوز أن يثبت بها مثل هذا، فيعتقدون أنهم بهذا أهل اليقين

(1) مسلم (٨٣٦)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته؛ وأبو داود (٧٩٥)، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة، من حديث معاوية السلمي ﷺ.

وأهل العلم، وهؤلاء أهل الحشو ـ يعني أهل السنة الذين يتسرعون في وصف الله جلّ وعلا بما يتعالى ويتقدس عنه ـ هكذا زعموا، والواقع أن هذا لا يجدي شيئاً، وأن هذا رد لأحاديث رسول الله ﷺ بل هو رد لرسالته صلوات الله وسلامه عليه، فقد بلغنا ذلك، وفيه دليل على أن الواجب على العبد ليس النظر ولا القصد للنظر ولا الشك ـ كما يقوله هؤلاء المبتدعة ـ وإنما الواجب على العبد الإيمان بالله، وكون الله في السماء أمر فطري فطر الله عليه خلقه، فهذه الجارية تخبر عن الفطرة التي فطرت عليها، فإنها لم تتلق ذلك عن المعلم أو غيره، وهذه الفطرة التي فطر الله جلّ وعلا عليها خلقه قد جاءت مؤيدة بالوحي والإجماع، أما الوحي فهو كثير جداً، وأما الإجماع فقد ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ مستدلاً بالإجماع ـ قول زينب زوج النبي ﷺ: زوجكن أهاليكن وزوجني الله جلّ وعلا من فوق سبع سماوات[1]. فكانت رضي الله عنها تذكر هذه القضية أمام أزواج النبي ﷺ وغيرهن ولا أحد يعترض على ذلك مما يدل على أن هذا إجماع، وذكر قول أبي ذر قبل أن يسلم حينما قال لأخيه: اذهب إلى هذا الذي يأتيه خبر السماء وائتني بخبره. فهذا من الإجماع أيضاً وأن الناس مجمعون على هذا، ويكفي العبد في هذا ما ثبت في كتاب الله جلّ وعلا وما قاله الرسول ﷺ، غير أن هذه الأدلة المتضافرة، تعطي اليقين الذي لا ريب فيه.

قوله: **«اعتقها فإنها مؤمنة»** استدل به من يقول إن الإيمان شرط في العتق.

---

(١) البخاري (٦٨٧٠)، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

إِثْبَاتُ مَعِيَّةِ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ وَأَنَّهَا لَا تُنَافِي عُلُوَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ

وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1] حَدِيثٌ حَسَنٌ،

هذه المعية هي المعية الخاصة التي تفيد الإحسان للعبد المحسن، أما بالنسبة للخطاب ومن يخاطب عموماً فهي المعية العامة، وذلك أن الإنسان إذا علم أن الله معه في عبادته وأن الله يراقبه فإنه يؤدي العمل بأحسن صورة خاشعاً مراقباً لربه جلّ وعلا فيصبح في مقام الإحسان؛ لأنه يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن كذلك فإنه يعلم علماً يقينياً بأن الله يشاهده ويسمع كلامه ويعلم ما في قلبه، فيخلص لله جلّ وعلا العمل ويأتي بما يستطيع من إحسان العمل، وفي هذا دليل على أن أعمال القلوب تتفاوت وأنها من الإيمان لأنه قال: «**أفضل الإيمان**» فبهذا يستدل على أن هناك ما هو دون الإيمان، فهناك مسائل أقل من هذه وهي من الإيمان.

قوله: «**حيثما كنت**» يدل على المعية العامة، ولكن بالنسبة للعمل وأدائه للعامل نفسه فإنه يكون من المحسنين كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨] يعني أن هذا الحديث يدل على قسمين من المعية: العامة والخاصة، وسبق أن معنى المعية المصاحبة، وهي تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، حتى بالنسبة للشخص من الناس فإن المعية تختلف بالنسبة إليه، فإذا قال: معي علمي. ليس كقوله: معي مالي. وإذا قال: معي صاحبي. ليس كقوله: معي زوجتي. فهي تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، والله جلّ وعلا مع خلقه بعلمه

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٧٩٦)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

واطلاعه وسمعه وبصره وإحاطته وهو على عرشه جلّ وعلا، وسبق أن علو الله جلّ وعلا من صفات الذات، يعني أنه ملازم ولا يمكن أن يكون شيئاً فوقه تعالى الله وتقدس.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ»

هذا الحديث ليس فيه إشكال، فهو على ظاهره، إذا قام المصلي فالله قبل وجهه وهو على عرشه، بل المخلوق الصغير بالنسبة لله جلّ وعلا يكون قبل وجه المصلي وإن كان فوقه مثل السماء، فإن السماء فوق الأرض إذا قام المصلي واتجه إلى أي جهة تكون السماء قبل وجهه، والله أعظم وأكبر.

فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ»

هذا نهي مؤكد مما يدل على التحريم؛ لأن في هذا إساءة أدب مع الله جلّ وعلا، وليس هذا خاصاً في الصلاة ـ كما قال العلماء ـ بل هو عام، فينبغي ألا يبصق قبل وجهه، غير أن استقبال الرب جلّ وعلا لعبده وهو في الصلاة، إذا قام العبد في الصلاة فإن الله يستقبله بوجهه، فإذا التفت أعرض عنه، فيقول الله جلّ وعلا: أإلى غيري؟ أو أإلى خير مني؟ فيعرض عنه[1]، ومعلوم أن الالتفات يكون بالقلب ويكون بالجسم، والتفات القلب أعظم من التفات البدن، فهذا مما يدعو المصلي أن يفكر في صلاته لأنه يناجي ربه وأن الله يستقبله، وأيُّ شرف أعظم من كون رب العالمين يستقبل عبده ويستمع قوله وينظر إليه، فيجب أن يتأدب مع الله جلّ وعلا وأن يستحضر ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ،

فيكون جلّ وعلا قبل وجهه وهو على عرشه تعالى وتقدس.

وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

يعني إذا أراد أن يبصق أن يكون ذلك عن يساره أو تحت قدمه، إذا لم يكن في المسجد.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»[2] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

هنا فسر الرسول ﷺ الأول بأنه الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهذا لا يمكن أن يكون إلا لله جلّ وعلا؛ لأن من كان أولاً لا يكون آخراً من المخلوقات ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً، وبهذا تعلم أن أوصاف الله جلّ وعلا ليست كصفات المخلوقين، فالله جلّ وعلا يختص بأوصافه ومعنى كونه أول أي قبل كل شيء، يعني بلا

(١) البخاري (٤٠٦)، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد؛ ومسلم (٥٤٧)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بصاق المصلي بين يديه وعن يمينه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

بداية، وليس لأوليته مبدأ كما أنه جلّ وعلا ليس لآخريته منتهى، والظاهر فوق كل شيء هو ظهور ذاتي وظهور قهري وظهور قدري في نفوس عباده وعارفيه، وهذه المعاني الثلاثة تثبت لاسمه الظاهر واسمه العلي جلّ وعلا وكذلك لوصفه بالفوق، وهذا التوسل الذي توسل به الرسول ﷺ قد جمع معاني عظيمة فقوله: «**اللهم رب السماوات السبع**» فالرب: هو المالك المتصرف يقوم على المربوب بما يحتاجه، فهو جلّ وعلا الذي فطر السماوات وأوجدها، وهو الذي يقوم عليها بما يصلحها ومن فيها وكذلك الأرض، والسماوات وصفها بأنها سبع وعطف عليها الأرض مفردة، وهذا يوافق ما جاء في كتاب الله كثيراً، فإن الله جلّ وعلا يذكر عدد السماوات، أما الأرض فيذكرها مفردة، ولكن جاء في آية من كتاب الله لما قال جلّ وعلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فجاء التمثيل هنا يعني سبع، والصواب في هذا أن السبع هي سبع طبقات غير مفتوقة كالسماوات، يعني ليس بينها مسافة ولا فضاء، وثبت في الصحيح: «**أن من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أراضين**»[1]، أما تفسير السبع بأنها القارات أو الأقاليم، أو كما اختاره القرطبي في تفسيره أنها كالسماوات فيها مسافة وفيها فضاء، فهذا غير صحيح، وما يذكر عن هذا فهو مأخوذ عن علماء أهل الكتاب الذين لا يستندون في ذلك إلى وحي.

قوله: «**وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**» وصف العرش بأنه عظيم، ومعلوم أن العرش هو الكرسي الذي خلقه الله جلّ وعلا واستوى عليه، واستواء الله جلّ وعلا لحكمة الله أعلم بها، وإلا فهو الغني عن العرش

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢)، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض؛ ومسلم (١٦١٠)، كتاب المساقاة والمزارعة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، من حديث سعيد بن زيد ﷺ.

وعن غيره، وقد جاءت النصوص بأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، فتوسل إلى ربه جلّ وعلا بعظم مخلوقاته التي تدل على عظمته جلّ وعلا.

قوله: «رَبَّنَا» يعني الذي يملكنا ويتصرف فينا والذي يقوم بما يصلحنا ويهب لنا ذلك فضلاً منه وتكرماً وليس استحقاقاً عليه جلّ وعلا، فهو توسل بنعمه.

قوله: «وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ» هذا تعميم بعد التخصيص، فهو الرب وحده وكل ما سواه مربوب مقهور له يتصرف فيه كيف يشاء، وهذا أيضاً من التوسل العام.

قوله: «فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى» فعاد مرة أخرى إلى التوسل بأوصافه بأفعاله التي يفعلها جلّ وعلا، والفلق: هو الشق. والحب: هو الذي ينبت، إذا ألقي في الأرض فلقه الله جلّ وعلا للنبات ولا أحد يقدر على ذلك غيره جلّ وعلا، والنوى معروف مثل نوى التمر الذي يفلقه لينبت، وهذا توسل له بنعمه التي يرزق بها العباد من عاقل ومن حيوان.

قوله: «مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» وهذا توسل بأرزاق الأرواح والقلوب، بإنزال الكتب التي فيها معرفته وهدايته وفيها حياة القلوب وهي الحياة الحقيقية، والتوراة والإنجيل والقرآن من أعظم الكتب التي أنزلها الله جلّ وعلا، فحصل فيها من الهدى ما الله جلّ وعلا به عليم.

قوله: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي» العياذ: هو الالتجاء والاحتماء بالمعاذ، فهو يحتمي بربه جلّ وعلا من شر نفسه، وهذا يدل على أن الإنسان لا يملك شيئاً، فنفسه التي بين جنبيه ما يستطيع أن يحتمي منها إلا بحماية الله جلّ وعلا له.

قوله: «وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ» المقصود بالدابة: كل ما يدب على الأرض، وفي اصطلاح الفقهاء أن الدابة هي ذوات الأربع، وهو ليس مقصوداً هنا، بل المقصود هنا كل ما يدب من ذات القوائم أو

الزواحف أو غيرها التي يعرفها الإنسان أو التي لا يعرفها.

قوله: «**أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**» يعني أنت تتصرف فيها وتدبرها كيف تشاء، فمعنى ذلك أن كل شيء بيد الله جلّ وعلا يتصرف فيه، والناصية هي الشعر الذي في مقدمة الرأس.

قوله: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**» الله جلّ وعلا ليس لأوليته مبدأ، ولكن عقل الإنسان محدود لا يستطيع أن يتصور ما لله جلّ وعلا، والأول قابله الآخر، فهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء، وليس معنى قوله: «**فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**» أن هذه البعدية لها منتهى، فليس لآخريته جلّ وعلا منتهى.

قوله: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**» الفوق أوضح من الظهور؛ لأنه يمكن أن يقال الظاهر بالقهر وبالقوة، ولكن هذا فسره بأن الظهور حقيقي على ظاهره، وأنه الفوق أي: العلو، وهو فوق خلقه جلّ وعلا، وسبق مراراً أن هذا الوصف لله جلّ وعلا وصف ذاتي، وسبق الفرق بين الأوصاف الذاتية والأوصاف الفعلية، فالوصف الذاتي هو الذي يكون ملازماً لذات الرب جلّ وعلا لا يفارقها بحال من الأحوال، أما الفعلي فهو الذي يتعلق بمشيئته جلّ وعلا، إذا شاء أن يفعله فعله وإذا شاء ألا يفعل ذلك لم يفعله، فظهوره وفوقيته من لوازم ذاته جلّ وعلا، ومعنى ذلك أنه فوق دائماً، وهذا لا ينافي وصفه بأنه يجيء يوم القيامة يفصل بين خلقه وهم في الأرض ويخاطبهم ويكلم كل واحد منهم، كما أنه لا ينافي قول الرسول ﷺ: «**إن ربنا جلّ وعلا ينزل إذا بقي ثلث الليل إلى سماء الدنيا فينادي من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له.. إلخ**»[1] وكذلك في يوم عرفة وغيرها، فإنه ينزل

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، (٦٣٢١)، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل، و(٧٤٩٤)، كتاب التوحيد، =

ويأتي إلى الأرض وهو فوق كل شيء جلّ وعلا وهو فوق عرشه.

قوله: «وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» هذا يدل على معيته وقربه وأنه قريب من خلقه لا يحول بينه وبينهم شيء، وأنه معهم معية حقيقية على ظاهرها، بمعنى أنهم في قبضته ويسمع أصواتهم ويرى تقلباتهم ولا يخفى عليه شيء، وهذا هو حقيقة المعية في اللغة العربية.

قوله: «اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ» يدل على عظم شأن الدين، ولكن المقصود هنا الدين عامة، دين الله جلّ وعلا ودين عباده.

قوله: «وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ» يقصد به الفقر العام وأعظمه فقر العلم والمعرفة والهداية، هذا هو الفقر العظيم، أما فقر المال فهو أمر سهل بالنسبة لهذا، وهو داخل في ذلك.

وَقَوْلِهِ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً قَرِيباً، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(1) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هذا القرب قرب خاص، قرب للذاكر والداعي كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والقرب الذي جاء في كتاب الله جلّ وعلا لم يأتِ أقساماً وإنما جاء قسماً واحداً، وإن كان بعض العلماء جعله قسمين، غير أن القسم الثاني غير واضح، فكثير من العلماء يقول: إنه قرب

= باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ومسلم (٧٥٨)، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في صلاة التراويح، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(1) البخاري (٢٩٩٢)، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ومسلم (٢٧٠٤)، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

الملائكة كقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝﴾ [ق: ١٦] جاء هنا بلفظ الجمع مما يدل على أن هذا قد يراد به الملائكة التي تسجل أقواله وتحفظه ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٧، ١٨] وكذلك قوله جلّ وعلا في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٨٥] قد يقصد بهذا الملائكة وقد يقصد به الرب جلّ وعلا، ولكن إذا احتمل ذلك فإنه لا يكون قاطعاً، وهذا قاله كثير من السلف.

قوله: «فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً» هذا تنزيه لله جلّ وعلا وإثبات للسمع والبصر والقرب، أنه يسمع ما يقوله عباده وما يتقرب به إليه، فهو لا يخفى عليه شيء من الأصوات وإن دقت وخفيت كما أنه لا يخفى على بصره شيء من المبصرات وإن خفيت في ظلمات الأرض أو في البحار أو في غيرها، والأصم: هو الذي لا يسمع.

قوله: «وَلَا غَائِباً» يعني أن الذي تدعونه حاضر معكم يسمعكم ويبصركم.

قوله: «إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً» صرح بالمفهوم السابق بقوله: «سَمِيعاً بَصِيراً» وبهذا يُرد على الذين ينكرون صفات الله جلّ وعلا؛ لأن في هذا إثبات الصفات صراحة، كما أنه واضح في أن الأصل في هذا الصفات التي تؤخذ منها الأسماء.

قوله: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» هذا القرب وهو على عرشه جلّ وعلا، فهو أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته إذا كان راكباً على الراحلة وهو على عرشه جلّ وعلا، فقربه ومعيته لا ينافيان علوه واستواءه على عرشه جلّ وعلا، وهذا هو المقصود، الجمع بين القرب وبين العلو.

الرؤية كشأن الناس عند رؤية الشيء الخفي مثل الهلال وما أشبه ذلك، والمعنى مثل السابق رؤية واضحة جلية لا خفاء فيها.

قوله: «**فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا**» كأن هذا تعليل لحصول الرؤية، ولهذا قال بعض العلماء: إن معنى ذلك أن الصلاة هي أفضل أعمال المؤمنين، وصلاة الفجر والعصر هي أفضل الصلوات، فناسب أن يكون جزاء هاتين الصلاتين رؤية الله جلّ وعلا في الجنة، ومعنى ذلك أنه يفهم من هذا أن المؤمنين منهم من يرى ربه بكرة وعشياً، أي: في وقت صلاة الفجر وصلاة العصر، وهذا الذي يشير إليه قوله السابق، وفي هذا إثبات لرؤية الله جلّ وعلا حقيقة، وأن تأويل المتكلمين هنا باطل، وقد علم أن هذا الحديث جاء متواتراً عن رسول الله ﷺ وكان متكرراً، فقد رواه من الصحابة ما يقارب من ثمانية عشر صحابياً أو أكثر ومنهم الخلفاء الراشدون، ومرة سألوه ومرات هو بدأهم بهذا، فمرة سألوه: هل نرى ربنا؟ فأجابهم. وأخرى هو ابتدأهم بذلك، فالمقصود أن هذا تكرر.

وبعض أهل البدع يقول: يرونه بمعنى يعلمون، فهذا لا يصح لا وضعاً في اللغة ولا معنى، فتفسيرهم بذلك من التحريف، فهو واضح ليس فيه خفاء، فالذي يحاول أن يفسره بخلاف ظاهره معناه أنه يريد أن يحرفه وهو من المحرفين، وقد علم أن أهل البدع ينكرون رؤية الله جلّ وعلا كالجهمية والمعتزلة وكذلك متأخروا الرافضة والخوارج، وحقيقة قول الأشاعرة يوافقه؛ لأن الأشاعرة يثبتون رؤية غير معقولة وغير واقعة، فهم يقولون: إن المؤمنين يرون ربهم، فقيل لهم: كيف يرون ربهم وأنتم تقولون إن الله ليس فوق وأنه في كل مكان؟.

قالوا: يرونه لا من جهة. وانتهى بهم الأمر إلى أن قالوا: إن الرؤية إزاحة الحجب التي تكون على قلب الإنسان وغيره فيراه، وهذا

يمكن أن يكون حتى في الدنيا، ومعنى ذلك أنهم يفسرون الرؤيا بزيادة العلم، وهذه ليست الرؤيا التي أثبتها رسول الله ﷺ وأثبتها الله جلّ وعلا في كتابه كما قال جلّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛

يعني أن الأحاديث مثل الآيات التي سبقت، يجب الإيمان بما دلت عليه وقبول ذلك، فمن لم يؤمن بهذا فإنه يكون مختل الإيمان إن لم يكن زائل الإيمان، لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] والحرج يعني أنهم لا يكون في نفوسهم ضيق، أي: لا يقول ليت أن هذا الحكم لم يكن كذلك، فيجب ألا يكون هناك تبرم لهذا الحكم أو يكون فيه ضائقة من النفس بحيث يتمنى أن يكون غيره، فإنه إذا حصل له ذلك فمعنى ذلك أنه ليس بمؤمن، فلا يكفي التحكيم وحده، لا بد أن يكون مع التحكيم التسليم، والتسليم أن لا يكون هناك اعتراض أو مراوغة أو طلب لحكم آخر، ولا حرج في النفس من التضايق، فلا بد من هذه الشروط حتى يحصل الإيمان، وهذا في كل ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم ما جاء به هو معرفة الله جلّ وعلا بأوصافه وأسمائه التي يتعرف بها إلى عباده جلّ وعلا.

فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ

الناجية من الأهواء ومن الضلالات، والناجية من عذاب الله

جلّ وعلا، والناجية من الانحراف أولاً فلم تنحرف يميناً ولا شمالاً بل اتبعت رسول الله ﷺ وصارت تتطلب مرضاته بكل ما تستطيع.

أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

هذا بدل، فالفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة، وأهل السنة هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ والصحابة، والجماعة يعني أنهم يجتمعون على الحق ولا يكون بينهم تفرق وتشتت كما سبق، فوصفهم الاجتماع على الحق والتحاب عليه، وليس معنى ذلك أنه ضروري أن تكون آراؤهم وأنظارهم كلها نظر رجل واحد، ولكنهم متفقون على الأصول في اتباع الرسول ﷺ ولا خلاف بينهم، أما في المفاهيم فقد تختلف، وهذا لا يكون داعياً إلى التفرق بل هو من وسائل الاجتماع.

يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ

يعني بكل ما جاء به الرسول ﷺ إذا صح سنده عن رسول الله ﷺ سواء كان فرداً ـ وهو غالب ما جاء عن النبي ﷺ ـ يعني آحاداً أو كان متواتراً، وإن كان التواتر قليلاً خصوصاً التواتر اللفظي فهو قليل جداً، أما التواتر المعنوي فهو كثير، وغالب ما جاء عن رسول الله ﷺ من أخبار الآحاد، وأخبار الآحاد جُل الشريعة عليها، يعني قضايا رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وتقريراته، فكان يرسل رسولاً واحداً إلى أمة وإلى ملوك وغيرهم ويكتب كتاباً ويرسل به رسولاً، وقد قرر العلماء في كتبهم أن خبر الواحد يجب قبوله، وأن من صفة أهل البدع رد خبر الواحد، أما أهل السنة فهم متفقون على ذلك، وقد أطال ابن القيم رحمه الله في ذلك في الصواعق وسمى ذلك طاغوتاً لأنه رد خبر الواحد، يعني أن أهل البدع يقولون: أخبار الآحاد لا تقبل،

فردوها وأبطلوا بذلك أموراً كثيرة، ثم لا فرق بين الأمور العملية والأمور العلمية، وإنما الذي فرق بين هذا وهذا هم أهل البدع من المعتزلة، فقالوا: الأمور الاعتقادية العلمية لا يقبل فيها إلا البراهين القطعية، أما الأمور العملية فإنه لا بأس بقبول أخبار الآحاد، وهذا تفريق مبتدع جاء به هؤلاء، أما أهل السنة فلا يفرقون بين هذا وهذا.

كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛

يعني لا فرق بين ما جاء عن رسول الله ﷺ من أحاديثه وبين ما قاله الله جلّ وعلا في كتابه، والأحاديث في هذا واضحة، وتحذير الرسول ﷺ من التفرقة بين هذا وهذا معلوم.

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ،

سبق تفسير التحريف والتعطيل، وأن التحريف: هو جعل الكلام على حرف أي: على جانب، بأن يتطلب له الأمور البعيدة التي لا يدل عليه بظاهره، كفعل أهل البدع من أهل التأويل، وسبق أنه يقصد بهذا التأويل، والتعطيل: هو نفي حقائقها يعني ما ثبت فيها من الأوصاف بنفيه عن الله جلّ وعلا، فأهل السنة لا يحرفون الكلم ولا يعطلون المعنى، بل يثبتون المعاني لله جلّ وعلا التي هو الصفات والأسماء.

وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ،

التكييف سبق أن معناه: طلب الكيفية للصفة، وأن هذا لا مطمع فيه ولا يمكن الحصول عليه؛ لأنه يتوقف على المشاهدة وهذا ممتنع،

وليس معنى ذلك نفي الكيفية مطلقاً؛ لأن الكيفية: هي الحالة التي يكون عليها المتصف، وإنما المقصود نفي علم الخلق بها، فإنهم لا يعلمون ذلك، والتمثيل: هو التشبيه، وسبق أنه ليس هناك طائفة معينة مثل المرجئة والمعتزلة والأشاعرة يقال لهم المشبهة، فلا تجد طائفة لها كتب ولها أئمة ولها علماء يُسمون المشبهة، إلا ربما على مذهب بعض أهل البدع، فإنهم يسمون الحنابلة مشبهة، وبعضهم يسمي أهل الحديث مشبهة، الذين يثبتون الصفات على ظاهرها، ومعروف أن هؤلاء منحرفون، وأن هذا عكس الواقع، فأهل الحديث والحنابلة أتباع أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة ليسوا مشبهة، وإنما يصفون الله جلّ وعلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، وسبق أن التشبيه أمر نسبي، ولكن الذي عرف من المشبهة مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وكلاهما رافضي محترق، فهؤلاء عرف عنهم التشبيه، وذكره الناس عنهم، ولكن هذا ضلال واضح وبين، أما الكرامية فإن كثيراً من الناس رماهم بالتشبيه، والواقع أن هذا لم يثبت، وإنما أخذ ذلك من أعدائهم وخصوصهم وغيرهم كذلك، والواجب في مثل هذا التثبت.

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ،

المقصود بفرق الأمة هنا هم الفرق الإسلامية، الأمة تنقسم على قسمين:

الأول: أمة محمد ﷺ الذين استجابوا له.

الثاني: أمة الدعوة ويدخل فيها الخلق كلهم؛ لأنه ﷺ رسول إلى الناس كافة.

المقصود هنا الأول، فأهل السنة وسط في الفرق التي اختلفت

وهي مسلمة، قد جاء الحديث في ذكر هذه الفرق، وأن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، يكون واحدة منها ناجية والباقي في النار، فاثنتان وسبعون منها في النار وواحدة هي الناجية[1]، وجاء في رواية للترمذي أنه سئل رسول الله ﷺ عنها فقال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[2] فهم وسط في هذه الفرق، وهذا يدلنا على أن هذه الفرق ليست كافرة بل هي مسلمة ولكنهم من أهل الوعيد.

كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَمِ

الوسط هنا المقصود به إما الخيار أو العدل أو أن يكون خياراً عدلاً، فأهل السنة الفرقة الناجية هم خيار هذه الفرق وهم كذلك أعدلها وأعلمها بالحق، كما أن هذه الأمة وسط في الأمم السابقة وقد وصفها الله بذلك، فمثلاً اليهود أهل جفاء والنصارى أهل غلو وهذه الأمة وسط ليس عندهم جفاء ولا غلو، يعني في العموم، وإذا حصل منهم شيء من ذلك فمن جفا فقد تشبه باليهود ومن غلا فقد تشبه بالنصارى، ولهذا منّ الله جلّ وعلا علينا بأن شرع لنا أن ندعوه في كل ركعة أن يجعلنا وسطاً بين هذه الفرق بأن نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ فالمغضوب عليهم الذين علموا وعصوا بعد العلم والمعرفة، وهذا وصف اليهود، والضالون هم الجهال الذين تخبطوا بالجهل والضلال وهذا وصف النصارى، وأهل السنة والجماعة وسط في الأمة، والوسط هو الذي يكون بين الجافي والغالي، فلا جفاء ولا غلو، والعصمة في هذا كتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله ﷺ، ولهذا صاروا وسطاً بسبب ذلك.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

مَكَانَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ فِرَقِ الأُمَّةِ

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

وسط بين من عطل الله جلّ وعلا عن أسمائه وصفاته وبين من جعل أوصاف الله وصفاته كصفات المخلوقين ـ تعالى الله وتقدس ـ والجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي الضال الذي دعا إلى ضلاله وصارت هذه الفرقة تنتسب إليه، فقد أخذ عن الجهم بشر بن غياث المريسي[1] ودافع وكافح وحاج، وأخذ عن بشر أحمد بن أبي دؤاد وانتشر المذهب بأن صارت حكومة المأمون تساعدهم وتعاضدهم لما تبنى هذا وصار يلزم الناس بذلك، وصار فيه الشر العريض وانتشر هذا المذهب وألزم كثيراً من الناس عامتهم وخاصتهم في أمور صعبة في الواقع، حتى صار الأسير إذا أسر يُمتحن، إن وجد على مذهب الجهمية وإلا تُرك في أيدي الكفار، يقال له: ما تقول في القرآن؟ فإن قال: إنه مخلوق، وليس لله جلّ وعلا صفات حقيقية فدوه وإلا تركوه، وكذلك من كان يُعطى من بيت المال يُمتحن، فإن وجد أنه على خلاف ذلك مُنع، فهي في الواقع محنة عظيمة، ولكن الله رفعها وأبطل هذا المذهب

(١) هو (بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي) مبتدع، ضال، من كبار المعتزلة، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء وإليه نسبتها، وهو من أهل بغداد، ينسب إلى (درب المريس)، وكان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم، وكفره بعضهم، ولم يُدرك جهم بن صفوان، بل تلقف مقالاته من أتباعه، وقيل: كان أبوه يهودياً. من مؤلفاته: «كتاب الإرجاء»، و«كتاب كفر المشبهة»، تصدى له الإمام عثمان بن سعيد الدارمي فصنّف مجلداً في الرد عليه وسماه «رد الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد»، وقد طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٥٨هـ بمصر، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، هذا وقد هلك بشر سنة ٢١٨هـ.
«تاريخ بغداد» (٥٦/٧)، «سير أعلام النبلاء» (١٩٩/١٠)، «الأعلام» (٥٥/٢).

الخبيث، فالمعتزلة تبنوا هذا المذهب فصاروا جهمية معتزلة.

والجهم بن صفوان يُقال: إنه أخذ مذهبه عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري أحد قواد بني أمية بعدما استشار علماء التابعين فأشاروا عليه بقتله، ذكر البخاري رحمه الله بروايته في كتابه خلق أفعال العباد بسنده أن خالد بن عبد الله القسري جاء به مقيداً يوم الأضحى، وكانت العادة التي جرت للخلفاء والأمراء أنهم لا يولون القيادة إلا خطيباً يتولى الخطابة والصلاة، فخطب الناس في عيد الأضحى والجعد مقيد تحت المنبر، وفي نهاية خطبته قال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عن قول الجعد بن درهم علواً كبيراً. ثم نزل وذبحه بيده، وشكر الناس له هذا الصنيع وأثنوا عليه؛ لأن هذا ممن حاول أن يفسد دين المسلمين، ثم يقال: إن الجعد بن درهم أخذ هذا المذهب عن أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان أخذه عن طالوت بن الأعصم أو خاله الأعصم وهذا أخذه عن يهود صنعاء أو غيرهم، وطالوت هو الساحر الذي يُقال: إنه هو الذي سحر النبي ﷺ. فإذاً السلسلة هي سلسلة يهودية، كما أن اليهود هم الذين أفسدوا دين النصارى، حاولوا أن يفسدوا هذا الدين، والمقصود أن الجهمية تنسب إلى هذا الرجل، الجهم بن صفوان وقد قتله سلم بن أحوز في حروبه في خراسان، وقد طلب منه بعدما أمسكه وتُوسط إليه أن يتركه فقال: والله لو كان هذا الرجل في بطني لشققته وقتلته؛ لأنني سمعت كلاماً منه لا يمكن أن أتركه، فقتله. أما المشبهة فأمرهم واضح، والجهمية هم المعطلة الذين عطلوا الله جلّ وعلا عن أسمائه وصفاته، فهم منتسبون إلى الجهم بن صفوان[1] ثم تكاثروا

---

(١) هو الجهم بن صفوان السمرقندي، أُسُّ الضلالة، رأس الجهمية وإليه ينتسبون؛ لأنه

وصارت المعتزلة جهمية، ولهذا صار أهل السنة يطلقون الجهمية على من نفى كلام الله ونفى رؤيته وعلوه، فمن اجتمع ذلك عنده سموه جهمياً.

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

أفعال الله معناها أن الله جلّ وعلا يفعل كل شيء، وهو الخالق وحده وما سواه مخلوق، والأفعال غير المفعول، فهناك أفعال الله ومفعولات الله، ويجب أن يُفرق بينها، فمثلاً قول الله جلّ وعلا: ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فالسماوات مخلوقة وهي مفعول له، أما الخلق فهو فعله، وكذلك الإنسان مخلوق لله جلّ وعلا بجملته، ولكن له قدرة خلقها الله وله اختيار خلقه الله، فالإنسان له أفعال يفعلها باختياره وقدرته، ولكن الله جلّ وعلا هو الذي خلق له الاختيار وهو الذي أقدره على هذا الفعل، فهو خالق له ولأفعاله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] ولا تنافي بين فعل العبد حقيقة وبين كون الله جلّ وعلا

---

* أول من نشر المذهب. من أشهر بدعه: نفي الأسماء والصفات، وقوله بالإرجاء، والجبر، وفناء الجنة والنار، وخلق القرآن.

ويقول: إن الله تعالى في الأمكنة كلها!! قال الذهبي عنه: الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئاً لكنه زرع شراً عظيماً، قتله سَلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ.

ومن أخباره الشنيعة ما رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص١٤) قال: حدثني أبو جعفر، حدثني يحيى بن أيوب قال: سمعت أبا نعيم البلخي قال: كان رجل من أهل مرو صديقاً للجهم، ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لِمَ جفوته..؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأتُ يوماً آية كذا وكذا ـ نسيها يحيى ـ فقال: ما كان أظرف محمداً فاحتملتُها، ثم قرأ سورة (طه) فلمّا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾ قال: أمّا والله لو وجدتُ سبيلاً إلى حكّها لحككتها من المصحف فاحتملتُها، ثم قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هذا؟ ذكر قصة في موضع فلم يتمّها، ثم ذكرها هاهنا فلم يتمّها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجله فوثبتُ عليه.

وقد صححها الألباني في «مختصر العلو».

خلقه، والجبرية يجعلون جميع ما يصدر من حركات وغيرها فعل الله حقيقة، وينفون عن الإنسان أن يكون فاعلاً حقيقة، إذا نسب إليه الفعل فهو على سبيل المجاز مثل قولك: طلعت الشمس أو مات فلان أو أمطرت السماء أو هبت الريح، هذا كله ليس على الاختيار، فالإنسان لا يموت اختياراً، وكذلك هبوب الريح ومطر السماء وغيرها، فعند الجبرية أن الأفعال كلها لله، والإنسان كالشجرة التي تكون في مهب الريح تحركها الريح من أي جهة جاءت وليس لها اختيار، فمعنى ذلك عندهم أن أفعال الإنسان كنبض العروق ليس له فيه اختيار وأن الفعل حقيقة لله، سموا جبرية لأنهم يقولون الإنسان مجبور على ما يفعله، فالفعل ليس فعله، ولهذا يقول أحدهم:

أصبحت منفعلاً لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

وهذا من أخبث المذاهب ولا يمكن أن يقوم على هذا المذهب لا دين ولا دنيا، فهو مذهب فاسد، ولهذا لو عومل أصحاب هذا المذهب بمقتضى مذهبهم فلا يمكن أن يرضوا. فلو أحرقت ماله أو كسرت سيارته وقلت: إنه ليس فعلي وأنا مجبر على هذا، فما هو موقفه؟.

لا يمكن أن يرضى بذلك، فلا بد أن يؤاخذ الإنسان بأفعاله وإلا لا تستقيم الأحوال، المقصود أن هؤلاء يجعلون الإنسان ليس له اختيار وليس له فعل حقيقي، أما القدرية فبعكسهم، فهم يقولون: إن الإنسان هو الحر الذي يخلق أفعاله إن شاء آمن باختياره وإن شاء كفر وليس لله دخل في ذلك، بل يتمادى بهم الأمر إلى أن يأتي الخلاف بينهم، هل يقدر الله على أن يخلق مثل أفعال العباد؟.

ويزعمون بهذا أنهم هم أهل العدل؛ لأنهم يقولون: لو قلنا إن الله جلّ وعلا قدر على الكافر وشاءه قدراً ثم عذبه على ذلك لكان هذا ظلماً، فنحن ننزه الله جلّ وعلا عن الظلم فنحن أهل التوحيد وأهل

العدل، أما أنتم أهل الجور وأهل الظلم وتصفون الله جلّ وعلا بالظلم، فأهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فأخذوا الحق الذي مع الطائفتين وردوا الباطل، وإن كان لكل فريق حجج سنأتي إن شاء الله وإبطالها عندما يأتي ذكر القدر ووجوب الإيمان به، ولكن المقصود هنا أن أهل السنة وسط بين الجبرية وبين القدرية، الجبرية الذين يرون أن الإنسان لا فعل له حقيقة ولا اختيار له، والقدرية الذين يرون أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله وأن الله جلّ وعلا لا يخلق أفعال الإنسان وإنما يخلقها الإنسان، فأهل السنة يقولون: إن العبد له قدرة حقيقية وله فعل حقيقي، ولكن قدرته مخلوقة لله جلّ وعلا وفعله لا يقع إلا بعد مشيئة الله جلّ وعلا، ولكنه يفعل فعلاً حقيقياً إن صلى فهو المصلي حقيقة كما أنه هو الآكِلُ حقيقة وهو الشارب حقيقة، وإن كفر فهو الكافر كذلك وإن آمن فهو المؤمن، ويستحق على عمله الثواب وعلى تركه الواجب وفعله المحرم العقاب، وهو فعله يستحق عليه الثواب إذا كان خيراً ويستحق عليه العقاب إذا كان شراً لأنه فعل ذلك باختياره، وهذا كله يقع بمشيئة الله جلّ وعلا وإرادته، فقدرة الإنسان حقيقية واختياره حقيقي ولكنه تابع لقدرة الله جلّ وعلا ولمشيئته كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأهل السنة يجمعون بين الأدلة وبين شرع الله وأمره وقدره بخلاف هؤلاء، فإن القدرية لم تتسع صدورهم وأنظارهم وأفكارهم بأن يجمعوا بين شرع الله وقدره، وهو الخالق لكل شيء وأنه جلّ وعلا يعاقب المذنب بذنبه ويثيب الطائع، والطاعة التي تحصل لا تحصل إلا بفضله وكرمه، وسيأتي مزيد لهذا وإيضاح.

وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ الْمُرْجِئَةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

المرجئة هم الذين أرجئوا الأعمال عن الإيمان، يعني أخروها، وجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يتساوى به الناس، فهو إيمان القلب أي:

تصديقه، أما أعمال الجوارح فليست داخلة في الإيمان فنفوها وأرجؤوها وأبعدوها، وهؤلاء من أصول الفرق، فإن عبد الله بن المبارك لما سئل هو وغيره عن الفرق قال: أصولها أربعة: المرجئة، والقدرية، والرافضة الشيعة، والخوارج. فقيل له: الجهمية؟ قال: الجهمية ليسوا من المسلمين.

فجعل أصول الفرق أربعة، والمرجئة ينقسمون إلى قسمين:

الأول: مرجئة محضة خالصة، وهؤلاء هم الذين أخرجوا الأعمال كلها عن مسمى الإيمان وجعلوا الناس في الإيمان سواء، يعني أفسق الناس عندهم إيمانه مثل إيمان الصدّيق بل مثل إيمان الملائكة والرسل، وهذا شيء في الواقع لا يقره عقل ولا نظر ولا دليل، ومعنى ذلك أنه إذا حصل الإيمان في القلب فهو يكفيه عن الأعمال، ومعلوم أن الله جلّ وعلا أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فالهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح ولم تأتِ آية من آيات الله في الإيمان إلا ويُقرن معها العمل الصالح إلا نادراً أو قد لا يأتي، ولكن إذا أطلق الإيمان دخلت فيه الأعمال.

الثاني: الذين أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان فقط، وكذلك قالوا إن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، وإنكارهم هذا هو بحجة أن الإيمان إذا نقص ذهب بعضه، فإنه لا يتبعض عندهم وهذا باطل، فالإيمان يكون ضعيفاً ويكون ناقصاً ويكون زائداً، ولكن عند هذا القسم من المرجئة أن الإنسان معرض للعقاب إذا ترك الأعمال وهو داخل في الوعيد، ولهذا قيل: إن الخلاف في ذلك لفظي، ما دام أنهم يجعلون العاصي عاصياً ومستوجباً للعقاب إن لم يعف الله جلّ وعلا عنه، فهذا قول أهل السنة، إلا أنهم أخرجوا العمل من مسمى الإيمان، وهؤلاء منهم من يقول: إن العصاة مهما فعلوا لا يدخل أحد منهم النار، ما دام الإيمان معهم فهم مؤمنون؛ لأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، وهذا خلاف النصوص الكثيرة المتواترة، بل

النصوص القطعية في كتاب الله جلّ وعلا كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠] ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وفي آيات كثيرة جداً، والرسول ﷺ ذكر في أحاديثه المتواترة أن كثيراً من أهل التوحيد يدخلون النار، فمنهم من يُخرج بالشفاعة ومنهم من يبقى ما شاء الله، ومعلوم أن هؤلاء معهم إيمان؛ لأن الرسول ﷺ كان يأمر منادياً ينادي في المجامع أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

أما الوعيدية فهم المعتزلة والخوارج، المعتزلة هم القدرية الذين نفوا القدر، وقد يطلق لفظ القدرية على الجبرية، ولكن الغالب إطلاقه على الذين نفوا القدر، فالقدرية من المعتزلة عندهم أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولكنه لم يدخل في الكفر فصار في منزلة بين المنزلتين، وهذه من خصائصهم التي يوافقهم عليها أحد من الطوائف، وجعلوها أصلاً من أصولهم، وهذا في الاسم، أما في الحكم فهم يتفقون مع الخوارج؛ لأن الخوارج عندهم مرتكب الكبيرة إذا مات بلا توبة فإنه يكون خالداً في النار، وهم يتفقون معهم في حكم الآخرة أنه خالد في النار، ولكن في الدنيا يختلفون في الاسم، يعني لا يعطونه اسم الكافر ولا يعطونه اسم المؤمن أو المسلم، فيسلبون منه اسم الإيمان والإسلام ولا يعطونه اسم الكافر، بل يجعلونه بمنزلة بين الكفر والإيمان، أما الخوارج فإنهم يخرجونه من الإيمان ويدخلونه في الكفر ويطبقون عليه بأنه حلال الدم والمال وفي الآخرة هو في النار، وأهل السنة وسط بين هذين الطرفين المتناقضين، يعني بين المرجئة الذين يجعلون مرتكب الكبيرة من كاملي الإيمان، وبين الوعيدية الذين يجعلونه إما كافراً وإما خارجاً عن الإيمان، وليس له حكم الكفر في الدنيا ولكنه في الآخرة يكون خالداً في النار، فهم يقولون: إن مرتكب الكبيرة إذا مات مصراً على كبيرته فإن معه

أصل الإيمان ولكنه إيمان ناقص، ويسمونه مؤمناً ناقص الإيمان أو يسمونه مؤمناً فاسقاً، ويقولون: هو في الحكم تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه بلا عقاب كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فجعل كل ما دون الشرك من الذنوب تحت مشيئته جلّ وعلا، وإن شاء عاقبه وعذّبه على جرمه ومعصيته، ولكن مآله إلى الجنة بعدما يأخذ جزاءه، كما تواترت بذلك النصوص عن رسول الله ﷺ، فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، لا يعطون العاصي اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه الإيمان والإسلام، وهذا في الأسماء، وفي الأحكام كذلك يخالفونهم، فالمرجئة أعطوه الإيمان الكامل وحكموا له بأنه من أهل الإيمان حتى في الآخرة، وإن كان بعضهم يقول: لا ندري، يجوز أن الناس كلهم يعذبون في الآخرة ويجوز أن يكون كلهم منعمون لا ينالهم عذاب، فهؤلاء يسمون الواقفة منهم.

وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ[1] وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

المقصود بأسماء الدين الإيمان والإسلام ونحو ذلك، فالجهمية عندهم أن الإيمان هو معرفة القلب، فمن عرف الله فهو مؤمن، ولا يلزم أن يكون هناك أعمال قلب وجوارح، وكذلك معهم الأشعري وأتباعه،

(١) (الحرورية): نسبة إلى حروراء، قرية بالكوفة، والحرورية لقب للخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد التحكيم، فتجمعوا في هذه القرية، فسُمّوا بها. وهم يكفّرون أصحاب الكبائر، ويحكمون عليهم بالخلود في النار، ويقولون بخلق القرآن، ونفي الرؤية، ونفي عذاب القبر، وتكفير عثمان وعلي رضي الله عنهما، وغير ذلك من الأقوال الفاسدة، ويتميزون عن غيرهم بالصدق، والعبادة، والشجاعة.
«مقالات الإسلاميين» (١/١٦٧)، «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم (٤/١٨٨)، «الخوارج» للدكتور عبد القادر البحراوي.

والكرامية[1] يقولون: هو مجرد التصديق، ولهذا يقول بعض العلماء: إن أبعد الناس عن معرفة الله هم الجهمية، فمعنى ذلك أنهم كفار باصطلاحهم، أما المعتزلة والخوارج فهم يقولون: الإيمان هو فعل الواجبات وترك المحرمات كلها مع التصديق، ولكنهم يخرجون الإنسان بالكبيرة من الإيمان، وفي الآخرة يجعلونه خالداً في النار، أما أهل السنة فيقولون الإيمان مركب من أمور ثلاثة:

الأول: تصديق القلب.

الثاني: قول اللسان.

الثالث: عمل الجوارح.

وإذا فقد الإنسان واحدة من هذه الثلاثة فليس بمؤمن، فلا بد أن يكون مصدقاً في قلبه وأن يكون شاهداً بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإن صدق بقلبه ولم يشهد فهو ليس بمؤمن، وإن صدق وشهد ولم يصلِ ولم يزكِ ولم يعمل فليس بمؤمن، فلا بد أن يكون المؤمن مصدقاً في قلبه وقائلاً بلسانه وعاملاً بجوارحه، والناس في هذا يتفاوتون، فمنهم من يكون تصديقه كاملاً، ومنهم من يكون تصديقه ناقصاً، ومنهم من لو شُكِّكَ لشك وخرج من الإيمان، ومنهم من يكون عمله جاء به على الوجه المطلوب، ومنهم من نقص منه، فالإيمان يزيد

---

(١) (الكرّامية): بفتح الكاف وتشديد الراء، هم أتباع محمد بن كرّام السجستاني الوضّاع المبتدع، الهالك ببيت المقدس سنة ٢٥٥هـ، تُعد فرقته إحدى فِرَق المرجئة، وقولهم في الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد، حيث جعلوا الإيمان قول اللسان، وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيلزمهم أن يكون المنافق مؤمناً فخالفوا الجماعة في الاسم ووافقوهم في الحكم على المنافق بالخلود في النار، وهم يثبتون لله تعالى الصفات الخبرية إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه، ويثبتون القدر والوعد والوعيد كأهل السنة، ومن شنيع أقوالهم استحلالهم وضع الأحاديث.

«مقالات الإسلاميين» (١/ ٢٢٣)، «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم (٤/ ٢٠٤)، «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٤٤)، «الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٢١٥).

في الأصل ويزيد في العمل، يعني الطاعة تزيده والمعصية تنقصه، وكذلك التصديق يتفاوت بين الناس، فمنهم من يكون تصديقه غير قابل للشك والتردد، ومنهم من يكون تصديقه مثل الجبل راسياً في قلبه ولا يمكن أن يتزعزع، ومنهم من يكون تصديقه ضعيفاً، فهم متفاوتون في أصل التصديق وفي نتائجه ومقتضياته الذي هو العمل، هذا هو قول أهل السنة، فهو وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ.

فبعض الرافضة يكفرون الصحابة ويضللونهم ويجعلونهم ارتدوا وجحدوا ما جاء به الرسول وكتموا الوصية، وأن الرسول ﷺ أوصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويجعلونه هو وأولاده معصومون فقط وليس أهل البيت كلهم، أي: علي والحسن والحسين ثم أولادهم كذلك إلى الثاني عشر من أئمتهم الذي هو إمام موهوم معدوم لا ينتفع به حي ولا ميت لأنه لا وجود له وهو الإمام المنتظر عندهم، والواقع أن هؤلاء من أكذب الناس ومن أعظم الناس تصديقاً للكذب ومن أجهل الناس، وجهلهم ليس لهم كلهم وإنما لأتباع الشياطين منهم، علماؤهم هم الذين ضللوهم وهم يعرفون أنهم على ضلال، ولكن مصلحتهم اقتضت ذلك، حيث جعلوا هذه الطوائف خانعة لهم تكدح وتدر عليهم بالأموال؛ لأن عندهم ومن أصول دينهم أن للفقهاء خمس جميع المرابح، فأوجبوا عليهم أشياء عجيبة وجاءوا بأمور كثيرة جداً، والمقصود هنا الصحابة، فكلامهم في الصحابة من أخبث الكلام ولا سيما أفضل الصحابة وهم الخلفاء الثلاثة، ولهذا يلعنونهم ويجعلونهم طواغيت ويقولون: إن أبا بكر وعمر لم يدخل الإسلام في قلوبهما من الأصل، وأن أبا بكر رضي الله عنه ذهب مع الرسول ودخل الغار وهو منافق، ويجعلون عمر رضي الله عنه هو طاغوت قريش مع أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك عثمان رضي الله عنه أيضاً، فهم يجعلون

الصحابة إما كفاراً منافقين، وإما ظلمة وفسقة ظلموا وتعدوا على أهل البيت، ويجعلون علي بن أبي طالب ﷺ وأولاده معصومون لا يقعون في خطأ، وأقوالهم مثل أقوال الرسول ﷺ تماماً، ويقولون لا ولاء إلا ببراء، يعني لا يمكن أن تتولى علي بن أبي طالب ﷺ إلا إذا تبرأت من الصحابة.

أما الخوارج فيكفرون علي بن أبي طالب ﷺ لأنه حكّم الرجال، وكذلك عثمان ومعاوية ومن وقع منهم القتال، مع أن عثمان ما وقع منه قتال ولكن قالوا: إنه قصر وإنه ارتكب بعض الذنوب فكفروهم، فهذا تناقض بين هاتين الطائفتين، فالرافضة تجعل علي بن أبي طالب ﷺ وأولاده معصومون، والخوارج يجعلونه كافراً خارجاً من الدين، وأهل السنة وسط بين هذين الباطلين، فهم يتولون الصحابة ويرون حقهم ويعظمون أنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، وأنهم لا يوازيهم أحد في عملهم الذي عملوه مع رسول الله ﷺ من الجهاد والدعوة، وأن الله اختارهم له، وأنهم أكمل الأمة إيماناً وعلماً ونظراً وعقلاً، وكذلك علي ﷺ وأهل البيت يتولونهم ويرون حقهم ولكن لا يعصمونهم من الخطأ، ويقولون: إن الخطأ يقع منهم ولكنهم معذورون في ذلك، إما أن يكون خطؤهم عن اجتهاد فيكونون مأجورين فيه، أو يكون الذي نسب إليهم غير صحيح، والذي خطأهم هو المخطئ، فيكون لهم في ذلك أجران ولا يخلو الأمر من ذلك، أما ما يذكر من الوقائع الكثيرة؛ فإن أهل السنة لا ينظرون في هذا لأنها ما بين مزيد فيه ومنقوص منه ومحرف؛ لأن أكثر من يروي التاريخ الذي وقع في قتال الصحابة من الرافضة الشيعة، فهم قد يتعمدون الكذب في ذلك، فالذي ثبت أنهم فعلوه لا يخلو الأمر إما أن يكونوا مجتهدين ولهم أجر الاجتهاد وإن أخطئوا، أو يكونوا مصيبين.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِاسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ وَعُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَمَعِيَّتِهِ لِخَلْقِهِ وَأَنَّهُ لَا تَنَافِيَ بَيْنَهُمَا

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا،

هذا تبيين وتصريح منه في هذه المسألة بعد أن ذكر أدلتها سابقاً في الآيات وفي الأحاديث، وجعل من الإيمان بالله الإيمان بعلوه وأنه عالٍ على خلقه، وأنه مستوٍ على عرشه، ويقول: إن هذا تواتر عن رسوله ﷺ وكذلك جاء في كتاب الله جلّ وعلا في آيات كثيرة جداً، وأجمع عليه سلف هذه الأمة، فمن خالف ذلك فإيمانه إما أن يكون معدوماً لا وجود له، أو يكون إيمانه ناقصاً وهو على خطر أن يزول، وأنه لا تناقض ولا تضاد بين علوه على خلقه واستوائه على عرشه وبين كونه جلّ وعلا معنا وأنه قريب منا، فهو عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا.

يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛

يعني أن معيته لا تخالف علوه، وسبق أن المعية معناها المصاحبة، وهي تكون بسماع الكلام وبالاطلاع بالبصر وبكونهم في قبضته، فهي على ظاهره، يعني علوه حق على ظاهره، ولا يجوز أن يؤول، ومعيته حق على ظاهرها حقيقة، فهو معنا حقيقة، وهو على عرشه حقيقة جلّ وعلا، وليس في ذلك مجاز ولا يحتاج إلى تأويلات، أما تفسير المعية بالعلم؛ أي: من يقول: إنه جلّ وعلا معنا بعلمه، فليس هذا

المقصود من قول السلف، وإنما المقصود بذلك نفي الحلول والاختلاط ـ تعالى الله وتقدس ـ وإلا فهم يعلمون أنه معنا بعلمه، وأن علمه في كل مكان، ولا يخلو من علمه مكان، وأن الخلق كلهم في قبضته، ولا يخفى عليه شيء من كلامهم ولا تصرفاتهم، فهو محيط بهم؛ كما سيأتي أنه جلّ وعلا وسع كرسيه السماوات والأرض، وأن عرشه أعظم من المخلوقات كلها، وأن السماوات كلها يقبضها بيده فتكون صغيرة حقيرة، يعني إذا أشكل على الإنسان مثلاً كون الله جلّ وعلا على عرشه عالٍ على خلقه وأنه معنا في الحقيقة، يستحضر كبره وعظمته جلّ وعلا، وأنه أحاط بكل شيء، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لو جمع مخلوقاته كلها بيده لصارت حقيرة صغيرة بالنسبة إليه ـ تعالى الله وتقدس ـ قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

كما جمع بين ذلك في قوله:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٤]

فأخبر أنه مستوٍ على عرشه، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه معنا إينما كنا، فهذا كله حق على ظاهره ولا يجوز أن يؤول أو أن يقال: إن هذا مجاز، وأن المقصود به أنه جلّ وعلا يعلم الأشياء على ما هي عليه فقط، ولا يجوز أن يقال: إنه مداخل خلقه أو حال فيهم ـ تعالى الله وتقدس ـ فهو بائن من خلقه فوق عرشه وهو معنا حقيقة، وبهذا يُعلم معنى الحديث الذي رواه الترمذي ـ إن صح الحديث ـ وهو أن النبي ﷺ مر به سحابة فقال: **«ما تقولون لهذه؟»** قالوا: السحاب. ذكر الحديث إلى أن قال: **«والله**

جلّ وعلا فوق عرشه يعلم ما أنتم عاملون، ولو أن أحدكم أدلى بدلو لوقع على علم الله»[1] قال الترمذي هذا حديث غريب، وقال بعض العلماء: وقع على علم الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قول الترمذي: وقع على علم الله. فهو يقع في قبضة الله، لو أدلى دلوه لوقع ذلك في قبضة الله جلّ وعلا، وليس على علمه، فعلمه لا يخلو منه مكان جلّ وعلا، ولم يرد أنه يقع على ذات الله كلها ـ تعالى الله وتقدس ـ فهو جلّ وعلا محيط بكل شيء، بقبضته، فليس بين إحاطته ومعيته وعلوه منافاة، وسبق أن العلو أقسام ثلاثة وكلها ثابت لله جلّ وعلا:

الأول: علو الذات.

الثاني: وعلو القدر.

الثالث: علو القهر.

وأن المعية تنقسم إلى قسمين:

الأول: معية عامة بالنسبة للخلق كلهم، كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وهذا لا يخرج منه أحد من الخلق، وهو مع جميع خلقه باطلاعه وسماع كلامهم وكونهم في قبضته ولا يخرجون عن ذلك.

الثاني: معية خاصة وهو أنه مع المحسنين ومع المتقين ومع رسله وأوليائه، دون أعدائه ودون الكافرين ودون غيرهم. ولو كانت المعية معناها الاختلاط ما صح أن تنقسم إلى قسمين، مما يدل على أن المعية لا تقتضي اختلاطاً ولا امتزاجاً ولا مداخلة ـ تعالى الله وتقدس ـ.

(١) الترمذي (٣٢٩٨)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ.

يعني لا تدل عليه اللغة، ولا تدل عليه الأدلة بل الأدلة تدل على خلافها.

بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ

فمثل هنا بمخلوق في السماء يعني في العلو، وقوله: «آية» يعني آية من آيات الله تدل عليه، يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧] فهو من الأدلة التي جعلها الله جلّ وعلا دالة على وجوده وعلى كونه واجب على العباد أن يعبدوه، وسبق أن الآيات قسمان:

الأول: آيات مخلوقة.

الثاني: آيات قولية.

وقد ذكر الرسول ﷺ مثالاً يقرب للسامعين نحو هذا الذي ذكره المؤلف، ففي حديث أبي رزين العقيلي أنه لما قال الرسول ﷺ: «**إنكم ترون ربكم**»[1] قال: كيف نراه ونحن جميع وهو واحد. فقال: أخبرك بآية ذلك، هذا القمر مخلوق من مخلوقات الله الصغيرة وكل واحد منكم يراه مخلياً به، يعني خالياً به، فالله أكبر، وليس في هذا تمثيل أو تشبيه تعالى الله وتقدس، وإنما فيه تقريب للأفهام بذكر الشيء الذي يرى واضحاً ليس فيه إشكال، وهذا الذي ذكره المؤلف في المعية، يقول: إن

(١) سبق تخريجه.

القمر فوق ولا يناله الناس، ومع ذلك صح في اللغة أن العرب يقولون: سرنا مع القمر. ويكون كلاماً صحيحاً ولا إشكال فيه، وسبق أن المعية تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، والمقصود في هذا كله أن كلام الله لا تناقض فيه ولا اختلاف، فهو عالٍ على عرشه وهو معنا حقيقة على ظاهره.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ،

هذا من معاني المعية.

مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ،

المهيمن: هو الشاهد، أو هو المحيط.

مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

يعني أن المعية من معاني الربوبية، وكونه جلّ وعلا يتصرف في كل شيء، ويملك كل شيء، ومهيمن على كل شيء، ومطلع على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء؛ لأنه جلّ وعلا هو الرب المالك المتصرف.

وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ـ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا ـ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ،

يعني إلى تأويل، بأن نقول إن المعية معية علمه أو ملائكته أو أنه معنا يعني يعلم ما نحن عليه أو ما أشبه ذلك، لا نحتاج إلى ذلك لأن هذا على ظاهره وواضح لا إشكال فيه.

وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، مِثْلَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهذا كما في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أن تكون السماء ظرفاً له تعالى الله وتقدس، أن يكون شيء من السماء فوقه، أو شيء يقله أو يظله، فإنه إذا ظن ظانٌّ ذلك فإننا نقول هذا ظنٌّ كاذب، وإن اعتقدت ذلك فأنت ضال، وإن نقلته عن أحد من أهل الإيمان والمعرفة فأنت كاذب، فلم يقل أحد بهذا ولا يعتقده أحد من أهل الحق.

أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ.

يعني أنه يكون في داخلها تعالى الله وتقدس، أو أنه يكون محتاجاً إلى إقلالها بحيث أنه إذا قيل له مستوٍ على عرشه يظن أن هذا كاستواء المخلوق على مخلوق بحيث لو سقط المستوى عليه لسقط المستوي تعالى الله وتقدس، فإن الله غني بذاته عن العرش وعن غيره، وهو الذي يمسك العرش وحملة العرش وغيرهم بقدرته، وإنما خلق العرش من غير حاجة لحكمة يعلمها جلّ وعلا ويخبر بها من يشاء من خلقه، وكذلك حملة العرش، فهو الغني بذاته عن كل شيء.

وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ،

الكرسي مخلوق تحت العرش؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: «الكرسي موضع القدمين»[1] أي: قدمي الرحمٰن جلّ وعلا،

(١) سبق تخريجه.

وبعضهم يقول: الكرسي كالمرقاة التي تكون تحت الكرسي، ومع ذلك يذكر الله جلّ وعلا أنه وسع السماوات والأرض مع سعة السماوات، فالأرض صغيرة ليست بشيء بالنسبة للسماء، ولكن السماء واسعة جداً، وكل سماء محيطة بالتي تحتها، وأعظمها السماء السابعة والعرش، والكرسي أعظم من السماوات كلها، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ يعني أنه أوسع من السماوات والأرض، أما العرش فلا يعلم قدره إلا الله جلّ وعلا، وهو جلّ وعلا أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، وإذا شاء قبض كل مخلوقاته بيده، فصارت صغيرة حقيرة، فلا يجوز أن يقال: إنه مختلط مع خلقه أو أنه داخل في مخلوقاته.

وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا،

لأنه هو القائم عليها المقيم لها، ولو زالت لا يمسكها أحد غيره لا ملائكة ولا غيرهم.

وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

إذا أمرها قامت؛ كما قال جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] يعني ليس الأمر إليكم، فإذا قال للشيء كن كان كما أراد جلّ وعلا، فيجب أن يُعلم قدر الله جلّ وعلا وأن يُجعل كلامه في موضعه ولا يحرف، وأن يُتبع فيما وصف نفسه.

وُجُوبُ الإِيمانِ بِقُرْبِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ لا يُنَافِي عُلُوَّهُ وَفَوْقِيَّتَهُ

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[١].

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

يعني أن القرب مثل المعية لا يخالف العلو، والقرب جاء خاصاً وليس عاماً، فالقرب نوعان:

الأول: قرب من داعيه؛ كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الثاني: قرب من عابده؛ كما قال ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**[٢].

وقربه وهو على عرشه جلّ وعلا، والقرب في كتاب الله جاء مفرداً وجاء مجموعاً، فالمفرد كما في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وأما المجموع كقوله جلّ وعلا: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥] وقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٤٨٢)، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، وأبو داود (٧٤١)، كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الوَرِيدِ ﴿١٦﴾ [ق: ١٦] مع أن هذه الآية قيل فيها إن المقصود الملائكة، وإذا قال المعظم الكبير الذي له عبيد يطيعونه ويمتثلون أمره وفعلوا على مقتضى أمره وقال: إنا فعلنا كذا. فإن هذا صحيح واقع، فإذا كان المقصود في الآية الملائكة وأن المقصود قرب الله جلّ وعلا في هذا فهو أيضاً خاص، والمقصود أن قربه جلّ وعلا لا يخالف علوه كما أن معيته لا تخالف علوه، فهو قريب في علوه كما أنه عليّ في دنوه جلّ وعلا.

وُجُوبُ الإِيمَانِ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ،

مسألة الكلام من المسائل الكبيرة التي كثر خلاف الناس فيها، ولكن الله جلّ وعلا هدى الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة إلى الحق في هذا، فاتبعوا ما دل عليه كتاب الله وما دلت عليه نصوص رسول الله ﷺ، والكلام في الجملة من صفة الكمال، فالذي يتكلم أكمل من الذي لا يتكلم، وقد عاب الله جلّ وعلا على المشركين أنهم يعبدون ما لا يرجع إليهم قولاً. يعني لا يتكلم، والله جلّ وعلا كلم رسله وكلم من الملائكة والبشر ما شاء منهم ويكلم ما يشاء من خلقه، وكلامه جلّ وعلا يكون صفة ذات وصفة فعل، فمن حيث الجنس والنوع فهو قائم بذاته جلّ وعلا، ولهذا قالوا: إنه قديم النوع والجنس، متجدد الآحاد والأفراد، فآحاده وأفراده تتعلق بمشيئته، وهذا معنى كونه صفة فعل، يعني أنه إذا شاء أن يتكلم تكلم، وقد اختلف أهل الكلام في مسمى الكلام، فذكر هنا أنه اسم للفظ والمعنى، وليس اسماً للفظ دون المعنى ولا للمعنى دون اللفظ كما هي أقوال أهل البدع، جعل هذا داخلاً بالإيمان بالله وكتبه، وأن القرآن من جنس الكتب التي أنزلها الله جلّ وعلا على رسوله، والإيمان بذلك واجب، بل هو أحد أركان

الإيمان التي لا يصح للإنسان إيمان إلا به، أن يؤمن بكتب الله، ومعنى كتب الله أن يؤمن بأن الله تكلم بها وأنزلها على عباده هداية لمن يشاء، وأن الهدى والنور فيها، وأنها كلامه حقيقة لا كلام غيره، وليست لا عبارة ولا حكاية عن كلام الله جلّ وعلا كما هي أقوال أهل البدع.

مُنَزَّلٌ،

يعني أنزله الله؛ لأن الله جلّ وعلا في العلو، عالٍ على خلقه، فهو قاله ونزل منه قال جلّ وعلا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] فالقول من الله، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ [الزمر: ١].

غَيْرُ مَخْلُوقٍ،

أي: ليس كما تقوله الجهمية والمعتزلة، وكذلك الأشاعرة في الواقع يوافقونهم في هذا، وإن كانوا في ظاهر الأمر يخالفونهم ـ لأنهم كما سيأتي ـ جعلوا كلام الله شيئاً غير معقول، فليس هو كلام الله الذي وصفوه به، بل هو كلام مُتخيل لا حقيقة له.

مِنْهُ بَدَأَ،

البدوء: هو الظهور والابتداء؛ يعني ابتداؤه من الله قولاً منه، فمنه ظهر وخرج وبدأ، ولهذا جاء في الآثار إن التقرب إلى الله جلّ وعلا بما خرج منه هو أفضل العمل، يعني بالقرآن.

وَإِلَيْهِ يَعُودُ،

إليه يعود صفةً، أي: أنه صفته جلّ وعلا، أو أنه يعود إليه في آخر الزمان، من أشراط الساعة أن يرفع إلى السماء، يُسرى عليه في ليلة

واحدة، فيرفع من المصاحف ومن صدور الرجال فلا يبقى منه آية واحدة، وكله صحيح سواء قلنا: يعود إليه صفةً أو أنه ـ كما جاء بالخبر ـ يعود إليه بأنه يرفع إليه إذا تُرِك العمل به فإنه يرفع، وهذا قاله السلف لما قال أهل البدع: إن الله تكلم بالقرآن، يعني خلق القرآن في مخلوق، فبدأ من ذلك المخلوق كما قالوا في قوله جلّ وعلا في قصة موسى ﷺ: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] فقالوا: ﴿مِنَ﴾ للابتداء، أي: أنه بدأ من الشجرة، فالله خلقه في الشجرة وموسى سمعه من الشجرة، ومعنى ذلك أن الشجرة هي التي تقول: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] على قولهم، فقال أهل السنة: من الله بدأ لا من شجرة ولا من غيرها، يعني ظهر منه، فهو المتكلم به حقيقةً وإليه يعود.

وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً.

يعني أن الله تكلم به وأسمعه جبريل بحرف وصوت، وهذا هو الذي يُسمع، فسمعه جبريل ﷺ فتلقاه من الله ثم جاء به إلى محمد ﷺ وأسمعه إياه وتلقاه منه وحفظه عنه، ومحمد ﷺ أسمعه أصحابه، والتابعون أخذوه عن أصحابه، ثم تناقلته الأمة جيلاً عن جيل؛ لأن الله جلّ وعلا تكفل بحفظه، فلم ينقل بأفراد بل نقلته الأمة حفظاً وكتابةً، فالصحابة لما رأوا أن القتل يكثر في حفظة القرآن بادروا إلى كتابته وتسجيله، وليس معنى ذلك أنهم اعتمدوا على الكتابة، بل على الكتابة والحفظ معاً، واعتمدوا على العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل في آخر حياة النبي ﷺ؛ لأنه كان يُعارضه القرآن في رمضان كل سنة من أوله إلى آخره، وفي السنة التي مات فيها رسول الله ﷺ عارضه فيها مرتين حتى ما يكون فيه أية إشكال، فالصحابة أخذوه عن هذه العرضة الأخيرة، وليس معنى ذلك أن الذين حفظوه اثنين أو ثلاثة أو أربعة، بل هو محفوظ ومثبت في الكتب، كلما نزل شيء أمر الرسول ﷺ أن يكتب مع حفظه.

ثم بعد ذلك تكاثر نقله حتى أصبح لا مطمع للعدو في تغييره أو تبديل شيء منه، حيث أنه لو قدر أن أحداً يجرؤ على تغيير حرف منه لرد عليه الصبيان في الكتاتيب والحلق فضلاً عن أهل القرآن من القراء والعلماء وغيرهم، يعني أن الأمة تحفظ القرآن، وليس معنى ذلك أنه حتى العوام؛ لأن الواجب على الإنسان في القرآن أن يحفظ الواجب العيني وهي الفاتحة، ولكن الواجب الكفائي ألا يفوت منه حرف واحد، فالله تكلم به حقيقة بصوت نفسه وأسمعه جبريل حقيقة، وهذا لا يخالف قول الرسول ﷺ: «إنه كل شيء كتب في اللوح المحفوظ»[1] ومن ذلك القرآن، كذلك قول ابن عباس: «إنه نزل جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة»[2] لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] ويقول: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ١ ـ ٣] فهذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، ومن العلماء من يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] يعني ابتداء نزوله في هذه الليلة، وليس كذلك، فالذي جاء عن ابن عباس أنه نزل جملة واحدة ثم نزل منجماً، وهو لا يخالف كون الله جلّ وعلا يتكلم به حسب الوقائع والمناسبات، فإن القرآن في اللوح المحفوظ والله تكلم به، فحينما جاءت المرأة التي تجادل في زوجها قال الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] وكذلك لما جاء ابن أم مكتوم للنبي ﷺ وقد كان عنده بعض الكبراء الذين يرجو إسلامهم، فكره

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٣).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» بلفظ: «فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ﷺ ينزله على النبي ﷺ، ويرتله ترتيلاً»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وذكره الطبراني في «المعجم الكبير».

ذلك الرسول ﷺ فأنزل الله جلّ وعلا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾ [عبس: ١ ـ ٣] وهكذا، يعني أنه نزل لأسباب ووقائع، وقد يتكلم الله جلّ وعلا به في هذه الأسباب وأسمعه جبريل، فجاء به في هذه الأسباب، وهذا قد سبق أنه كتب في اللوح المحفوظ ونزل في ليلة واحدة وتكلم الله جلّ وعلا به على حسب هذه الوقائع، أما ما ذكره السيوطي في كتابه «الإتقان» أن جبريل نقله من اللوح المحفوظ، هذا من البدع، بل من الضلال البين الواضح الذي لا يجوز أن يقال، بل سمعه جبريل ﷺ من الله جلّ وعلا ولم ينقله من اللوح المحفوظ.

وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامَ غَيْرِهِ.

قوله: **«كلام الله حقيقة»** يريد أن يرد بهذا على الكلابية الذين يقولون إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ليس هو كلام الله وإنما هو حكاية عن كلام الله، وكذلك الأشاعرة الذين يقولون: هذا القرآن العربي ليس هو كلام الله وإنما هو كلام مخلوق، تكلم به جبريل وعبر به عن كلام الله، فهو عبارة عن كلام الله، وهكذا الكتب الأخرى التي نزلت من السماء يجعلونها عبارة أو حكاية، الأشعرية قالوا: الحكاية تماثل المحكي وتكون مثله، فنقول: إنها عبارة وليست حكاية، وكله ضلال سواء قالوا حكاية أو عبارة، ومعنى ذلك أن الكلابية يقولون: إن الله تكلم في الأزل كلاماً مستمراً ولم يعد يتكلم، وكذلك الأشعرية يقولون الكلام: هو المعنى الذي يكون في النفس، هذا هو الكلام الحقيقي، أما الكلام الذي يكون بحرف وصوت فهذا لا يجوز أن نصف الله جلّ وعلا به؛ لأن هذا معناه أنه شيء يحدث بعد أن لم يكن، والحوادث لا يجوز أن تكون حالة في الله جلّ وعلا؛ لأن من كان محلاً

للحوادث فهو حادث ـ كما هي القاعدة ـ والأصل عندهم في الاستدلال على المخلوقات لما فيها من الحوادث والأعراض، وبهذا نفوا صفات الله جلّ وعلا الفعلية وسموها حلول الحوادث، فقالوا: لا يجوز أن يكون محلاً للحوادث ولا أن تحل به الحوادث ومن ذلك الكلام، فنفوه وجعلوه معنى قائماً بالنفس، والعجب أنهم يقولون: هو معنى واحد يقوم بالنفس وعُبر عنه بهذا القرآن، وقد يُعبر عنه بالتوراة أو بالإنجيل، فكيف يكون معنى واحداً؟.

ولهذا نقول: إن هذا شيء لا يعقل، وألزمهم أهل السنة بأن معنى القرآن هو معنى التوراة ومعنى الإنجيل ولا فرق؛ لأنهم قالوا: هو معنى واحد، بل ألزموهم بأن تكون آية الكرسي هي آية الدين و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] هي: ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد: ١١١] لأنهم قالوا: هو معنى واحد وله صفات أربع هي الأمر والنهي والخبر والاستخبار الذي هو الاستفهام، هذه صفاته وإلا فهو معنى واحد، ومن إلزامات أهل السنة لهم أنهم قالوا: الكلام الذي سمعه موسى، هل هو كل كلام الله؟ فإذا لم يكن كله فهو بعض، وهنا وجد التبعيض فبطل المذهب الخبيث الذي يجعله معنى واحداً، وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الرد على هذا المذهب وأبطله من تسعين وجهاً، وكل وجه من التسعين يكفي إبطاله، وهذا الكتاب معروف ومتداول بين أهل العلم «بالتسعينية» فهو يشير بقوله: **«وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره»**، أما ما يحتج به هؤلاء بمثل قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٢].

فالجواب: أن إضافته إلى الرسول لأنه مبلغ له ولهذا قال: **«لقول رسول»** ومعلوم أن الرسول يبلغ رسالة مرسله، فهو مبلغ ومؤدٍ وليس هو الذي قاله مبتدءاً، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢] فأثبت أنه تنزيل

من الله جلّ وعلا، ثم هذه الآية نظيرها قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] فهذا جبريل بلغه محمداً ﷺ عن الله جلّ وعلا، ومحمدٌ ﷺ بلغه أمته عن جبريل لأنه هو الواسطة بين محمد ﷺ وبين الله جلّ وعلا، ويضاف إلى هذا أن الله جلّ وعلا ذكر الوحيد الكافر الذي ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾ [المدثر: ٢١ - ٢٣] يعني في القرآن، فكر فيه ونظر وتدبر ثم قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥] فقال الله جلّ وعلا فيه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر: ٢٦] جزاءً لذلك، ومعلوم أن الرسول بشر، فلو كان كما يقول هؤلاء، لكان قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥] صحيح ولم يُتوعد بأن يُصلى سقراً، فتبين بطلان هذا القول الزائف، والعجيب أنهم يتعلقون بالأشياء التي فيها ويتركون الأمور الواضحة الجلية التي لا إشكال فيها، وهذا شأن أهل البدع وشأن من في قلبه مرض وزيغ، فإنهم يتركون الآيات التي لا إشكال فيها والواضحة ويتعلقون في المتشابه للتلبيس.

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ،

كما تقوله الكلابية[1] الذين هم أصل الأشعرية، الكلابية نسبة إلى

---

(١) (الكلابية): نسبة إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلّاب القطان البصري، وهو رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، ويقال لقب ابن كلّاب لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده كما يجتذب الكلّاب الشيء.
قال السبكي: وابن كلّاب على كل حال من أهل السنّة، ولا يقول هو ولا غيره ممن له أدنى تمييز: إن كلام الله هو الله، إنما ابن كلّاب مع أهل السنّة في أن صفات الذات ليست هي الذات ولا غيرها، ثم زاد هو وأبو العباس القلانسي على سائر أهل السنّة، فذهبا إلى أن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر في الأزل، لحدوث هذه الأمر وقدم الكلام النفسي، وإنما يتصف بذلك فيما لا يزال، فألزمهما أئمتنا أن يكون القدر المشترك موجود بغير واحد من خصوصياته.

أبي سعيد عبد الله بن كلاب المشهور والمعروف بالكلام وردوده على الجهمية وغيرهم، وهو من أقرب أهل البدع إلى أهل السنة، ولكنه ابتدع في هذه المسألة وغيرها بدعاً منكرة.

أَوْ عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ، لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً.

يعني كما تقوله الأشاعرة من أن هذا القرآن العربي هو عبارة عن كلام الله جلّ وعلا، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدأً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً، وقد أشكلت هذه المسألة على كثير من الناس؛ كونه إذا قرأ القرآن المسموع المتلفظ به قراءة هل هو كلام الله؟ والناس يقرءون كثيراً فهل يتعدد القرآن لكثرة القراءات وما أشبه ذلك؟.

الجواب: أن الكلام لمن ابتدأه وقاله، أما الذي يتكلم ويتلفظ به فإنه يتكلم به بصوت نفسه وبألفاظ نفسه، ولكن المُتكلم به الملفوظ هو كلام الله جلّ وعلا، وقول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] من المعلوم أنه لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمع كلام الله ممن يبلغه سواء كان الرسول أو غيره، والمبلغ يُسمعه للمُستجير بصوت نفسه، فالصوت واللفظ وحركة اللسان والشفتين هي فعل العبد، ولكن المُصوت به، المُتلفظ به الذي سُمع بصوت العبد هو كلام الله حروفه ومعانيه؛ لأن الكلام اسم للحرف والمعنى، وليس للحروف دون المعاني ولا للمعاني دون الحروف، وهذا لا يجوز أن يُرجع فيه إلى قول شاعر أو نحوه؛ كما قالوا عن قول الأخطل الذي نسب إليه:

* انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٢٤٩)، و«طبقات الشافعية» (٢/٢٩٩).

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما … جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

مع أن هذا لم يثبت، وإن ثبت فإنه غير صحيح، وهؤلاء لو استدل عليهم بآية من كتاب الله أو بحديث من أحاديث رسوله ﷺ لا يقتنعون، إنما يتبعون الشيء الذي يوافقهم، فعلى هذا إذا كتب القرآن في المصحف فالكتابة فعل الكاتب، والحروف والمداد والحبر مصنوع وكذلك الورق، فهذه أفعال العباد، ولكن المكتوب بها والمثبت بها هو كلام الله، كما أن القراءة إذا تكلم به وتلفظ به يجب أن يُفرق بين المصدر وبين الشيء الذي يُسمع ويُتلفظ به، فالمصدر هو فعل العبد، وهذا هو معنى ما يُروى عن الإمام أحمد إنه قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع»[1] وقد يُشكل هذا على بعض الناس ويصعب فهمه، وذلك أنه إذا قال: لفظي. فهذا يحتمل شيئين:

الأول: أن يقصد المتلفظ به.

الثاني: أن يقصد الفعل؛ حركة لسانه وشفتيه وصوته وهذا فعل العبد.

فلما كان في ذلك لبس قال: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع» لأنه إذا قال: غير مخلوق يدخل فيه فعل العبد، وفعل العبد مخلوق، والإمام أحمد رحمه الله أراد أن يسد الباب عن الدخول في الشيء المشكل المحتمل الذي يكون فيه حق وباطل؛ لأن الأمر في مسألة القرآن واضح، فالقرآن: هو كلام الله جلّ وعلا، وأما أفعال العباد فهي مخلوقة لله جلّ وعلا، سواء كانت أفعال العباد أفعال تصدر منهم بالحركة والصوت، أو أفعال تصدر منهم بفعل اليد كالكتابة ونحوها، فيجب أن يُفرق بين ما هو صفة لله جلّ وعلا

(١) «السنة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١٦٤).

وما هو فعل للعبد أو صفة للعبد، وبالتفريق والتفصيل يحصل حل الإشكال والبيان، أما كونه أشكل على بعضهم كيف أن القرآن كلام الله والقراءة تتكاثر يقرأه أعداد كثيرة؟

والجواب: أن هذا ليس فيه إشكال لأن القراءة هي أفعال العباد، تعددت بتعددهم، أما القرآن لم يتعدد، فالمقروء شيء واحد وإن قرأه عدد كبير، ثم إن البيهقي كَلَّلَهُ ذكر في كتابه «شعب الإيمان» في مسألة الكلام أن القرآن حال في المصحف وهذا لا يجوز أن يقال، وإنما القرآن مكتوب في المصحف ولا يقال إنه حال لأن هذا من البدع، وإن كان قد يقصد بالحلول أنه أثبت بالكتابة، ولكن يجب أن يقال عنه هذا ولا يقال حل كلام الله في المصحف، وهو كَلَّلَهُ عنده أشياء من البدع كثيرة في هذا الكتاب وفي كتابه «الأسماء والصفات» وغيرها ـ عفا الله عنا وعنه ـ.

فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئاً، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغاً مُؤَدِّياً.

هذا من الإيضاح والبيان؛ لأن كون الإنسان إذا تكلم بالقرآن وأداه بصوته فلا يخرج بذلك عن كونه كلام الله، ويجب أن يُفرق بين ما هو فعل العبد وصوته وبين ما هو صفة الله جلّ وعلا، فالمصوت به والمتكلم به هو كلام الله، ولكن حركة اللسان والصوت وأداء الحروف هي فعل العبد، وهذا في آحاد الكلام كلها، فإذا سمعنا قائلاً يقول: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»**[1] نقول هذا كلام رسول الله ﷺ، وإذا سمعنا إنساناً يقول:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوا بين الدخول فحومل

(١) سبق تخريجه.

نقول هذا كلام امرئ القيس وليس كلامك، وإن كان يؤديه بلفظه وبصوته، يعني أن الكلام يضاف إلى من قاله ابتداء في الأصل، أما الذي يؤديه ويذكره ويرويه فهذا نقول راوٍ يرويه أو ذاكر يذكره أو تالٍ يتلوه أو قارئ يقرأه، فيجب أن يُفرق بين هذا وهذا، فالصوت إذا سمعناه نقول: هذا صوت القارئ، أما المصوت به المتلو فهو كلام الباري جلّ وعلا.

وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ.

يعني أنه لا يُفرق بين أن يقال الحروف هي كلام الله، أما المعاني فلا نقول أنها كلام الله كما يقوله بعض أهل البدع؛ لأن المقصود بالحروف المعاني، فالحروف والمعاني لا تفترق وهي مسمى الكلام، أما الخلافات والمذاهب في هذا فلا داعي لذكرها؛ لأنها كلها خلاف الحق، فيكفي أن نقتصر على مذهب أهل السنة والأدلة على ذلك كثيرة جداً وقد سبق بعضها في هذه الرسالة، وأما الاشتغال في كلام أهل البدع فإنه لا يزيد إلا ظلمة في القلب؛ لأنه في الواقع ضلال، فالإنسان إذا كان الله قد عافاه منها فلا خير فيها، فأفضل ما يكون للمتعلم أن يأخذ المسألة بدليلها كما جاءت صحيحة، إن احتاج إلى حل إشكال يعرض له يحل بالأدلة الشرعية، أما أن تذكر الأقوال الفاسدة والباطلة فإنه قد يكون في هذا قدح إشكالات في النفوس، وقد يكون فيه تشتيت للذهن فقط، وقد يكون فيه اشتغال عما هو أنفع وأجدى، أو يكون الإنسان ـ مثل ما قيل عن بعض العلماء كفخر الدين الرازي عفا الله عنا وعنه ـ يقول: «إنه يأتيك بالشبهة نقداً والجواب عنها نسيئة» وقد يذكر الإنسان الشبهة فلا يستطيع أن يحلها من ذهن السامع، فيكون في هذا

إشكال، على أنه قد جاء بها نقداً والجواب صار نسيئة، فلا يصلح مثل هذا.

وُجُوبُ الإيمانِ بِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَوْضِعِ الرُّؤْيَةِ

وَقَدْ دَخَلَ أَيْضاً فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَاناً بِأَبْصَارِهِمْ

قوله: «**يوم القيامة**» المقصود به حينما يقومون من قبورهم ويذهبون إلى المحشر للوقوف بين يدي الله جلّ وعلا، فيرونه إذا قاموا في عرصات القيامة.

قوله: «**يرونه عياناً**» يعني معاينة بأعينهم، وهذا خروجاً من الاحتمال الذي قد يقال: إنهم يرونهم بقلوبهم.

كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْواً لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ.

هذا لفظ حديث عن رسول الله ﷺ، أنهم يرونه كما يرون الشمس يعني في الوضوح والجلاء والظهور وعدم الخفاء، فليس فيه غموض، والتمثيل بالشمس والقمر المقصود به تمثيل الرؤية بالرؤية في الوضوح والجلاء والظهور وليس تشبيه المرئي بالمرئي، يعني أنه شبه رؤية المؤمنين لربهم في وضوحها وظهورها وجلائها برؤية الشمس والقمر ليلة البدر؛ لأن هذا أوضح شيء وأبينه.

يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ،

عرصة الدار: هي الفناء المتسع أمامها، التي يكون بها الأطفال

يلعبون، والمقصود إذا قيل عرصة المكان: هو المتسع أمامه، ويوم القيامة ليس هناك جبال ولا دور ولا بناء، فعرصات القيامة يعني أماكن مستوية متسعة، فعرصات القيامة يعني الموقف، ويرونه وهم واقفون في هذا الموقف، وهذه الرؤية هل تختص بالمؤمنين أو أنه يشترك معهم الكفار؟.

الجواب: أن فيها خلاف بين العلماء على ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: إنها خاصة بالمؤمنين، ومنهم من يقول: إنها للمؤمنين وللكافرين وللمنافقين، ومنهم من يقول: إنها للمؤمنين والمنافقين وأما الكافرون فلا يرونه.

وقد صحت الأحاديث في الرؤية ثم بعد ذلك يحتجب جلّ وعلا فلا يرونه ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] أما المنافقون ففيها أحاديث الصحيحين الثابتة، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل وكذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل في الشفاعة، وفي هذين الحديثين: **«فيأتيهم الله جلّ وعلا في صورة غير الصورة التي رأوه فيها»** وفي صحيح مسلم **«في غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة»** وتكملة الحديث: **«فيقول: ماذا تنتظرون وقد ذهب الناس ـ هذا بعدما ذهب الكفار إلى النار ـ فيقولون: إن لنا رباً ننتظره، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ـ وهذا من الابتلاء والامتحان ـ فيقول: هل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم، الساق، فيكشف عن ساقه جلّ وعلا فخر له كل مؤمن ساجداً، ويبقى المنافق ظهره طبقاً واحداً إذا أراد أن يسجد خر على قفاه»**[1] وهذا ظاهر في أن المنافقين يرونه، ثم بعد ذلك يُميز المؤمنون

---

(١) البخاري (٦٨٨٦)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، مسلم (١٨٣)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

من المنافقين ويضرب بينهم ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] والمنافقون ينادون المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ يعني في المكان الذي وزعت الأنوار فيه ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، فالمقصود أن هذا يدل على رؤية المنافقين لله تعالى، فهذا الذي قاله الرسول ﷺ يجب أن يثبت كما قاله، فهم يرونه حقيقة ورؤيتهم له من فوقهم، ومفهوم الحديث واضح، وأنهم يرونه في الموقف أكثر من مرة؛ لأنه قال: «**فيأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها**» وفي هذا إثبات أن لله صورة جلّ وعلا، ومعلوم أن كل قائم بنفسه له صورة، ولا يمكن أن يكون شيء لا صورة له إلا إذا كان معنى لا يقوم بنفسه مثل العلم والجهل والمرض وما أشبه ذلك، أما إذا كان ذاتاً تقوم بنفسها فلا بد أن يكون له صورة، والأحاديث التي فيها ذكر الصورة كثيرة وثابتة عن رسول الله ﷺ ومنها قوله ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»[1] والصواب في هذا ـ وهو قول أهل السنة ـ أن الضمير يعود إلى الله وليس إلى آدم، فآدم ليس له صورة قبل أن يخلق، وهذا يدل على أن المقصود بالصورة الوجه؛ لأنه قال: «**فليجتنب الوجه**» ولو كان المقصود بالصورة الكل لم يكن فرق بين ضرب الوجه والرأس والظهر والرجل وغيرها.

ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى.

هذه الرؤية التي هي أعلى نعيم أهل الجنة، والجنة: هي ما يحصل للمؤمنين من النعيم مطلقاً، وأعلى نعيم أهل الجنة هي رؤية الله جلّ وعلا، بل ينسون ما هم فيه إذا رأوه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ

(١) البخاري (٢٣٧٢)، كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه؛ مسلم (٢٦١٢)، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن ضرب الوجه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

في قوله جلّ وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أن الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم جلّ وعلا، وفي حديث عمار في الدعاء الذي رواه عن رسول الله ﷺ: **«وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم»**[1] وهذا كثير ليس في حديث عمار فقط، ومعنى ذلك أن النظر إلى الله جلّ وعلا له لذة عظيمة تُنسي لذة الجنة، فهي أعلى نعيم أهل الجنة، ولكن الجهمية والمعتزلة والرافضة والخوارج والأشاعرة أيضاً ينكرون رؤية الله جلّ وعلا، يقول بعض العلماء: خليق بهؤلاء أن يحرموها يوم القيامة، هذا جزاؤهم لأنهم لم يؤمنوا بها بل ردوها وأنكروها، والعلم عند الله جلّ وعلا هو الذي يتولى الحكم بين خلقه، ولا يستطيع الإنسان أن يحكم على عباد الله جلّ وعلا بشيء لم يتيقنه، ولكن يجوز أن يكون هذا جزاءً لهم، وقد أخبرنا جلّ وعلا أنه يحتجب عن بعض خلقه وأن ذلك يكون تعذيباً ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٥] وهذا من العذاب ـ نسأل الله العافية ـ وهو قبل صلي الجحيم، وقد تقدمت الآيات في الدلالة على إثبات الرؤية لله جلّ وعلا والأحاديث فيها متواترة والحمد لله، وهي من أفضل ما يُطلب وأعظم ما يسعى له المؤمنون يرجون ربهم أن يروه جلّ وعلا، في عرصات الموقف وفي الجنة، نسأل الله الكريم من فضله.

والناس يتفاوتون في الرؤية على حسب تفاوت إيمانهم، ومعلوم أن الرسل والأنبياء ليسوا كآحاد المؤمنين، والصديقون ليسوا كغيرهم وكذلك الشهداء، والصالحون، وقد أخبرنا ربنا جلّ وعلا أن أهل الجنة أقسام ثلاثة:

ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ

---

(١) حديث صحيح، وأخرجه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبي، وهو مخرج في «الكلم الطيب» (١٠٥)، و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (١٢٩). ألباني.

﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] فهؤلاء هم أهل الجنة، فالظالم ليس كالمقتصد، والمقتصد ليس كالسابق، ولهذا سبق في حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: «**إن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»[1] وذكرنا أن بعض العلماء، قال إن المناسب في هذا أن الصلاة هي أفضل الأعمال، وأفضل الصلاة هاتين الصلاتين، فناسب أن يكون جزاء هاتين الصلاتين أن ينظروا إلى الله جلّ وعلا بكرة وعشياً، ويقولون: هذا الذي يشير إليه قوله ﷺ: «**فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**».

أما الشبه التي يذكرها أهل البدع فلا داعي لذكرها، ولا سيما الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا باليقينيات وبالبراهين كالمعتزلة، ولكن لا بأس أن نذكر عمدتهم وأصل قولهم في هذا الذي يعتمدون فيه، فهم يقولون: المرئي لا بد أن يكون مقابلاً لك حتى يقع عليه شعاع البصر ولهذا إذا كان أمامك فضاء ولم يقابلك شيء فإنك لا ترى شيئاً، فالرؤية تكون للجسم، فيقولون: لو أثبتنا الرؤية للزم أن نقول إن الله جسم، وهذا الكلام باطل من أصله؛ لأن الكلام في الجسم نفسه كلام مبتدع، فإن كانوا يريدون بالجسم المركب من لحم ودم وعظام وشحم فهذا باطل، فالله جلّ وعلا ليس كمثله شيء، وإن كانوا يريدون بالجسم الشيء القائم بنفسه فنقول: إن الله جلّ وعلا أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولا داعي لذكر الشبه الأخرى، فيكفي الإنسان أن يتمسك بكتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وهي في الواقع الصراط المستقيم.

---

(١) سبق تخريجه.

مَا يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

من أصول الإيمان، الإيمان باليوم الآخر، ومن لم يؤمن باليوم الآخر فليس بمؤمن، ومعنى اليوم الآخر: هو الذي يلي هذه الدنيا، وسمي آخراً لأنه بعد هذه الدنيا، فاليوم الأول هو حياة الإنسان، وإذا انتهت حياته ذهب إلى الآخرة فلاقى عمله، ويكون ذاك اسماً لكل ما بعد الموت، والذي بعد الموت أمور غيبية لا تُحس ولا تُشاهد للأحياء الذين على وجه الأرض، وإنما يُقاسيها الأموات، وذلك أن الإنسان جُعل له دوراً ثلاثاً، ينتقل من واحدة إلى أخرى، فهذه الدار الدنيا وهي محل العمل، وشبه المزرعة التي زرع فيها الإنسان وينتج، فمن الناس من يزرع شوكاً أو حيات وعقارب، ومنهم من يزرع دُرّاً، وما تكون عاقبته محمودة وسعيدة، فإذا انقضت هذه الحياة فبعد ذلك حياة أخرى، المعبر عنها بالبرزخ، والبرزخ: هو الحاجز بين الشيئين، فهو منزلة بين الدنيا وبين الآخرة، وهو من أمور الآخرة بالنسبة للميت، فينتقل من داره التي يعمرها بالطين والطوب والأسمنت ويفرشها إلى دار ضيقة، أربعة أذرع فقط، وهي التي يطول مكثه فيها أكثر من مكثه في هذه الحياة، وليس الموت عدم أو نهاية، بل الناس يتفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً، ثم يبقى في قبره إلى أن يأذن الله جلّ وعلا بنشر الناس وبعثهم، فيُجمعون في أرض بيضاء نقية لم يسفك عليها دم ولم يُعمل فيها معصية حتى يقضي الله جلّ وعلا بينهم، ثم ينتقلون إلى الدار الأبدية، وبعثهم بعثاً لا يقبل مفارقة الروح، ثم بهذا نعرف أن الروح التي بها حياة الإنسان والتي لا نعرف حقيقتها كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] خروجها من هذا البدن ليس معناه مفارقة للبدن مفارقةً كاملة بحيث لا تعود إليه، بل إذا

وضع في قبره عادت إليه روحه وحصلت المسألة، وذكر العلماء أن الروح لها خمس تعلقات بالبدن، وتختلف هذه التعلقات وهي:

الأول: تعلق الروح لما كان في بطن أمه، عند نفخها فيه صار لها تعلق في البدن، وهذا لا يشعر به ولا يشعر ماذا يحدث، ولكنها في البدن، نفخ الملك فيه كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ حدثنا الصادق المصدوق ﷺ: **«إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقة ـ قطعة الدم ـ ثم أربعين يوماً مضغة ـ قطعة اللحم ـ ثم يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أم سعيد»**[(١)].

الثاني: خروجه من بطن أمه إلى هذه الدنيا الواسعة، فيكون تعلق الروح بعد هذا الخروج أكمل من ذلك.

الثالث: تعلق الروح بالبدن في حالة النوم، فإن النوم نوع من الموت، تفارق الروح البدن بحيث أنه لا يحس بما حوله، ولكنها ليست مفارقة كلية بحيث إنه إذا أوقظ استيقظ.

الرابع: تعلق بعد الموت.

الخامس: تعلق بعد البعث، وهو أكملها.

الإِيمَانُ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ

يعني أن هذا يتوقف على أخبار النبي ﷺ لا دخل للعقل ولا للعادة ولا للقياس في ذلك، وإنما يُتلقى بالوحي لما أخبر به النبي ﷺ، ومن ذلك أن الميت إذا وضع في قبره رُدت إليه روحه كما جاء صريحاً: **«فترد عليه روحه فيأتيه ملكان»**[(٢)]، وهذا الرد للروح رد لا نعرف حقيقته،

(١) متفق عليه. وهو مخرّج أيضاً في «الظلال» (ص١٧٥ ـ ١٧٦). ألباني.

(٢) صحيح. انظر: «أحكام الجنائز» (ص١٥٦ ـ ١٥٩). ألباني.

بحيث أنه لا يحتاج معه إلى أكل وشرب، بل لا يحتاج إلى تنفس وأكسجين؛ لأنه في قبره مدفون وهي حياة تخالف هذه الحياة، والمقصود أنها حياة بحيث أنه يعقل ويحس، لما قال الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**كيف بك إذا أتاك منكر ونكير، صوت أحدهم كالرعد القاصف**» فقال: أمعي عقلي! قال: «**نعم**» قال: إذن أكفيكهما[1].

يعني أنه ما دام معه عقله سيجيب ولا يتلعثم، ولكن هذا بإذن الله جلّ وعلا، فالإنسان معه عقله وهو يكون على ما مات عليه، فإن كان مات على يقين وثبات فيكون يقينه وثباته في تلك الحالة، وإن كان قد مات شاكاً مرتاباً فهو شاكٌ مرتابٌ ما يستطيع أن يجيب، فحالته تكون على هذه الحالة كما جاء في الحديث: «**من مات على شيء بعث عليه**»[2] والله جلّ وعلا يقول: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨] لأنهم في هذه الدنيا يحلفون كاذبين، يعني المنافقين، ويجعلون ذلك لهواً تخلصاً، فإذا بعثوا تكون هذه أخلاقهم، يحلفون لله وهم كاذبون، يقولون ما فعلنا كذا ولا عملنا كذا.

بِمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ.

وهذا كثير من بني آدم من كفر به ولم يؤمن به، وقد ذكر الله

= قال شاكر: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨، ٢٩٥ - ٢٩٦ طبعة الحلبي) مطولاً؛ ونقله ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٤٧٤ - ٤٧٥) عن المسند. ورواه أبو داود (٤٧٥٣ - ٤٧٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧ - ٣٩)، بأسانيد كلها من رواية الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو، وزاذان أبي عمر الكندي». ووافقه الذهبي، وقد أطال الإمام ابن القيم القول في تصحيح، والرد على من أعلّه في «تهذيب السنن» (٤٥٨٦) (٧/ ١٣٩ - ١٤٦).

(١) ذكره الهيثمي بهذا اللفظ في «مسند الحارث»؛ وابن عبد البر في «التمهيد» بلفظ آخر؛ والشيخ علي المتقي في «كنز العمال» (١٥/ ٧٤١).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٢).

جلّ وعلا في القرآن عن أمة من العرب أنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يعني الذي يهلكهم هو انتهاء أعمارهم، يموت قوم ويحيا آخرون، وليس بعد ذلك شيء، وهذا قول الماديين اليوم الذين يقولون: الحياة مادة، وينكرون الجزاء والآخرة، والفلاسفة ينكرون هذا أيضاً، ويقولون: إن الذي جاء بخبر البعث وإعادة الأرواح والجزاء هو محمد ﷺ، وأما غيره من الأنبياء لم يذكروا ذلك، وهذا كذب ظاهر، فجميع الرسل جاؤوا بالأخبار بأن الله جلّ وعلا سيبعثهم ويجازيهم بعد موتهم، والذي يكون بعد الموت هو السؤال في القبر حينما يوضع فيه، وقبله إذا خرجت الروح كما في حديث البراء بن عازب ﷺ: «فيأتي إليه الملك فيجلس عند رأسه، فإن كان مؤمناً يقول له: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب اخرجي إلى روح وريحان وإلى رب غير غضبان. فتخرج تسيل من فيه كما تخرج القطرة من فيّ السقاء - يعني أنها تخرج بسهولة - فإذا خرجت أخذتها ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة لم يدعوها بيده طرفة عين، فيصعدون بها إلى السماء، فلا يمرون على ملأ من الملائكة بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقال: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي يسمى بها في الدنيا، فيصلون عليه - يدعون له - حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لها، ثم هكذا إلى أن يصلوا إلى السماء السابعة، فيستفتح لها فيفتح لها، ثم يقول الله جلّ وعلا: «**اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى**».

أما إذا كان فاجراً فإن ملك الموت يأتي إليه ويجلس عند رأسه ويقول: أيتها الروح الخبيثة اخرجي إلى سخط وغضب من الله جلّ وعلا، فتفرق في جسده وتتشبث بعروقه وبعصبه، فينتزعها انتزاعاً شديداً كما

يُنتزع السفود إذا أدخل في الصوف المبلول[١]، والسفود: هي الحديدة التي يشوى بها اللحم، فإذا أحميت وأدخلت في الصوف المبلول تلوى وتطوى عليها الصوف ـ فتضرب الملائكة وجهه ودبره وتقول: أخرج نفسك اليوم تجزى عذاب الهون، وهذا أول العذاب الذي يلقاه وهو على فراشه قبل أن تخرج روحه، ولا يشعر الحاضرون بشيء من ذلك، وهو يقاسي الألم والعذاب، أما المؤمن فإن الملائكة تقول له قبل أن تخرج روحه: أبشر بيومك الذي وعدك الله جلّ وعلا إياه، ويقولون له: لا تخف ولا تحزن ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، لا تحزن على الشيء الذي تخلفه من أولاد ومال وبيت وغيره فإنها ليست شيئاً، فلا يهمك ولا تحزن عليه، ولا تخف مما يستقبلك، وهو يسمعهم ويراهم، ولهذا قال ﷺ: **«يقبل الله توبة العبد ما لم يعاين»**[٢] يعاين الملائكة، فإذا عاينهم فلا توبة؛ لأنه بالمعاينة يدخل في عالم الآخرة، والحقيقة أن الإنسان ينتظره أمور هائلة جداً وهو غافل، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: **«لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً وللهبتم إلى الصعدات تجأرون ولما تلذذتم بالنساء على الفرش»**[٣] لأن الأمر ليس سهلاً بل صعب جداً، ولهذا العارفون يقولون: كيف تعيش في هذه الحياة ويلذ لنا طعام؟.

وأحدهم إذا وضع جنبه لينام ثار بسرعة وقال: ذكر النار أذهب عني النوم. ويقول أحدهم وهو يبكي بحرقة وشدة وتأتيه أمه تعاتبه: ما

---

(١) أحمد (١٧٨٠٣)؛ الحاكم في «المستدرك» (١٠٦)؛ والبيهقي في «السنن الكبرى» وفي «شعب الإيمان»، وجميعها من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الترمذي (٢٣٣٤)، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»**؛ ابن ماجه (٤١٨٠)، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، من حديث أبي ذر ﷺ.

هذا البكاء؟ فيقول: لقد توعدني ربي جلّ وعلا إن عصيته أن يسجنني في جهنم، والله لو توعدني أن يسجنني في حمام لحق لي أن أبكي ولا ترقى لي دمعة، فكيف إذا كان في جهنم؟.

فالمشكل هو كون الإنسان يغفل عن هذه الأمور، ووصية الرسول ﷺ لنا يقول: «**لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار**»[1] فلا يجوز أن ننساهما ولا يجوز أن ننسى ما ينتظرنا في القبر، فالمقصود أن أول ما يبدأ به الإنسان ملاقاة الملائكة وهو على فراشه، والواقع أن المؤمن المتقي أصعب ما يلاقيه الموت وما بعد الموت أسهل منه، والفاجر أسهل ما يلاقيه الموت وما بعد الموت أشد منه إلى أن يدخل جهنم، وأي عذاب فوق عذاب جهنم ـ نسأل الله العافية ـ خالدين فيها لا يطفأ لهبها ولا ينقطع عذابها ولا يقضى على داخلها فيرتاح ويموت بل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿كُلَّمَا﴾ في لغة العرب تُقال للشيء الذي لا نهاية له ولا ينقطع، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧] جاء في التفسير أن بين النداء والجواب أكثر من أربعين سنة، ثم يقال لهم بعد ذلك ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فأي إهانة بعد هذه ـ نسأل الله العافية ـ لهم فيها زفير وشهيق، فالمقصود أن الذي بعد الموت هو ما أخبر به الرسول ﷺ من الأمور التي يجب الإيمان بها ويجب الاستعداد لها، ومنكرها لا يكون مؤمناً، فمن ذلك فتنة القبر بعد الملاقاة التي تكون للملائكة وكلامهم وسلامهم أو تهديدهم أو ضربهم على اختلاف الناس، فإذا وضع في قبره جاء الاختبار، وقبل ذلك هناك أمور، جاء في الحديث الأمر بسرعة التجهيز، وأنه إذا حمل الميت يسرع

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير»، والدولابي في «الكنى والأسماء»، والحافظ ابن حجر العسقلاني في «المطالب العالية»، وأبي نعيم في «صفة الجنة».

به إلى قبره يقول النبي ﷺ: «**إما شر تضعونه عن رقابكم أو تقدمونه إلى خير**»(١) والميت وهو محمول إذا كان من أهل الشر يتكلم ويقول: ويلها أين تذهبون بها؟.

وإن كان من أهل الخير يقول: قدموني قدموني. فهذا من الأمور التي يجب الإيمان بها، فإذا وضع في قبره ودفن وولى عنه أصحابه وهو يسمع قرع نعالهم مدبرين، أتاه ملكان يقال لأحدهم منكر والآخر نكير، ولا نعلم كيف يأتيان، فيجلسانه ويسألانه من ربك؟.

والمعنى هنا من الذي تعبده؟.

لأن الرب يأتي بمعنى المعبود وسبق أن الرب والله جلّ وعلا يتعاقبان، أي: إذا جاء أحدهما مفرداً يدخل فيه معنى الآخر.

ويقال له: ما دينك؟.

أي: الدين الذي يتدين به في الدنيا.

ويقال له: من نبيك؟ وفي بعض الألفاظ: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟.

فإذا كان موقناً أجاب بهدوء وطمأنينة، فيقول: ربي الله وديني الإسلام وهذا رسول الله.

ولا ينتهي السؤال، بل يقولان له: وما يدريك؟ أي: ما الدليل على ذلك، فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به. عند ذلك يقولان: قد علمنا أنك موقن على ذلك، فيفتح له باب إلى الجنة وباب إلى النار، فينظر إلى النار أولاً ويقال له: انظر مقعدك من النار لو كفرت بالله جلّ وعلا، أما وقد آمنت وأيقنت فانظر إلى منزلك من الجنة فينظر،

---

(١) البخاري (١٣٣١)، كتاب الجنائز، باب السرعة بالجنازة وقال أنس ﷺ: أنتم مشيعون وامش بين يديها وخلفها وعن يمينها وعن شمالها، وقال غيره قريباً منها. مسلم (١٥٦٨)، كتاب الجنائز، باب الإسراع بالجنازة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فيقول: دعاني أذهب إلى أهلي ومنزلي. فيقولان: اجلس وأنت ذاهب. فيفسح له في قبره وينور له فيه»[1].

أما إن كان من الذين لا يستطيعون الجواب، قد ارتاب في هذه الدنيا فيقول: هاه.. هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

فمعنى «هاه» إما أنه استفهام أو تلعثم أو أنه يقوله تأوهاً وتحسراً، ومعنى قوله لا أدري أي: ما عندي يقين ولا علم، وإنما عندي ما كان الناس يقولونه، فكنت أقول ما كان يقوله الناس متبعاً لهم بلا براهين ولا أدلة، فيقولان له: ما دريت ولا تليت. يعني ما علمت وآمنت وأيقنت ولا تلوت كتاب الله الذي هو داعٍ إلى الإيمان ودليلٌ عليه، أي: أنك فرطت وأصبحت كالبهائم، تأكل وتشرب مثلها ولم تهتم بأمر دينك، فيضربانه بمطراق من حديد يلتهب عليه قبره ناراً، فيصيح صيحةً يسمعه كل شيء من القريب له أي: مما يليه، أما الإنسان فلا يسمع ولو سمع الإنسان لصعق، يعني لمات أو أغشي عليه؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**لولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر**»[2] لو سمعنا عذاب القبر أو رأيناه ما دفن بعضنا بعضاً، والعجيب أنه من عادة العرب الجاهلية، أن الفرس إذا انحبس بطنها يأتون بها إلى المقبرة ثم تصرخ وينطلق بطنها وتهرب؛ لأنها تسمع، وهذا شاهدناه وشاهده الناس، تجد البعير في المقبرة يأكل فلا تدري إلا وقد نفر بشدة ما تستطيع أن ترده؛ لأنه يسمع صراخهم وعذابهم، فمعنى ذلك أنه يسمعه كل شيء»، أي:

---

(١) البخاري (١٢٨٥)، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ مسلم (٥١١٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد وعن أنس.
قال شاكر: «صحيح مسلم» (٢/٣٥٨) والبخاري لم يرو هذا الحديث.

الذي يليه ويكون قريباً منه وليس كل شيء مطلقاً، ولهذا جاء في الحديث: «**يسمعه ما يليه**»[(١)] يعني القريب منه من شجر أو حجر أو دابة، أما ابن آدم لأنه هو المقصود فلا يسمعه، ولأن هذا من الأمور الغيبية التي كلف ليؤمن بها، ولو انكشفت وظهرت ذهبت الحكمة من الإيمان بالغيب، ولهذا كثير من الناس لا يؤمن بهذا ولا يقره ويقول: هذا لا حقيقة له. فنحن ندفن الميت ونضعه على صفة معينة ثم تأتي بعد فترة ونحفره ونجده كما هو لم يتغير ولم يتحرك، لم يأتِ أحد ويجلسه ولا هناك أحد سأله ولا أحد ضربه ولا غير ذلك، فنقول: لا تشاهدونه أنتم ولا يحصل له ذلك، وقد يشاهد أحياناً ليظهر الله لهم آية وموعظة، وإلا الغالب أنه لا يكون مشاهداً ولا مسموعاً وهو الأصل.

كان رجل يكتب الوحي للرسول ﷺ فَفُتن فارتد ـ نسأل الله العافية ـ لأنه كان يقول إذا نزل قول الله جلّ وعلا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] يقول أكتبها ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧] أو أكتبها «حليماً حكيماً» أو ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] قال: اكتب ما تريد لأن هذا كله من أسماء الله وصفاته، فقال: إذن لا يعرف الرسول ﷺ، أملي أنا عليه، فارتد ـ نسأل الله العافية ـ وذهب إلى الكفار وقال: أنا الذي أملي عليه، فمات فصاروا يحفرون له الأرض ثم تلفظه الأرض، وكلما حفروا له لفظته الأرض ثم تركوه[(٢)]، وكذلك غيره من الجماعة الذين ذهبوا إلى مكة ومات معهم الميت، فحفروا فلما وصلوا إلى مكان القبر وجدوا حية عظيمة، فذهبوا يحفرون ثانية فوجدوا نفس الحية، فحفروا ثالثة فوجدوا نفس الشيء، فذهبوا ليسألوا ابن عباس فقال: ادفنوه هذا عمله.

(١) البخاري (١٣٣٨)، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال.

(٢) البخاري (٣٣٤٨)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، من حديث أنس ﷺ، أحمد (١٣٠٨٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة».

وكذلك الأحنف بن قيس ﷺ لما دفن، كان أحد الذين يضعون عليه اللبن سقط منه شيء في قبره فأبعد اللبنة، فلما أدخل رأسه ليأخذه إذا القبر مد البصر ولا يُرى طرفه وصار يأتيه رائحة المسك، والمقصود أن هذه التي يقولها هؤلاء الزنادقة يقول: إنها أخفيت عليكم حتى يختبر ويعلم أتؤمنوا أو لا تؤمنوا؟ لأنها أمور غيبية، والإنسان قد يوضع في قبره في جواره آخر فيكون هذا يعذب وهذا ينعم، ولا يصل لهذا من نعيم هذا شيء ولا هذا من عذاب هذا شيء وهم في قبر واحد والله على كل شيء قدير، والمقصود بعذاب القبر، العذاب الذي يكون بعد الموت سواء قبر الإنسان ودفن في قبر أو أكلته السباع أو ترك على وجه الأرض أو ألقي في البحر أو أحرق، لا بد أن يأتيه العذاب أو النعيم إذا كان من أهل الإيمان والخير، فأهل السنة والجماعة الناجين من الانحرافات يؤمنون بفتنة القبر وهو سؤال منكر ونكير لأنه افتتان، الافتتان الاختبار، وكذلك بعذاب القبر ونعيمه، أما عذابه فيقول الله جلّ وعلا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ١ - ٦] ونعلم إذا دخلنا القبور، ويقول جلّ وعلا: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦] هذا نص واضح في أنهم يعذبون في قبورهم، ويقول جلّ وعلا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة: ٢١] يقول العلماء، (العذاب الأدنى) عذاب القبر و(العذاب الأكبر) عذاب النار، وهناك آيات كثيرة تدل على ذلك، أما الأحاديث فواضحة جداً، وأما نعيم القبر فمثل ما يقول الله جلّ وعلا في القيامة الصغرى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٦ - ٨٩] هذا في الاحتضار ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ

ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣﴾ [الواقعة: ٩٠ ـ ٩٣] والنزل هو الشيء الذي يعد للضيف أول ما ينزل، إذا وضع في قبره أعد له هذا الشيء ثم بعد ذلك تصلية الجحيم ـ نسأل الله العافية ـ فأهل الإيمان يؤمنون بأن القبر إما أن يكون حفرة من حفر النار وإما روضة من رياض الجنة، والعذاب والنعيم على البدن والروح معاً، خلافاً لابن حزم وغيره الذي يقول على الروح فقط، والحق أنه على الروح والبدن، ولكن الحكم في القبر للروح والبدن تبع بعكس الدنيا، ففي الدنيا الروح تتبع البدن وتتألم بألم البدن وتتنعم بنعيم البدن، وأما في القبر فالحكم للروح والبدن تبع لها، ولكن يألم البدن وإن كان تراباً ويجد العذاب وكذلك النعيم.

فَأَمَّا الْفِتْنَةُ، فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ،

الناس هنا يدل على العموم، وهذا هو الصحيح، خلافاً لمن قال: إن الامتحان خاص بهذه الأمة، فالأدلة تدل على أن هذا عام، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ مر بقبور فقال: «**هل تسمعون ما أسمع؟**» قالوا: لا. قال: «**يهود تعذب في قبورها**»[1] وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه مر بقبرين ﷺ فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**» ثم قال: «**بلى إنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فما كان يستتر من بوله**»[2] فهؤلاء من المسلمين، وعلمنا ﷺ أن نقول في

---

(١) البخاري (١٣٧٥)، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر؛ مسلم (٢٨٦٩)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، من حديث أبي أيوب ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٢١٦)، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، و(٢١٨) و(١٣٦١)، كتاب الجنائز، باب الجريدة على القبر، و(١٣٧٨)، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، و(٦٠٥٢)، كتاب الأدب، باب الغيبة، و(٦٠٥٥)، باب النميمة من الكبائر، من حديث ابن عباس ﷺ.

الصلاة: **«اللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة القبر»**[١] ويقول ﷺ: **«أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم قريباً من فتنة الدجال»**[٢] وفتنة الدجال ليست سهلة، ولهذا أمرنا أن نستعيذ من فتنته في كل صلاة، وجاء أنها أعظم فتنة، بعض الناس يتصور مثل ما يقول «فريد وجدي» في دائرة معارفه: أنها خرافة، وكيف يصدق الناس بأنه ربهم، وأن الناس من قديم الزمان يستنكفون أن يبعث إليهم بشر رسول، فكيف يأتيهم بشر يقول: أنا ربكم ويصدقونه؟

وكيف ذهب عنه ما هو موجود عنده في مصر من أحمد البدوي وحسين وغيرهم الذين يعبدون كما يعبد الفرد الصمد، وكذلك كون فرعون قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فصدق واتبعه قومه كلهم حتى صاروا يأتون إليه ويقولون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وفي قراءة: «وإلهتك» يعني عبادتك وكوننا نعبدك، المقصود أن الفتنة في القبر قريبة من فتنة الدجال وجاء في النهي: **«إذا سمعتم به فانأوا عنه فإن الرجل يأتيه واثقاً من إيمانه فلا يزال حتى يتبعه»** لأنه يقول للسماء: أمطري، ويقول للأرض: أنبتي، ويأتي رجل ويقول: إذا بعثت لك أباك وأمك تؤمن بي. فيقول: نعم. فيتمثل شيطانان واحد بصورة أمه والآخر بصورة أبيه، ويقولون: يا بني اتبعه فإنه ربك. فيأتيه رجل ويقول تؤمن بأني ربك. فيقول: لا، أنت الكذاب الذي حذرنا منك رسولنا ﷺ، فيشقه نصفين ويمشي بين شقيه، ثم يقول

(١) البخاري (٧٨٩)، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام؛ مسلم (٩٢٥)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، من حديث عروة بن الزبير ﷺ.

(٢) البخاري (٧٢٨٧)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، من حديث أسماء بنت أبي بكر ﷺ. رواه مسلم (٢٨٦٧)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

له: قم، فيقوم حياً كما كان. فيقول له: أتؤمن بي. فيقول: لا، لم أزدد منك إلا بصراً»[(١)].

فالمقصود أن معه فتنة عظيمة، وفي هذا يقول: «**تفتنون مثل أو قريباً من فتنة الدجال**»[(٢)] فالمسألة صعبة، ولهذا ثبت أن قوله جلّ وعلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أنها نزلت في عذاب القبر وسؤاله، فأما المؤمن فيثبته الله، وجاء من صفة سؤال الملكين وأصواتهما وأن معهما مطراق من النار وأن في منظرهما نكارة فظيعة داعية للارتهاب والخوف، فهنا يثبت الله من يشاء بالقول الثابت وهو قول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويعلم أن الله هو معبوده، فالصحيح أن الناس كلهم يسألون ذكورهم وأناثيهم، أما الأطفال ففيهم خلاف، من العلماء من أثبت سؤالهم ومنهم من يقول: لا يسألون لأنهم لم يكلفوا، فيكون السؤال على من هو أهل لذلك، يعني أنه وصل حد التكليف، فإذا لم يكن وصل حد التكليف فمثل هذا لا يسأل لأنه غير مكلف.

فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟
وَمَا دِينُكَ؟
وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

قد يبدو للإنسان أن مثل هذا سهل، وأنه سيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، ولكن الواقع أن الجواب يكون عما في القلب وعما كان ثابتاً عليه في الدنيا، فإن كان موقناً في الدنيا وليس عنده

(١) ابن ماجه (٤٠٧٧)، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ.
(٢) سبق تخريجه.

ارتياب ولا شك فإنه يجيب الجواب الصحيح، أما إذا كان ما يدري، رأى الناس يصلون فصلى وسمع الناس يقولون شيئاً فقاله بدون يقين ولا علم ولا وصل إلى قلبه، فهذا الذي يخاف عليه، ولهذا يقول العلماء: المسلم قسمان: مسلم دار، ومسلم اختيار، فمسلم الدار هو الذي يكون مقلداً، ربما إذا مات وستر الله عليه أن ينجو وإن امتحن لا يثبت عند الامتحان، ولهذا لو حصل فتنة في الدنيا تجد كثيراً من الناس يترك دينه لأنه ليس عنده يقين، أما المؤمن الذي يختار أن يحرق في النار ولا يترك دينه فهذا الذي يثبت ولا يتلعثم.

﴿فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

يعني: الذي ثبتوا في الحياة الدنيا هم الذين يثبتون في القبر وفي السؤال هذا معنى الآية.

فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ رَبِّيَ اللهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي.

ولا يكتفون بهذا، بل يقولون: وما يدريك؟ يسألون عن الدليل.

وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ،

المرتاب: هو الذي لم يصل الإيمان إلى قلبه، يقول: يجوز أن يكون هناك بعث ولا يجوز، يجوز أن يكون الرسول صادق ويجوز أنه كاذب؛ أي: أنه عنده ارتياب وشك، وهذا هو الذي يتلعثم ولا يستطيع أن يجيب، وهو الذي يصيبه العقاب، وفي هذا أن أصول الدين لا يجوز التقليد فيها، يجب أن يعرفها الإنسان بدليلها، يعني: معرفة الرب ومعرفة الدين الإسلامي أنه صحيح، ومعرفة النبي ﷺ، هذه لا يجوز أن يقلد

فيها ويقول: فلان يقول كذا وأنا أتبع فلاناً، ومعرفة الله جلّ وعلا واضحة جداً، كون المخلوقات من الذرة إلى العرش تدل على الله جلّ وعلا، ولهذا قليل جداً من الأمم الذين أنكروا وجود الله، والذين أنكروا وجوده أفراد كابروا مكابرة في الواقع ونفوسهم مستيقنة مثل فرعون، استيقنت بأن الرسول صادق وأن الله هو رب الكل، ولهذا لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ولكن هذا لا يفيد، فكل الكفار يؤمنون بوجود الرب، بخلاف البعث بعد الموت وما يكون في القبر، فهذا كثيرون جداً الذين أنكروه وكفروا به، ومعنى ذلك: أن مثل هؤلاء الذين يحتاج إلى نظر بالأدلة التي جاءت في الكتاب والسنّة، وليس النظر العقلي الذي يقوله المتكلمون، وهو سهل، ولهذا الرسول ﷺ يأمر الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله فقط، ولم يقل انظروا في الكون وانظروا في كذا واستدلوا بعقولكم، والإيمان يزداد في قلب الإنسان شيئاً فشيئاً حتى يثبت ثبات الجبال ولا يتزحزح، أما معرفة الرسول تكون بمعرفة نسبه ومعرفته بالآيات وبصدقه وسيرته ومعجزاته والآيات التي جاء بها، ومنها القرآن والحديث وغيرها، فكيف يأتي فرد إلى قوم كفار وهو وحده ليس معه قوة ولا أمم ويقول لهم: إن لم تؤمنوا بي فسوف يسلطني الله جلّ وعلا عليكم وأقتلكم وأسبي أولادكم وأموالكم؟ فلا يمكن لعاقل أن يأتي لقوم أعداء له ويقول وهو وحده ليس معه قوة: سوف أقتلكم وسوف أفعل بكم كذا وكذا، إلا إذا كان على ثقة من الله مثل الرسول ﷺ؛ لأن الله أرسله وأخبره بأنه سينصره وأنهم لن يصلوا إليه، ولهذا كل الرسل إذا تهددتهم أممهم يكونون موقنين بوعد الله لهم، كما قال قوم هود له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] أي: بجنون، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝﴾ [هود: ٥٤-٥٥] هذا تحدٍّ لهم، فما استطاعوا أن يفعلوا له شيئاً ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٦] وهكذا قال نوح وغيره من الأنبياء، فصدقهم واضح وجلي، آيات واضحة إذا تأملها الإنسان عرف، مع أنه إذا جاء شخص وقال: أنا نبي. فلا يلتبس بأفجر الناس وأكذبهم وأخبثهم أبداً؛ لأن النبي يكون أصدق الناس وأبرّ الناس وأتقى الناس وأعلم الناس بالله جلّ وعلا، فحاله تدل على ما جاء به، أنه صادق أو كاذب، ولهذا كان العقلاء يستدلون بهذا، لما قال الرسول ﷺ لزوجه خديجة رضي الله عنها حينما رأى صورة الملك: «لقد خفت على نفسي» قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر[1].

فاستدلت بسيرته وحالته على أنه سوف يكون في هذا صادقاً وسعيداً ومؤيداً، وكذلك الكافر هرقل ملك الروم لما سأل أبا سفيان قال: ماذا يقول لكم؟ فأخبره. فقال: هل كان في آبائه من ملك؟ قال: لا. قال: هل كنتم تعرفون عليه الكذب قبل أن يقول هذا القول؟ قال: لا. قال: الذي يدخل في دينه يغضب ويرجع عن دينه؟ قال: لا. قال: من أتباعه؟ قال: الضعفاء والعبيد. قال: يزدادون أم ينقصون؟ قال: يزدادون. عند ذلك أخبره أن هذه صفة الرسل وسيرتهم، والله جلّ وعلا يقول للنبي ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لست أول رسول يأتيكم، فانظروا سيرة الرسل السابقين واستدلوا بها على حالتي، فالمقصود أن معرفة الرسول ﷺ تثبت في النظر في سيرته وفي آياته وفي حالته واستجابة دعائه وفيما يحدث له، كأن ينبع الماء من بين أصابعه فيكفي جيشاً كبيراً يتوضؤون ويشربون من الإناء الذي فيه يده[2]، وفي غزوة الخندق لما جاء جابر رضي الله عنه، رآه حازماً على بطنه حجراً وهو أكرم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (١٦٤)، كتاب الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة وقالت عائشة: حضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزل التيمم؛ مسلم (٤٢٢٥)، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، من حديث أنس رضي الله عنه.

الخلق على الله جلّ وعلا فقال: هذا شيء لا صبر عليه، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يذهب إلى أهله فقال له: اذهب. فذهب لأهله وسألهم على عندكم طعام؟ قالوا: عندنا صاع من شعير وبهمة صغيرة، فذبح البهمة وقال: اطحنوا الشعير، سأدعوا رسول الله ﷺ وثلاثة معه أو اثنين، فذهب وأخبر الرسول ﷺ، عند ذلك أمر داعٍ أن يدعي أهل الخندق كلهم بأن جابر ﷺ يدعوكم إلى الطعام، فذهب جابر إلى زوجته يقول: جاءك رسول الله ﷺ والمسلمون. فقالت: هل أخبرته؟ قال: نعم.. فدخل رسول الله ﷺ وتفل في العجين ودعا وقال: اخبزوا. وكذلك في اللحم، فصاروا يدخلون العشرة ويأكلون ويخرجون حتى انتهى آخرهم والطعام كما هو لم يتغير[1]، فلا يمكن أن يكون هذا بقوة البشر أبداً، وأبو هريرة ﷺ كما في الصحيحين يقول: كنت ألازم رسول الله ﷺ على ملء بطني حتى أسمع منه، وكنت أجلس في طرقهم أسألهم عن الآية وأنا أعرفها، ولكن لعلّ أحداً يقول اتبعني، فذهبت وتعرضت لأبي بكر ﷺ وسألته عن آية فلم يفطن لمرادي فذهب، فجاء عمر ﷺ كذلك، فجاء رسول الله ﷺ فنظر إليّ فضحك فقال: **«أبا هر»** قلت: لبيك رسول الله. قال: **«اتبعني»** فتبعته، فلما وصل إلى بيته قال: **«هل عندكم شيء؟»** قالوا: نعم، لبناً أهدي لنا. فقال لي: **«أبا هر»** قلت: لبيك رسول الله. قال: **«اذهب ادع لي أهل الصفّة»** فقلت في نفسي: أنا أحق بهذا اللبن، وماذا يعمل بأهل الصفّة هذا اللبن؟ ـ وهم قرابة السبعين رجلاً أو أكثر ـ وإذا جئت سوف يقول لي: اسقهم، فأكون أنا الأخير ولا يكون لي شيء، يقول: فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم، قال لي: **«أبا هر، اسق القوم»** فصرت أمشي به عليهم وكل واحد يشرب

(١) البخاري (٤١٠٢)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب؛ «سنن الدارمي» (٤٢)، باب ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

فأعطيه الثاني حتى انتهوا عن آخرهم، عند ذلك قال: «أبا هر، بقيت أنت وأنا» قلت: صدقت يا رسول الله، فقال لي: «اشرب» فشربت. ثم قال لي: «اشرب» فشربت. ثم قال: «اشرب» فقلت له: يا رسول الله والله لا أجد له مساغاً، عند ذلك قال لي: «أرني» فأخذه فشرب وهو كما هو[1]، وهناك أشياء كثيرة جداً، والمقصود أن معرفة الرسول ﷺ تثبت بهذه الأمور، فلهذا قراءة سيرته ﷺ مما يزيد الإيمان ويثبته، ولا شك أنه رسول الله ﷺ حقاً.

فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ؛ لَصَعِقَ.

هذا يدلنا على أن المقبور عنده الحياة، وعنده الإحساس وأنه يتكلم ويصيح ولكن ما نسمعه نحن، بل يسمعه من يليه، حتى المقبورين، ويستمر عذابه إلى أن ينتقل من عذاب لآخر.

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ،

إما أن ينعم إذا كان مؤمناً موقناً، معنى ذلك: أنه وهو رفاة في قبره أنه في نعيم، وهذا لا دخل له في العقل، بل هو من الأمور التي يجب الإيمان بها، وقد أخبرنا ربنا جلّ وعلا عن قوم ممن مات أنهم يتنعمون، ونهانا أن نقول إنهم أموات ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤] أحياء حقيقة، ولكن ما نشعر بحياتهم هذه، وحياة الرسل أكمل من حياة الشهداء في قبورهم،

---

(١) البخاري (٦٤٥٢)، كتاب الرقائق، باب كيف كان عيش ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا. ذكره البيهقي في «السنن الكبرى» (٤١٣٦)، باب المسلم يبيت في المسجد.

والمؤمنون أحياء، ولكن أرواحهم تختلف باختلاف الناس، أما الرسل فهم في أعلى عليين، في الملأ الأعلى كما قال ﷺ: **«اللهم الرفيق الأعلى»**[1] وهو في سياق الموت، وأما الشهداء فهم أيضاً يتفاوتون، فمنهم من تكون روحه في حواصل طيور تسرح في أشجار الجنة وتأكل كيف تشاء، ومنهم من يكون أقل من ذلك، وكذلك المؤمن جاء في الحديث: أن روح المؤمن طائر في الجنة، وأما الشهيد روحه في حواصل طير، وفرّق بين هذا وهذا، فإذاً من الأرواح ما يكون في الجنة ومنها ما يكون في حواصل طير في الجنة وهذا أكمل، ومنهم من يكون مرتهناً في قبره محبوساً فيه، ومنهم من تكون سجينة في النار معذبة، وهذا العذاب قد يستمر إلى أن يدخل النار، وقد ينقطع إذا كان من المسلمين أصحاب الكبائر، إما لأنه قد استوفى عذابه أو لأسباب أخرى، إما دعاء من قريبه كابنه أو غيره، أو صدقة قد تُصدق بها عنه أو غير ذلك من الأسباب الكثيرة التي قد تلحقه، ومنهم من يستمر عذابه وإن كان مؤمناً، ومنهم من لا يكفي عذابه في القبر وإن كان مؤمناً، فيعذب في النار ويبقى فيها ما شاء الله ثم يخرج، وهم أيضاً يتفاوتون، فالمقصود أن عذاب القبر يختلف باختلاف الإجرام، فإذا انتهت المدة التي أرادها الله جلّ وعلا ونفخ في الصور النفخة الثانية أعيدت الأرواح إلى أجسامها وهذه القيامة الكبرى.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ،

والقيامة الكبرى مبدؤها التي أخبر الله جلّ وعلا بها، وأكثر

(١) البخاري (٤٤٦٣)، كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ مسلم (٢٠٦١)، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض.

جلّ وعلا من القرآن في ذكر يوم القيامة مرة بالتخويف منها ومرة بتعظيمها وتهويلها ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣] ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: ١، ٢] ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١] أمر مهول جداً ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وقد أمر الله جلّ وعلا رسوله أن يقسم عليها ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] ولهذا رسولنا ﷺ هو نبي الساعة، فجاء بتفاصيلها كأن المؤمن ينظر إلى ما ذكر ويشاهد، والمقصود بتهويله وتعظيمه وتكريره والتخويف به أن يتنبه الإنسان وأن يستعد، وسميت القيامة لأن الناس يقومون من قبورهم أحياء ويجمعون في صعيد واحد في موقف هائل جداً لا نسبة لحياة الإنسان الدنيوية إليه، فيقومون خمسين ألف سنة والنار محيطة بهم، والشمس قريبة من رؤوسهم، وتصبح حرارة الأرض لا تطاق، والله أعلم كيف تكون هذه الحرارة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ أنهم يعرقون حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، وهذه الأمور لا تُقاس بالأمور الحاضرة، وإنما يُؤمن بها كما أخبر بها رسول الله ﷺ، فيعرقون حتى يلجم أحدهم عرقه فلا يستطيع أن يتكلم، فيصل العرق إلى أن يغطي فمه، ويختلفون في ذلك، فمنهم من يكون عرقه إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه، ومنهم إلى صدره، ومنهم إلى أذنيه[1]، ووقوفهم في هذا المقام جاء أنهم

(١) مسلم (٥١٠٨)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها؛ الترمذي (٢٣٤٥)، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، من حديث المقداد ﷺ.

يتمنون القضاء بينهم ولو إلى النار مما يدل على شدة الموقف وهوله، والقيامة هي النفخ في الصور، والنفخ في الصور اختلف العلماء فيه كم مرة؟

فمنهم من يقول ثلاث، ولا شك أن المذكور في القرآن من النفخات أنها ثلاث، ولكن هل هي ثلاث بالعدد؟

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] فهنا ذكر نفختين، في سورة النمل ذكر أنها للفزع، فهل تكون هذه ثالثة؟ أو أن الفزع قبل الصعق ثم يحدث الصعق فتكون واحدة؟ وهذا هو الصحيح أنها اثنتان، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «بين النفختين أربعون»[1] فقيل لأبي هريرة: سنة. قال: أبيت. قيل: شهر. قال: أبيت. قيل: يوم. قال: أبيت. يعني: التمييز لم يذكر هل هو سنة أو شهر أو يوم؟

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ يقول: **«ينفخ في الصور النفخة الثانية فأكون أول من ينفض التراب عن رأسه فأجد موسى باطشاً بقائمة من قوائم العرش»**[2]. وهذا يدل على أنها نفختان، أما الذين قالوا: إنه جاء التصريح بأنها ثلاث في حديث الصور الطويل صراحة، نقول: إن حديث الصور ضعيف لا تقوم به الحجة، فالنفخة الأولى لموت من كان حياً،

---

(١) البخاري (٤٩٣٥)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨]؛ ومسلم (٢٩٥٥)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٥٥٨٥) في «صحيح الجامع».

(٢) البخاري في «الخصومات» (٢/ ٢٨١) و«الأنبياء» (١٢/ ٣٥٩)، و«الرقاق» (٤/ ٢٣٤)، و«التوحيد» (٤/ ٤٧٤)، ومسلم في «الفضائل» (١٧/ ١٠١)، وكذا أحمد (٢/ ٢٦٢)، من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ.

أما الأموات لا يحسون بها، وتكون بعدها الأمور هائلة مثل تزلزل الأرض وتدكدك الجبال وتكوير الشمس والقمر والنجوم، ثم النفخة الثانية للبعث. جاء في الحديث الصحيح: **«إن السماء تمطر أربعين يوماً ماء كمني الرجال»**[1] فينبت الناس بذلك من قبورهم، والإنسان إذا مات تحلل بدنه وصار تراباً ولا يبقى فيه إلا عجب الذنب أو عجم الذنب، جاء بالميم وجاء بالباء، وهو جزء صغير جداً في أسفل الظهر، في العصعص، كالبذرة، وهو لا يفنى، بخلاف بقية البدن فهو يعود تراباً، فتعود بعد ذلك نفس الأجزاء التي تحللت إلى تراب وتفرّقت لتلتئم بإذن الله جلّ وعلا، ويكون الإنسان هو نفسه الذي كان في الدنيا بأجزائه، حتى الجزء الذي قطع منه يعود، لهذا قال ﷺ: **«تحشرون حفاة عراة غرلاً»** ومعنى حفاة: جمع حافٍ؛ أي: بدون نعال، وعراة: جمع عارٍ؛ أي: بدون ثياب، وغرل: أي: غير مختون؛ أي: أن الجزء الذي أخذه الخاتن وهي القلفة التي رميت تعود حتى يذوق الإنسان في جميع بدنه ما عمله في الدنيا ويقاسي ذلك. ولما سمعت عائشة ﵂ قول الرسول ﷺ في ذلك قالت: واسوءتاه، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض! قال لها ﷺ: **«الأمر أشد من ذلك»**[2] فلا ينظر أحد إلى أحد فالأمر هائل جداً، فكل إنسان يقول: نفسي نفسي، قد بلغت القلوب الحناجر، ولو أن هناك موت لماتوا ولكن لا موت، كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] فمن يراه يحسبه سكران ولكن ليس هناك سكر، بل هو العذاب والهول الهائل، وهذا الذي يجب الإيمان به والاستعداد له،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٥١٩)؛ وابن أبي شيبة في «المصنف».

(٢) البخاري (٦٥٢٧)، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر؛ مسلم (٥١٠٢)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، من حديث عائشة ﵂.

وكثير من الناس ما يريد ذكر هذه الأمور، وإذا ذكرت أعرض عنها، وكثير من الناس لو شككك في هذا لشك، والشك في هذا كفر، فهذا الذي ذكره الله جلّ وعلا في كتابه عن أنبيائه كلهم وأكثر منه في القرآن؛ لأن هذا سيكون في آخر هذه الأمة، ستنتهي الدنيا على هذه الأمة، ولهذا قال الله جلّ وعلا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ [القمر: ١] ويقول ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**(١) ويشير بأصبعيه السبابة والتي تليها.

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

يقومون بعد النفخ في الصور النفخة الثانية، التي إذا نفخ فيه كما يقول جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يسيرون على المحشر، وهي أرض بيضاء نقية كقرص البر النقي لم يسفك عليها دماء ولم يعمل عليها معصية، وتمد ويزاد فيها، وذلك أن الجبال ذهبت والمنخفضات سويت ومدت كمد الأديم، يعني: الجلد الذي يمده الدابغ بعدما يدبغه حتى تتسع للناس، سئل النبي ﷺ أين الناس ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فقال في رواية: **«هم على الجسر»**، وفي رواية: **«في الظلمة عند الجسر»**(٢) معنى ذلك: أن الجسر

---

(١) البخاري (٤٩٣٦)، كتاب التفسير، باب سورة النازعات، من حديث سهل بن سعد؛ مسلم (٥٢٤٥)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث أنس ﷺ.

(٢) مسلم (٤٧٣)، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما؛ ابن حبان (٧٥٤٥)، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم أجمعين، ذكر الإخبار عن وصف أول ما يأكل أهل الجنة عند دخولهم إياها تفضل الله علينا بذلك، من حديث ثوبان ﷺ. قال شاكر في تحقيقه لـ«شرح الطحاوية» لابن أبي عز الحنفي: وهم الشارح ﷺ في نسبة هذا الحديث للترمذي، من حديث أبي موسى، فإن الترمذي رواه بنحو معناه (٣/ ٢٩٤)، من حديث طريق الحسن البصري عن أبي هريرة، وأشار إلى حديث أبي موسى فقال: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي

يتسع للناس ليركبوا عليه، مع أنه سيأتي وصفه، وصف هائل، فيقومون من قبورهم أحياء يسيرون ما عليهم أكفانهم لتمزقها ولأنها تسلب بسرعة، عادت أجسامهم من التراب فصارت نشأة أخرى، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن هذه كالأولى وأن هذه أهون عليه من الأولى، ولله المثل الأعلى.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝﴾ [عبس: ١٧ - ١٩] خلقه من نطفة، قطرة ماء، ثم استحالت هذه إلى دم، ثم استحال الدم إلى قطعة بين دم ولحم، ثم استحالت فصارت عظاماً ولحماً وأعصاباً، ثم كوّنت وفتق فيها السمع والبصر والأحشاء وركب تركيباً جديداً، أما هذه فهي الأجزاء التي تحللت وصارت تراباً فتجتمع وتركب كما ركبت سابقاً، فيقوم الإنسان حياً على الصفة التي مات عليها.

حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ،

جاء أن الشمس تكون منهم ميلاً، فيقول الراوي: لا أدري أهو الميل الذي تكحل به العين، أو الميل المسافة؟

هريرة ﷺ، وقد رواه بعضهم عن علي بن علي، وهو الرفاعي، عن الحسن، عن أبي موسى. فقد رواه الإمام في «المسند» (٤/ ٤١٤ طبعة الحلبي)، عن وكيع، عن علي بن علي، عن الحسن، عن أبي موسى» وكذلك رواه ابن ماجه (٤٢٧٧)، من طريق وكيع بنحوه، بل إن رواية الترمذي إياه - من حديث أبي هريرة - هي من رواية وكيع، عن علي بن علي أيضاً، فالإسنادان ثابتان إذن عن وكيع».

والحديث - عندنا - صحيح من الوجهين، فإن سماع الحسن من أبي هريرة صحيح ثابت، كما بينت مفصلاً في شرح الحديث (٧١٣٨)، من «المسند»، وقد أعل البوصيري في «زوائد ابن ماجه» - حديث أبي موسى أيضاً، بأن الحسن لم يسمع من أبي موسى، وفي ذلك خلاف، ولكنه عاصره يقيناً، فإن الحسن ولد سنة ٢١هـ، وأبو موسى مات سنة ٥٢هـ على القول الراجح، وأما هذه الرواية - التي ذكرها الشارح - وفيها قول الحسن: «سمعت أبا موسى الأشعري» - فإن إسنادها ليس بين يدي، ولعلها رواية ابن أبي الدنيا، فلو كان إسنادها صحيحاً كصحة إسنادي أحمد وابن ماجه، لكانت قاطعة في سماع الحسن من أبي موسى.

وحر الشمس لا يُطاق مع أنها رفيعة جداً، فكيف يكون حرها إذا دنت وصارت بمقدار ميل مع حر النار؟ وأن النار تكون قريبة من المحشر.

وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

وإلجامهم العرق لا يكون لهم كلهم، فمنهم الأنبياء والصالحون والشهداء والأبرار وهم لا يخافون في ذلك اليوم ولا ترهقهم ذلة ولا يلحقهم ما يلحق الناس، ولكن سائر الناس وأكثرهم، وأشدهم الكفار ثم العصاة وهم أكثر الناس، ثم بعد ذلك الوقوف الطويل يلهمهم الله جلّ وعلا - إذا أراد أن يرحمهم ألهمهم - أن يطلبوا الشفاعة كما في «صحيح مسلم»: **«يجمع الله الأولين والآخرين فيقفون وقوفاً طويلاً فيلهمهم الله جلّ وعلا أن يطلبوا الشفاعة وفيهم أنبياؤهم»**[1] يعني: واقفون معهم، فإذا طلبت الشفاعة وشفع الله جلّ وعلا نبيه جاء للمحاسبة، وهو الذي يتولى حساب عباده جلّ وعلا بنفسه، والناس في المحاسبة أقسام ثلاثة:

القسم الأول: يذهب إلى النار، وهم الكفار الذين ليس لهم حسنات، وليس مع الكفر حسنة، أما لو قدر أن الكافر يعمل أعمال برّ كالإحسان إلى الناس والصدقة وغير ذلك، فإن هذا جاء أنه يجزى به في الدنيا في صحة بدنه وفي زيادة ماله وفي أمور الدنيا الأخرى، أما في الآخرة ليس له شيء؛ لأن من شرط قبول العمل الإيمان وهو كافر، فعمله حابط، فهؤلاء لا يحاسبون كما قال المؤلف، ولكن تعدّ عليهم أعمالهم وسيئاتهم فيذهبون إلى النار، يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

القسم الثاني: يقابل القسم الذي قبله تماماً، من المؤمنين سيئاتهم

---

(١) صحيح. وهو في «المسند» (٢/٤٣٥) بسند الصحيحين، وهو مخرّج في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٨١١). ألباني.

قليلة وحسناتهم كثيرة، فهؤلاء يسبقون إلى الجنة بلا حساب، كما قال ﷺ لما عرضت عليه الأمم وقيل له: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ومن يلحق بهم، قد جاء أن مع كل ألف سبعون ألفاً وجاء أكثر من ذلك، وإن كانت الأكثر فيها ضعف.

القسم الثالث: من له حسنات وسيئات، يحاسبون وتعرض عليهم أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ.

يقول بعض العلماء: إن نصب الموازين بعد المحاسبة، والحساب هو تعديد الأعمال على الإنسان، يقال: إنك فعلت كذا يوم كذا وكذا، وكذلك يأتي بالشهود، والشهود أنواع، إما شهود من النفس، وإما شهود من الأرض كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ١، ٢] يعني: الأموات الذين في بطنها أو على ظهرها؛ لأنهم صاروا تراباً ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ٣، ٤] تخبر بما فعل على ظهرها، فالتراب والحصى والجبال وغيرها يحدث، يقول عمل فلان في يوم كذا كذا وكذا، فهم شهود على الإنسان؛ لأن الله جلّ وعلا يقيم الحجة على خلقه ويعذر إليهم، فإنه يحب العذر جلّ وعلا ولهذا أرسل الرسل، ثم بعد ذلك تنصب الموازين، وجاءت بلفظ الموازين، فهل هي كثيرة؟ كقوله جلّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٤٧] ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨، ٩] ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪﴾ [القارعة: ١ ـ ١١] فجاءت الموازين مجموعة، فهل لكل إنسان ميزان أو لكل عمل ميزان أو هو ميزان واحد وجمع لكثرة ما يوزن به من الأعمال؟

ذكر القرطبي عن بعضهم أنه قال: إنه ميزان واحد كبير عظيم وفيه موازين معلقة به لكل عمل أو لكل إنسان.

ولكن هذا يحتاج إلى دليل، أو أنه كما يقول البغوي في تفسيره: إنه جمع لأن فيه كفتان وفيه لسان وفيه كذا وكذا، فهو كقوله جلّ وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ⑩⑤﴾ [الشعراء: ١٠٥] وهو رسول، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] ويقول: إن المقصود هنا الرسول لأن الخطاب لمحمد ﷺ، ثم ما هو الذي يوزن؟ هل هو الإنسان نفسه أو عمله أو صحائف العمل؟

على خلاف بينهم، وقد جاءت الأدلة في هذا وهذا، ففي الأول: جاء أنه يأتي بالرجل العظيم السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يجني الكباث من شجر الأراك، فنظر إليه الصحابة وإذا بالهواء يكاد يطير به، فضحكوا، فقال الرسول ﷺ: «مِمَّ تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيه يا رسول الله. فقال: **«ولكنهما في الميزان أثقل من أحد»**[1] فمعنى ذلك: أنه يوضع هو في الميزان. وفي الترمذي: **«أنه يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، فيقال له: تنكر من ذلك شيئاً؟ فيقول: لا، ويقرّ بأعماله وسيئاته فيقال له: لك عذر؟ لك حسنة؟ فيهاب الرجل ويقول: لا، فيقول الله: بلى، إن لك عندنا حسنة**

(١) حسن. رواه أحمد في «المسند» (١/٤٥٠) بسند حسن. ألباني.

وإنك لا تظلم اليوم شيئاً، فيؤتى ببطاقة مكتوب بها أشهد أن لا إله إلا الله فيقول: يا رب ما هذه أمام هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم شيئاً، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات وتثقل البطاقة»[(١)]، وهذا معناه: أن الصحائف هي التي توزن، وجاء أن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن، وهذا معناه: أن الأعمال توزن، فالأعمال تجعل مجسدة، فتوزن وتشاهد وترى وليس هذا ممتنعاً أن يكون الجميع كله، يعني الشخص نفسه يوزن وأعماله توزن وصحائفه توزن، فيجوز أن يكون الجميع ويجوز أن يكون هذا لأناس، والله أعلم، لكن الأدلة تدل على ما ذكر، أما جمع الميزان، فالذي صححه المحققون أنه ميزان واحد، وجمعه بالنظر إلى ما وضع فيه من كثرة الأعمال، في حديث أبي مالك الأشعري الذي في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: **«الطهور شطر الإيمان»** إلى أن قال: **«والحمد لله تملأ الميزان»**[(٢)] فهنا جعله مفرداً وجعله يمتلئ، وكذلك جاء أن الإنسان إذا وضع في قبره أنه يأتيه عمله بصورة رجل حسن الوجه، حسن الهيئة، طيب الرائحة فيقول له: أبشر باليوم الذي يسرك، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يبشر بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، وبالعكس إذا كان سيئ العمل يأتيه رجل قبيح المنظر منتن الرائحة فيقول: أبشر بما يسوؤك، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك السيئ. وفي حديث آخر: أن القرآن يأتي بصورة شاحب اللون، فيأتي لصاحبه ويقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أظمأت نهارك وأسهرت ليلك أبشر ما يسرك الآن، يعني: قراءته للقرآن وليس القرآن

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، وللحافظ حمزة الكناني (جزء البطاقة).

(٢) صحيح. وهو مخرّج في «تخريج مشكلة الفقر» برقم (٥٩). ألباني.

نفـه، كما جاء في الحديث: أن البقرة وآل عمران يأتيان كالغمامتين أو كالغيايتين أو كالطير الصواف[1]، يعني: ثواب القراءة، وإلا فالقرآن كلام الله جلّ وعلا، وإنما المقصود أن الأعمال تجسد يوم القيامة وتوزن وتشاهد وترى، وهذا يكون من أول القيامة، يعني: إذا وضع الإنسان في قبره يشاهد شيئاً من ذلك.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

معنى ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروها في جهنم، فهم اكتسبوا بأنفسهم وأعمالهم البقاء والخلود في جهنم ومعنى ذلك: أن الأنفس تجارة، بإمكان المرء أن يسعد بها سعادة أبدية لو آمن وعمل الصالحات، ولكنه خسرها فصار في جهنم وهي أعظم خسارة ولا تجبر أو تعوض، وجاء في آيات أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم. يقول العلماء: إن أهليهم الذين خسروهم كما جاء في الأحاديث: أن الإنسان له مسكن في النار ومسكن في الجنة ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ فإذا كان الإنسان كافراً يرث مسكنه في الجنة المؤمنون، فيكون قد خسر مسكنه وأهله الذين في الجنة، أما أهله الذين في الدنيا فقد انقطع النسب بينه وبينهم ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾.

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ،

ومعنى تنشر: تفتح وينظر فيها، وكانت مطبقة مطوية، والدواوين:

(١) مسلم (١٣٣٨)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة؛ الترمذي (٢٨٠٨)، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في سورة آل عمران، من حديث النواس بن سمعان ﵁.

هي صحائف الأعمال التي سجلتها الملائكة؛ لأن كل عبد معه ملكان، أحدهم يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات، كما قال ﷺ: **«إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوهم»**(١) أي: أنهم كرام لا يفارقونكم فاستحيوهم؛ أي: استحوا منهم ولا تعملوا القبائح، يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٧، ١٨] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] يعني: أنهم عند الله كرام، فأكرموهم ولا تهينوهم وتعملوا أعمالاً سيئة تسوؤهم، وجاء أنهما لا يفارقان العبد إلا في حالة قضاء حاجته في الخلاء، ولو تكلم لاضطر أن يحضر ليكتب، وكذلك في حالة الجماع؛ لأن الملائكة لا تنظر على العورات بخلاف الشياطين، فإنهم يأنسون بالنجاسات والعورات، ولهذا يسن للإنسان أنه إذا أراد أن يتعرى أن يذكر ربه حتى يكون ذلك ستراً بينه وبين الشياطين.

> فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿طَائِرَهُ﴾ يعني: عمله الذي يعمله، فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ وحاسب نفسك، فيجد فيه مثقال الذرة كما قال الله جلّ وعلا عن الكافرين أنهم قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ثم إذا نشرت وقرر بها تطايرت أيضاً. جاء في الحديث أنه عند النشر تعرض

(١) الترمذي (٢٧٢٤)، كتاب الأدب عن رسول الله، باب ما جاء في الاستتار عند الجماع، من حديث ابن عمر ﷺ.

الأعمال ثلاث مرات، مرتان يكون من الإنسان جدال ونقاش، المرة الثانية تتطاير الصحف، فآخذ صحيفته بيمينه، وآخر آخذها بشماله، وآخر من وراء ظهره، تلوى يده الشمال وتجعل من وراء ظهره ثم يلوى عنقه ويجعل وجهه على قفاه، فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] وهذه علامة الشقاء، يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩] يعني: أنه يمد كتابه إلى أهل الموقف فرحاً، وكان أهل الموقف ليس لهم شغل إلّا أن ينظروا كتابه، من شدة ما استولى عليه الفرح، فذكر جلّ وعلا في هذا أنه كان من أهل اليمين الذين كانوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ثم يقول: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ٢٠] والظن هنا معناه: اليقين، وأنه سعد ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أما الآخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٧] أي: ليتني ما أوجدت ولا خلقت، ولكن لا يفيد التمني ولا الحسرات، ويقول جلّ وعلا في آيات أخرى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٦ ـ ٩] يعني: أهله في الجنة. نسأل الله الكرم من فضله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ١٠، ١١] مثل ما قال الأول: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٧ ـ ٢٩] وثم بعد ذلك يقال للملائكة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢] نعوذ بالله، نكال هائل جداً، ومع ذلك إذا عمل بهذا الشيء وألقي في سواء الجحيم ولها أبواب أوصدت، وإيصادها أن يوضع عليها عمد ممدة من الحديد حتى ييأس من فتحها والخروج منها، فهذا هو الذي يحصل لكثير من الناس ـ نسأل الله العافية ـ لأن أكثر الناس كفار.

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ

فرداً فرداً، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] وتكون المحاسبة في آنٍ واحد، وكل واحد يكلمه الله ويرى أنه لا يكلم غيره، وهو يكلم عباده كلهم في آنٍ واحد جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛

وخلوه بأن يجعله خالياً من الناس فقط، وإلّا فهو جلّ وعلا العلي الأعلى، فهو على عرشه ويستر عبده المؤمن من الخلق إذا أراد رحمته، فيقرره بذنوبه فيقرّ، فإذا أقرّ واعترف ورأى أنه هلك يقول الله جلّ وعلا له: «**أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم**»[1]. ثم يعطى صحيفته بيمينه، في حديث عبد الله بن عمر الذي في الصحيحين قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى، يعني: أن الله يناجي عبده، قال سمعته يقول: «**يدني عبده المؤمن فيضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فإذا أقرّ بها، قال له جلّ وعلا: أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم**»[2].

كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

يعني: وصفه في الكتاب والسنة طويل وكثير جداً؛ لأن الرسول ﷺ هو رسول الساعة، وهو الذي على أمته تقوم القيامة، فجاء بتفاصيل ذلك تفصيلاً عجيباً، ولهذا كل من آمن بالرسول ﷺ لم ينكر ذلك، وإنما الفلاسفة الذي قلنا إنهم قالوا: إن هذا الذي جاء به محمد ﷺ من باب التخييل، وأن هذه أمور تخييلية؛ لأنه لا يصلح الناس إلا ذلك، وإن

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

كانت في الواقع ليست شيئاً، خيال وكذب، لهذا جعلوا النبوة بالإمكان، إذا اجتمع في الإنسان ثلاثة صفات فبإمكانه أن يكون نبياً.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ، فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

ثم يذهب بهم إلى النار، بعد ذلك يقول الله جلّ وعلا لهم: ماذا تريدون؟ فيقولون: نريد الماء، قد عطشنا. فيقول: ألا تردون. فيرون جهنم كأنها سراب، فيظنون ماء فيردونها فيقعون فيها، وكذلك الذين يكونون على باطل وهم يرون أنهم على حق، يعني: من أهل البدع المكفرة كما قال الله جلّ وعلا: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ الغاشية هي: القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ١ ـ ٤] كثير من المفسرين يقولون: هؤلاء أهل البدع الذين تكون بدعهم مكفرة، يصلون ويصومون ويحجون ويتصدقون ويتعبون، ولكنهم في جهنم لأنهم تركوا الأصول وارتكبوا كفراً.

حَوْضُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَكَانُهُ وَصِفَاتُهُ

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ

الحوض: هو مجتمع الماء الذي يجتمع فيه، وقد جاء وصفه بأنه مسيرة شهر، عرضه شهر وطوله شهر، وأنه يأتي عليه يوم والناس عليه زحام، وعدد كيزانه مثل عدد نجوم السماء، يعني: كثيرة جداً، ولا يلزم أن تكون بعدد نجوم السماء، وجاء أن لكل نبي حوض[1]، غير

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي (٢/٦٧) طبع الهند، وقال: غريب، ثم ذكر أنه ورد مرسلاً وقال: «وهو أصح». ورواه الطبراني أيضاً كما في «المجمع» (١٠/٣٦٣) وقال: «وفيه مروان بن جعفر السمري، وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه»

أن أعظم الأنبياء حوضاً وأكبرها وأحسنها هو حوض نبينا ﷺ، وهو يكون قائماً عليه ومعه عصا يذود الناس عنه، قيل له: كيف تعرف أمتك في الأمم؟ فقال: «أرأيتم لو أن رجلاً له خيل محجلة وأخرى دهم اليس يعرفها؟» قالوا: بلى. قال: «إنكم تردون على الحوض غراً محجلين من أثر الوضوء»(١) الغرة: تكون في الوجه، والتحجيل: يكون في الرجلين.

مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً، لَا يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَداً.

وقد اختلف العلماء في مكانه، جاءت عدة أحاديث فيه، فمن الأحاديث التي تدل على أنه بعد الصراط حديث أبي رزين العقيلي وفيه: «فيسلكون جسراً من النار يطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول ربك أو أنه قال: فيطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة ما رأيتها قط، ولعمر إلهك ما يبسط أو قال: ما يسقط واحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يطهره من الطواف والبول والأذى»(٢)، يعني: إذا شرب هذه

= وبقية رجاله ثقات» ثم وجدت ما يقوي الحديث، فخرّجته في «الصحيحة» (١٥٨٩). ألباني.

(١) رواه مسلم (٢٦٣)، من حديث نعيم بن عبد الله: أنه رأى أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه ويديه حتى كاد يبلغ المنكبين ثم غسل رجليه حتى رفع إلى الساقين ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». ورواه ابن ماجه (٤٢٩٢)، من حديث ربعي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن، والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم ولهو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه». قيل: يا رسول الله أتعرفنا؟ قال: «نعم تردون عليّ غراً محجلين من أثر الوضوء ليست لأحد غيركم».

(٢) أحمد (١٥٦١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٨٣٥).

الشربة تظهر من كل شيء»، فهذا ظاهره ـ كما هو واضح ـ أنه بعد الصراط، وهناك أحاديث أخرى تدل على أنه قبل الصراط، ولهذا أشكل على كثير من العلماء كيفية الجمع، فجمع بينهما ابن القيم بأن قال: الأحاديث يوافق بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً، وقد قال ﷺ: **«إن طوله شهر وعرضه شهر، فلا مانع أن يكون أوله في المحشر وآخره بعد الصراط»**.

ولكن الله أعلم؛ لأن الصراط فوق جهنم، فكيف يكون أوله في المحشر، يعني جهنم حالت بينهم وبين الجنة، ولا سلوك إلى الجنة إلا من فوقها، وفي هذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، فكيف يكون أوله في المحشر وآخره بعد الصراط؟ وجهنم حالت بينهم وبين الجنة، والعبور من فوق جهنم؟

ولهذا جمع غيره بأن قال إن هناك حوضان، واحد في المحشر والآخر قبل دخول الجنة، والله أعلم، المهم أن النبي ﷺ له حوض يصب فيه ميزابان من الجنة، يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾ [الماعون: ١، ٢] جاء في حديث أنس وغيره أن النبي ﷺ أغفى إغفاءة واستيقظ وهو يضحك، فقال: **«ألا تسألوني مم أضحك»** قالوا: مم تضحك يا رسول الله. قال: **«إن الله أعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة فيه خير كثير، ترد عليه أمتي»**[1].

الحوض قد تكاثرت الأحاديث فيه وقد بلغت حد التواتر، وكذب به أهل البدع مثل المعتزلة والخوارج وغيرهم بناء على أصولهم.

(١) صحيح. وهو في «المسند» (٣/١٠٢) بسند صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه في «صحيحه». ألباني.

الصِّرَاطُ مَعْنَاهُ وَمَكَانُهُ وَصِفَةُ مُرُورِ النَّاسِ عَلَيْهِ

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ،

متن جهنم هو أعلاها، أي: فوقها، والصراط في اللغة: هو الجسر الذي يكون بين جبلين أو بين فضاء وفضاء، وقد يكون تحته ماء أو نهر أو ما أشبه ذلك، والمقصود هنا بالصراط: المعبر الذي يعبر عليه الخلائق إلى الجنة، وجاء الصراط في كتاب الله على قسمين:

أحدهما: المعنوي، وهو الشرع الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقد أوجب الله علينا أن نسأله هدايته لهذا الصراط في كل ركعة من ركعات الصلاة في قوله جلّ وعلا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] الذي لا اعوجاج فيه، ومعلوم أنه إذا أطلق الصراط فلا بد أن يسع للسلوك عليه ولا بد أن يكون مستقيماً وواضحاً، واستقامته كونه عدل وحق ليس فيه غموض ولا التواء لا في المعنى ولا في الحس.

الثاني: الحسي، وهو الذي يسلك بالأقدام ويسار عليه، وهو الجسر الذي يوضع على جهنم من فوقها؛ لأن جهنم تكون محيطة بأهل الموقف من جميع الجوانب، وليس هناك معبر إلا من فوقها، فينصب الصراط في ذلك اليوم، يجعله الله على متنها أي: من فوقها، ولهذا جاء وصفه بأنه حار جداً وأحر من الجمر؛ لأن تحته جهنم وحرها شديد جداً لا نعهده نحن، ولهذا جاء أن النار التي في الدنيا جزء من سبعين جزء من نار جهنم، وإن كانت هذه كافية، ولكن عذاب الله شديد، ومع ذلك جاء عن بعض الصحابة وغيرهم أنه دقيق أدق من الشعر وحديد كحد السيف، والمشي عليه ليس بقوة البدن وإنما هو بالعمل، إذا كان الإنسان مستقيماً على الصراط المعنوي الذي جاء به رسولنا ﷺ سلك هناك وإلا تعثر وسقط في جهنم.

﴿وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ﴾.

الجنة في السماء والنار دونها، وسلوك الناس يكون على قدر استقامتهم في هذه الدنيا، فمن كان متقياً محارم الله ومتقياً أن يترك شيئاً من واجباته التي أوجبها عليه فإنه يكون مستقيماً على ذلك الصراط، أما إذا كان مضيعاً مفرطاً فقد يتعثر ولا يستطيع العبور.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾.

يعني بسرعة هائلة، جاء في الحديث أن بعضهم كانقضاض الكوكب[1]، يعني أسرع مما هو معهود في الدنيا من سرعة المرور.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ﴾.

وهو سريع أيضاً.

(١) صحيح. وأخرجه الحاكم (٢/٣٧٦)، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.
قلت: وفيه يزيد بن عبد الرحمن، ولم يخرج له الشيخان شيئاً، ثم هو وإن كان صدوقاً، فقد كان يخطئ كثيراً، وكان يدلس، كما في «التقريب»، وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث، فأمنا بذلك تدليسه، فإنما يخشى منه الخطأ فيه، لكنه قد توبع كما يأتي، فأمنا بذلك خطأه أيضاً. وقد أخرجه الحاكم أيضاً (٤/٥٩٠ ـ ٥٩٢) بتمامه مطولاً، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/٤٦/٢ ـ ٢/٤٧)، من طريق أبي خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعاً، وقد تابعه زيد بن أبي أنيسة مرفوعاً أيضاً بتمامه عند الطبراني، وزيد ثقة، فصح بذلك الحديث والحمد لله. ألباني.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْواً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفاً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطَفُ خَطْفاً وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ.

فيختلف الناس كاختلافهم في فعل الواجبات وترك المحرمات والتزام الأمر وتقوى الله جلّ وعلا، فيظهر اختلافهم هناك جلياً واضحاً، ومنهم من يخطف كما يقول النبي ﷺ: **«على الصراط كلاليب وحسك كحسك السعدان»**[1] والسعدان شُويكة تكون في نجد ويكون في وسطها شوك كثير متعقف، فإذا مسكت شيئاً يكون إسقاطها صعب إلا أن يتكسر شوكها، ولكن هذه لا يعلم عظمها إلا الله، والكلاليب تمسك الناس وتقلبهم في النار، وهذا تكاثرت فيه الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فهو مما يجب الإيمان به وسيمر الإنسان عليه لا بد، فينبغي أن يستعد له، وجاء أنه مدحضة مزلة، تزل عليه الأقدام، والمدحضة: هي الأرض التي يكون فيها طين ويأتيها الماء كثيراً فلا تمسك عليها الأرجل فتزل، ومزلة صفة للمدحضة.

الْقَنْطَرَةُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ

فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ

فمن مر على الصراط وانتهى دخل الجنة، ومن تعثر وسقط فيكون بحسب ما يقوم في قلبه من الإيمان وعدمه، قد يبقى وقتاً فيخرج، وقد لا يخرج إذا لم يكن عنده إيمان، فالذين يعبرون على الصراط هم المسلمون ومن كان ظاهره الإسلام، أما الكفرة فيتساقطون في النار، وقد فسر قول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا

(١) ابن ماجه (٤٢٧٠)، كتاب الزهد، باب ذكر البعث؛ أحمد (١٠٦٥٩)؛ الحاكم في «المستدرك» (٨٨٩٠)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

﴾ [مريم: ٧١] بهذا؛ لأن العبور على الصراط لا بد أن يصاب الإنسان فيه بشيء من لفح جهنم وحرها، إلا الذي يمر كلمح البصر وكخطف البرق وكالريح، ومن الناس من يدخل الجنة بغير حساب، وجاء عددهم سبعون ألفاً، وإن كان مع هذا العدد زيادة، بعضهم يبقى وقتاً طويلاً على الصراط، مرة يحبو ومرة يزحف ومرة يتعلق.

فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا، وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

يعني بعد عبورهم للنار، والقنطرة: هي البناء المرتفع الذي يعبر عليه وتكون محلاً لحبسهم حتى يُقتص منهم، وهذا لمن علم الله جلّ وعلا أن القصاص لا يأتي على حسناته؛ لأن القصاص على الحسنات، فهؤلاء علم الله جلّ وعلا أنهم كلهم يدخلون الجنة وإن كان بعضهم عليه حقوق لبعض فإنها تؤخذ ويعطى صاحب الحق، فيصبح صاحب الحق خالصاً ليس له مطلب وبذلك تنقى قلوبهم ولا يصبح على بعضهم لبعض طلبات أو عليه غل، فلا يدخلون الجنة حتى يتطهروا من كل غل وحقد يكون في نفوسهم، فإذا اقتص لبعضهم من بعض وهذبوا من المظالم ونقوا مما في نفوسهم هناك أذن لهم في دخول الجنة؛ لأن الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب يكون طيبه ظاهراً وباطناً، يعني باطناً في قلبه، فليس فيه حقد ولا غل ولا شيء على إخوانه، وظاهراً قد طابت أعماله وطاب جسده.

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ.

وقد جاء النص بذلك، فأمته أول من يبعث من الأمم من قبورهم، وأول من يسبق إلى الموضع المرتفع، في المحشر، وأول من يعبر على

الصراط، وأول من يدخل الجنة؛ لأنهم أفضل الأمم عند الله جلّ وعلا، ولكن من عصا وخالف يكون عذابه أشد ـ نسأل الله العافية ـ يقول الله جلّ وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهذه الخيرية اكتسبت بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وكذلك قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ووسطاً يعني خياراً، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[1].

وقد يقول قائل: القرآن فيه قول الله جلّ وعلا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧] ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦] في آيات عدة يذكر الله جلّ وعلا فضل بني إسرائيل على العالمين، والعالمون: هم الأمم، فكيف تكون هذه الأمة هي أفضل الأمم؟.

الجواب: أن الله فضلهم جلّ وعلا على عالم وقتهم وليس على أمة محمد ﷺ. فهم أفضل الأمم في ذلك الوقت وما قبله، ولا يلزم أن يكون التفضيل في الأعيان، قد يكون قبلهم من هو أفضل في أعيانهم، كما أنه قد يكون في الأعيان السابقة من هو أفضل من هذه الأمة، فالله جلّ وعلا يقول لما ذكر السابقين قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٤] وهذا في الأمم السابقة، فهذا يدل أن السابقون في الأمم السابقة في ظاهر الآية أكثر من هذه الأمة، والله أعلم بمراده، ولكن جملة هذه الأمة أفضل من غيرها، أما أول من يدخل الجنة من

---

(١) أحمد (١٩١٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٨٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى»، والطبراني في «المعجم الكبير والأوسط»، جميعها من حديث حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه، عن جده.

هذه الأمة فجاء في سنن أبي داود والنسائي والترمذي أنه أبو بكر الصديق ﷺ.

شَفَاعَاتُ النَّبِيِّ ﷺ

الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو يقابل الوتر، وسميت شفاعة لأن طلب الشافع ضم إلى طلب المشفوع له، فبعدما كان وتراً صار شفعاً، وقد يقال أيضاً لأن الشافع شفع المشفوع له فهو كان وحده فصار شفعاً، والشافع كذلك يشفع المشفوع عنده إذا كان من بني آدم، فقد يؤثر عليه ويحرك الهمة عنده ويكون بشفاعته معه شافعاً، يعني أنه يتحرك عند قضاء الحاجة كما تحرك الشافع فصاروا اثنين، أما الله جلّ وعلا فهو وتر لا أحد يشفعه ولا تؤثر شفاعة الشافع عنده بشيء، أي: على إرادته وما يريده ويقضيه جلّ وعلا، فكل شيء بيده، ولكن لله جلّ وعلا أسباباً هو الذي رتبها وقضاها وأرادها، ولهذا هو الذي جلّ وعلا يلهمهم طلب الشفاعة إذا أراد رحمتهم، كما جاء ذلك صريحاً في صحيح مسلم أنه يلهمهم طلب الشفاعة فيطلبوها.

وَلَهُ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

هنا ذكر أربعاً قال: «ثلاث» ثم ذكر أربعاً، وتعريف الشفاعة في الاصطلاح: أنها ضم طلب الشافع إلى طلب المشفوع له فصارت شفاعة، أما في اللغة: فهي مأخوذة من الشفع الذي هو ضد الوتر، وبعضهم يعرفها ويقول: هي طلب الخير للغير. ولكن هذا عام، والشفاعة في الواقع هي أصل الشرك الذي وقع للناس في قديم الزمان وحديثه؛ لأنها بنيت على قياس الخالق على المخلوق تعالى الله وتقدس، يعني قاسوا الله جلّ وعلا على خلقه، فقالوا: إنه لا يحسن أن تتقدم إلى الله بالطلب رأساً بلا واسطة؛ لأننا نشاهد العظماء والكبراء تتخذ الوسائط عندهم أولاً،

ويكون هذا من باب التعظيم لهم، وهو قياس فاسد في الواقع، فمن هنا اتخذت الأصنام والمعبودات؛ لأن واقع عبادة الكفار سابقاً ولاحقاً كلها بقصد الشفاعة، يطلبون من يطلبون منه ليشفع لهم عند الله، وإلا فكلهم يعرفون أن المتصرف الخالق الرازق المحيي المميت هو الله جلّ وعلا، وأن الشفعاء هؤلاء ليس بيدهم شيء مع الله تعالى، وإنما يقولون: إنهم إما كرماء على الله، فإذا طلبنا منهم فهم يطلبون بدورهم من الله فيكرمهم ويعطيهم، أو أنهم لا ذنوب لهم، فإذا دعوا تكون إجابتهم أقرب، مثل الأصنام والأشجار والأحجار وغيرها، ولهذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ويقول جلّ وعلا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣] يعني بل اتخذوا من دون الله شفعاء؛ لأن كل (أم) تأتي في القرآن معناها: بل، ثم قال: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] يعني تتخذون شفعاء وهم بهذه الصفة، ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ [الزمر: ٤٣] و﴿شَيْئًا﴾ هنا نكرة، يعني عامة يدخل فيه القليل والكثير، فهم لا يملكون شيئاً، ومع ذلك ليس عندهم عقول لأنهم إما شجر وإما حجر وما أشبه ذلك، فالمقصود أن الشفاعة هي أصل الشرك، أما الشفاعة المثبتة التي جاءت في القرآن فهي التي تكون بإذن الله جلّ وعلا ولمن ﷺ، فمعنى ذلك أن المشرك لا نصيب له من الشفاعة، والشفاعة في كتاب الله شفاعتان:

الأولى: شفاعة مثبتة: وهي التي تكون بإذن الله جلّ وعلا.

الثانية: شفاعة منفية: وهي التي زعمها الكفار لأصنامهم، وزعمها المشركون من هذه الأمة أنها تكون للأولياء والمقبورين وغيرهم ممن يطلبون منهم، وقد لا يكونون أولياء بل شياطين ولكن ادعيت لهم الولاية، فهذه منفية لقوله جلّ وعلا: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهذا معروف تفصيله.

أمّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى:
فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

يقول بعض العلماء: إن هؤلاء أولوا العزم ما عدا آدم لقول الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ويقولون: أولوا العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وليس في هذا شيء صحيح، فإن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولم يأتِ النص عليهم، غير أن هؤلاء ذكروا في آيتين من كتاب الله جميعاً في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى، لهذا قال بعض العلماء: أنهم هم أولوا العزم، وهم الذين ذكروا في حديث الشفاعة غير أن معهم آدم، وآدم ليس من أولي العزم؛ لأن الله أخبر أنه ليس له عزم ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والعزم: هو القوة في أمر الله واجتناب نهيه والصبر على ما يصاب في ذلك والقيام بحقوق الله جلّ وعلا على الوجه المطلوب، وجاء التصريح في سبب طلبهم من آدم وبداءتهم به، وأنهم يقولون: إن الله فضله لكونه خلقه بيديه وكونه أسكنه الجنة وأسجد له الملائكة وكلمه بلا واسطة، وهذه كلها من الخصائص، وإن كان يشاركه في التكليم غيره مثل موسى ومحمد ﷺ، فيعتذر ويقول: ما أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، فيرسلهم على نوح، فيعتذر ويقول: إنه كان لي دعوة دعوت بها على قومي، فيرسلهم إلى إبراهيم فيعتذر، وكل واحد منهم يقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني فعلت كذا وكذا، فلا أسأل إلا نفسي، اذهبوا إلى غيري، فالموقف شديد جداً، حتى إنهم يأتون إلى إبراهيم يقولون: أنت خليل الرحمٰن، فيقول: أنا خليل من

وراء إلى وراء، إلى وراء، وقد كذبت ثلاث كذبات، اذهبوا إلى موسى، وهذه الكذبات في الواقع هي من مدافعة الكفار وجهادهم، وفي الواقع ليست كذبات صريحة، فقوله للجبار في زوجه: إنها أختي، قد قال قبل ذلك لها: أنتِ أختي في الإسلام، فليس في اليوم مسلم غيري وغيرك؛ لأنه لو قال إنها زوجته لأخذها، وكذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] كلها جاء لها تأويل صحيح، أما موسى ﷺ فإنه يعتذر بقوله: إنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، ومعلوم أن قتله لهذه النفس خطأ لأنه وكزه بيده فمات، واليد عادة لا تقتل، وهذا من القتل الخطأ، ومع ذلك طلب من ربه المغفرة فغفر له، وعلم أن الله غفر له، فيعتذر بهذا، فهي ذنوب تخوف أن تكون ذنوباً، وإلا المغفور ليس ذنباً في الواقع، أما عيسى فإنه لم يذكر أن له ذنباً، فيقول: اذهبوا إلى غيري، فيأتون إلى محمد ﷺ، يقول: إذا أتوا إلي ذهبت إلى مكان تحت العرش يقال له: الفحص، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فيدعني ما شاء أن يدعني، ويفتح علي من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن، وقد جاء في حديث أنه يبقى ساجداً قدر أسبوع، ثم بعد ذلك يقول الله جلّ وعلا له: ارفع رأسك واشفع تشفع. فقبل أن يقول له: اشفع تشفع، لا يشفع لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فيشفع إلى الله جلّ وعلا في أن يأتي لمحاسبة خلقه، وهذه الشفاعة لا خلاف فيها بين الأمة، المعتزلة والخوارج يثبتونها، إلا أن الخوارج أنكروا الشفاعة، ولهذا تجد في كتب الحديث أن هذه الشفاعة تذكر أولاً ثم يعدل عنها ويُذهب إلى الشفاعة في العصاة، والسبب كما قال الحافظ ابن حجر كَلَّهُ في الفتح: لأن الشفاعة في الموقف أمر متفق عليه، وإنما الذي كان ينكر في ذلك الوقت الشفاعة في العصاة، في أهل الكبائر وفيمن يدخلون النار، ولهذا ينصون عليها ويتركون الشيء المتفق عليه، فإذا تأملت حديث الشفاعة

فإذا فيه حذف واختصار من أجل ذلك، هذه واحدة، والصواب أن هذه هي المقام المحمود الذي يقول الله جلّ وعلا لرسوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩] هذا هو الصحيح، أن هذا هو المقام المحمود؛ لأن الأولين والآخرين من الأمم يحمدونه على هذا الموقف، وذلك أن حقيقة الشفاعة هي إرادة رحمة الله للمشفوع وإظهار كرامة الشافع، فالله جلّ وعلا يوقفه هذا الموقف ليظهر كرامته فيُحمد من الأولين والآخرين.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ:
فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

يعني أنه أول من يستفتح باب الجنة ﷺ، ولا يفتح لأحد قبله، ولهذا جاء النص أنه إذا ضرب الباب قال له خازن الجنة: من؟ فيقول له: محمد. فيقول: أمرت ألا أفتح لأحد قبلك، فيفتح له، فشفاعته هذه ليست مجرد ضرب الباب، بل يطلب من ربه جلّ وعلا ويأذن الله جلّ وعلا له، ويكون هذا الأمر الذي جاء إلى من يمسك الباب، يقفله ويفتحه، وهذه أيضاً لا خلاف فيه.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ:
فَيَشْفَعُ فِيمَنْ إسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِي مَنْ إسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا،

وهذه الشفاعة أنكرها المعتزلة والخوارج، وهي أنه يشفع فيمن استحق النار ألا يدخلوها، وهذه ليست خاصة له ﷺ، بل يشاركه فيها الرسل والملائكة والشهداء والصديقون، وجاء أيضاً العلماء وغيرهم، فكلهم يشفعون في قوم استحقوا دخول النار فلا يدخلوها بشفاعتهم التي يقبلها الله جلّ وعلا، وحتى الأطفال جاء أنهم يشفعون لوالديهم.

وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

وهذا القسم الرابع الذي ذكرنا سابقاً، وهي أنه يشفع ﷺ فيمن دخلها أن يخرج منها، فهذه أربع أنواع من الشفاعة التي ذكرها هنا، وبقي أنواع أخرى ذكرها شارح الطحاوية وغيره، فتكون الشفاعة ثمانية أنواع، فنقول:

الشفاعة الخامسة: شفاعته ﷺ في أبي طالب أن تخفف عنه النار، فيجعل في ضحضاح من نار يصل إلى كعبيه يغلي منها دماغه ويرى أنه أشد الناس عذاباً وهو أهون أهل النار عذاباً، وهذه اعترض عليها بعض الناس، يقولون: إن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وهذا نفعته، والصحيح أن النفع من الشفاعة هو الخروج من النار وهذه ليس فيها خروج، إنما هو تخفيف فقط، وإلا فهو لن يخرج منها.

الشفاعة السادسة: شفاعته ﷺ في قوم يدخلون الجنة بلا حساب، يقول الحافظ ابن حجر: ويحسن أن يستدل عليها بحديث حصين بن عبد الرحمن ﷺ فيه قصة عكاشة ﷺ وهو حديث ثابت في الصحيحين(١).

---

(١) وقد ثبت من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت؛ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». رواه البخاري (٦٥٤١)، كتاب الرقائق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، ومسلم (٢١٨)، كتاب =

الشفاعة السابعة: شفاعته ﷺ في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم.

الشفاعة الثامنة: شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة، يعني الذين دخلوها يشفع فيهم فترفع درجاتهم وتُعلى منازلهم.

فهذه أقسام ثمانية، ثم الذي أنكره المعتزلة والخوارج هو الشفاعة في أهل الكبائر، سواء الذين يشفع فيهم ألا يدخلوا النار أو الذين دخلوا النار بناءً على أصلهم، أن أصحاب الكبائر في النار، واستدلوا على هذا المذهب بقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ونحو ذلك، وأجاب العلماء عن ذلك بأن هذه في الكافرين وليست في أهل الإخلاص، فالمشرك ليس له نصيب من الشفاعة، ولهذا ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**»[(١)] يعني أهل الإخلاص.

إخراج الله بعض العصاة من النار برحمته وبغير شفاعة

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَاماً بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ،

جاءت النصوص في هذا صحيحة عن النبي ﷺ أنه يقول: «**شفع النبيون، شفع الملائكة، بقيت رحمة أرحم الراحمين**»[(٢)] فيقبض جلّ وعلا بيده ويخرج من النار أقواماً قد امتحشوا وصاروا حمماً، فيلقون على نهر

= الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

(١) البخاري (٩٧)، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث؛ أحمد (٨٥٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار؛ وأحمد (٣/ ٩٤).

من أنهار الجنة، فينبتون عليه، تنبت أجسامهم فيدخلون الجنة، يقال هؤلاء عتقاء الرحمن، قوم ما عملوا خيراً أعتقهم الله جلّ وعلا من النار، والله علام الغيوب، وليس هؤلاء كفاراً؛ لأن الله جلّ وعلا أخبرنا أن الجنة محرمة على الكافرين وأنهم ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وهذا مستحيل وغير ممكن، فالجمل لا يدخل في ثقب الإبرة، فمعنى ذلك أن دخولهم الجنة ممتنع، فهؤلاء من أهل الإيمان، ولكنهم من أهل التفريط الذين تركوا الواجبات وارتكبوا المحرمات ولم يعملوا الخير، ولكن معهم أصل الإيمان، والرسول ﷺ كان ينادي في المجامع نداءاً عاماً يعلم الناس أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة وهذا مطلق، وقد جاءت تفاصيل ذلك أنه أيضاً في حديث الشفاعة أن الله جلّ وعلا يقول لهم فأخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، حتى قال: ذرة من إيمان، والله يجعل لهم علامة على ذلك.

"وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَاماً، فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

يعني يبقى فيها مساكن فاضلة؛ لأن الجنة كبيرة وعريضة جداً ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

مع أن أحدهم ينظر في مسكنه مسافات بعيدة ومع ذلك يبقى فيها فضل، فينشئ الله لها خلقاً جديداً ليسوا من أهل الدنيا، فيسكنهم فضل الجنة؛ لأن الله وعد أن يملأها، أما النار فإنها لا تزال تطلب الزيادة حتى ينتهي الجن والإنس، وقد قال الله جلّ وعلا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨] فيضع عليها رجله فتتضايق عليهم وتمتلئ، والله لا يظلم أحداً، أما ما في البخاري أنه ينشئ لها خلقاً فيضعهم فيها، فهذا غلط من الراوي لأنه مخالف للنصوص، وابن القيم يقول: انقلب على الراوي، يعني جعل ما للجنة للنار وما للنار للجنة.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنْ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

فكتب الأحاديث مملوءة من هذه التفاصيل، وقد خصها بعض العلماء بالتأليف مثل «التذكرة» للقرطبي، ومثل «البدور الزاهرة» للسيوطي، ومثل «البحور الزاخرة» للسفاريني، ومثل «حادي الأرواح» لابن القيم، ولتلميذه ابن رجب «التخويف من النار وأهوال القيامة» وغيرها كثير، وكلها تعتمد على آيات القرآن وذكر تفصيلها وأحاديث رسول الله ﷺ، والعلم المأثور الذي جاء به الرسول ﷺ وهو العلم النافع أقسام ثلاثة:

الأول: يكون أخباراً يذكرها الله جلّ وعلا ماضية ومستقبلة من أحوال الجنة والنار وأحوال أهلها، وما كان في الأمم من دعوة الرسل وما قالوا، وما قيل لهم، وما صنع بالمكذبين وبالمؤمنين.

الثاني: ما يتعلق به جلّ وعلا من الأوصاف والأسماء.

الثالث: أوامره ونواهيه التي يأمر بها وينهى.

وما عدا ذلك ليس من العلم، وبهذا يتبين لنا أن هذه الأشياء التي ذكرها المؤلف أمور مختصرة وليست أموراً تفصيلية، وإنما ذكر أصولها وأشار إليها، مما يجب على العبد أن يؤمن بها، ونفهم من هذا أن الجنة والنار الآن موجودتان وقد جاءت الأدلة كثيرة تبين هذا، فإنه أخبر أن النار أعدت للكافرين، والإعداد هو التهيئة، والجنة كذلك، والرسول ﷺ أخبر أنه اطلع في الجنة وفي النار ، وثبت في أحاديث كثيرة أن الله جلّ وعلا لما خلق الجنة أمر جبريل أن يذهب وينظر إليها، فقال جبريل ﷺ: ما أظن أحداً يسمع بها إلا يدخلها، فحفت بالمكاره، ثم

أمره أن يذهب فينظر، فلما ذهب ونظر قال: خشيت ألا يدخلها أحد، وكذلك النار لما أمره أن ينظر إليها رآها يحطم بعضها بعضاً، فقال: ما أظن أحداً يسمع بها فيدخلها، فحفت بالشهوات، فذهب ينظر فقال خشيت ألا ينجو منها أحد[1]، والرسول ﷺ أخبر أنه اطلع في الجنة ورأى عمرو بن لحي في النار يجر قصبه، ورأى امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، يقول رأيتها تخمش وجهها في النار[2]، ثم النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة على أن الجنة والنار دائمتان ولا تفنيان أبداً، لهذا أخبر الله جلّ وعلا أن أهل النار مقيمون فيها، وأنهم خالدون فيها أبداً وأنهم لا يخرجون منها، فالقول بفنائها هو من أقوال أهل البدع، وكذلك القول بفناء الجنة والنار أعظم بدعة من ذلك، والذي قال هذا شرذمة من أهل البدع مثل أبي الهذيل العلاف وأشباهه من المعتزلة، وهؤلاء لا يجوز أن يؤبه بهم أو يُنظر إلى كلامهم؛ لأنهم بنوا ذلك على شريعة وضعوها على رب العالمين تعالى الله وتقدس، فقالوا إن وجود الجنة والنار الآن عبث، تعالى الله وتقدس، وهؤلاء في الواقع من أقسى الناس قلوباً، ومن أجرأ الناس على الله جلّ وعلا، نعوذ بالله من ذلك، ولهذا يتكلمون بكلام كما قال الإمام عبد الله بن المبارك: لا نستطيع أن نحكيه.

نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نحكي كلام هؤلاء، فالمقصود أن النصوص الواضحة الجلية تدل على أن الجنة والنار معدتان وأنهما

---

(١) صحيح. وصححه الترمذي والحاكم (١/٢٦)، ووافقه الذهبي، انظر: «صحيح الجامع» (٥٠٨٦)، و«المشكاة» (٥٦٩٦). ألباني.

(٢) البخاري (٤٦٢٤)، كتاب التفسير من سورة المائدة، باب: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، من حديث عائشة رضي الله عنها؛ مسلم (٩٠٤)، كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في الصلاة، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

موجودتان، وأنهما باقيتان لا تفنيان أبداً، وأهلها دائمون فيها، وهذا الذي عليه أهل السنة.

الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ وَمَرَاتِبِ الْقَدَرِ

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ

عرف القدر بأنه تعلق علم الله جلّ وعلا بالكائنات كلها، كتابته لها وخلقه لها ومشيئته لما يكون، وجاء عن الإمام أحمد كَلَّلهُ قال: القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذه الكلمة كثيراً، وقال: هذا يدل على علم الإمام أحمد بالأصول؛ لأنه عبر عن القدر بكلمة وجيزة وواضحة، والقضاء يكون في الأمور التي فرغ منها كما قال جلّ وعلا: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] والقدر أعم من هذا، والإيمان بالقدر أحد الأصول الستة، ولا يصح للإنسان إيمان ولا إسلام حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ولهذا أنكر الصحابة على الذين أنكروا ذلك وكفروهم، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله لم يقبل الله جلّ وعلا منه شيئاً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره.

وهذا يدل على كفرهم، وكذلك روي عن ابن عباس ﷺ وعن واثلة بن الأسقع وعن غيرهم من الصحابة؛ لأن بدعة إنكار القدر من أقدم البدع، فهي حدثت في آخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وكان أول من عرف بإنكار ذلك هو معبد الجهني، يقول: إن الأمر مستأنف وليس مستقبلاً بل هو أنف أي: لا يعلم حتى يوجد، ويقال: إنه أخذه عن رجل مجوسي يقال له سيساويه الإسواري، وجاء أنه أخذه عن نصراني، ومهما كان فإن هذا من إنكار العقائد التي اتفق عليها أهل الإسلام الحق، فلهذا جاء النص عليه في العقائد كثيراً، واعتنى

العلماء بهذا القدر من أركان الإيمان، فألفوا فيه مؤلفات خاصة، ولكن المؤلفات التي ألفت كلها في ذكر الأدلة على إثباته وفي الرد على المُنكر، أما البحث فيه فإنهم ينهون عن ذلك، ينهون عن النظر في القدر والتعمق فيه ويقولون: إنه لا يؤدي إلا إلى حيرة وشك، وهذا القدر الذي ذكره المؤلف واضح ومفهوم جداً، وهو الذي يكفي المسلم أن يعرفه ويؤمن به.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فيكون أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بأن الله عليم بكل شيء.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله جلّ وعلا كتب علمه بالأشياء قبل وجودها.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن ما يقع في الكون لا يقع إلا بمشيئته وإرادته جلّ وعلا، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله جلّ وعلا هو الخالق وحده وما سواه مخلوق، فكل شيء وجد فهو بخلقه وبمشيئته جلّ وعلا.

وهذه جعلها واحدة وفي ضمنها أخرى، والأولى العلم في ضمنه أخرى؛ لأن العلم في ضمنه الكتابة، والمشيئة في ضمنها الخلق؛ لأنه لا يقع الخلق إلا بمشيئته، فلهذا قال على درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين:

الأول: العلم.

الثاني: كتابة العلم.

الثالث: المشيئة.

الرابع: الخلق، أنه خلق ما يشاء.

وبهذا يكون الإنسان آمن بالقدر، والدرجة الأولى وهي العلم، فقد سبق أن الله عليم بكل شيء، وأن علمه من صفات ذاته جلّ وعلا، وكل شيء عموم مطلق لا يخرج عنه شيء، فعلم الله جلّ وعلا لا يمكن أن يخرج عنه شيء، ومنكر هذه الدرجة يكون كافراً، ولهذا جاء عن الشافعي رحمه الله أنه كان يقول: ناظروهم بالعلم - يعني الذين أنكروا القدر - فإن أقروا به خُصموا وإن أنكروه كفروا، ومعنى ناظروهم بالعلم بأن يقال: أترون أن الله بكل شيء عليم؟.

فلا بد أن يقر بهذا، فإذا أقر به وهو ينكر القدر قيل له: الله علم الأشياء كلها أزلاً، فالله جلّ وعلا لا تتجدد له المعلومات، فعلمه الأزلي بالأشياء التي كانت ووجدت والتي ستكون والذي لا يكون، أي: لا يخرج عنه شيء أصلاً، فلا بد من الإيمان بهذا، وهي الدرجة الأولى مما يلزم الإيمان بالقدر، أن يؤمن بأن الله بكل شيء عليم ولا يفوت علمه شيء، ويذكر في هذا جميع ما يقع والذي لا يقع والذي لم يقع لو وقع كيف يكون؟.

يعلمه الله جلّ وعلا، وقد قال جلّ وعلا: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فهو يخبر عن شيء لا يوجد، ويعلم أنه لو وجد لكان كذا وكذا تعالى الله وتقدس.

فالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ وَمَا هُمْ عَامِلُونَ

لأن الخلق يتعلق بهم، وإلا فالله عليم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء، ومن معلوماته الخلق، فهو جلّ وعلا عليم بأحوالهم وأفعالهم وما يقع لهم، ولا يخرجون عن علمه، وأعمالهم التي يعملونها من خير وشر لا تخرج عن علمه جلّ وعلا.

بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ

وذلك أن صفة العلم لله جلّ وعلا أزلية، بمعنى أنه ما كان خالياً عن هذه الصفة في الأزل، ولا تتجدد له هذه الصفة، فعلمه جلّ وعلا كامل؛ لأن الذي يتجدد ويزيد يكون ناقصاً، فالمخلوق لا يزيد علمه إلا بالتعلم، والله جلّ وعلا علمه كامل ولا يمكن أن يخرج عن علمه شيء.

الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَداً،

الأزل: هو القدم الذي لا مبدأ له ولا نهاية لأوله، والأبد: هو المستقبل الذي لا نهاية له.

وَعِلْمَ جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ

فلا يزاد في الكتابة ولا ينقص منها، وقد أخبر الله جلّ وعلا أنه لا يبدل القول لديه ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] فالكتابة في اللوح المحفوظ لا يزاد فيها ولا ينقص منها، وقول الله جلّ وعلا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] وللعلماء فيها قولان:

القول الأول: أن الذي يمحى ويُثبت هو الذي في صحائف الملائكة التي تكتب أعمال المكلف، فيكتبون كل شيء، فإذا صار آخر النهار محوا الشيء الذي ليس عليه ثواب ولا عقاب، مثل أن يقول الإنسان: أعطني القلم وخذ الكتاب وما أشبه ذلك من الأمور التي لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، فهذا الذي يمحى، والذي يُثبت ما يكون فيه الثواب أو عليه العقاب.

القول الثاني: أن هذا في الشرائع، وهو الذي يدل عليه سياق الآية، فالشرائع التي يشرعها لعباده يُثبت منها ما يشاء وينسخ ما يشاء،

فالمحو هو النسخ الذي إذا شاء نسخه وبدله، أو لم يجعل له بدلاً، وهو الراجح والله أعلم.

أما ما جاءت به الآثار أن صلة الرحم تزيد في العمر، وأن الدعاء يرد القدر[1]، فليس في هذا معارضة في الواقع كما يتوهم بعض الناس، فإن صلة الرحم قد عُلم في الأزل أن هذا يصل فيكون عمره زائداً، وأن هذا لا يصل الرحم فيكون عمره ناقصاً بسبب ذلك، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، ولا حاجة إلى جواب بعضهم الذي يقول: إن هذا معناه البركة، أن يكون عمره يستعمل في الطاعة. فالوقت القصير يكون كأنه طويل جداً بسبب ذلك، فإن الله جلّ وعلا خلق الأشياء وخلق لها أسباباً، والأسباب لا تقع إلا بتقديره وقد كتبت وسجلت، فالدعاء من القدر، والصلة من القدر، ورُتب عليه ما رُتب، وقد علم الله جلّ وعلا الشيء أنه يقع أو لا يقع، فهذا مثل ما روي عن عمر ﷺ لما علم بوقوع الوباء في الشام رجع بالصحابة، فقال له أبو عبيدة ﷺ: أفراراً من القدر. قال: لو غيرك قالها. ثم قال: نعم، فرار من القدر إلى القدر - يعني نفعل الأسباب التي نراها أسباباً فيها السلامة ونحن لا نخرج عن القدر - ثم قال له: أرأيت لو كان لك إبل وكان في جانب من الوادي خصب ومراعٍ حسنة، وفي الآخر جدب أيهما ترعى؟ قال: أرعى الخصب. قال: كذلك فعلنا.

يعني أن هذا لا يخرج عن القدر، ولكننا نفعل الأسباب التي نراها أسباباً فيها وقاية، فهذا مثله، فليس في ذلك معارضة كما يتوهمه بعض الناس، فالطاعات والمعاصي والأعمال التي تقع من الإنسان سواء كانت

(١) الترمذي (٢٠٦٥)، كتاب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، من حديث سلمان ﷺ؛ ابن ماجه (٤٠١٢)، كتاب الفتن، باب العقوبات، من حديث ثوبان ﷺ.

الأعمال التي تقع مما يثاب عليه أو يعاقب عليه، أو كانت من الأمور المباحة التي لا ثواب فيها ولا عقاب كلها مكتوبة، يعني أنه لا يوجد حركة ولا سكون، سواء كانت هذه الحركة يترتب عليها أمر من الأمور أو لا يترتب عليها شيء إلا وقد كُتب وسُجل، فالكتابة الأزلية لم تغادر شيئاً، فالله عَلم جميع أحوال الخلق، والأحوال لا يخرج عنها فعل من أفعالهم ولا صفة من صفاتهم من الطاعات والمعاصي، وما سينالهم من الرزق والفقر والمرض والصحة والأمن والخوف وغير ذلك قد علمها الله، وقد علم آجالهم فكتبها في اللوح المحفوظ، فهو عام وشامل وفيه مقادير الأشياء كلها ولا يخرج عنه شيء، فلا يزاد عليها شيء كما أنه لا يُنقص منها شيء.

فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ اكْتُبْ

هذا الحديث اختلف في ضبطه، فمن العلماء من قال: أول ما خلق الله القلمَ قال له اكتب، جملة واحدة، ومنهم من ضبطه غير هذا الضبط قال: أول ما خلق الله القلمُ؛ قال له اكتب، فيختلف المعنى بين الجملتين، ففي الجملة الثانية يكون القلم خبر، فتكون الجملة قد تمت وانتهى الكلام عند قوله: «قلم»، فيكون المعنى أن القلم هو أول المخلوقات، أما الضبط الأول فيكون جملة واحدة، أول ما خلق الله القلمَ قال له اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، يعني أن الجملة الفعلية هي الخبر، فعلى هذا يكون المعنى أن القلم أمر بالكتابة عند أول خلقه، ولم يكن هناك فاصل بين خلقه والكتابة، وهذا هو الراجح حتى يتفق مع الأدلة الأخرى، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ الذي في صحيح مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على**

الماء»[1] ففي الحديث يتبين لنا أن العرش خلق قبل كتابة المقادير، فالعرش كان موجوداً والماء كذلك، وعلى هذا لا يكون القلم هو أول المخلوقات، فإذا قلنا: أول ما خلق الله القلمَ قال: اكتب، صار المعنى ليس الإخبار عن أن القلم هو أول المخلوقات، وإنما المقصود الإخبار بأن الكتابة وقعت بعد الخلق مباشرة بدون فاصل، يعني المقصود الإخبار بأن الكتابة جرت بعد خلقه مباشرة ولم يكن هناك فاصل، وهو الراجح، حتى يتفق هذا مع الأحاديث الأخرى، فعلى هذا يكون الراجح في أول المخلوقات هو العرش والماء، وهذا الذي ذكره ابن القيم عن الهمداني حكاه عن السلف ورجحه وقال: هذا هو الصواب.

فإن قدر أن هناك ألفاظاً في حديث عبادة بن الصامت ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم؛ فقال له: اكتب، فكتب جميع الأشياء**»[2] يقولون: هذا اللفظ يختلف عن اللفظ الثاني، وكذلك جاء ألفاظ أخرى، فهذا عنه جوابان:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صحيح. غير أني متوقف في صحة الحرف، وهي «فقال» فقد جاء في بعض الروايات بلفظ: «ثم قال» فأخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، من طريق أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت فذكره بلفظ: «فقال..».

قلت: وأبو حفصة اسمه حبيش بن شريح الشامي، لم يوثقه غير ابن حبان، وفي «التقريب»: «مقبول» يعني: عند المتابعة، وإلا فلين الحديث وقد توبع، لكن الطريق إلى المتابع لا يصح. فقال الطيالسي (٥٧٧): حدثنا عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح، حدثني الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه به.. ومن طريق الطيالسي رواه الترمذي (٢/ ٢٣٢) وقال: «حديث حسن غريب، وفيه عن ابن عباس».

قلت: وعبد الواحد هذا ضعيف كما في «التقريب».

وقد خالفه أيوب بن زياد فقال: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي به، لكنه قال: «ثم قال: اكتب..».

وهذا أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) وسنده حسن، رجاله كلهم ثقات معروفون، غير زياد »

الجواب الأول: أن هذا روي بالمعنى، وكثير من الأحاديث تروى بالمعنى، وإذا كان روي بالمعنى يجب أن نذكر ألفاظ رسول الله ﷺ حتى نجمع بينها، فلا يكون هناك خلاف ولا يكون نفس اللفظ الذي عبر به الراوي هو الذي يحكم به على سائر الأحاديث، وهذا الجواب فيه ضعف.

الجواب الثاني: أنه إذا ثبت هذا نقول: إن القلم أول المخلوقات التي نشاهدها ونعلمها، أما الشيء الذي لا نشاهده مثل العرش والماء الذي كان عليه وغيرها فهي غير داخلة في ذلك.

وليس هذا هو المقصود هنا: وإنما المقصود هو الإخبار بأن الكتابة كانت أزلية قبل وجود المخلوقات التي نعلمها، ولا يلزم أن تكون هذه المخلوقات هي أول خلق الله جلّ وعلا مطلقاً؛ لأن الله جلّ وعلا ليس له بداية وما كان معطلاً عن الفعل والقول والأمر والنهي والإيجاد وغيرها

= هذا، وقد روى عنه جماعة، ووثقه ابن حبان، فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى، لكن قد أخرجه الآجري في كتاب «الشريعة» (ص١٧٧) من طريق بلفظ: «فقال له أجر...». ورواه يزيد بن أبي حبيب عن الوليد بن عبادة به بلفظ: «ثم قال له: اكتب» ورجاله ثقات غير ابن لهيعة فإنه سيء الحفظ.

ويشهد له حديث أبي هريرة بلفظ: «إن أول شيء خلق الله ﷻ القلم، ثم خلق النون وهي الدواة، ثم قال: اكتب...» الحديث.

رواه الآجري والواحدي في «تفسيره» (٤/ ١٥٧/ ٢) وفيه الحسن بن يحيى الخشني، مختلف فيه، وفي «التقريب»: «صدوق كثير الغلط».

وبالجملة، فالروايات في هذا الحرف مختلفة، ولذلك فإنه لا يتم للمصنف الاستدلال بالرواية الأولى على تقدم خلق العرش على القلم، حتى يثبت أرجحيتها على الأخرى: «ثم قال...» وإذا كان لا بد من الترجيح بينهما، فالأخرى أرجح من الأولى لاتفاق أكثر الرواة عليها، ولأن لها شاهداً عن أبي هريرة كما تقدم، ولأنها تتضمن زيادة في المعنى، وعليه فلا تعارض بين الحديث على هذه الرواية، وبين حديث عبد الله بن عمرو؛ لأن حديثه صريح في أن الكتابة تأخرت عن خلق العرش، والحديث على الرواية الراجحة صريح في أن القلم متقدم على العرش، والله أعلم. الباني.

حتى خلق هذه الأشياء، وهذا محدد بقوله: **«قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»** وما قبلها يكون أن الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ولكن علمنا قاصر، غير أنه يجب علينا أن نعلم أن الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دائماً وأبداً، ولم يكن معطلاً عن الفعل ذلك الوقت تعالى الله وتقدس، والمقصود بالشيء الذي علمناه من هذه الموجودات، فهذا نظير حديث عمران بن حصين ﷺ الذي في صحيح البخاري يقول: دخلت على رسول الله ﷺ المسجد فجاء بنو تميم فقال: **«يا بنو تميم اقبلوا البشرى»** فقالوا: بشرتنا فأعطنا. فتغير وجه رسول الله ﷺ، فدخل أهل اليمن، فقال: **«يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم»** فقالوا: قبلنا، جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: **«كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء»** فجاءني إنسان فقال: أدرك ناقتك فقد ذهبت، فخرجت فإذا السراب ينقطع دونها، وأيم الله لوددت أني تركتها ولم أخرج[1]، فقولهم: نسألك عن أول هذا الأمر، والإشارة إلى الشيء المشاهد المعلوم من السماوات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات، ولا يلزم أن تكون هذه أول المخلوقات كلها، فهذا مثله، وهذه الكتابة لأن الله جلّ وعلا إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فالله جلّ وعلا خلق القلم وأمره بالكتابة، فجرى بقدرة الله جلّ وعلا بما هو كائن، يعني كتب علم الله، ولا يُشكل علينا ما يتصوره الإنسان أن يقول: إذا كان مكتوباً علي هذه الأمور فما الحيلة؟.

نقول: لا يُشكل؛ لأن هذه الكتابة عبارة عن علم الله فيك أنك

(١) البخاري (٣١٩١)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾، و«سنن الترمذي» (٣٩٥١)، كتاب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة، من حديث عمران بن حصين ﷺ، ذكره الألباني في «المشكاة».

ستوجد وأنك ستعمل كذا وكذا باختيارك وقدرتك ولا يجبرك أحد أو يلزمك، ولهذا أنكر العلماء أن يقال: فلان مُجبر أو أن الله يُجبر وما أشبه ذلك، قالوا: الله جلّ وعلا أقدر على ذلك، فهو يخلق الإرادات والنيات ويجعل الإنسان مريداً لما أراد جلّ وعلا، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فمن الجهل ومن الضلال البين بل من الكفر ـ نسأل الله السلامة ـ أنه إذا قيل للإنسان اتق الله وأقم الصلاة، قال: أنا مكتوب علي هذا الشيء، فيقال له: فهل يُكتب عليك ألا تصلي؟ وما يدريك أنه مكتوب عليك؟ أتعلم الغيب أو أنك تبرر لفعلك بالاحتجاج بالقدر؟.

وهذا هو الواقع، فيريد أن يبرأ نفسه ويحمل اللوم على الله، وهذا من الضلال البين الواضح، ولا يُشكل علينا ما ثبت في الصحيحين أن موسى ﷺ قال: ربي أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه الله آدم، فقال له موسى: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته؟ لماذا أخرجت نفسك من الجنة فخيبتنا؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه على الناس وكتب التوراة لك بيده؟ قال: نعم. قال: كم وجدت بين خلقي وبين قول الله جلّ وعلا: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١] مكتوباً قبل أن أوجد قال: وجدت مكتوباً عليك قبل أن توجد بأربعين سنة. قال: تلومونني على شيء قد كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة ـ هذه كتابة خاصة غير الكتابة الأولى، فالأولى موجودة في اللوح المحفوظ وهذه كتابة أخرى ـ فحج آدم موسى[1]، يعني

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعده، و(٤٧٣٦)، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾، و(٤٧٣٨)، و(٦٦١٤)، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، و(٧٥١٥)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ومسلم (٢٦٥٢)، ـ

عليه بالحجة، فهذا ليس احتجاجاً بالقدر بل هو احتجاج بالمصيبة التي وقعت ولم يمكن أن تستدرك، أما الذنب فلا يجوز أن يحتج بالذنب على القدر، ثم موسى لا يمكن أن يلوم آدم على الذنب الذي تيب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب عليه[1]، فموسى أعلم من أن يلوم آدم على ذنب تاب منه، ولا يجوز أن يقع هذا من آحاد المؤمنين، أن يأتي الإنسان وقد أذنب ذنباً فيعيره بذلك ويقول أنت فعلت كذا وكذا وقد علمت توبته من ذلك وإقلاعه عن هذا، فإن هذا محرم، فموسى لام آدم على المصيبة لأنه قال: أخرجتنا ونفسك من الجنة، والخروج هو المصيبة، أما الذنب فهو الأكل من الشجرة، يعني أن الخروج ترتب على الأكل، فالمصيبة ترتبت على الذنب، فلهذا احتج آدم عليه بالقدر، فهو مثل إذا وقع لإنسان أمر من الأمور وترتب عليه إما ذهاب ماله أو ذهاب عضو منه أو ما أشبه ذلك فيأتيه إنسان يقول: لماذا فعلت هذا، فله أن يقول: الحمد لله، هذا قدر قُدر علي وأنا آمنت به، بخلاف الذنب الذي يقول له: صل فيقول له: أنا مكتوب علي ألا أصلّي، فإن هذا لا يجوز أصلاً؛ لأنه بإمكان الإنسان أن يستغفر من الذنب ويتراجع ويتوب، ولهذا يقول العلماء: الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب؛ لأن لها التوبة والاستغفار، أما المصيبة التي وقعت ولا يمكن استدراكها فله أن يحتج بالقدر عليها ويتسلى بذلك، ولهذا يذكر الله جلّ وعلا ما وقع للأنبياء ولغيرهم حتى يكون ذلك أسوة للرسول ﷺ، وما وقع من تكذيب أممهم وما رُد عليهم من الردود التي تحزنهم، فهذه المصائب التي تصيب الإنسان له أن يتسلى بأن هذا شيء مكتوب ولا يمكن رده، بخلاف

= كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلّم، من حديث أبي هريرة ﷺ؛ وكذا رواه اللالكائي (١٠٣٢) (٢/٦٤٢).

(١) ابن ماجه (٤٢٤٠)، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة. وذكره البيهقي في «السنن الكبرى»، والطبراني في «المعجم الكبير».

الذنوب فإنه لا يجوز بل عليه أن يستغفر ويتوب، وبهذا يتبين لنا أن هذا الحديث ليس فيه حجة للجبرية الذين يحتجون بالقدر، وحجتهم في هذا داحضة.

قَالَ مَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

هذه كتابة عامة شاملة، ولا يخرج عنها شيء لا صغير ولا كبير، فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ.

فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ.

الصحف في اللوح المحفوظ، فكل شيء مكتوب فيه، وهو محفوظ لأنه لا يوصل إليه ولا يطلع عليه غير الله جلّ وعلا، والله هو الذي يختص به.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]

يعني مكتوب في اللوح المحفوظ، وكون الله علم الأشياء وكتبها قبل وجودها شيء سهل وميسور على الله جلّ وعلا؛ لأنه عليم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء ولا يمكن أن يقع في ملكه إلا ما يعلمه.

وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مصيبة عامة، ﴿نَبْرَأَهَا﴾ يعني أن نخلق هذه النسمة التي أصيبت بهذه المصيبة، يعني موجود قبل خلقها.

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.

يعني أن هناك كتابات ولكن كلها تعود إلى الكتابة الأولى الشاملة التي علم الله جلّ وعلا فيها أهل الجنة من أهل النار، وعلم أسماءهم وأسماء آبائهم، فلا يزاد عليهم ولا ينقص منهم شيء، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: حدثنا الصادق المصدوق ﷺ: **«إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقة ثم أربعين يوماً مضغة ثم يبعث إليه الملك فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فوالله الذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[1] وهذا الذي كان يخيف السلف من العلماء وغيرهم، حتى أن معاذاً ﷺ لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أجزع من الموت فهو حق لا بد منه، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قبض الله قبضتين فقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي وهؤلاء إلى الجنة ولا أبالي»**[2] فما أدري في أي القبضتين أنا، وكذلك قال حذيفة ﷺ عند موته وصار يبكي، وقال أحد السلف من العلماء لرجل رآه يضحك: أما تخاف علم الله فيك ـ أي: في نهايتك أفي الجنة أو في النار ـ فقال الرجل: لقد تركتني لا يهنأ لي عيش، وسفيان الثوري رحمه الله صار يبكي طوال الليل بكاة شديداً فلامه بعض أهله وقالوا

(١) متفق عليه. وهو مخرج أيضاً في «الظلال» (ص١٧٥، ١٧٦). ألباني.

(٢) أحمد (١٧٠٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤)، وابن حبان (٣٣٩)، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، من حديث عبد الرحمن السلمي ﷺ.

له: أتخاف من الذنوب؟ فأخذ عوداً من الأرض، وقال: الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا يختم لي؟.

فالله علم الخلق قبل وجودهم أن هذا في الجنة وهذا في النار، وكتب ذلك في أعمالهم، ولما قال الرسول ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده إما في الجنة أو في النار»** قال قائل منهم: فقيم العمل، ألا نتكل على الكتابة؟ قال: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة»**[1]، فالواقع أن الكتابة ليست هي التي ترغم الإنسان على هذا الشيء، بل هي كتابة علم الله في الإنسان، ولا بد أن الإنسان يعمل باختياره ومقدوره وإرادته، فيموت على هذا العمل فيكون إما سعيداً وإما شقياً، كما في حديث ابن مسعود ﷺ «فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[2] فلا يدخل أحد الجنة إلا وله عمل، ولا يدخل أحد النار إلا وله عمل، والواقع أن الإنسان لا يملك لنفسه شيئاً، وعليه أن يسأل ربه دائماً الهداية والتوفيق، فإذا لم يهده الله فلا يستطيع أن يهتدي بقوته أبداً، ولهذا من أحوج ما يكون للإنسان ما في دعاء الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦] وليس معناه كما يقول بعض المفسرين: ثبتنا على الصراط المستقيم.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥، ٤٩٤٦، ٤٩٤٧)، كتاب التفسير، باب ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ و(٦٢١٧)، كتاب الأدب، باب الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض، و(٦٦٠٥)، كتاب القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، و(٧٥٥٢)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، ومسلم (٢٦٤٧)، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وأبو داود (٤٦٤٧)، كتاب السنة، باب في القدر من حديث علي ﷺ.

(٢) البخاري (٢٩٦٩)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، مسلم (٤٧٨١)، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

وإن كان المعنى صحيحاً، ولكن ليس هو المقصود في الواقع؛ لأن الإنسان لا تتم هدايته حتى يستقر في مسكنه في الجنة، فهو بحاجة إلى هداية كل يوم وكل لحظة، وفي كلد عمل، وفي كل وقت، فهداية بعد هداية حتى تكمل هدايته عندما يدخل الجنة، وقبل ذلك لا تكمل أبداً، قيل للإمام أحمد رحمه الله: متى يأمن المؤمن؟ قال: إذا وضع أول قدم له في الجنة، فهناك الأمان وقبله لا أمان، فالتقديرات التي تكون مفصلة بعد الإجمال الذي كتب في اللوح المحفوظ ـ يعني الكتابة العامة ـ أنواع منه ما جاء في الحديث أن الله جلّ وعلا لما خلق آدم استخرج ذريته أمثال الذر، فقسمهم إلى قسمين وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي[1]، فهذه كتابة أخرى، وفي حديث آخر أن الله جلّ وعلا قبض بيديه فقال: يا آدم اختر، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، فإذا فيها أهل السعادة من ذريته وفي الأخرى أهل الشقاء، وهذه كتابة بعد الكتابة في اللوح المحفوظ، ومن ذلك الكتابة العمرية التي ذكرت في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم، ومنها الكتابة السنوية المذكورة في قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ [الدخان: ٣، ٤] يعني يفصل ويقضى كل أمر السنة، وهناك كتابة يومية وهي التي يشير إليها قوله جلّ وعلا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] تعالى وتقدس، يقول المفسرون من السلف: يعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ويحيي من يشاء ويميت من يشاء في أمور ملكه وفي عباده، وهذه كلها راجعة إلى الكتابة الأولى.

---

(١) سبق تخريجه.

وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكاً، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وإذا جاء إليه الملك قال: يا رب ما الأجل؟ ما العمل؟ شقي أم سعيد؟ ذكر أم أنثى؟ فيؤمر بهذه الكتابة، وهي موجودة في اللوح المحفوظ، فتصبح هذه الكتابة في صحيفة الملك ويطلع عليها، اطلع أن هذا المخلوق سيكون شقياً أو سعيداً، وأن رزقه سيكون كذا، وأنه غني أو فقير وعمله كذلك، والعمل والرزق وغيرها له أسباب جعلها الله جلّ وعلا وخلقها، ولا بد من فعل السبب، فهذا عبارة عن علم الله بما سيكون من هذا المخلوق من الأعمال التي يعملها بقدرته واختياره وكذلك قوته التي وهبه الله إياها، وعلى هذه الأعمال يترتب الشقاء أو السعادة، فلهذا يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، والواقع أن الشر سببه عمل الإنسان، أما فعل الله الذي هو صفته فهو خير وليس فيه شر ولا يضاف الشر لله جلّ وعلا، فإن صفاته وأفعاله وذاته المقدسة كلها خير وكذلك فعله الذي يفعله، ولهذا لم يأتِ الشر مضافاً إليه في موضع من المواضع، وإنما أتى على أقسام ثلاثة:

الأول: أن يدخل في العموم؛ لأن الله خالق كل شيء.

الثاني: يضاف إلى المخلوق كما قال جلّ وعلا: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢] فجعل الشر إلى المخلوق لأنه في الواقع هو مصدره؛ لأنه إذا منعه فضله فلا بد من أن يكون شراً، أما إذا أمده بفضله ورحمته فإنه يتخلص من الشر، وفضله ورحمته يؤتيها ويتفضل بها على من يشاء جلّ وعلا.

الثالث: أن يحذف فاعله أو يضاف إلى المخلوق كما سبق، كما قال عن خليله إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] فجعل المرض مسنداً إليه هو والشفاء إلى الله، ويقول الله جلّ وعلا عن

مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠] فحذف الفاعل، ولما جاء الخير قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] فالخير إلى الله والشر ليس إليه، وفي مناجاة النبي ﷺ لربه في افتتاح صلاة التهجد يقول: «**لبيك وسعديك والشر ليس إليك**»[(١)]، فخير القدر هو الذي يقع للإنسان من الأعمال التي تترتب عليها السعادة، وشره ما يترتب عليه من الشقاء والألم، وجاء أيضاً أنه يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره، ففي المبدأ يكون حلواً أو مراً وفي النهاية يكون شقاة أو سعادة، والقاعدة أن ما كان في الدنيا حلو من الشهوات وغيرها فإن عاقبته مر وشر.

فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيماً، وَمُنْكِرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

يعني الذي ذكرنا عن معبد الجهني ومن اتبعه في ذلك الوقت، ويوجد من ينكر ذلك إلى الآن، والمقصود بهذا ممن يؤمن بالرسول ﷺ ويتبعه حسب نظره، أما الكفار فلا عبرة فيهم.

فهذه الدرجة الأولى التي هي الإيمان بعلم الله جلّ وعلا، والإيمان بكتابته لعلمه.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

معنى النافذة: الماضية، من نفذ السهم، إذا مضى في ضريبته، أي: مشيئته التي لا ترد، والقدرة هي التي يخلق بها ما يريد، فكل شيء

(١) صحيح. وهو طرف من حديث علي في دعاء الاستفتاح، وهو مخرّج في «صفة الصلاة» (ص٧٣) الطبعة الحادية عشر. ألباني.
قال شاكر: رواه أحمد في «المسند» رقم (٨٠٣)؛ ومسلم في «الصحيح» (١/٢١٥) في حديث طويل من حديث علي بن أبي طالب، وكان في المطبوعة هنا: «بيديك» وأثبتنا ما هو الثابت في «المسند» و«الصحيح».

مخلوق لله جلّ وعلا، العبد وأفعاله، ولكن الله جلّ وعلا جعل له قدرة وإرادة، والمشيئة لا تنقسم بل هي شيء واحد، بخلاف الإرادة فإنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية وهي المشيئة.

القسم الثاني: إرادة دينية وهي ما يريده الله جلّ وعلا ديناً وشرعاً وأمراً.

والفرق بينهما أن الإرادة الدينية يلزم أن يأمر بها الله ويحب وقوعها ولا يلزم أن تقع، وأما الإرادة الكونية فلا بد من وقوعها، ولا يلزم أن الله يرضاها ويحبها بل قد يبغضها ويكرهها، فإن الله لا يحب لعباده الكفر ولا يرضى بالفساد ولا يأمر به جلّ وعلا، وهو لا يكون ولا يقع إلا بإرادة الله الكونية.

وهذه الدرجة ينكرها كثير من الناس، فالقدرية أنكروها وقالوا: إن العبد له الاختيار، إن شاء كفر وإن شاء آمن، والله جلّ وعلا يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فله الاختيار، والله لا يهدي فلاناً ويضل فلاناً، بل إذا ضل فلان فهو الضال لنفسه وبقوته وبقدرته وإرادته ولا دخل لمشيئة الله في ذلك؛ لأننا لو قلنا إن الله يتفضل على فلان بزيادة هداية على فلان لكان هذا ظلماً.

وإذا احتج عليهم بمثل قول الله جلّ وعلا: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝﴾ [الكهف: ١٧] ومثل قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] يقولون: إن هذا لا يدل على ذلك؛ لأن معنى ذلك أن الله يبين طريق الهدى من طريق الضلال فقط، والهداية والضلال للإنسان، وهو الذي يضل ويهتدي، وهذا من الضلال البين الواضح، ولهذا سموهم مجوس هذه الأمة كما في الأحاديث مثل التي في سنن أبي داود وغيرها ولكنها

ضعيفة؛ لأن هؤلاء وجدوا بعد زمن طويل من وقت الصحابة، وإن كان الرسول ﷺ قد يتكلم ويخبر عن الشيء الذي لم يقع، والصواب أن أكثرها موقوف على الصحابة، ووجه كونهم سموهم مجوساً لأنهم جعلوا العباد يخلقون أفعالهم، يعني أن لهم مشيئة تخالف مشيئة الله وتكون خارجة عنها، فمعنى ذلك أن هناك تصرفاً في ملك الله بغير إرادته ومشيئته، وهذا ضلال بين واضح، وخالفوا في الدرجة الرابعة، ولهذا ذكر صاحب شرح الطحاوية أن رجلاً من المجوس ركب في سفينة وكان فيها قدري من هؤلاء، فجاء إليه ليدعوه إلى الإسلام، فقال له: لماذا لا تُسلم؟ فقال له: حتى يشاء الله، فقال له القدري: الله قد شاء ولكن الشيطان لم يشأ، فقال له: إذن أنا مع القوي. فسكت القدري.

يقول: إن كان الشيطان هو الذي شاء لي الكفر فمعنى ذلك أن مشيئة الشيطان غلبت مشيئة الله، فيقول: أنا مع القوي الغالب ـ تعالى الله وتقدس ـ فهؤلاء في الواقع قولهم وعقيدتهم باطلة وتخالفها جميع الفطر، حتى فطر وعقول الكافرين، فالله جلّ وعلا ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومشيئته شاملة عامة، والله جلّ وعلا جعل للخلق مشيئة وإرادة وأمرهم بالشيء الذي يستطيعون فعله ونهاهم عن الأشياء التي يستطيعون الانكفاف عنها بمقدورهم، وبين ووضح لهم هذا وهذا، ورتب على فعل المحرمات العقاب ورتب على فعل الأوامر الثواب ثم جعل الأمر إليهم، ولا يخرجون بذلك عن مشيئته.

وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿شَيْءٍ﴾ هنا نكرة عامة لا يخرج منها شيء، فقدرة الله جلّ وعلا

شاملة عامة لا يجوز أن يخرج عنها شيء من الأشياء، وفي هذا الرد على القدرية الذين يقولون: إن العبد هو الذي يشاء أفعاله من الطاعات والمعاصي، فأخرجوا طاعة الملائكة والأنبياء وسائر الخلق أن تكون مخلوقة لله، بل أخرجوها أن تكون واقعة بمشيئة الله، وهذا عجيب، فهم بنوا هذا الأصل من عند أنفسهم وبلا دليل، قالوا: لو قلنا إن الله هدى فلاناً، وفلان لم يهده فهذا ظلم، فساقهم هذا إلى أن أخرجوا أفعال المكلفين عن أن تكون واقعة بمشيئة الله، وقالوا: أنها تقع بمشيئتهم هم، والعجيب أنهم يختلفون فيما بينهم، هل يقدر الله أن يخلق مثل أفعالهم أو لا يقدر؟.

وهذا تعجيز لله جلّ وعلا، فما أعظم جرأتهم على الله جلّ وعلا، وهذا من الشرك في الربوبية بل هو من الكفر بالله جلّ وعلا، فالله على كل شيء قدير، وبيان هذا أن يقال مثلاً: ألستم تقرون بأن الله خلقكم؟ فإذا قالوا: نعم، الله هو خالقنا، نقول لهم: الصفات التي فيكم هل أنتم خلقتموها؟ أو القوى التي فيكم مثل الأيدي والأرجل والأسماع والأبصار؟ فإذا أقروا أنها مخلوقة لله يقال لهم: هل أنتم تخلقون القدرة والقوة التي فيكم؟ فلا يمكن أن يكابروا ويقولوا نحن خلقناها؛ لأنه لو كان الإنسان يخلقها فلا يرضى أن يكون فلان أقدر منه وأقوى، يريد أن يكون هو أقوى الناس وأقدرهم، ولا فرق بين القدرات والقوة في الإنسان وبين اليد والرجل وبين الذات كلها، فإذاً نقول: إن هذه القدرة والإرادة التي تكون في الإنسان ويريد بها فعل الشيء، الله خالقها؛ لأنها مثل الصفات الأخرى، لا بد أن يُقر بأن الله هو خالقها، فإذا وجدت الإرادة ولم يأتِ ما يحول بينها وبين المراد فلا بد من إيجاد المراد، فإذاً الله هو الذي خلق أفعالهم، ولهذا يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] وسواء صارت ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة، فكلاهما يدل على أن الله جلّ وعلا هو الذي خلق الفعل، وإن كان

القدرية يزعمون أنها موصولة، وأنها إذا صارت موصولة تكون دليلاً لهم، والأمر ليس كذلك، وإن كان كثير من أهل السنة حاول محاولات وأطالوا فيها المناقشات وقالوا: إنها مصدرية، حتى لا يكون لهؤلاء حجة فيها، والواقع أنها موصولة وليست مصدرية، ومع ذلك تدل على أن أفعال الإنسان مخلوقة؛ لأن المعنى: الله خلقكم والذي تعملونه، يعني الذي تزاولونه بأعمالكم وتباشرونه بأيديكم مخلوق، فنفس الذي يُزاول به العمل ـ الذي هو المصدر ـ مخلوق أيضاً، فلا يكون في هذا حجة لهم، وما أكثر الأدلة على هذا وليس هذا فقط، ولكن المقصود أن يُبين أنه ليس لهم في هذه الآية دليل على باطلهم؛ لأن القرآن لا يدل على الباطل وإنما يدل على الحق، لا يمكن أن يستدل مبطل بالقرآن إلا وفي الدليل الذي يستدل به دليل عليه يبطل قوله لمن تأمله وأعطاه حقه من النظر، ولا يجوز أن تحد قدرة الله جلّ وعلا أو أن تقيد بشيء، فالله على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم، فلا يجوز أن نحدها بعقولنا، يعني الشيء الموجود والشيء المعدوم والشيء الذي لا يوجد، الله قادر عليه، ولهذا يخبرنا ربنا جلّ وعلا بأشياء لا تكون وأنه قادر عليها كقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] لو شاء الله لآمن الناس كلهم، ولكن مشيئة الله اقتضت هذا الوضع.

«مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ».

المعدوم يكون على قسمين:

القسم الأول: معدوم عدماً مطلقاً، وهذا لا يسمى شيئاً أصلاً.

القسم الثاني: معدوم في وقت من الأوقات وسيوجد كما قال الله جلّ وعلا: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] فقد مر على الإنسان دهور طويلة وهو معدوم ليس بشيء،

فمثل هذا ليس عدماً مطلقاً ولكنه قبل أن يوجد كان معدوماً، غير أنه موجود في علم الله وفي كتابته، فهو شيء في علم الله وكتابته وليس شيئاً في الخارج كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] أي: لم تكن شيئاً موجوداً ولا مشاهداً بل هو عدم، فالله على كل شيء قدير من الموجودات التي تشاهد والتي لا تشاهد؛ لأنه ليس لكل موجود يشاهد، والمعدومات كذلك بحيث أنه لو شاء أن يوجد العدم الذي يقابل الموجود لوجد.

فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فهذا رد على القدرية الذين يجعلون الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، ويزعمون بهذا أنهم هم أهل العدل، يقولون: إن هذا هو الذي يكون فيه العدل في الخلق؛ لأنه لو خص فلاناً بالهداية والآخر لم يهده لكان هذا ظلماً، وهم في الواقع يضعون شريعة على الله جلّ وعلا، وقد جرت مناظرة بين أحد كبارهم وهو عبد الجبار الجبائي المعتزلي وبين أبي إسحاق الإسفرائيني، دخل أبو إسحاق في مجلس فيه هذا الرجل وقال في نفسه: سوف أخزيه، فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، ففهم أبو إسحاق مراده فقال: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء[1]، يعني أنت تزعم أنه يكون في ملك الله ما لا يشاء، وذلك يقول لأبي إسحاق أنت تزعم أن الله قدر الكفر على الكافر وعذبه به، وهذا ظلم وفحشاء، فأجابه بقوله: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، يعني أنت تقول: إن الله أراد من

(١) «الفواكه والدواني»، باب ما تنطق به الألسنة، وذكره ابن حجر في «الفتح»، باب في المشيئة والإرادة.

الكافر الإيمان والكافر أراد الكفر فوجدت إرادة الكافر ولم توجد إرادة الله، فمعنى ذلك أنه يوجد في ملكه ما لا يشاء، فقال له المبطل عبد الجبار: أيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال له: أيُعصى ربنا قسراً؟ فقال له عبد الجبار: أرأيت إن حكم علي بالردى؟ أأحسن إليّ أم أساء؟ قال: إن كان منعك حقك فقد أساء، وإن كان منعك فضله فهو يؤتي فضله من يشاء، فقال الحاضرون: والله ليس عن هذا جواب، فكأنما ألقم حجراً.

وكذلك مع نظيره الآخر لما كان يتعلم عليه أبو الحسن الأشعري، قال له: أخبرني عن ثلاثة إخوة أحدهم مات صغيراً، واثنان أحياء، أحدهما مؤمن والآخر كافر ما مصيرهما في الآخرة؟ قال: المؤمن في الجنة، والكافر في النار، والصغير في الجنة، فقال له: أيكون الكبير والصغير في درجة واحدة، قال: لا، قال: لماذا؟ قال: لأن الكبير عمل أعمالاً كالصلاة والصيام وغيرها فرفعت درجته من أجل ذلك، فقال: ألا يحتج الصغير ويقول: يا رب لِمَ لَمْ تبقني حتى أعمل كعمل أخي فأسكن في منزلته؟ قال: يقول له الله جلّ وعلا: رأيت أن الصالح لك أن أقبضك صغيراً، قال: إذن ينادي الأخ الشقي من طبقة النار ويقول: يا رب لماذا لم تقبضني صغيراً حتى لا أكون في النار، فتوقف عن الإجابة هنا ولم يستطع أن يجيب، مما يدل على أن كل أمورهم في الواقع مبنية على آراء باطلة، ولا يجوز للإنسان أن يتحكم في أمر الله جلّ وعلا وأن يحكم عليه بشيء.

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

يعني مع كونه جلّ وعلا ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكونه هو الخالق وحده وقدرته هي النافذة وما سواه مخلوق، وأن العباد لا

يفعلون إلا ما قدره وما شاءه أمرهم بالطاعة ونهاهم عن المعصية، والأمر ليس معناه أمراً مستحيلاً كما يتصوره هؤلاء، أمرهم بالشيء الذي يستطيعونه ويفعلونه وبين ذلك ووضحه وأزال العلل التي يمكن أن توجد، فأصبح الإنسان ليس أمامه إلا اختياره ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] وهذا يدل على أن الإنسان عنده مشيئة ويستطيع أن يستقيم، ولكن هذه المشيئة - وهي الاستطاعة - من ورائها مشيئة الله ولا تقع إلا بمشيئته؛ لأنه هو الذي خلق مشيئة الإنسان وقدر عليه ذلك، فبعد ذلك إذا آمن فهو المؤمن حقيقة وإذا صلى فهو المصلي حقيقة وإذا كفر فهو الكافر وإذا امتنع من الأوامر فقد امتنع باختياره وإرادته، فيصبح مستحقاً للعقاب حيث امتنع من امتثال الأمر، كما أن الذي يمتثل الأمر ويطيع يصبح مستوجباً للثواب والله يزيده من فضله.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ

فهو جلّ وعلا يحب الذي يمتثل أمره، يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ويكره الكفر ويبغضه، ويكره الكافرين ويبغضهم ويكره الفساد ولا يأمر به جلّ وعلا: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧] يرضى الشكر ويكره الكفر وينهى عنه جلّ وعلا، وكذلك يأمر بالإصلاح ويحبه ويريده شرعاً، ولكن لا يقع من العباد إلا ما أراده كوناً وقدراً.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم.

هذا رد على الفرقة الثانية؛ لأن القدرية جعلوا الإنسان هو الذي يفعل بلا مشيئة الله وبلا خلقه، يعني أن الإنسان هو الذي يخلق فعله، فقابلهم فرقة أخرى تمام المقابلة، فقالوا: ليس للإنسان فعل أصلاً بل الأفعال لله جلّ وعلا، والفاعل حقيقة هو الله، وهؤلاء استدلوا بأدلة والآخرون استدلوا بأدلة، وأدلة القدرية الذين ينفون القدر تدل على أن الإنسان له فعل حقيقة وينسب إليه حقيقة، وأدلة الذين يقابلونهم تدل على أن الله جلّ وعلا لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فلهذا جمع أهل السنة بين الأدلة وتركوا الباطل الذي يقوله هؤلاء وهؤلاء، فالفريق الأول جعلوا العباد خالقين مع الله وسلبوا الله جلّ وعلا أن يكون يشاء أفعالهم وأن تقع بقدرته، والفريق الثاني سلبوا العبد مقدرته واختياره وجعلوا الأفعال كلها واقعة بفعل الله، ويستفيد الإنسان من هذا أن إحدى الفرقتين مبطلة ولا شك في ذلك لأنهما متقابلتان، فلا يمكن أن يكون هذا حق وهذا حق، ويستفيد أيضاً أن الباطل يأتي من لبس الحق به، يعني يروج على الناس إذا لبس وخلط معه الحق، والذي عنده فرقان يميز بين الحق والباطل ويخلص الحق من الباطل، وأهل السنة جمعوا ما مع هؤلاء وهؤلاء من الحق وقالوا به وأبطلوا ما مع هؤلاء وهؤلاء من الباطل، ثم هؤلاء انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: من لم يتسع فكره ونظره للجمع بين الأمر والقدر، وهؤلاء خصوم الله جلّ وعلا.

القسم الثاني: من جعل كل واقع هو بأمر الله وهو طاعة، ولهذا يقول أحدهم: إن عصيت أمره الشرعي فقد أطعت أمر القدري فأنا في طاعة، ويقول:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

يعني حتى الزنا والقتل والسرقة وغيرها؛ لأنه نظر إلى القدر فقط، وهذا أيضاً من الباطل، وقد قال الله جلّ وعلا عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠] يعني ما عبدنا الملائكة لأن منهم من يعبدهم، وهذا ليس إثباتاً للمشيئة ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥] فهذا احتجاج بمشيئة الله على إبطال شرع الله، يعني لما جاءهم الرسول ﷺ يأمرهم بترك عبادة الأصنام قالوا له: عبادتنا للأصنام وقعت بمشيئة الله، ولو كان الله جلّ وعلا غير راضٍ بها ما وقعت بمشيئته، هذا معنى كلامهم الذي ذكره الله عنهم، فهم يقولون: عبادتنا للملائكة وقعت بمشيئة الله لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته، ولو كان غير مرضي لله جلّ وعلا ما وقع، فهذا دليل على أن لله يرضاه وأن ما تقوله وما تأمر به غير صحيح، فعارضوا شرع الله بقدر الله، وقد يكون هذا من باب العناد، ولكن هذه هي طريقة الشيطان لما قال لربه جلّ وعلا: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وأبى أن يسجد، فهؤلاء سلكوا مسلكه وقالوا مثل ما قال تماماً، والمقصود أن مشيئة الله العامة الشاملة لا تخالف أمره؛ لأنه جلّ وعلا أمر العباد بما يستطيعون فعله، وقد جعل لهم فكراً وعقلاً وقدرة على الفعل، فإذا لم يفعلوا وأحجموا عن ذلك فإنهم تركوا ذلك باختيارهم ولم يرغمهم أحد على تركه، فلم يؤمر الإنسان بشيء لا يستطيعه بل أمر بما يستطيع، أما قول الله جلّ وعلا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ [المسد: ١ - ٤] هذا نزل في وقته وفي حياته، فيقولون: كيف يؤمر بالإيمان والله جلّ وعلا يقول له: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ أليس هذا أمر بما لا يستطاع؟.

الجواب: هذا ليس أمراً بما لا يستطاع، ولكن الله علام الغيوب، وقد علم أن هذا الرجل لا يؤمن وأنه يقبل الإيمان ولا يريده، وأنه سيستمر على الشرك حتى يموت عليه، فأخبر بالواقع جلّ وعلا، وكذلك قول نوح ﷺ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] لا ينفع النصح والكلام والبيان إذا كان الله جلّ وعلا قد أراد للإنسان الغواية، فإرادته جلّ وعلا التي هي مشيئته الكونية نافذة، ومع ذلك الذي يقع باختيار الإنسان نفسه، فهو الذي يختار الشيء، ولو أرغم على الإيمان لقاتل الذي يرغمه، وإذا قيل له: اتق الله وصل، قال: أنا حر أفعل ما أشاء وهذا اختياري وهذه إرادتي، هل كُلفت بي؟ وإذا قيل له: أمامك النار، قال: ما لك ولي؟.

فهو يفعل الأفعال التي يفعلها باختياره، ولهذا يقول العلماء لما ذكر هؤلاء الجبرية أن الإنسان مجبور، قالوا: الله أعظم من أن يجبر الخلق على شيء لا يريدونه، ولكن الله يخلق الإرادة، ويجعلها فيهم باختيارهم فمن أراد أن يفعل الخير باختياره فعله، ومن أراد أن يفعل الشر باختياره فعله، فالواجب الجمع بين مشيئة الله العامة الشاملة وبين أمره الشرعي، وأن هذه لا تخالف هذه بل تتفق معها.

وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ.

وهذا رد على الجبرية، فالعبد هو المؤمن والكافر حقيقة، إذا آمن فهو آمن باختياره وإذا صلى فهو مُصلٍ باختياره، ومعلوم أن هذا يجده الإنسان من نفسه، فمثلاً مجيئنا إلى هذا المكان لم يجبرنا ويرغمنا أحد على المجيء إليه، بل جئنا باختيارنا، وهذا شيء مقدر، قدره الله وشاءه، ولولا مشيئته ما وقع ذلك، فكل الأمور التي تكون من أفعال العقلاء تكون باختيارهم وقدرتهم، والله جلّ وعلا قد شاءها، ولا يقع إلا ما شاءه جلّ وعلا، فالعبد هو المؤمن والكافر باختياره حقيقة، وهو

البر والفاجر والمصلي والصائم وهو الآكل والنائم والجالس والماشي، يعني أن هذا الفعل يضاف إليه حقيقة ويكون فعلاً له مع أنه لا يقع إلا بمشيئة الله جلّ وعلا، أما استدلال الجبرية بمثل قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فيقولون: إن الله نفى عن نبيه أن يكون رمى فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فدل على أن الأفعال التي تقع من العبد هي أفعال الله، ويقال لهم: إن المنفي عن النبي ﷺ غير المثبت؛ لأنه قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] فأثبت له الرمي ونفى عنه شيئاً آخر وهو إيصال الحصباء إلى أعين الكفار ومناخرهم؛ لأن الرسول ﷺ أخذ بكفه من حصباء الوادي ورماها نحو الكفار، فدخل من هذه الرمية في أعينهم ومناخرهم، فالإصابة من الله ولا يقدر عليها رسول الله ﷺ، ولكن الفعل الذي أخذ به التراب وحرك يده هذا فعله وهو المثبت له، فيكون المنفي غير المثبت، فليس فيها دليل على قولهم، وهكذا بقية الأدلة، وهذا من أظهر الأدلة لهم وليس فيها دليل، وكذلك حديث احتجاج آدم على موسى ليس لهم فيه حجة.

وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،

لأن الله جلّ وعلا لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالعمل الذي يفعله الإنسان هو بمقدوره، ولم يؤمر بالشيء الذي لا يستطاع.

وَلَهُمْ إِرَادَةٌ

إذا وجدت القدرة والإرادة فلا بد من وجود المراد، ولا يمكن أن يتخلف إلا لأمور أخرى قاسرة، فالإنسان له القدرة على الفعل وله إرادة، وهذه القدرة والإرادة مخلوقة لله جلّ وعلا، وأفعال العبد التي تقع بإرادته وقدرته لا تقع إلا بمشيئة الله؛ لأن مشيئته هي النافذة.

وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ رد على الجبرية؛ لأنهم جعلوا المشيئة لهم، فيستطيع أحد أن يستقيم إذا شاء.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ رد على القدرية بأن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئة الله جلّ وعلا.

وَهَٰذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ

يعني أن عمومهم يكذبون بها، ومعلوم أنه إذا كذب بها الإنسان لا يكون مؤمناً بالقدر، والقدر أحد أركان الإيمان الستة، ولا يصح إيمان الإنسان إلا به، فإيمانهم مختل وغير مستقيم.

الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ[1]،

على القول الصحيح أن الأحاديث التي فيها أنهم مجوس هذه الأمة موقوفة؛ لأن هؤلاء لم يوجدوا إلا في آخر عهد الصحابة، وإنما هذه قد قالها الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا يقول في الحديث الذي في سنن أبي داود «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»[2] قال المنذري: هو حديث منقطع، وهناك أحاديث كثيرة

(١) رواه الإمام أحمد (٨٦/٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٥) عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر». وخرّجه الآجري في «الشريعة» (١٩٠)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٧)، والحديث حسنه الألباني بمجموع طرقه في «السنة» (١٤٥) لابن أبي عاصم.

(٢) إسناده ضعيف، لكن له طرق يتقوى بها، ثم خرّجته في «ظلال الجنة في التخريج »

في هذا ولكن عامتها موقوف، وتشبيههم بالمجوس واضح لأن المجوس يقولون بالأصلين؛ النور والظلمة، وأن النور يخلق الخير والظلمة تخلق الشر، فلهم إلهين، إله الخير وإله الشر، وإله الخير أصله النور، ولهذا هم يعبدون النار ويوقدون عليها دائماً ولا يدعونها تطفأ في وقت من الأوقات؛ لأنها أصل إلههم، وأما الظلمة فهي شريرة تخلق الشر، وهؤلاء جعلوا العباد يخلقون الكفر كما أنهم يخلقون الإيمان، يعني أفعاله مخلوقة لهم، وذلك معناه أنهم يقولون بخالقَيْن، الله يخلق والعباد يخلقون، فصاروا مشابهين للمجوس.

«وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ».

يعني الجبرية، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ومذهب الجبرية أخبث من مذهب القدرية[1]، ففيه إبطال للشرع؛ لأنهم جعلوا الإنسان ليس له أي قدرة بل يجعلون أفعاله على سبيل المجاز، ويجعلون حركاته كحركات المرتعش الذي لا يملك أن يوقف حركته، أي: بغير اختياره، ولا شك أن هذا المذهب لا يمكن أن يستقيم عليه لا دين ولا دنيا؛ لأنه إذا لم يحاسب الإنسان بأفعاله ويعاقب بها ويؤاخذ عليها فماذا يكون؟.

* السنة» (ص٣٣٨ ـ ٣٤٢). ألباني.
قال شاكر: أبو داود (٤٦٩١).

(١) (القدرية): مذهب بدعي ضال، يزعمون أن العبد يخلق فعله، والله لا علم له بالأمور قبل طلوعها، وأن الأمر أنف، وأول من تكلم بهذا هو (معبد الجهني)، قتله الحجاج بن يوسف سنة ٨٠هـ، وقد أخذ هذه المقالة عن (سوسن النصراني)، وأخذها عن معبد (غيلان الدمشقي)، وعرفت المعتزلة به حتى أنهم جعلوا من أصولهم (العدل) ويعنون به نفي القدر، وهؤلاء هم (مجوس الأمة)؛ لأنهم يثبتون خالقاً مع الله.
«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٥٤)؛ «الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٢٠٥)؛ «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨٥).

فكل إنسان يفعل ما يريد ويقول: هذا ليس فعلي، إذا قتل أو زنا أو سرق قال: ليس فعلي، ولهذا يقال: لو عومل هؤلاء بمذهبهم لم يستمروا عليه.

أي: لو عوملوا بمقتضى قولهم لم يستمروا عليه، فلو أتى إنسان وأحرق مال الذي يقول بهذا المذهب أو هدم بيته أو صفعه في وجهه وقال: لا تلمني فليس هذا فعلي، وأنا مجبر على الشيء، فهل يرضى؟.

لا يمكن أن يرضى ذلك، فلا يمكن أن تستقيم على هذا المذهب دنيا فضلاً عن الدين، فالإنسان العاقل الذي له قدرة لا بد أن يؤاخذ بأعماله ويحاسب عليها.

وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

يعني أنهم يقولون: إن الله لا يفعل لحكمة وليس لأفعاله مصالح بل يفعل لمجرد اختياره ومشيئته، سواء كان كفراً أو إيماناً، ومعنى ذلك أنه يستوي إذلال الكفار للمؤمنين أو نصرهم ولا فرق، وقد أخبر الله جلّ وعلا أن هذا من ظن السوء ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢] فليس هناك فعل لله إلا وفيه حكم وللعباد فيه مصالح، وفعل الله جلّ وعلا كله خير وأن الشر لا ينسب إليه، وهذه المسألة يشترك فيها الجبرية[1] بغلاتهم وكذلك المتوسطون مثل الأشاعرة؛ لأنهم

(١) (الجبر): يقصد به إسناد أفعال العباد إلى الله تعالى، وأن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل بوجه من الوجوه، فأفعال العباد كلها اضطرارية بمنزلة دقات القلب والحركات غير الإرادية، وهذا المذهب احتج به مشركو العرب، فكذّبهم الله تعالى فقال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقد تبنى هذا المذهب جهم =

جبرية أيضاً، فهم يثبتون عملاً وكسباً للإنسان غير معقول، ولهذا يقولون: ثلاث من عجائب المتكلمين طفرة النَّظام وأحوال أبي هاشم وكسب الأشعري.

فكسب الأشعري: هو أن الأشعري يقول: إن الإنسان ليس فاعلاً، ولكنه كاسب، فلما طُلب منه تفسير الكسب قال: هو مقارنة القدرة التي لا تؤثر بالمقدور، ولكن لا أثر لها، فما الفائدة؟.

حتى أن منهم من ينفي تأثير الأشياء العادية التي يتعارف عليها الناس، فمثلاً إذا ضربت الزجاجة بالحجر وانكسر الزجاج يقولون: ليس الحجر الذي كسر الزجاج، ولكن الله خلق الكسر عند مصادمة الحجر للزجاج، كما أنك إذا أتيت بالنار ووضعتها في الحطب واحترق يقولون: لم تحرق النار الحطب، ولكن الله خلق الاحتراق بملامسة النار للحطب، وهذا عبث، فالإنسان عنده كاسب لا عامل، وليس هناك في كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ فرق بين الكسب والعمل كقوله جلّ وعلا: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالكسب هو العمل فلا فرق، فهذا القول قول باطل، والحكم التي يرتبها جلّ وعلا على خلقه وعلى فعله منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر في الخلق، ولكن لا بد أن يظهر شيء كثير منها.

= وأتباعه، وصاروا يعرفون به، ثم جاء من بعدهم الأشاعرة فأرادوا التوفيق بين البدعتين، فجاءوا ببدعة جديدة لم يُسبقوا إليها، وهي نظرية (الكسب) وحاصلها كما قال الرازي: «إن الإنسان مجبور في صورة مختار» أي: جبرية محضة وإن زعموا خلافها، وقد سماهم النبي ﷺ مجوس الأمة كما ثبت عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم**». رواه ابن ماجه (٩٢) المقدمة، باب في القدر، والطبراني في «المعجم الصغير»، والآجري في «الشريعة»، وابن عدي في «الكامل» (١٩٠/١)، وابن أبي عاصم في «السنة»، وحسّن الألباني إسناده في «ظلال الجنة».

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ وَحُكْمُ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ

هذا الفصل يشتمل على خمس مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان والاختلاف فيه.

المسألة الثانية: كون الإيمان يزيد وينقص، ومعنى الزيادة والنقص والأدلة على ذلك.

المسألة الثالثة: حكم مرتكب الكبيرة.

المسألة الرابعة: حكم التكفير، ومتى يكون الإنسان كافراً خارجاً من الدين؟.

المسألة الخامسة: الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان.

الإيمان في اللغة: هو التصديق، قال الله جلّ وعلا في قصة إخوة يوسف لما أخبروا أن الذئب أكله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] يعني بمصدق لنا، وهذا ظاهر واضح وأن المقصود هنا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ [يوسف: ١٧] يعني بمصدق، واختلف الناس في تعريفه في الشرع بين متطرف وغالٍ ومتوسط.

فالإيمان عند المرجئة: هو مجرد التصديق، يعني الإيمان هو العلم، فإذا علمت في قلبك فهذا يكفي، ولا يلزمك أن تصلي وتصوم أو تحج لأنها لا دخل لها في الإيمان، فعندهم الناس في الإيمان سواء، يعني إيمان الزاني والسارق كإيمان أبي بكر الصديق ﷺ بل ربما قالوا كإيمان جبريل ﷺ، وهذا مما تمجه العقول، وهذا جعله العلماء من الكفر بالله جلّ وعلا؛ لأن الذي يقول هذا القول ما عرف الإيمان.

الإيمان عند الجهمية: هو معرفة القلب، ومعلوم أن الشيطان يعرف ربه، فهل هو مؤمن؟ هذا من أبطل الأقوال.

الإيمان عند المعتزلة والخوارج: هو فعل جميع الواجبات واجتناب جميع المحرمات مع تصديق القلب وقول اللسان، فإن خرج من ذلك شيء لا يصبح الإنسان مؤمناً، يعني إذا ترك شيئاً من الواجبات أو فعل شيئاً من المحرمات لا يصبح مؤمناً، وهذا غلو، والمعتزلة والخوارج متفقون في حكم من فعل هذا وأن مآله النار خالداً فيها، ويختلفون في التسمية، فالمعتزلة يقولون: إنه ليس بمؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين الإيمان والكفر، وهذا من أقوالهم التي ما قالها غيرهم، أما الخوارج فقالوا: هو خارج من الإيمان وداخل في الكافر؛ لأنه لا منزلة بين الكفر والإيمان، فمن لم يكن مؤمناً فهو كافر، أما في الآخرة فهو في النار، وهذا باطل بنصوص الشرع الكثيرة، فأهل السنة خالفوا هؤلاء وتوسطوا، فالسارق تقطع يده ويكون مسلماً، والزاني المحصن يرجم ويصلى عليه ويدفن مع المسلمين، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فسمى المقتتلين: المؤمنين، ويقول جلّ وعلا في الذي قتل: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فسماه أخاً له، يعني صار القاتل أخاً للمقتول، وهذه الأخوة هي أخوة الإيمان وليست أخوة النسب، فهذا يبطل هذا المذهب الفاسد.

والدين اسم لما جاء به الرسول ﷺ، يقال: دانه يُدينه، والله جلّ وعلا يقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] يوم الجزاء، فإن الله يدين الخلق ويجزيهم على أعمالهم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩] فالدين اسم لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي والشرائع، وإذا قيل: الإيمان أو قيل: البر أو قيل التقوى فهو الدين، ويدخل فيه كل الأوامر التي كلف بها الإنسان

والنواهي التي نُهي عنها، فالدين مثل الإيمان، والدليل هو قول الرسول ﷺ. لما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم سأله عن الإيمان ثم سأله عن الإحسان ثم سأله عن أشراط الساعة وعلاماتها، وفي النهاية قال ﷺ: **«هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»**[1] فجعل هذا كله ديناً، فإذا اجتمع الإسلام والإيمان فُسر الإيمان بأنه ما يقر في القلوب وتطوي عليه، ثم يتبعه عمل القلب من الخوف والرجاء والخشية والإنابة وعمل الجوارح، أما الإسلام فيفسر بالأمور الظاهرة كما فسره بذلك رسول الله ﷺ، أما الإحسان فهو درجة عليا ولا يصل إليها كل أحد، بل قليل هم الذين يتحلون به، وهو أن يكون إيمانه على غاية ما يريده الله منه، وأن يأتي به على الوجه الأكمل قد أحسن فيه ما أمكنه ولم يقصر في ذلك، ولهذا صار هو أعلى الدرجات، فالدين عبارة عن ثلاثة أمور: الإسلام والإيمان والإحسان، والإحسان أرفعها ويليه الإيمان ثم الإسلام، ومعنى ذلك أن المحسن يكون مؤمناً مسلماً، أما المؤمن يكون مسلماً ولا يلزم أن يكون محسناً، أما المسلم فلا يلزم أن يكون مؤمناً ولا محسناً.

ومن أهل السنة من يجعل تعريف الإيمان ثلاثة أمور: قول وعمل وعقيدة، اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، فهو مجموع هذه الأمور الثلاثة، فإذا ذهب واحد منها فقد ذهب الإيمان، وقد يكون مسلماً بدون إيمان، وهذا لا يخرجه من الدين الإسلامي، وقد جاءت التفرقة بين الإيمان والإسلام في أربعة مواضع من كتاب الله:

الموضع الأول: إنكار الله ﷻ على الذين دخلوا في الإسلام في أول مرة ولم يجاهدوا ولم يعملوا الأعمال وقالوا: آمنّا ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ

(١) مسلم (٨)، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام؛ والنسائي (٤٩٩٠)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب نعت الإسلام، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، صححه الألباني.

ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] ثم ذكر أن الذي يطيع الله ورسوله ويجاهد في سبيله أنه يكون مؤمناً، فدل على أن الإسلام يدخل فيه الإنسان بكلمة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه لا يدخل في الإيمان بذلك حتى يعمل ويتحلى قلبه بالصدق والإخلاص وبالنية وإرادة الخير وعمله.

والموضع الثاني: في قصة الملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم لوط ﷺ، قوله جلّ وعلا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٣٦] فالمؤمنون هم لوط ﷺ وبناته، ولما جاء بالإسلام دخلت معه زوجته ولكنها ليست مؤمنه، فوصفت بالإسلام وإن كانت منقادة في الظاهر، ولهذا أمره أن يخرج هو وأهله واستثنيت امرأته.لأنه سيصيبها بما أصابهم.

الموضع الثالث: قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥] ففرق بينهم.

الموضع الرابع: قوله جلّ وعلا: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥].

فهذه الآيات الأربع تدل على التفرقة مع حديث رسول الله ﷺ حينما سئل عن الإسلام وعن الإيمان والإحسان، فقال عن الإحسان: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** فجعل الإحسان درجتين، درجة أرفع من الأخرى:

الأولى: أن يعبد الله على المشاهدة والرؤية، كأنه يشاهد ربه ويراه، ومن كان بهذه المنزلة فإنه لا يدخر من إحسان العمل شيئاً، فيأتي به ما استطاع ولا يترك منه شيئاً.

الثانية: إن لم يستطع أن يصل إلى المنزلة الأولى فإنه يعبد الله مع الإيمان بأن الله يراقبه ويشاهده، ومن عبد الله على هذه الصفة فإنه يستحي من ربه ويأتي بالعمل على الوجه المطلوب، ولكن ليس كالدرجة التي قبله بل أقل.

فالإيمان يكون عملاً وعلماً أي: عقيدة، أما كونه عملاً فهذا ظاهر في كتاب الله جلّ وعلا في آيات كثيرة كقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ يعني صلاتكم[1]، فسماها إيماناً، وقال جلّ وعلا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فالإيمان هنا فسر بالصبر، فإنه إذا أصابته المصيبة يصبر ويحتسب ويعلم أنها من الله، فجعل الصبر إيماناً، وهو عمل القلب وعمل الجوارح كذلك؛ لأن الصبر: هو حبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن اللطم والخمش وما أشبه ذلك، وكذلك حبس القلب على الرضى بالله جلّ وعلا وما قدره وقضاه، والآيات في هذا كثيرة جداً، ولهذا جاء قرن الإيمان بالأعمال الصالحة كقوله جلّ وعلا في أكثر من موضع في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] مما يدل على أن الإيمان لا بد فيه من الأعمال، أما الزيادة والنقص فقد جاءت الزيادة منصوصاً عليها في كتاب الله في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] وفي آيات كثيرة ينص على أن الإيمان يزداد، وليس معنى الآية كما قاله بعض العلماء أن الآيات إذا نزلت آمنوا بها فزادوا إيماناً، فهذا غير صحيح،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/١٦٧)، «الدر المنثور» (١/٣٦٨).

بل المعنى أنها إذا نزلت صدقوا بها وزادوا خيراً في العمل وانكفوا عما طلب منهم الانكفاف عنه، فتزيد رغبتهم في الجهاد وفي الصدقة والعمل الصالح وهذا هو زيادة الإيمان، وكذلك يزيد بعدهم عن المعاصي وهذا من زيادة الإيمان، فالإيمان يزيد بالعمل والتصديق.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] وهذا اليوم هو يوم عرفة من السنة العاشرة من الهجرة، وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، ووجه الاستدلال بها أنه قبل الكمال يكون ناقصاً، فإذا كمل ازداد عما قبله، ولا يلزم على هذا أن الذي مات قبل نزول هذه الآية أن يكون إيمانه ناقصاً، لأنه آمن بما يلزمه فإيمانه كامل، ولهذا استدل البخاري رحمه الله بهذه الآية على زيادة الإيمان ونقصانه، وكذلك قال الصحابة رضوان الله عليهم مثل عمير بن حبيب رضي الله عنه فإنه قال: الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله وأطعناه زاد، وإذا غفلنا وعصينا نقص، وكذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه: الإيمان يزيد وينقص فقالوا: كيف الزيادة؟ فقال: إذا أطعتم الله جلّ وعلا زاد إيمانكم، وإذا عصيتموه نقص إيمانكم، وإن من فقه الرجل أن يعلم هل هو يزيد أو ينقص، وإن من فقهه أن يعرف من أين يأتيه الشيطان فيحترز من ذلك، وكذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه وغيره من الصحابة، فنصوا على أنه يزيد، وهذا نص القرآن أيضاً، أما النقصان فلم يأتِ به النص من القرآن، ولكن الآية التي في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] تدل على أنه ينقص، ومعلوم أن الذي يزيد يلزم منه النقص، ففي حديث رسول الله ﷺ قوله في النساء: **«ما رأيت من ناقصات عقل ودين»**[1] فلما

(١) البخاري (٣٠٤)، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

سئل كيف نقصان الدين؟ فقال: **«تمكث إحداكن نصف الدهر لا تصلي، وأما نقص العقل فشهادة المرأتين بشاهدة رجل»**. والمقصود أن هذا أيضاً من النص على أن الدين ينقص بالعمل، وهو خلاف قول المرجئة الذين يقولون: الإيمان شيء واحد لا يتجزأ، فإنه لو ذهب بعضه لذهب كله، مع أن الرسول ﷺ يقول: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»**[1].

ومن أصول أهل السنة أن العبد يقوم فيه إيمان وكفر وإخلاص ونفاق، وهو لما غلب عليه، ولهذا قال الرسول ﷺ: **«ثلاث من كن فيه كان منافقاً ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»**[2] فدل هذا على أن الإنسان إذا كان عنده شيء من هذه الخصال كان فيه شيء من النفاق، وكذلك يكون عنده جاهلية، كما قال للرجل الذي عير الرجل الآخر بأمه، قال: **«أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»**[3] والجاهلية خلاف العلم الذي جاء به الرسول ﷺ، فعلى هذا يتفاوت الناس كثيراً في الإيمان، منهم من يكون إيمانه كاملاً ويستحق عليه دخول الجنة بلا عذاب، ومنهم من يكون عنده الإيمان ولكن ما منعه الإيمان من ترك بعض الواجبات ولا منعه من ارتكاب بعض المحرمات؛ لأن الذي عنده إيمان كامل لا يمكن أن يفعل محرماً وهو يستطيع أبداً، ولا يمكن أن

---

(١) مسلم (٣٥)، كتاب الإيمان، باب وشعبة وفضيلة الحياء، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣٣)، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، و(٢٦٨٢)، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، و(٢٧٤٩)، كتاب الوصايا، باب قول الله ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، و(٦٠٩٥)، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝﴾ وما ينهى عن الكذب.

(٣) البخاري (٣٠)، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يُكَفَّرُ صاحبها بارتكابها إلا بالشرك؛ مسلم (٤٢٦٧)، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه.

يترك واجباً وهو يستطيع، ولهذا قال ﷺ: **«لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**[(١)] يعني لو كان عنده الإيمان لمنعه من السرقة، والمقصود الإيمان المانع له من ارتكاب هذه المعصية، **«ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**، يعني في حالة الشرب يكون قد فقد الإيمان الذي يمنعه، وليس معنى ذلك أنه يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، بل عنده أصل الإيمان، ولكنه ضعيف لا يقوم بمقاومة الشهوة والهوى، بل تغلب الشهوة والهوى على الإيمان، فيغطيه ويفعل هذه الأفعال، فهذا يكون معرضاً لعقاب الله جلّ وعلا، وكذلك قول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فجعل الشرك غير مغفور لصاحبه إذا مات عليه، وما عدا الشرك يكون الإنسان تحت مشيئة الله، إذا شاء غفر له بلا عذاب وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة، فهذا يدل على بطلان مذهب المرجئة[(٢)]، كما يدل أيضاً على بطلان مذهب المعتزلة والخوارج، ويدل على صحة مذهب أهل السنة.

ومن أهل السنة من يجعل تعريف الإيمان أربعة أمور: قول ونية وعمل وسنة، ومن يقول هذا يفسره بأن القول بلا نية يكون نفاقاً، والعمل بلا عقيدة كفر، والعمل مع القول والنية بلا اتباع سنة تكون

---

(١) ابن حبان (٥٨٧٨)، باب الجنايات، (ذِكْرُ نفي اسم الإيمان عن القاتل مسلماً بغير حقه)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) (الإرجاء): هو في اللغة يطلق على معنيين: (التأخير)، و(إعطاء الرجاء)، ومذهب (المرجئة) نسبة إلى أحد المعنيين، أمّا الأول: فلأنهم يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع من الكفر طاعة، فيعطون للعاصي الرجاء في ثواب الله.
ومذهب (الإرجاء): مذهب بدعي، وهم على أربعة أصناف:
١ - مرجئة الخوارج.
٢ - مرجئة القدرية.
٣ - مرجئة الجهمية.
٤ - مرجئة المرجئة الخالصة.
وكلهم متفقون على عدم تبعيض الإيمان.

بدعة، ونية القلب فهي عبارة عن إخلاص العمل، فإن العمل إذا لم يكن مخلصاً لله جلّ وعلا يُرد لأن صاحبه إما أن يكون منافقاً يعمل لأجل الناس أو لمصلحة دنيوية أو يكون مشركاً، فلا بد من اجتماع هذه الأمور، ولهذا أخبر الله جلّ وعلا أنه خلقنا ليبلونا أينا أحسن عملاً ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال الفضيل بن عياض[1]: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يعني أصوبه وأخلصه؛ لأن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً فهو مردود، والصواب أن يكون على السنة، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً فهو مردود كما قال الله جلّ وعلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، واتباع السنة شرط لجميع الأعمال؛ لأن الذي لا يتبع السنة يكون مبتدعاً، والبدعة مردودة على صاحبها كما قال جلّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] فهؤلاء مع خشوعهم ونصبهم وعملهم يصلون النار؛ لأنهم ما كانوا على السنة بل كانوا على البدع، فالعمل الصالح هو ما كان على سنة الرسول ﷺ، ويشترط لصلاحه أن يكون خالصاً لله جلّ وعلا، فمعنى ذلك أن الإيمان عند أهل السنة مركب وليس جزئياً، بل هو مركب من ثلاثة أمور: من عقيدة القلب وقوله وعمله، وقول القلب هو ما يعتقده وما يعلمه، وأما عمل القلب فهو مثل الخوف والرجاء والخشية والإنابة وما أشبه ذلك من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع لأعمال القلب ولا يمكن أن تنفك عنه، فإن انفكت عنه فالأمر غير معتبر لقول النبي ﷺ:

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي شيخ الحرم المكي، من أكابر العُبّاد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي، ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧هـ.
«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢١)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٤٥)، «الأعلام» (٥/ ١٥٣).

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] ويقول الله جلّ وعلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ويقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٥، ١٦] فدل على أن الإرادة التي هي النية لا بد أن تكون صالحة وخالصة لله جلّ وعلا.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ

يعني مع كونهم يقولون الإيمان يتبعض ويتجزأ ويزيد وينقص.

لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ،

أهل القبلة هم الذين يستقبلون بصلاتهم الكعبة، يعني من كان ظاهره الإسلام يصلي ويزكي ويفعل الواجبات الظاهرة مثل الحج والزكاة والصلاة، أما الصوم فهو أمر باطني؛ لأن الإنسان قد يُظهِر أنه صائم وهو في الخفاء يأكل، ولهذا ليس الصوم من الأمور الظاهرة، بل الإنسان مؤتمن عليه، بخلاف الزكاة فإن الأموال تكون ظاهرة، فيجب أن يؤديها ظاهراً، يعني يخرجها إذا طلبت منه ولا يجوز أن يخفيها، أما الإخفاء لصدقة التطوع، وأما الزكاة فما تخفى، بل تظهر لأنها من الأمور الظاهرة والأموال ظاهرة، فتؤدى زكاتها ظاهراً.

فإذا كان الإنسان بهذه الصفة، يعني أنه يصلي ويتصدق ويؤدي زكاته ويحج، فهو مسلم ولا يجوز تكفيره بالذنوب كالزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو ما أشبه ذلك من الكبائر التي يقترفها، ولكن لا يقال هو مؤمن

(١) متفق عليه، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ وهو أول حديث في «صحيح البخاري».

بإطلاق، بل بقيد، يقال: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو يقال: هو مؤمن عاصٍ، أو يقال: مؤمن فاسق، والفسوق: هو الخروج عن الطاعة مطلقاً، فهو إذا ارتكب الكبائر أو أصر على صغيرة من الصغائر يكون فاسقاً، ومع هذا هو من المسلمين وله حكمهم وتشمله دعوتهم، فيعاد إذا مرض ويُصلى عليه إذا مات ويتبع ويدفن في مقابر المسلمين ويدعى له، ولكن يخاف عليه أن يصيبه العذاب، فيجوز أن يعذب في القبر ويجوز أنه لا يكفي عذابه في القبر ثم يعذب في النار، بل لا يكفي عذابه بالموقف والشدائد التي تناله، فيلقى في النار وقد يطول مكثه وقد يقصر حسب إجرامه، ولكن لا بد من خروجه ودخوله الجنة ما دام أنه مات وعنده أصل الإيمان وإن كان عاصياً، وقتل النفس هو أعظم المعاصي، فالله جلّ وعلا يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] فهذا وعيد شديد ومع ذلك لا يكون كافراً، وهذا الذي ما استطاع المعتزلة والخوارج أن يفهموه، بل قالوا: إذا فعل ذلك فهو كافر ولا يمكن أن يكون مؤمناً، كيف يكون مع هذا التوعد يرجى له إيمان ويرجى له خير؟.

وهم مخطئون في ذلك، وقول أهل السنة يجمع بين النصوص، فهم لا يخرجون من الكتاب والسنة.

بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ الْإِسْلَامَ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ، كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلِهِ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1].

وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ

كتاب الله جلّ وعلا لا يتضارب بل بعضه يصدق بعضاً، ففي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ فسماه أخاً له، وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] فجعلهم إخوة مع القتال وإزهاق الأنفس، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مؤمنين بل إخوة، فالإيمان موجود فيهم، وبهذا يتبين أنهم لا يكفرون بذلك ولكنهم يتعرضون لعذاب الله وعقابه، فعلى هذا يتبين لنا أن أهل السنة لا يكفرون بالمعاصي، ولا فرق عندهم بين المعاصي الاعتقادية والمعاصي العملية، وإنما التفريق الذي جاء به المفرقون هو من البدع وليس له ضابط؛ لأن أهل البدع قالوا: مسائل الأصول لا يجوز الخلاف فيها، والخلاف فيها كفر، أما مسائل الفروع

---

(١) سبق تخريجه.

فلا بأس ولا يكفر من خالف فيها، وهذا غير منضبط وليس له أصل في كتاب الله ولا عن رسوله ﷺ ولا عن الصحابة رضوان الله عليهم، فمثلاً الزكاة والصلاة والحج وغيرها من مسائل الفروع، وقد يكون الإنسان كافراً إذا تركها عمداً.

ثم يتبين أن أهل السنة لا يكفرون أحداً من المسلمين ولا يكفرون حتى أهل البدع، فهم لا يكفرون الخوارج الذين يكفرون المسلمين بل يرون أنهم من المسلمين وليسوا كفاراً، ولهذا لما قيل لعلي رضي الله عنه بعدما انتهى من أهل النهروان وهم الخوارج: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا[1]، أي: أنهم ليسوا كفاراً بل إنهم من الكفر فروا، ولهذا أمر ألا يجهز على جريحهم ولا يتبع مدبرهم ولا تسلب سلوبهم وما معهم، وهذا بخلاف ما يفعل بالكفار، فإن الكفار يقتل جريحهم ويتبع مدبرهم ويقتل وتسبى أموالهم ونساؤهم وأولادهم، أما هؤلاء فلا يجوز أن يفعل بهم ذلك، وإنما قتالهم لدفع شرهم عن المسلمين فقط، مثلهم كذلك المعتزلة والأشعرية فإنهم لا يكفرون بل هم من المسلمين وإن كان خلافهم في الأصول ومقتضى مذهبهم أن يكفروا، ولكن نقول: إن مذهبهم وقولهم غير صحيح، فلا يعاملون بمذهبهم إنما يعاملون بالحق، والله يأمر بالعدل ويحبه جلّ وعلا، أما الجهمية فقد كفرهم كثير من العلماء، ولكن يجب أن يعلم الفرق بين تكفير أصحاب المقالة وبين تكفير الإنسان بعينه، فإنه إذا جاء الإنسان بعينه لا يكفر حتى تقام عليه الحجة، بخلاف الفرقة أو المقالة فإنه يقال: هذه كفر، أو يقال: هذا العمل كفر، ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاث في أمتي هن بهم كفر، الطعن في الأنساب والنياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم»**[2].

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٨٤٨)، كتاب الجمل، باب ما ذكر في صفين، وعبد الرزاق (١٨٦٥٦)، آخر كتاب اللقطة، باب ما جاء في الحرورية.

(٢) «سنن البيهقي الكبرى» (٦٩٠٢)، باب ما ورد من التغليظ في النياحة والاستماع لها.

فمن فعل ذلك لا يقال: إنه كافر، ولكن هي كفر، وكذلك الذي يرتكب أمراً قد توعد عليه مثل القتل، لا يقال إنه كفر، ولكنه ارتكب أمراً عظيماً ويجب أن يتوب، وكذلك قول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩﴾ [النساء: ١٠] فإذا أكل إنسان بعينه مال اليتيم فلا نقول له أنت من أهل النار، ولكن نقول له: إنك على خطر ويجب أن تتوب، ويبقى مسلماً له حكم المسلمين، وذلك أن نصوص الوعيد يجب أن تترك على بابها مع اعتقاد أن فاعلها غير كافر، ما دام هو متلزم للإسلام ويصلي ويصوم ويزكي ويحج، فله حكم المسلمين ولا يجوز أن يحكم بكفره.

أما الغلاة الذين غلوا مثل الباطنية[1] فهؤلاء أخرجهم العلماء من الثنتين والسبعين وكذلك الذين يسبون الصحابة، فمن سب الصحابة إن كان سبه لأمر لا يقدح في دينه كأن يقول: هو بخيل أو جبان أو ما أشبه ذلك فلا يكفر، ولكن يجب أن يعزر ويؤدب حتى يرتدع من ذلك، أما

(١) (الباطنية): يُقال في كلام الناس على صنفين:
الأول: من يزعم أن للكتاب والسنّة باطناً يُخالف ظاهرها، فهؤلاء هم المشهورون عند الناس باسم (الباطنية) من القرامطة وسائر أنواع الملاحدة، وهذا الصنف هو المراد عند إطلاق اسم (الباطنية) وهؤلاء قسمان:
القسم الأول: يكون ذلك في الأعمال الظاهرة كتأويل الصلاة والصوم ونحوهما، وخواصهم يقولون برفع هذه الظواهر بالجملة عن الخاصة منهم دون الجمهور، وهذا الصنف يقع في (القرامطة) المُظهرين للرفض، ويقع في زنادقة الصوفية من الاتحادية الحلولية، ويقع في غالية المتكلمة.
القسم الآخر: وهم عقلاء هذه الطائفة الباطنية، وهؤلاء يقولون بالباطن في الأمور العلمية فقط، أما العمليات فيقرونها على ظاهرها، وبه قال عقلاء الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام.
الثاني: وهم يتكلمون في الأمور الباطنة من الأعمال والعلوم، لكن من قولهم: إنها توافق الظاهر، وهؤلاء هم المشهورون بالتصوف.
هذا ملخص ما ذكره ابن تيمية في كتاب «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (١/ ٢٥٩، ٢٦٠).

إذا اعتقد أنهم ارتدوا وكفروا فهو كافر، بل الذي لا يكفره ليس بمؤمن؛ لأن هذا تكذيب لكتاب الله جلّ وعلا، وهم الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ الذين نقلوا الدين، فمعنى ذلك أن ديننا ـ على قول هؤلاء ـ جاء عن كفار، وإذا جاء عن كفار فهو باطل ولا يجوز اعتماده، وكذلك الذي يسب أزواج النبي ﷺ أو يقدح فيهن، وإذا انضاف إلى ذلك أن يقول: إن القرآن فيه زيادة أو نقص فلا يشك في كفر من يقول هذا؛ لأن هذا أيضاً تكذيب للقرآن، والله جلّ وعلا قد زكى وأثنى على الصحابة في آيات كثيرة كما في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وهناك آيات كثيرة جداً، فإذا قيل: إنهم فسقة أو أنهم ارتدوا أو أنهم كفروا فإن هذا تكذيب لكتاب الله جلّ وعلا، أما إذا كان يصدر منه الشتم واللعن فإن هذا ينظر ما الذي يدعوه إلى ذلك، فإن كان يبغضهم ديناً فهذا يدل على أنه ليس بمسلم؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فهم يغيظون الكفار، ويقول الإمام مالك رحمه الله: كل من غاظه شأن الصحابة فليس بمؤمن، والله جلّ وعلا أخبر عن المؤمنين الذين يأتون بعدهم أنه يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] فهذه صفة المؤمن أنهم يدعون لهم وتكون قلوبهم سليمة لهم، والمقصود أن أهل السنة لا يكفرون بالمعاصي بخلاف أهل البدع.

أما الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل، أما مطلق الإيمان فهذا يصاحبه النقص، يعني معه إيمان ولكنه ناقص، فلهذا لا يسلب الإيمان من صاحب الكبائر ولا يعطى الإيمان المطلق، فلا يقال: هو مؤمن ولا يقال: هو غير مؤمن، بل يقال: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يسلب الإيمان بالكلية ولا

يعطى الإيمان المطلق الكامل، وذلك أن الإيمان يدل على العلم وعلى القول وعلى العمل، فمن استكمل ذلك فهو المؤمن الكامل، وكلما نقص فإن إيمانه ينقص، وبهذا يتبين أن المؤمنين يتفاوتون تفاوتاً عظيماً، ولهذا ذكر جلّ وعلا تفاوت المنازل في الجنة حسب تفاوت الإيمان، فذكر في سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٥٤] بطائنها فكيف ظواهرها؟.

ثم قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الصافات: ٤٨] يعني لا يمكن أن الطرف يعدوهن ويذهب ليطلب غيرهن، ثم لما جاء صفة الجنتين الأخريين قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾ [الرحمن: ٦٢ - ٦٦] والنضخ غير الجريان، ثم قال: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن: ٦٨ - ٧٢] فهذا وصف غير الوصف الأول؛ لأن هذه أدنى من الأولى، وكذلك في سورة الواقعة، فجعل سابقين وأصحاب يمين، ووصف ما للسابقين يختلف عن أصحاب اليمين في آيات كثيرة، يقول الله جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] فجعل هؤلاء كلهم مصطفين، فمنهم الظالم ومنهم المتوسط المقتصد ومنهم السابق بالخيرات، وكلهم من أهل الجنة، وفسر الظالم بأنه الذي يقصر في فعل الواجبات وقد يرتكب بعض المحرمات، والمقتصد هو الذي يقتصر على فعل الواجب وعلى ترك المحرم ولكن يفعل المكروهات ويترخص ويترك المستحبات، أما السابق بالخيرات فهو

الذي يؤدي الواجبات ثم يؤدي المستحبات ويترك المحرمات ثم يترك المكروهات تقرباً إلى الله جلّ وعلا، ومعلوم أنهم يختلفون على هذا، فجزاء هؤلاء لا يكون كجزاء هؤلاء، فعلى هذا يكون الظالم لنفسه يتفاوت، قد يكون ظلمه كبيراً وكثيراً وقد يكون أقل من ذلك، فإذا كان ظالماً فسيورث الجنة وإن أصابه ما أصابه، ثم إذا كان مرتكباً للجرائم فهناك أمور وأسباب كثيرة قد ترفع عنه العذاب، منها استغفار المؤمنين له عندما يصلون عليه، ومنها ما يكون له الحسنات الكبيرة، فيتجاوز عنه من أجل ذلك، ومنها أنه قد يكون له ولد صالح أو قريب صالح فيدعو له ويستغفر له، فيرفع عنه العذاب بهذا السبب وغير ذلك من الأسباب التي قد تبلغ تقريباً عشرة أسباب كلها لمن كان مستوجباً للعذاب.

الْوَاجِبُ نَحْوَ الصَّحَابَةِ وَذِكْرُ فَضَائِلِهِمْ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ ﷺ،

فسلامة قلوبهم تكون من الحقد والغل والبغض والحسد والغش لهم، وسلامة ألسنتهم من الطعن فيهم أو السب لهم أو الشتم أو عدم الترضي عنهم أو ما أشبه ذلك، فهم كما وصفهم الله جلّ وعلا يدعون لهم بالمغفرة وأن الله يرضى عنهم وألا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، فهذه صفة أهل السنة، بخلاف أهل البدع الذين يشتمون الصحابة وقد يكفرونهم وقد يضللونهم، وهؤلاء بلا شك أشر من اليهود والنصارى؛ لأن اليهود لما قيل لهم: من خير أمتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، والنصارى لما قيل لهم: من خير أمتكم؟ قالوا: الحواريون، وهؤلاء لما قيل لهم: من شر أمتكم؟ قالوا: صحابة رسول الله ﷺ، وهم الروافض، والذي أسس مذهبهم زنديق يريد أن يفسد الدين الإسلامي، والأمر كما

قال أبو زرعة رحمه الله: الذين يطعنون في الصحابة زنادقة، وذلك أن الرسول حق والقرآن حق والإسلام حق، والذين نقلوا لنا الإسلام والقرآن والسنة هم الصحابة، فهم يريدون أن يطعنوا في شهودنا، هم زنادقة، وكذلك قال غيره، ولكنهم لا يجرؤون أن يطعنوا في الإسلام علانية، وإنما يطعنون في نقلته، وإذا كان نقلته كفاراً فهو باطل ولا يجوز أن يعتمد عليه، ومعلوم أن الله جلّ وعلا أثنى عليهم في كتابه في آيات كثيرة، فمن طعن عليهم وسبهم فقد كذب بالقرآن ورد قول الله جلّ وعلا، فهم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله جلّ وعلا قد رضي عنهم وعدلهم وهو يعلم أنهم سيقتتلون وسيكون بينهم خلاف لأن الله جلّ وعلا علام الغيوب.

وقد حذرنا جلّ وعلا من الوقيعة في ذلك، يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] ويقول جلّ وعلا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ ـ ١٠] والذين جاؤوا من بعدهم أي: من بعد الصحابة إلى قيام الساعة من هذه الأمة واتبعوهم على الإيمان وعلى أنهم يرون فضلهم، ويدعون ربهم ألا يكون في صدورهم غلاً للذين آمنوا، فمن كان في صدره غل يخرج عن هذا الوصف، ولهذا لما سمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً يتكلم في الصحابة قال: أأنت من المهاجرين؟ قال: لا. قال: أأنت من الأنصار؟ قال: لا. قال: وأنا أشهد أنك لست من الذين ﴿جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فعلامة أهل الحق هي محبة الصحابة والترضي عنهم واتباعهم بإحسان، وذلك أنهم هم الذين قاموا بنصرة الدين وبنصرة الرسول ﷺ، فالله جلّ وعلا رضي عنهم وأرضاهم، قال الله جلّ وعلا: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] يقول ابن حزم ﷺ: هذه الآية تدل على أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأنه جلّ وعلا قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] والحسنى هي الجنة.

وفضائلهم في كتاب الله في آيات كثيرة كقوله جلّ وعلا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] وهم صحابته من المهاجرين والأنصار ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] يعني غالب وقتهم هكذا ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وليس معنى ذلك الأثر الذي يكون في الجبهة بل يعني الخشوع، فإذا رأيتهم ترى الخشوع في وجه أحدهم والخوف والذل ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني أولاده وأفراخه، يعني أن الذين جاؤوا متأخرين اعتنقوا هؤلاء، وتساعدوا معهم حتى استووا جميعاً ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى﴾ [الفتح: ٢٩] صار كله مستو ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ هذا الزرع إذا رآه الزارع، لأن الذي يعرف الزرع هم أهل الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] جعلهم هكذا ليغيظ بهم الكفار، ولهذا روي عن الإمام مالك ﷺ أنه قال: كل من غاظه شأن الصحابة فهو ليس من أهل الإيمان؛ لأنه قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ كما أن الآية الأولى التي في أهل الفيء تدل أنهم خارجين من أهل الفيء، وأن الفيء للمؤمنين، وإذا خرجوا فليسوا منهم، والمقصود أنه يجب أن يعرف قدر الصحابة، وتعرف فضائلهم، ويجب أن يمقت الذي يسبهم - إن لم يقاتل -

أو يزدريهم؛ لأنه في الواقع يقدح في رسول الله ﷺ، ومعلوم أن أحدنا لو أنه يقدِّر أن يفتح مدرسة ويدرس فيها عشرين سنة ثم يقال له: تحصلت مدرستك على ثلاثة طلاب، فهل يكون عمله ناجحاً؟ فهؤلاء الرافضة يقولون: محمد فشلت دعوته ولم يبق على دعوته إلا أربعة أنفار: علي بن أبي طالب وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر، أما البقية فكلهم ارتدوا وكفروا، فلا يخلو الأمر أن يكون هذا حقاً، فتكون دعوته ﷺ فاشلة وباطلة وليس لها أثر، أو بالعكس وهو الصواب والحق الذي لا مرية فيه، فأمر هؤلاء لا يخفى.

ولكن المصيبة أن كثيراً من أبناء المسلمين أصبحوا يجهلون تأريخ الصحابة، ويجهلون فضائلهم، ويجهلون عظيم مقدارهم، حتى تجد أحدهم يقرأ لأحد الأوروبيين الكفرة ويعرف من سيرته ما لا يعرف من سيرة أبي بكر وعمر أو خالد بن الوليد أو غيرهم من الصحابة وهذه مصيبة، ولهذا وجدت هذه الدعوة الخبيثة دعوة الرفض مجالاً في بلاد المسلمين، فأصبحت تقبل ويُستمع إليها من أجل ذلك، كما أنه وجد من المؤرخين من أهل السنة الذين هم في الواقع لم يتحلوا بالعلم من يطعن في الصحابة، ولا سيما الذين يكتبون في التأريخ، ويقولون: إن التأريخ يجب أن يكتب فيه بالحرية والتجرد، فجعلوا الصحابة كغيرهم من آحاد الناس، فيطعنون فيهم، بل ويزدرونهم ويرمونهم بالغفل وأنهم مغفلون وأهل طيش ولا رأي لهم، كما يقول الخضري في محاضراته وفي كتابه الذي يسميه «الدولة الأموية والدولة العباسية» وغيره كذلك، ثم إذا كتب أحدهم كلاماً في شيخه تجده يرفعه إلى مقام النبوة، وهذا مجانبة للحق وما يجب، والمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم من عقيدة أهل السنة أن تسلم قلوبهم من الحقد عليهم أو الغل لهم أو البغض، وأن تسلم ألسنتهم من الطعن فيهم، بل بالعكس فهم يدعون لهم ويمتثلون قول الله جلّ وعلا في ذلك.

كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑩﴾ [الحشر: ١٠].

فهذه صفة أهل السنة وأنهم يسألون ربهم جلّ وعلا لهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم بالمغفرة ويسألونه ألا يجعل في قلوبهم غلاً عليهم، فإذا انخرمت هذه القاعدة وذهبت هذه الصفات فليسوا من أهل السنة بل هم من أهل البدع، والبدع تتفاوت، فمنها البدع المكفرة ومنها ما هو أقل من هذا.

وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[1].

فأهل السنة يمتثلون قول النبي ﷺ في هذا، وهذا الحديث قيل لخالد بن الوليد لما سب عبد الرحمٰن بن عوف وسمعه الرسول ﷺ، فخالد بن الوليد أسلم قبل الفتح ولكنه ليس من السابقين، فلو أن له مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما بلغ مد أحد السابقين ولا نصيف المد، فكيف بمن يأتي بعدهم؟.

فالذين بعدهم يقال لهم بالنسبة لخالد ومن جاء بعده نفس الشيء، لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم مد أحدهم ولا نصيفه، وذلك أن تربية الرسول ﷺ ركزت الإيمان في القلوب معه والقتال بين يديه لا يمكن أن يعدله شيء.

(١) صحيح. ورواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أيضاً، وهو مخرّج في «ظلال الجنة» (ص٩٨٨ ـ ٩٩١)، وفيه بيان أنه ذكر أبي هريرة ﷺ فيه شاذ، فراجعه إن شئت الباني.

الصحابة جمع صاحب، والصاحب اسم فاعل يطلق على من كثرت صحبته ومن قلّت، ولهذا عُرف الصحابة بأنهم: كل من رأى النبي ﷺ وهو مؤمن به ومات على ذلك، هذا هو أصح التعاريف، ولو كانت الرؤيا لحظة، وهذه الصحبة تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فمنها ما يطول ومنها ما يقصر ومنها الملازمة الدائمة ومنها ما هو أقل من ذلك، ولكنها ثابتة، فكل من ثبت له ذلك فهو من الصحابة.

والصحابة لم يحصَ عددهم إحصاءاً دقيقاً بل أكثرهم لا تُعرف أسماؤهم، فالذين رويت عنهم الأحاديث وعرفت أسماؤهم لم يبلغوا اثنا عشر ألفاً، وقد يبلغون هذا المقدار فقط ولا يزيدون على ذلك، وقد قال أبو زرعة: إن الذين حضروا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع أكثر من ثلاثمائة ألف، وجاء أن عددهم يقارب عدد الأنبياء، وعدد الأنبياء ثلاثمائة ألف وبضعة عشر كما قال السيوطي وغيره، والمقصود أن الصّحابة رضوان الله عليهم عدول عدلهم الله جلّ وعلا بقوله وشهد لهم بالعدالة فليسوا بحاجة إلى تعديل الناس، والذي يطعن ويتكلم فيهم لا يخلو من أمرين، إما يقول: إن الله لا يعلم الغيب ولا المستقبلات، أو أن الله يبدو له فيغير في المستقبل كما تقوله الرافضة قاتلهم الله، وكل ذلك من الكفر ـ نسأل الله العافية ـ لهذا لما قيل لعائشة ﵂: إن أناساً يسبون الصحابة قالت: لا تعجبوا، انقطع عملهم فأراد الله جلّ وعلا ألا ينقطع عنهم الأجر، ولكن ليس هذا هو العجب، بل العجب ممن يصدق هؤلاء أو يروج عليه كلامهم، مع أن المعروف أن الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين نقلوا لنا القرآن والصلاة والزكاة وغيرها عن الرسول ﷺ، فهل يُطعن فيمن نقلوا لنا الدين؟.

فهم لم يستطيعوا أن يطعنوا في الدين علانية، فطعنوا فيمن ينقله، وقد جاءت أحاديث كثيرة في التحذير من الكلام في الصحابة مع أنه واقع

كما في الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها**»[1] وهذا وجد من وقت، وإن وجد في أفراد أو في أمور لأغراض معينة فإنه يُعالج، لما أرسل عبد العزيز بن مروان ولده عمر ليتعلم في المدينة وهو شاب صغير، وكان عبد العزيز بن مروان أميراً في مصر لأخيه عبد الملك بن مروان، فصار عمر يتردد على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فجاءه عمر في يوم فأعرض عنه، فأتى إليه فأعرض عنه، فقال: يا سيدي ما الذي حدث؟ أخبرني فأتوب! فقال: هل أتاك من الله أن الله غضب على من رضي عنه؟ فقال: أتوب، يعني أنه سمعه يسب علي بن أبي طالب ﷺ، فبعد هذا صار الأثر الذي صار له، فصار إذا خطب تلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠] بدل ما كان يقوله من كان يسب علياً من الأمراء، فالسلف رضوان الله عليهم يعرفون قدر الصحابة ويُعالجون الأمور التي تُعالج بالطريقة الصحيحة، فالمقصود أن أهل السنة يعرفون قدر الصحابة ويترضون عنهم ويعلمون أنهم هم الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ، والواجب ألا يُجهل هذا، وأن الذي يطعن فيهم فهو يطعن في الرسول ﷺ ويطعن في القرآن ويطعن في كلامه ويطعن في الشرع، يقول الله جلّ وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فلا يمكن أن تكون هذه الخيرية جاءت بعد الصحابة أبداً، ويقول الرسول ﷺ: «**خير القرون الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[2] والأحاديث في هذا كثيرة، والمقصود أن الصحابة ـ كما يقول أهل السنة ـ عدول بتعديل الله جلّ وعلا لهم، ولا

(١) ذكره ابن بطة في «الإبانة» (١٤)، من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٢) البخاري (٢٤٥٨)، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد» مسلم (٤٥٩٩)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» من حديث عبيدة السلماني عن عبد الله.

يجوز أن يجرأ إنسان في تقدمهم أو القدح فيهم، فإذا جاء الخلاف الذي حدث بينهم فالواجب الإعراض عن هذا وأن يعلم الإنسان أنهم كلهم مجتهدون، فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر.

ولكن المصيبة أننا نأخذ الكلام عن المستشرقين وعن تلامذتهم، فيوجد في بعض الكتب التي تدرس كلام يدل على أن الصحابة يطلبون الدنيا، فقد قرأت في بعض الكتب التي أُلفت للمدارس، يقول: لما استتب الأمر للصحابة في الجزيرة، وكانت العراق تغري بخيراتها وبثرواتها حداهم ذلك إلى الذهاب لفتح العراق، وهذه ليست صفة الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكونوا ينظرون للدنيا بل كانوا يأتون الناس ويقولون: بعثنا الله جلّ وعلا لنخرج الناس من عبادة الدنيا وعبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وأنتم مخيرون بين ثلاث: إما أن تقبلوا ما جئناكم به ونترككم وبلادكم، أو تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون، أو القتال بيننا وبينكم وينصر الله لمن يشاء، ولم يقولوا جئناكم لأن بلادكم فيها خير وفيها أموال وغير ذلك.

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاء بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ

يعني إجماع من يعتد بإجماعه، إجماع أهل الحق وليس إجماع أهل الباطل وأهل البدع.

مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

فيقبلون ما جاء من فضائلهم ويعرفون مراتبهم.

وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ـ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ـ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ.

نص على أن الفتح هو صلح الحديبية؛ لأن فيه خلافاً، فبعض

الناس يقول الفتح هو فتح مكة، وبعضهم يقول: السابقون الذين ذكر أنهم أنفقوا ونفقتهم متميزة وأعمالهم متميزة هم من صلى إلى القبلتين، وهذا غير صحيح، والصحيح: هو ما ذكر هنا أن الفتح هو صلح الحديبية وقد نزلت فيه سورة الفتح وكان في السنة السادسة من الهجرة، عندما ذهب الرسول ﷺ ليعتمر ومعه من المهاجرين والأنصار ما يقرب من ألف وخمسمائة، فمنعه الكفار من دخول مكة فصار يفاوضهم، فأراد أن يرسل عمر رضي الله عنه للمفاوضة، فقال: أنا يعرفونني ولو أذهب يقتلونني، ولكن أرسل عثمان فإنه له قبيلة تحميه وهو عندهم مقبول الكلمة، فأرسله ﷺ فشاع أنهم قتلوا عثمان رضي الله عنه، فطلب الرسول ﷺ من الصحابة البيعة على الموت أو على ألا يفروا، فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة في الحديبية، فلما انتهى إلى عثمان أمسك بيده الأخرى وقال: **«هذه عن عثمان»** ولهذا يقول بعض العلماء: يد رسول الله ﷺ لعثمان خير من يده، ثم بعد ذلك تبين إنه لم يقتل، فجاءوا للصلح فاصطلحوا، وكان كثير من الصحابة قد كره هذا الصلح كراهة شديدة، قالوا: كيف نعطي الكفار هذه المطالب ونحن أهل عز ونحن على الحق وقتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، والرسول ﷺ يقول لهم: **«أنا رسول الله ولا أخالف أمره»**[1] فبعد ذلك نزلت سورة الفتح، فدعي الذين كانوا يراجعونه وقرأها عليهم، فقالوا: أفتح هو؟ قال: **«نعم»**، ولهذا الصحابة ينصون على أن الفتح هو صلح الحديبية، ثم رجعوا إلى المدينة وذهبوا إلى خيبر وفتحوها وهي المغانم التي عجلها الله جلّ وعلا لهم، ثم جاءوا في السنة السابعة واعتمروا على القضية، أما الفتح فكان بعد ذلك في السنة الثامنة، فأهل

(١) البخاري (٢٩٤٥)، كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر وقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾، مسلم (٣٣٣٨)، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، من حديث أبي وائل رضي الله عنه.

بيعة الرضوان هم الذين قال فيهم: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح: ١٨) إلخ فأخبر الله جلّ وعلا أنه رضي عن هؤلاء، ولهذا جاءت الأحاديث أن كل من بايع تحت الشجرة سيدخل الجنة، وأنه لا يدخل النار إلا صاحب الجمل الأحمر وهو أحد المنافقين، كانوا يبايعون الرسول ﷺ وهو مندس تحت جمله وهو الجد بن قيس، وفي رواية أنهم لما سمعوا ذلك ذهبوا إليه وقالوا له هذا القول، فقال: إمساك جملي أفضل لي من ذلك لئلا يضيع، فالمقصود أن هؤلاء ذكر الله جلّ وعلا أنه رضي عنهم، وكذلك يؤمنون بقول الله جلّ وعلا الذي قاله الرسول ﷺ: **«وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»**[1] وأهل بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وبدر كانت يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وقتل من الصحابة أربعة عشر، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من المشركين سبعون، وهو يوم الفرقان الذي فرق الله جلّ وعلا به بين الحق والباطل، وهو الذي رُئي فيه الشيطان يحثو على رأسه التراب من الغيظ؛ لأن جنده انهزم، وما كان يبرمه نقض، وخشي أن يكون هذا اليوم الموعود؛ لأنه لما رأى جبريل ﷺ مع الملائكة صفوف خاف أنه يقضى عليه، ولهذا جاء في الحديث: **«إن الشيطان ما رُئي أصغر منه وأحقر من يوم عرفة إلا ما رُئي يوم بدر»**[2] وهذا القول سببه أن الرسول ﷺ لما نقضت قريش العهد الذي بينها وبين الرسول ﷺ

(١) البخاري (٣٦٨٤)، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا؛ مسلم (٤٥٥٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، من حديث علي ﷺ.

(٢) الموطأ (٨٤٠)، كتاب الحج، باب جامع الحج، وذكره البيهقي في «شعب الإيمان»، من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ.

وساعدوا على حلفائه ﷺ وبيتوهم وقتلوا من قتلوا منهم أراد أن يغزوهم، فدعى ربه أن يعمي عليهم أخباره، فصار يسأل عن الطرق التي شمال المدينة وما فيها من الموارد ومن العرب حتى يظن السامع أنه يقصد ذلك المكان، فذهب فعلاً، وخرج من المدينة إلى الشمال حتى توارى وسار كثيراً ثم رجع متجهاً إلى مكة، فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش، ذكر السهيلي نصه وهو:

من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش أما بعد، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالسيل، والله لو جاءكم وحده لنصره الله عليكم، فخذوا لأنفسكم، والسلام».

وهكذا ذكر السهيلي نصه، فختمه وأعطاه امرأة وشرط لها شرطاً، فأخذته ووضعته في عقيصتها، يعني في شعرها ولفته، فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ، فأمر الزبير وعلي بن أبي طالب والمقداد بن الأسود، قال: **«اذهبوا إلى روضة خاخ تجدون فيها ظعينة - يعني امرأة - معها كتاب ائتوني به»** فذهبوا، يقول: تتعادى بنا خيولنا، فوجدنا الظعينة في الروضة، فقلنا: الكتاب؟ قالت: ما معي من كتاب، فقالوا: والله ما كَذبنا ولا كُذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردن الثياب، فأخرجت الكتاب من عقيصتها، فجاءوا به إلى النبي ﷺ فقرئ عليه[1]، فدعاه وقال: **«ما هذا يا حاطب؟»**، فقال: يا رسول الله لا تعجل، والله ما ارتددت عن الإسلام، وليس رغبة للكفر، ولكني رجل ملصق في قريش ومن معك من الصحابة لهم قرابات تحمي أموالهم وأهليهم، فأردت أن أتخذ عندهم يداً وأعلم أنه لا ينفع، وأن الله سينصرك، فقال عمر رضي الله عنه:

---

(١) البخاري (٢٧٨٥)، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس وقوله الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ التجسس التبحث؛ مسلم (٤٥٥٠)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، من حديث علي رضي الله عنه.

دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله، فالتفت النبي ﷺ إلى عمر رضي الله عنه فقال: «**وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1] وهذا هو سبب هذا القول، ومعلوم أن التجسس على الإسلام فاعله يقتل ومع ذلك قال الرسول ﷺ: «**إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم**»، والصواب في هذا أن الله جلّ وعلا يوفقهم، وإذا وقع منهم ذنب يغفره الله جلّ وعلا لهم، وأنهم لا يقعون في شيء من الذنوب يخل بإيمانهم ويجعلهم معرضين للعذاب، فأهل السنة يؤمنون بهذا ويعرفون أقدارهم، فهم يفضلون المهاجرين الأولين على الأنصار ثم يفضلون أهل بدر على أهل بيعة الرضوان، ثم أهل بيعة الرضوان على أهل أحد، والصحابة فضلهم في الجملة على من بعدهم بل كثير من العلماء يقول كل واحد من الصحابة أفضل من كل واحد ممن يأتي بعدهم؛ لأن صحبة الرسول ﷺ لا يعدلها شيء، قيل لأبي أمامة: أيهما أفضل عمر بن عبد العزيز أو معاوية؟.

فقال: غبار في منخر معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بن عبد العزيز، فصحبة الرسول ﷺ لا يمكن أن يعدلها شيء، وسبق الحديث أن أحد الصحابة اللذين تأخر إسلامه أنه لو صار له مثل جبل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما وصل في الأجر والفضل مثل مد أحد أولئك أو نصيف المد، فكذلك يقال للذين جاءوا بعد الصحابة لمن صحب الرسول ﷺ مثل هذا القول.

وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ.

لأن الله قدمهم فقال جلّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

(١) سبق تخريجه.

وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وفي آية أخرى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٨، ٩] هؤلاء الأنصار، ومن الأنصار أصحاب العقبة الأولى والثانية، وهي أيضاً من المقامات الفضيلة، وهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ على المناصرة، وأن يمنعوه ما يمنعون منه أموالهم ونساءهم وأبناءهم، تعاقدوا على هذا وتعاهدوا عليه.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

يعني الشيء الذي رواه الرسول ﷺ وأخبر عنه، الذي في الصحيحين جاء في صيغة الترجي، قوله ﷺ لعمر: **«وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم»**[2] والعلماء يقولون: الترجي في كلام الله وكلام رسوله ليس على بابه، بل هو للجزم والحقيقة، وقد جاء في مسند الإمام أحمد بسندٍ صحيح بدون ترجٍ: **«إن الله اطلع على أهل بدر»**.

وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ

هذا نص حديث عن النبي ﷺ، كان الرسول ﷺ عند حفصة، فقال: **«لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة»** فقالت: بلى يا رسول الله، فزجرها الرسول ﷺ فقالت: يا رسول الله ألم يقل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فقال ﷺ: **«ألم قال:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢][3] والنجاة لا يلزم منها المساس وأن

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) صحيح. رواه مسلم، وأحمد نحوه من حديث أم مبشر. ألباني.

يكونوا وقعوا فيها؛ لأن الله جلّ وعلا ذكر أنه نجى الرسل ومن معهم ولم يصبهم شيء من عذاب الأمم التي أصيبت، كذلك جاء إلى النبي ﷺ غلام حاطب بن أبي بلتعة فقال: يا رسول الله والله ليدخلن حاطب النار، فقال: «كذبت إنه من أهل بدر»[١].

بَلْ لَقَدْ رضي الله عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ،

وهذا نص القرآن ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمائَةٍ

جاء في الصحيحين في حديث جابر ﷺ أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة، وفي رواية أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، واختلف العلماء: فمنهم كالبيهقي من صار إلى الترجيح وقال: رواية أربعمائة هي الراجحة، والنووي ﷺ جمع بين الروايتين وقال: إن العرب من عادتهم أنهم يجبرون الكسر، فمن قال: خمسمائة فقد جبر الكسر، ومن قال: أربعمائة فقد ألغى الكسر؛ لأنهم أكثر من أربعمائة، وقول النووي أولى لأن هذا فيه عمل بالروايات كلها.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ

معنى ذلك أنه لا يجوز أن يشهد بالجنة والنار لمعين بعينه إلا لمن أخبر الرسول ﷺ بأنه منهم، سواء صَلح عمله وظهر واشتهر وصار له لسان صدق أو غير ذلك، ولكنهم يرجون لأهل الخير والفضل والعمل

---

(١) صحيح. ألباني.
قال شاكر: مسلم (٢/٢٦٣).

الصالح ويخافون على أهل الذنوب والمعاصي، وهذا عام في الكفار وفي المؤمنين، فلا يشهد لإنسان بعينه ويقال: هذا من أهل النار، ولكن الكفار إذا ماتوا على كفرهم فلا شك أنهم في النار، ولكن لا يقال: هذا في النار؛ لأن هناك احتمالات وأمور قد تقوم ولو في آخر لحظة، وكذلك لا يقال للمؤمن: هذا في الجنة، ولهذا خصت الشهادة لمن عينهم الرسول ﷺ، وإن كان الصحابة كما قال ابن حزم أنهم كلهم في الجنة لقول الله جلّ وعلا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] ولكن هذا قوله وإن وافقه عليه من وافقه، ولكن جمهور أهل السنة لا يشهدون بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله ﷺ، ولا يشهد بالنار إلا من أخبر الله جلّ وعلا عنه بعينه بأنه من أهل النار كأبي لهب وأبي جهل وفرعون وما أشبههم من الأفراد الذين نُص عليهم[1].

كَالْعَشَرَةِ،

العشرة: هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح، هؤلاء هم العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، والأحاديث فيهم ثابتة في الصحيحين وفي غيرهما[2].

(١) ومنهم: أبو طالب عم النبي ﷺ فقد ثبت أنه في ضحضاح من النار. ومنهم: عبد الله أبو النبي ﷺ فقد ثبت أن رجلاً سأل النبي ﷺ أين أبي؟ قال: في النار فلما ولى الرجل دعاه وقال: «أبي وأبوك في النار» ومنهم آزر أبو إبراهيم، وعبد الله بن جدعان، وعمرو بن لحي، وامرأة لوط وامرأة نوح لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ والمرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً فرآها النبي ﷺ في النار، وامرأة أبي لهب حمالة الحطب، وغلام النبي ﷺ الذي غل الشملة فأخبر أنها لم تصبها المغانم وأنها لتشتعل عليه ناراً، والعابد الذي قال لصاحبه: والله لا يغفر الله لك فقد ثبت أن الله قال: إني قد غفرت له وأحبطت عملك.

(٢) أما العشرة فقد ثبت عند أحمد (١٦٧٥)، والترمذي (٤/٣٣٤)، من حديث =

= عبد الرحمٰن بن عوف ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». وقال الألباني: صحيح. ورواه أبو بكر بن خيثمة وقدم فيه عثمان على علي.

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾. البخاري (٧)، كتاب الفضائل؛ ومسلم (٢٤٨٣).

وعن مصعب بن سعد عن أبيه ﷺ قال: قال ﷺ: «يدخل من هذا الفج رجل من أهل الجنة» فجاء عبد الله بن سلام. رواه مسلم.

وعكاشة بن محصن فقد ثبت من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت؛ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». رواه البخاري (٦٥٤١)، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً؛ ومسلم (٢١٨)، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

وحاطب بن أبي بلتعة ﷺ: روى مسلم عن جابر ﷺ أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية» (٢٤٩٥).

والرميصاء، امرأة أبي طلحة «أم سليم ﷺ»: روى البخاري في «صحيحه» عن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة»، كتاب (٧) فضائل الصحابة (٣٦٧٩)؛ ومسلم (٢٤٥٦).

وبلال بن رباح ﷺ: روى البخاري في «صحيحه» عن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر» (٧/٣٦٧٩)؛ ومسلم (٢٤٥٧). وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: =

قال ﷺ: «يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة...» الحديث (٢٤٥٨).

وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: روى البخاري في المناقب (٣٨٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا محمد، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه أدام وطعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». ورواه مسلم (٢٤٣٢). وروى البخاري ومسلم: «خير نسائهم مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد».

وسعد بن معاذ رضي الله عنه: روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: أهديت للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين» (٣٨٠٢)، كتاب مناقب الأنصار، مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه، ومسلم (٢٤٦٨).

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: أخرج البيهقي في «الدلائل»، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء» (٤/ ٣٧٢). وانظر: «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني، وحديث: «رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين» (١٢٢٧). وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «دخلت البارحة الجنة، فرأيت فيها جعفراً يطير مع الملائكة». «فتح الباري» (٧).

وفاطمة رضي الله عنها: قال البخاري: وقال النبي ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة». قال الحافظ ابن حجر: هو طرف من حديث وصفه المؤلف في علامات النبوة، وعند الحاكم من حديث حذيفة بسند جيد: «أتى النبي ﷺ ملك وقال: إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» (٧/ ٧٧) مناقب قرابة رسول الله ﷺ.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: روى البخاري عن أبي وائل قال: لما بعث علي عماراً والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم، خطب عمار فقال: «إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها». قال الحافظ: وعند ابن حبان من طريق سعيد بن كثير عن أبيه: حدثتنا عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة» فلعله عماراً كان سمع هذا الحديث من النبي ﷺ. انتهى (٧/ ١٠٦) فضل عائشة.

ومريم بنت عمران رضي الله عنها: روى البخاري عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة». قال الحافظ: وقد رواه النسائي من حديث ابن عباس بلفظ: «أفضل نساء أهل الجنة» فعلى هذا المعنى خير نساء أهل الجنة مريم، وعند النسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية» (٧)، كتاب الفضائل.

* وحارثة بن سراقة ﷺ: روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أن أم الربيع بنت البراء ـ وهي أم حارثة بن سراقة ـ أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله! ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: **«يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»** (٢٨٠٩).

وحارثة بن النعمان ﷺ: عن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«دخلت الجنة، فسمعت قراءة، فقلت: من هذا؟ قيل: حارثة»** فقال النبي ﷺ: **«كذلكم البر، كذلكم البر»**. الحاكم (٤٩٢٩) وصححه ووافقه الذهبي؛ وابن حجر في «الإصابة» (٢/ ١٩٠) وقال: إسناده صحيح، ورواه أحمد كذلك.

وثابت بن قيس بن شماس ﷺ: أخرج مسلم عن أنس ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...﴾ الآية. جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ ﷺ قال: «يا أبا عمرو: ما شأن ثابت اشتكى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«بل هو من أهل الجنة»** (١١٩).

وعمير بن الحمام ﷺ: عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»** فقال عمير: بخ بخ. قال ﷺ: **«ما حملك على قولك: بخ بخ»** قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»**. مسلم (١٩٠١)، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد.

وروى النسائي عن شداد بن الهاد قال: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به وأسلم، فلما كانت غزوة خيبر غنم المسلمون غنائم، فقسم له الرسول ﷺ حصة من الغنائم، فقال الأعرابي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا بسهم ـ وأشار إلى حلقه ـ فأموت في سبيل الله فأدخل الجنة، فقال ﷺ: **«إنك إن تصدق الله ليصدقنك»** واحتدم القتال، وأتي الأعرابي وقد نفذ سهم من حلقه، فقال ﷺ: **«أهو هو؟»** قيل: بلى يا رسول الله، قال: **«يرحمه الله، صدق الله، فصدقه الله»**. رواه النسائي (١٩٥٣)؛ والحاكم والطبراني وعبد الرزاق.

وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ﷺ وجعفر ﷺ قد تقدم: قال رسول الله ﷺ: **«أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل ـ**

....

= شهيداً» قال: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: «ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً». ثم قال: «لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً» ميلاً وعوجاً «عن سرير صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ فقيل لي: مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى». رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/٣٦٨) وعزاه لابن إسحاق.

والحسن والحسين ﷺ: عن أبي سعيد مرفوعاً: «الحسن والحسين سيدا شباب الجنة». أخرجه الترمذي (٣٧٦٨)، كتاب المناقب، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم (٣/١٦٧) ووافقه الذهبي.

وعن حذيفة سمع النبي ﷺ يقول: «هذا ملك لم ينزل قبل هذه الليلة، استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». أخرجه الترمذي (٣٧٨٢) المناقب، وقال: حديث حسن غريب.

وعمرو بن الجموح ﷺ: عن أبي قتادة قال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقتلوا يوم أحد، هو وابن أخيه ومولى له، فمر رسول الله ﷺ فقال: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة» وسنده حسن كما قال الحافظ في «الفتح» (٣/١٧٣). ورواه أحمد في «المسند».

وروى النسائي في «السنن الكبرى» عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى (٦/٢١٥). ورواه أحمد وعبد الرزاق.

وماعز الأسلمي ﷺ: روى الحافظ أبو يعلى: أن ماعزاً أمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما صاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلان فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» إسناده صحيح. «تفسير ابن كثير»، سورة الحجرات (١٢).

وروى البخاري في «صحيحه» في كتاب الصلاة عن أنس ﷺ قال: كان رجل من =

* الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بالأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: **«يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟»** قال: إني أحبها، قال: **«حبك إياها أدخلك الجنة»**.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ قالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: **«إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»** قالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها. رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

* والأصيرم: قال ابن القيم في «الهدي» (٣/١٥٦): وكان عمرو بن ثابت، المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل يأبى الإسلام، فلما كان يوم أحد، قذف الله الإسلام في قلبه، للحسنى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفه، ولحق بالنبي ﷺ، فقاتل فأثبت بالجراح، ولم يعلم أحد بأمره، فلما انجلت الحرب، طاف بنو عبد الأشهل في القتلى، يلتمسون قتلاهم، فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير، فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به، لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، فآمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: **«هو من أهل الجنة»**. قال أبو هريرة: ولم يصل لله صلاة قط. رواه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وإسناده حسن ورجاله ثقات (٥/٤٢٨، ٤٢٩) وقال في «حاشية الهدي»: رواه أبو داود (٢٥٣٧)، وابن هشام (٣/١٣١)، وحسّن إسناده الحافظ في «الإصابة» (٢/٢٥٦ رقم ٥٧٨٥)، وحسّنه في «صحيح سنن أبو داود» (٢٢١٢).

وشهداء أحد رضي الله عنهم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد**.

وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وقد فقده الرسول ﷺ، وكان ثابت بن قيس هو خطيب الرسول ﷺ إذا وفدت الوفود، كما أن شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه، وكان ثابت بن قيس جهوري الصوت، فلما نزل قول الله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾ [الحجرات: ٢] فجلس ثابت رضي الله عنه في بيته يبكي ويقول: أنا حبط عملي، فأنا أرفع صوتي أمام الرسول ﷺ، ففقده الرسول ﷺ، فسأل: «أين ثابت بن قيس؟» فقال رجل: أنا أعرف لك خبره يا رسول الله، فذهب فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال: ما شأنك؟ قال: شر، أنا من أهل النار؛ لأني أرفع صوتي فوق صوت

= ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ...﴾ [آل عمران: ١٦٩]». رواه أبو داود، باب فضل الشهادة، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله.

والقراء السبعون: روى البخاري عن أنس في القراء: «فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد: بلغوا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه». وقال ﷺ: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم» الحديث (٤٠٩٣).

وعبد الله بن حرام والد جابر رضي الله عنه: روى الترمذي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال له: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا الله أباك فكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تمن عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، فقال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان». قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه، فلما ولى النبي ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» (١٤) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي به يدخل الجنة.

النبي ﷺ وقد أخبر الله جلّ وعلا أن من فعل ذلك قد حبط عمله، فرجع الرجل إلى الرسول ﷺ وأخبره بذلك فقال: **«ارجع إليه وأخبره أنه من أهل الجنة»**[1] يقول أنس: فكنا ننظر إليه يمشي بيننا ونعلم أنه من أهل الجنة، فلما صار يوم اليمامة قتل رضي الله عنه، جاء متحنطاً لابساً رداءه وقال: ما هكذا كنا نصنع مع رسول الله ﷺ؛ لأنه رأى انفلالاً فيهم، فتقدم وقاتل حتى قتل رضي الله عنه، كذلك عبد الله بن سلام فقد شهد له الرسول ﷺ بالجنة[2]، وكذلك الحسن والحسين قال: **«إنهما سيدا شباب أهل الجنة»**[3]، وكذلك ثبت أنه لما ذكر السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب، قام عكاشة بن محصن رضي الله عنه وقال: يا رسول الله ادعو الله أن يجعلني منهم قال: **«أنت منهم»**[4] فأخبر أنه من أهل الجنة.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٣)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، و(٤٨٤٦)، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، ومسلم (١١٩)، كتاب الإيمان، باب مخافة أن يحبط عمله، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾. البخاري، (٧) كتاب الفضائل؛ ومسلم (٢٤٨٣).
ومن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **«يدخل من هذا الفج رجل من أهل الجنة»** فجاء عبد الله بن سلام. رواه مسلم.

(٣) وقد ثبت من حديث أبي سعيد مرفوعاً: **«الحسن والحسين سيدا شباب الجنة»**. أخرجه الترمذي (٣٧٦٨)، كتاب المناقب، وقال: حديث حسن صحيح؛ وصححه الحاكم (٣/١٦٧) ووافقه الذهبي.
ومن حذيفة سمع النبي ﷺ يقول: **«هذا ملك لم ينزل قبل هذه الليلة، استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**. أخرجه الترمذي (٣٧٨٢) المناقب، وقال: حديث حسن غريب.

(٤) وقد ثبت من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: **«عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت؛ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»**. ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك. »

«وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ،

وهذا ثبت في الصحيح من وجوه كثيرة بلغت تقريباً ثمانين وجهاً رواها عن علي بن أبي طالب ﷺ أصحابه الذين هم من الشيعة، والشيعة ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: شيعة أوائل: وهم الذين يفضلون علياً ﷺ على عثمان وليس عندهم انحرافات ولا سب لغيره من الصحابة، وإنما يفضلونه ويتولونه، وتوليه شيء واجب فلا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق، ولهذا لما قيل لشريك بن أبي نمر وكان منهم: أتفضل أبا بكر وعمر على علي وأنت من الشيعة. قال: من لم يفضلهما فليس من الشيعة، أنرد قوله! لقد سمعته على هذا المنبر يقول ذلك، والله ما كان كاذباً.

وثبت في الصحيح عن ابن عمر ﷺ: كنا نفضل في زمن رسول الله ﷺ، فنقول: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم نسكت ويسمعنا رسول الله ﷺ ولا ينكر ذلك(1).

= فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: **«هم الذي لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**. فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«أنت منهم»**. ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«سبقك بها عكاشة»**. رواه البخاري (٦٥٤١)، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، ومسلم (٢١٨)، كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

(1) صحيح. أخرجه أبو داود بسند صحيح عنه، وهو عند البخاري بنحوه، ولم يخرجه مسلم. وأخرجه ابن أبي عاصم من طرقه (١١٩٠ ـ ١١٩١)، من طريق عن ابن عمر، أحدها عن أبي هريرة، وهي مخرّجة في «ظلال الجنة» (٢/٥٦٦ ـ ٥٦٩). ألباني.
قال شاكر: هذا الحديث رواه البخاري (١٤: ٧ ـ ٢٧) بلفظين آخرين، وهو من أفراده، لم يروه مسلم في «صحيحه»؛ كما نص على ذلك الحافظ (٧/١٢٣). وأما =

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أكثر من ثمانين وجهاً كلها ثابتة صحيحة في أنه يقول: خير هذه الأمة أبو بكر ثم عمر، وكان أحياناً يقول: ولو شئت أن أسمي الثالث لسميته، فقال له ابنه: هو أنت قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين، فهم يقدمون أبا بكر على جميع الصحابة، وهذا اتباعاً للنصوص كما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فهو صاحبه في الغار وصاحبه في الهجرة ثم هو خليفته، وسمي خليفة رسول الله ﷺ، ثم لما مات انقطعت هذه التسمية وسمي عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين ولم يقال خليفة رسول الله ﷺ، فخليفة الرسول ﷺ هو أبو بكر رضي الله عنه فقط، وقد جاءت نصوص كثيرة في فضائله تدل على أنه أفضل الأمة على الإطلاق، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأحاديث التي جاءت في أبي بكر كلها خصائص بخلاف غيره فإنه يشاركه غيره من الصحابة.

القسم الثاني: الشيعة الضلال، أهل الرفض والمحال الذين يشتمون أبا بكر وعمر وعائشة وغيرهم، ومنهم من يكفر الصحابة، ومنهم من يزعم أن القرآن ناقص ومزيد فيه وغير ذلك من الضلال.

ثُمَّ عُمَرُ(١)

يعني يليه في الفضل عمر رضي الله عنه وفيه أحاديث كثيرة، فقد جاء في

= اللفظ الذي هنا فهو لفظ أبي داود (٤٦٢٨)، من رواية سالم عن ابن عمر. ورواه أيضاً بنحوه من غير هذا الوجه: أحمد في «المسند» (٤٦٢٦)؛ وأبو داود (٤٦٢٧)؛ والترمذي (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١١٠)، وفي «فضائل الصحابة» (٣٩٧)؛ وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٧٠)؛ وابن ماجه (١٠٦)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ والحديث أصله في البخاري (٣٦٧١)، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قال: قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر.

المسند وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو لم أبعث فيكم لبعث عمر»**[(١)].

وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ،

وقد جاء في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما يقول: كنا نفاضل في عهد رسول الله ﷺ، فنقول: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[(٢)].

وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنه،

بالفضل والخلافة، أما الفضل فهو تابع ولكن الخلافة ثابتة.

كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ،

والآثار مثل حديث سفينة الذي فيه أن خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله جلّ وعلا الملك من يشاء، وخلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتان وشهران، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين وزيادة، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتا عشرة سنة، وخلافة علي رضي الله عنه ست سنوات، وكملت بخلافة الحسن ستة أشهر، ثم تنازل الحسن عن الخلافة حسماً للخلاف وجمعاً للكلمة، ولهذا جاء في الحديث الذي صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين»**[(٣)] يعني الحسن، وأصلح الله جلّ وعلا به كما أخبر الرسول ﷺ، وبخلافة الحسن ستة أشهر كملت الثلاثون سنة، فصار أول الملوك معاوية رضي الله عنه.

---

(١) ذكره الإمام أحمد في «فضائل الصحابة»، من حديث عقبة بن عامر؛ والسيوطي في «تاريخ الخلفاء»؛ و«كنز العلماء»؛ و«مجمع الزوائد»؛ و«منبع الفوائد».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه من حديث أبي بكرة. ألباني.

وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ.

وبيعة عثمان ﷺ بإجماع الصحابة بعد المشاورة والمداولة وأخذ الرأي اتفقوا على تقديمه، وهذا يدل على الفضل، ولهذا كان يقول الإمام أحمد ﷺ وأيوب السختياني والدارقطني وغيرهم من العلماء: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار؛ لأن الصحابة قدموا عثمان على علي، وليسوا متهمين رضوان الله عليهم إلا عند أهل الزيغ والباطل والانحراف، عند الأمة المخذولة، الرافضة الذين رفضوا الحق وجانبوه.

مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ﷺ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟

فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، وَرَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا.

لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ.

يعني أيهما أفضل؟

فمنهم من قدم علياً ومنهم من قدم عثمان، فهي مسألة اجتهادية، ولكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان اتباعاً للأدلة وليس للرأي، وكان يُروى عن سفيان الثوري ﷺ أنه يفضل علياً على عثمان، ولكن لما اجتمع به أيوب السختياني وكلمه في ذلك رجع.

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ ـ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ﷺ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

يعني في الفضل والتفضيل، فلو اجتهد إنسان وقدم علياً على عثمان لوجود النصوص فليس هذا من الضلال ولكنه من الخطأ.

لَكِنَّ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ.

وذلك أن أهل البدع يزعمون كذباً أن الرسول ﷺ أوصى بالخلافة إلى علي بن أبي طالب وأن الصحابة كتموا هذه الوصية وتمالئوا على كتمانها فكفروا بذلك، فبايعوا أبا بكر ثم بايعوا عمر ثم عثمان، ويقولون: إنهم ظلموا أهل البيت، ويختلقون أكاذيب أنهم - أي: الصحابة - ضربوا فاطمة حتى أسقطت وأنهم فعلوا وفعلوا، وكله من أكاذيب الرافضة التي يختلقونها ويريدون بها أن يثبتوا في قلوب أتباعهم بغض الحق وكراهية أهل السنة ويُأصلوا العداء في قلوبهم، ولهذا يكررون هذا كل سنة في مآتم معينة، فيذكرون هذه الأمور بأسلوب يجعلهم يبكون ويحنقون على أهل السنة ويرون أنهم خرجوا عن الحق كليةً، وكل هذا من الكذب والدجل والزور، وهم غير معذورين في هذا لأن الحق واضح جلي، فيجب أن يستعملوا عقولهم ونظرهم.

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثم عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ.

ومن أنكرها لا يعد من أهل السنة، فخلافة أبي بكر ﷺ خلافة نبوة وهو خليفة النبي ﷺ ثم يأتي بعده عمر بتعيين أبي بكر له وإجماع الصحابة على بيعته، وصار خليفة لما بايعه الصحابة، ثم عثمان بإجماع الصحابة، فلما طُعن عمر ﷺ ورأى أنه ميت قيل له: استخلف، أبىٰ وقال: اجعلوها في ستة من خياركم يتشاورون فيما بينهم ويعينون واحداً، فجعلها في عثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، فخرج منها الزبير وطلحة وتنازلا عنها، فلما بقي عبد الرحمٰن وعلي وعثمان وسعد قال عبد الرحمٰن بن عوف: أيكم يتنازل عنها ونجعل له النظر، فلما رأى أن عثمان وعلي كلاهما لم

يتنازل تنازل وقال: أنا أتنازل عنها، ولكن يُجعل إلي النظر، فأنظر فيها وأعين من أرى أنه أهل لها، فأخذ العهود على كل واحد منهما وصار يشاور الصحابة والأمراء؛ لأنهم كانوا قد حجوا مع عمر ﷺ تلك السنة وقتل بعد الحج، وأخبر أنه بقي ثلاثة أيام لا يذوق كبير نوم فيها لا ليل ولا نهار، ثم قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: لم أر أحداً يعدل بعثمان، فبايع عثمان وبايعه الصحابة بإجماعهم ولم يتخلف عنه أحد أما بيعة أبي بكر ﷺ وإن كان حصل في أول الأمر شيء من الخلاف كما حصل في سقيفة الأنصار، كانوا يقولون: منا أمير ومنكم أمير، ولكن تبين لهم أن هذا خطأ وأن هذا لا يجوز الخلاف فيه، وامتنع سعد بن عبادة ﷺ عن المبايعة فقط، ولكن لم ينظر إليه ولم يؤبه به لأن هذا لا يؤثر، وجاء في أثر صحيح السند أنه بايع فيما بعد.

والمقصود أن الخلافة بهذا الترتيب من الأمور التي ينص عليها أهل السنة أنها من الأصول ويجب اعتقاد ذلك وأنه حق؛ لأنها خلافة نبوة، ومن خالف فيها مثل الرافضة وغيرهم فإنه ضال وليس من أهل السنة.

واختلفوا في خلافة أبي بكر ﷺ هل هي بالنص أو بالاجتهاد والنظر؟ فمن أهل السنة من يقول: إنها بالنص ويستدل بما في الصحيحين أن امرأة أتت إلى النبي ﷺ فقال: **«ائتيني من الغد»** فقالت: أرأيت إن لم أجدك قال: **«فإن لم تجديني فأتي أبا بكر»**[1] وهي تعني بقولها: أرأيت إن لم أجدك الموت، ومنها أن النبي ﷺ يقول: **«رأيت كأنني أستقي على بئر، فنزعت ما شاء الله أن أنزع منها، ثم أتى أبو بكر ليريحني فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم أتى عمر فتحولت الدلو غرباً ـ وهو ما يكون على البعير ـ فلم أرى عبقرياً يفري**

(١) صحيح. وهو مخرّج في «ظلال الجنة» (١١٥١). ألباني.

فريه حتى ضرب الناس بعطن»[1] وكذلك كان الرسول ﷺ إذا صلى الفجر يقول لأصحابه: **«هل رأى أحد منكم رؤيا يقصها؟»** فأخبر رجل أنه رأى رؤيا يقول: جيء بك فوزنت بأبي بكر فرجحت ثم جيء بأبي بكر ووزن بعمر فرجح أبو بكر ثم جيء بعثمان ووزن بعمر فرجح عمر ثم رفع الميزان، فتغير وجه رسول الله ﷺ[2] فقالوا: **«هذه إشارة للخلافة لأن هؤلاء الثلاثة ربط بعضهم ببعض»** أما علي رضي الله عنه لأن وقته كان فيه خلاف فلم يذكر، وإلا فهو من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وكذلك قوله ﷺ في مرضه: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»** فلما راجعته عائشة رضي الله عنها وبالغت في ذلك وأمرت حفصة رضي الله عنها أن تراجعه غضب ﷺ، فإنها جاءت إليه وقالت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ـ يعني كثير البكاء ـ ورقيق القلب فإذا صلى مكانك لم يسمع الناس من كثرة البكاء، لو أمرت عمر يصلي بالناس فقال: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»** ثم ذهبت إلى حفصة وقالت لها قولي له كذا وكذا، فذهبت وقالت له فغضب ﷺ وقال: **«إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِ بالناس»**[3] وكذلك ثبت أنه كانت من عادة الصحابة الذين بنوا بيوتهم بجوار المسجد أنهم يفتحون أبواباً على المسجد، وبقيت هذه حتى صار في آخر حياته ﷺ فأمر أن تسد الأبواب كلها إلا خوخة أبي بكر[4]، وكون أبي بكر أفضل الصحابة شيء ثابت حتى عند الكفار الذين عرفوا ذلك سموه صاحبه.

---

(١) صحيح. ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٥٧). ألباني.

(٢) صحيح. رواه أبو داود (٤٦٣٤، ٤٦٣٥)، من طريقين عن أبي بكرة؛ والحديث مخرّج في «ظلال الجنة» (١١٣١ ـ ١١٣٣، ١١٣٥، ١١٣٦). ألباني.

(٣) متفق عليه. وهو مخرّج في «الظلال» (١١٦٤ ـ ١١٦٧)، وانظر: (١١٥٩، ١١٦٠). ألباني.

(٤) مسلم من حديث عبد الله بن مسعود وكذا رواه الترمذي (٢/ ٢٨٩) وصححه؛ وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٢٦). ألباني.

ومن أهل السنة من يقول إنها ثبتت بالإشارة وبإجماع الصحابة على بيعته، وهذا هو الأقرب والله أعلم، فهذه الأحاديث فيها الإشارة إلى أنه الخليفة، وثبت في الصحيح من حديث ابن عباس ﵄ وغيره أن الرسول ﷺ قال: **«ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»**[1] وهذا المقصود بأمر الخلافة، وعن عائشة ﵂ أنها قالت: أن النبي ﷺ قال لها: **«ادعِ لي أباكِ وأخاكِ لأكتب له لئلا يقول متقول أو يتمنى متمنٍ»** ثم قال: **«يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»**[2] فعدل عن الكتابة، ثم بعد ذلك أراد أن يكتب فقال: **«ائتوني بالكتاب»** وكانوا عنده فقال بعضهم: قد يكون هذا من المرض وأنه يقول ذلك بغير شعور، عند ذلك قال: **«قوموا عني»**[3] فعلم أنهم لا يختلفون، وإلا لو كان أراد الكتاب ما أحد يمنعه من ذلك، فعلم بالوحي أنهم يتفقون عليه، وأما خلافة علي ﵁ فإنه بايعه أهل القوة وأهل الشوكة وثبتت خلافته بذلك ولا يلزم أن يبايع كل أحد، وكان الوقت وقت فتنة حصل للصحابة فيها أمر عظيم، فلم يصدقوا أن الخليفة يقتل في بيته، فلما وقع ذلك أسقط في أيديهم، وكانوا يرون أن هؤلاء الأوباش الذين تجمعوا أنهم سوف يعطون مطلبهم أو شيء من مطالبهم ويرجعوا ولا يصل الأمر لما وصل إليه، والرسول ﷺ قد عهد إلى عثمان ﵁ فقال: **«إن الله جلّ وعلا سيلبسك لباساً فتحاول على نزعه فلا تقبل»**[4] فأبى وأتى إليه بعض الصحابة يريدون المدافعة فأبى عليهم وقال: لا أريد أن يسفك من أجلي دم

(١) البخاري (١١١)، كتاب العلم، باب كتابة العلم؛ أحمد (٢٨٣٥)، من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) صحيح. وهو مخرّج في «الصحيحة» (٦٩٠). وانظر: «ظلال الجنة» (١١٥٦) ألباني.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الترمذي (٣٦٣٨)، كتاب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﵁؛ ابن ماجه (١٠٩) المقدمة، باب فضل عثمان ﵁، من حديث عائشة ﵂.

مسلم، فصبر محتسباً حتى قتل ﷺ، فلما قتل وقع ما أخبر به الرسول ﷺ قال: **«إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»**[1] فالسيف وقع بسبب قتله، وهذا هو سبب الخلاف الحقيقي في الواقع، وليس كما تقوله الرافضة وغيرها ممن يكتب في الفرق مثل الشهرستاني وغيره أن أول خلاف وقع في الخلافة، فالخلاف الذي وقع في الخلافة حسم وانتهى ولم يكن له أثر، وبعضهم يقول: أول خلاف وقع في الأمة هو الخلاف في رسول الله ﷺ كيف يغسل وكيف يصلى عليه وكيف يدفن؟.

لكن المقصود الشيء الذي له أثر بالغ، فهذا هو الذي صار له الأثر البالغ، ولهذا صار هناك خلاف في خلافة علي ﷺ حتى عند بعض الصحابة، فبعضهم لم يبايعه مثل عبد الله بن عمر ﷺ وغيره، من كبراء الصحابة وفضلائهم، وكثير منهم اعتزل مثل محمد بن مسلمة ﷺ فقد ذهب وكسر سيفه واعتزل الناس وقال: هذا عهد رسول الله إلي ﷺ، قال: **«إذا رأيت الفتنة فاكسر سيفك واتخذ سيفاً من خشب، فإن دخل عليك إنسان في بيتك فقل له: بؤ بإثمي وإثمك»**[2] وفي الأحاديث الكثيرة التي جاءت عن النبي ﷺ التحذير من الدخول في الفتنة وفي القتال، وقد خطب بذلك في حجة الوداع فقال: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»** ثم قال: **«هل بلغت اللهم فاشهد»**[3] فلهذا يرى أهل السنة أن الصواب في هذا عدم الدخول في القتال، وهو رأي

(١) أبو داود (٣٧١٠)، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها؛ ابن ماجه (٣٩٢٤)، باب ما يكون من الفتن، من حديث ثوبان ﷺ؛ الحاكم في «المستدرك» (٨٥٠٩).

(٢) أحمد (١٧٢٩٩)؛ الحاكم في «المستدرك» (٨٤٩٣)؛ البيهقي في «شعب الإيمان»؛ وابن أبي شيبة في «المصنف».

(٣) سبق تخريجه.

كثير من أهل السنة من أئمة الحديث والفقهاء وغيرهم، ويُصوبون ما فعله كثير من الصحابة ممن اعتزل الفريقين، ولكن يرون أن علياً ﷺ هو الأحق بالخلافة وهو على حق، وهو ﷺ ندم في آخر الأمر؛ لأنه ما كان يظن أن يبلغ الأمر ما بلغ فندم، وكان ابنه الحسن ﷺ نهاه عن الوقوع في القتال، فلما صار يوم صفين صار يقول ليتني لم أكن ولم أر هذه الأمور، وتمنى أنه ما دخل في شيء من ذلك؛ لأن رأيه ﷺ كان يرى أن الأمر ثابت بعد رسول الله ﷺ والحق واضح ولا يجوز تألف الناس على أمور واضحة، وإنما التألف يكون في أمور الجاهلية والكفار الذين لم يدخل الإسلام في قلوبهم، أما هؤلاء فيجب أن يقام عليهم الحق، وهو رأيه ﷺ، ولكن الأمر اشتد وقتل من الفريقين مقتلة هائلة وطمع العدو في بلاد المسلمين وعُطل الجهاد وصار القتل بينهم، وهي فتنة وقعت.

غير أن أهل السنة يرون أن علياً ﷺ هو أولى بذلك، ولهذا جاء في أحاديث الخوارج عن النبي ﷺ أنه قال: **«يمرق مارقة على حين اختلاف من أمتي يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق»**[1] وقد قتلهم علي ﷺ، فهو أقرب الطائفتين إلى الحق وهو أولى بالحق من غيره، ولكن السبب في هذا كله ما وقع من قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ، فجاءت النواصب[2] والخوارج ودخلوا في أمور خرجت عن الاعتدال،

---

(١) مسلم (١٧٦٧)، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم؛ أبو داود (٤٠٤٧)، كتاب السنّة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) (النصب): نسبة إلى الناصبة، وهي نقيض الروافض، وهو لقب للخوارج، ومعناه الغلو في بغض علي بن أبي طالب ﷺ، ومناصبته العداء، والمنتسبون لهذه الفرقة عرف عنهم كثرة العبادة، والصدق في الحديث، ولكنهم أهل بدعة وضلال، سفكوا دماء بعض الصحابة ﷺ على رأسهم علي بن أبي طالب، والخبّاب ﷺ، وهم أيضاً يكفّرون أكثر الصحابة، ووافقوا المعتزلة في كثير في مسائل الاعتقاد كالقول بخلق =

فكفروا بعض الصحابة وبعضهم مثل المعتزلة فسقوا، والواجب في هذا أن نتبع النصوص وأن يعرف للصحابة قدرهم وأن يُعرض عن هذه الأمور التي وقعت بينهم لأنه لا فائدة فيها، ولكن الإنسان قد يدخل في شيء من ذلك فيبين له الصواب في هذا، فأهل السنة يرون أن الصحابة رضوان الله عليهم الذين مع علي والذين مع معاوية كلهم مجتهدون، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر وخطؤه مغفور، وأن هذه فتنة وقعت، وكذلك فيها مصالح الله أعلم بها، وقد ذكر العلماء شيئاً من ذلك مما ترتب عليها، ولكن لا يجوز الوقوع في الصحابة ويقال: فلان رأيه كذا وفلان مخطئ؛ لأنهم رضوان الله عليهم كلهم ما كانوا يطلبون الملك ويطلبون الدنيا وإنما اجتهدوا، فكثير منهم رأى أن عثمان لا يجوز أن يسكت عن قتله ويجب أن يقتص ممن قتله، والذين قتلوه دخلوا في جيش علي وصار لهم قبائل تحميهم وبعضهم غير معين، وهذا هو السبب الذي جعل الزبير وطلحة وعائشة يخرجون فقالوا: لو تركنا الأمر بدون أن نثار لأمير المؤمنين أوشك أن يعمنا الله بعقاب؛ لأن هذا أمر غير سهل، فوقع القتال بدون اختيارهم وبدون اختيار علي ﷺ من أصحاب الفتنة، وهذا لأمر أراده الله جلّ وعلا كوناً، فيجب أن يعلم أنهم مجتهدون، فالمجتهد المصيب له أجران والمجتهد المخطئ له أجر وخطؤه مغفور، ثم كثر من الآثار التي تروى في هذه الوقائع ما تخلو من الزيادة والنقص وتغيير الوجه عن وجهه، فلا يجوز أن نأخذ بها على ما جاءت ولا سيما وأكثر رواتها من الشيعة، ولهذا يقول أهل السنة في عقائدهم: ويجب أن يُعرض عما شجر بين الصحابة، ويروى في هذا

= القرآن، والقول في القدر، وغير ذلك.
«مقالات الإسلاميين» (١/ ١٦٧)، «الملل والنحل» (١/ ١٥٤)، «الفرق بين الفرق» (ص٧٢).

حديث عن النبي ﷺ: «**إياكم وما شجر بين أصحابي**»[1] وأن يعرفوا قدرهم وحقهم وأنهم أبر الأمة أعمالاً وأعمقها علماً وأكملها عقولاً. فقد اختارهم الله جلّ وعلا لصحبة رسوله ﷺ ونص الرسول ﷺ أنهم أفضل القرون فقال: «**بعثت في أفضل قرن**» وقال: «**أفضل قرن بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[2] فذكر اثنين بعدهم.

وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

يعني أنه مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يتحصل له إلا الثقل فقط، لوجود النصوص الظاهرة الجلية التي لا تخفى على من عنده شيء من المعرفة والنظر والعقل.

مَنْزِلَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

وَيُحِبُّونَ آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

جاء في صحيح مسلم من حديث زيد بن الأرقم أن رسول الله ﷺ خطب في مكان يقال له: غدير خم ـ وهو مكان بين مكة والمدينة في مرجعه من حجة الوداع ﷺ ـ فقال: «**إن عبداً خيره الله جلّ وعلا بين ما عنده وبين الدنيا فاختار ما عند الله**» فعند ذلك بكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: ولكن نفديك بآبائنا وأمهاتنا، ثم قال: «**يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تاركٌ فيكم ثقلين كتاب الله وسنتي واحفظوني في أهل بيتي**» فقال الحصين لزيد: من آل بيته؟ قال: أليست أزواجه من أهل بيته؟

(١) ذكره الباقلاني في «الإنصاف» (١/ ٢٩٩٠).

(٢) البخاري (٢٥٠٨)، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، مسلم...

قال: بلى، قال: وأهل بيته الذين حرمت عليهم الصدقة، فقال: من هم؟ قال: آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، قال: كل هؤلاء حرمت عليهم الصدقة؟ قال: نعم، فأهل السنة يحفظون لهؤلاء فضلهم وقرابتهم لرسول الله، ويرون أنه يجب أن يحبوا بحب رسول الله، وقد حرمت عليهم الزكاة فهم يُعطون من الفيء بدلاً من ذلك.

حَيْثُ قَالَ ﷺ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»(١).

يعني اتقوا الله واذكروه واحفظوا حقهم واعرفوه.

وَقَالَ ﷺ أَيْضاً لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ - وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ - فَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ، للهِ وَلِقَرَابَتِي»(٢).

فقرابة الرسول يجب أن تراعى ويحفظ حقه فيها، أما قول الله جلّ وعلا: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] معلوم أن الرسول لا يأخذ على دعوته إلى الله جلّ وعلا أجراً، ولكن هذا مثل ما قال ابن عباس: لا توجد قبيلة من قبائل العرب إلا وتمت إلى رسول الله بقرابة، فالله جلّ وعلا يقول: يجب أن تحفظوا ما يتصل إليكم من نسب الرسول وتعلموا أنه يود لكم الخير وينصح لكم، وأنه رؤوف

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، الدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن.

(٢) أحمد (١٧٨٨) من مسند بني هاشم، حديث العباس بن عبد المطلب؛ وفي «فضائل الصحابة» (١٧٥٧) عن العباس بلفظ: **«والله لا يدخل قلب امرئ إيمان، حتى يحبكم لله ولقرابتي»**، عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيف.

ورواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٧٥٦) بلفظ: **«لن ينالوا خيراً حتى يحبوكم لله ولقرابتي»**، وإسناده ضعيف لإرساله. ورواه متصلاً طراد الزينبي في «أماليه»، كما نقله محقق «فضائل الصحابة» رضي الله عباس (١٧٥٦)؛ و«تهذيب الكمال» (٩٢٥٤).

بكم ورحيم، فهو لا يأخذ على دعوته إلى الله جلّ وعلا أجراً لا المودة في القربى ولا غيرها.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ،

يعني إسماعيل بن إبراهيم، والاصطفاء: يعني الاختيار.

وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشاً، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[1].

فهو صفوة من صفوة، وهذا من الأمور التي يجب أن تراعى خلاف النواصب؛ لأن النواصب هم الذين نصبوا العداء لآل بيت رسول الله إما لنعرات جاهلية وعصبية أو غير ذلك من الأمور التي لا تجوز، فأهل السنة يتبرؤون من طريقتهم، ومن ذلك الخوارج أيضاً فإنهم كفروا علياً وغيره من أهل البيت.

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ خُصُوصاً خَدِيجَةَ ﵂ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ ﵂ الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[2].

فأولهن خديجة وهي أم أكثر أولاده، بل هي أم كل أولاده ما عدا

(١) الترمذي كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ؛ ابن حبان، باب من صفته وأخباره، ذكر اصطفاء الله جلّ وعلا صفيه من بين ولد إسماعيل صلوات الله عليه.

(٢) البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله رسول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

إبراهيم، فإنه من جاريته مارية ومات صغيراً، وتزوج الرسول خديجة قبل النبوة ولم يتزوج عليها، فولدت له أولاده كلهم، وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد آزرته بنفسها على دعوته وواسته بمالها، فكانت بهذا العمل من أعظم من قام بمؤازرة الرسول ﷺ، حتى أنها كانت تواسيه أحياناً، إذا قال مثلاً: إني أخاف على نفسي، تقول له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، وجاءه مرة جبريل، فقال له: **«هذه خديجة جاءتك وعلى يدها إناء فيه طعام أو قال فيه شراب فاقرأ عليها من الله السلام ومني»** ولا يعرف أن هذا جاء لغيرها وأن الله أرسل السلام لأحد غيرها، وقال: **«وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»**[1] ولا خلاف أنه توفي عن تسع وكان يقسم لثمان هن: عائشة الصديقة بنت الصديق وهي أحب الناس إليه كما ثبت في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص أنه قال: يا رسول الله: من أحب الناس إليك؟ فقال: **«عائشة»** فقال: ومن الرجال؟ قال: **«أبوها»** قال: ثم من؟ قال: **«عمر»** ثم ذكر رجالاً[2]، ولم يتزوج بكراً سوى عائشة، تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسع سنين، فأزواجه عشر: خديجة، وعائشة، وحفصة، وسودة بنت زمعة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وأم سلمة، وأم حبيبة، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي بن أخطب الهارونية من ذرية هارون أخو موسى، فهؤلاء أزواجه صلوات الله وسلامه عليه وهن أمهات المؤمنين كما

= ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١]؛ مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها.

(١) البخاري، كتاب العمرة، باب متى يحل المعتمر؟؛ مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها.

(٢) الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب فضل عائشة ﵂؛ ابن حبان، باب في الخلافة والإمارة، ذكر الإباحة للإمام تخويف رعيته بما ليس في خلده إمضاؤه.

قال الله جلّ وعلا، ولكنهن أمهات في الحرمة وليست في المحرمية، فلا يجوز أن يخلو بهن أحد غير أقاربهن، ولهذا أمرهن الله جلّ وعلا بالحجاب، ويعلم أهل السنة أنهن أزواجه في الجنة، ويعرفون ما ذكره الله جلّ وعلا في حقهن في قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وأنهن اخترن الله ورسوله على الدنيا، فكانت حياتهن مع الرسول هي حياته التي اختارها، فيوماً يجوع ويوماً يشبع، ويمضي عليه معهن الشهر والشهران ما أوقد نار في بيته، فيكون التمر والماء فقط.

فأهل السنة يتبرؤون ممن يبغضهن، ولا سيما عائشة وحفصة اللتان يرميهما الطائفة المخذولة الضالة الرافضة، فيلعنونهما ويرمونهما ويختلقون الأكاذيب في حقهما، ويعلمون أن من رمى عائشة أنه كافر؛ لأن الله جلّ وعلا برأها من سبع سماوات في قرآن يتلى بعدما رماها من رماها من أهل النفاق في القصة التي وقعت بسبب العقد الذي ضاع وذهبت تبحث عنه ثم ذهبوا وتركوها ولم يعلموا بها، فبرأها الله جلّ وعلا وأنزل أكثر من عشر آيات في شأنها، ومعلوم أن من رمى زوجة من أزواج النبي بالفجور أنه أذية كبيرة للرسول، بل هو في الواقع رمي له بأنه يقر على الخنا والفساد، وهذا كفر بالله جلّ وعلا، أما المفاضلة بينهن فهو حسب النصوص، ولكن إذا قُصد بالفضل كثرة الثواب ورفعة المنزلة فكلاهما مع رسول الله في الجنة لأنهن أزواجه، غير أن بعضهن تميز عن بعض مثل خديجة وحب الرسول لها، وقد قالت عائشة: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ولم أدركها، هلكت قبل أن يتزوجني رسول الله، ولكن من كثرة ذكره لها وثنائه عليها، وكان يذبح الشاة فيتصدق على صديقاتها»، وهناك خلاف بين العلماء أيهما أفضل خديجة أم عائشة؟ وإن كانت الفائدة من وراء هذا ضئيلة، وقد جاء في كليهما نصوص، فعائشة عندها من العلم والفقه الذي أخذته عن رسول الله

والروايات التي نشرها ومحبة الرسول لها، وقد جاء في الحديث الصحيح: **«خير نسائها عائشة، خير نسائها مريم، خير نسائها خديجة وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**.

تبرؤ أهل السنة والجماعة مما يقوله أهل البدع والضلالة في حق الصحابة وآل البيت

> وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

التبرئ من الشيء يلزم الإنسان أن يكون منه خالصاً بعيداً، وأن يتبرأ منه وممن يفعله وأن يبغضه ويبدي له العدواة كما قال الله جلّ وعلا في إبراهيم والذين معه يعني الرسل ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤] هذه هي البراءة، أن يتبرأ بالمعاداة، والمباداة بأن يبادؤهم بذلك ويظهره لهم، وأهل السنة كذلك يتبرؤون من الروافض، يعني أنهم يبينون لهم أنهم يبغضونهم ويكرهونهم ويعادونهم على هذه الطريقة وهذا المسلك.

النواصب: جمع ناصب وهو من جمع العداء لأهل البيت، وسبب هذا أمور دنيوية أو عصبية، وقد يكون سببه الضلال كفعل الخوارج ونحوهم، وأمر تدين الروافض معروف أنه تدين بالضلال الذي أصله لهم عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أراد أن يكيد للإسلام، وقد حصل بتأثيره أمور منكرة، وكان من أثر دعوته أنه كانوا ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: صارت تفضل علياً على سائر الصحابة، وهذه قد عاقبهم علي بن أبي طالب وطلبهم، وقال: لا أوتى بمن يفضلني على أبي بكر وعمر إلا وجلدته جلد المفتري.

الفرقة الثانية: ادعت فيه الإلهية، فقابلوه وهو خارج من بيته إلى المسجد فسجدوا له، فقال: ما هذا؟ قالوا: أنت إلهنا، قال: ويلكم هذا كفر وإن لم ترجعوا قتلتكم، ففعلوا ذلك في اليوم الثاني واليوم الثالث كذلك، فأمر بأخاديد حفرت وأوقدت نيراناً، فقذفهم فيها أحياء، واتفق الصحابة على وجوب قتلهم لأنهم كفروا كفراً ظاهراً.

الفرقة الثالثة: سبابة تسب أبا بكر وعمر، وهؤلاء يجب أن يعاقبوا ويُردعوا عن ذلك.

فأهل السنة برآء من هؤلاء، وكذلك من الذين يعاكسونهم يعني الذين يعادون أهل البيت، علي وآل العباس وغيرهم، فهؤلاء فرقتان متضادتان وكل واحدة تدعي باطلاً، وأهل السنة وسط يرون فضل أهل البيت ويتولونهم ويراعون حق رسول الله فيهم ويلتزمون بوصيته صلوات الله وسلامه عليه.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ،

معنى شجر ما صار في اختلاف وتنازع، فيمسكون عن ذلك لا ذكراً ولا كتابة ولا قراءة ولا إقراء، بل يرون أن هذا لا يجدي ولا يثمر إلا الإحن والأمور التي قد تحمل على البغض أو تحمل على القول بالباطل.

وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنَقَصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وأكثر هذه الروايات من رواية الكذابين، كرواية ابن مخنف ورواية الكلبي ونحوهم ممن هو معروف بالكذب، وقسم مغير عن وجهه إما

بزيادة أو نقص، وقسم يكون صحيحاً ولهم فيه عذر هم فيه مأجورون، ولهذا لما قال رجل لعبد الله بن عمر مريداً التكلم في عثمان: إنه فر يوم أحد وإنه لم يحضر بدراً ولم يحضر بيعة الرضوان، فقال: أما فراره يوم أحد فقد عفا الله عنه، وأما تخلفه عن بدر فكان بأمر رسول الله وقد ضرب له سهماً وقد أمره أن يجلس عند زوجته يمرضها وهي بنت رسول الله، وأما عدم بيعته في الرضوان، فإن بيعة الرضوان كانت بسببه وقد بايع الرسول عنه بيده الأخرى، فكانت يد رسول الله له أفضل من يده.

ومعنى ذلك أنهم يجعلون الفضائل مثالب لظنونهم السيئة وللأهواء وللجهل، وهكذا غيرهم.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ،

فأفرادهم غير معصومين بخلاف مجموعهم، فإنهم معصومون أن يقعوا في الانحراف أو في الكفر أو في الارتداد أو في غير ذلك مما يرميهم به أعداؤهم من الروافض، وليس هناك أحد من الناس معصوم من الذنوب، وأهل السنة لا يدعون أن أحداً معصوم إلا الرسول، فإن الرسل عند أهل السنة معصومون فيما يبلغون عن الله جلّ وعلا بالاتفاق، وأما عن الذنوب فهم معصومون عن الكبائر التي قد تكون مزرية بسيرتهم وطريقتهم، وأما الصغائر فهم لا يقرون عليها لو وقعت منهم، فتكون حالهم بعدها أحسن منها قبل، وأما غيرهم من أحد الناس فليس أحد بمعصوم، بل كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وإنما يدعي هذا أهل البدع من الرافضة أو من الصوفية ونحوهم، فالرافضة يقولون أن أئمتهم معصومون كعصمة الأنبياء، أما الصوفية فيقولون أن أئمتهم

محفوظون، وإذا كان مقصدهم من الحفظ هو الحفظ من الذنوب من أن يقعوا في شيء منها فهو نفس دعوى الرافضة[1] وهو كذب.

بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ.

يعني أنها تقع في مجموعهم.

وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ.

من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله جلّ وعلا والإنفاق مع رسول الله ما يغمر ما يقع منهم في شيء، ولهذا لما وقع من حاطب بن أبي بلتعة ما وقع قال الرسول: «**إنه شهد بدراً وإن الله اطلع على أهل بدر وقال: اعملوا ما شئتم**»[2] ولما جهز عثمان جيش العسرة قال له

(١) (الرافضة): لقب يُطلق على طوائف الشيعة وقد اختلف في سبب تسميتهم بالروافض على أقوال، فقيل: لرفضهم الدين، وقيل: لرفضهم السنّة، وقيل: لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وقيل: لرفضهم زيد بن علي الذي امتنع عن سب الشيخين. وللروافض طوائف كثيرة، ومدار اعتقادهم على أربعة أصول وهي: التوحيد، والنبوة، والإمامة، والعدل، وقولهم في صفات الله على طورين:

الطور الأول: التشبيه.

الطور الثاني: التعطيل.

هذا، وقد شابهوا المعتزلة في كثير في المسائل العقائدية، ولهم أقوال لشنيعة لم يسبقهم إليها أحد، فكفروا جُلّ الصحابة إلا خمسة منهم، وادعوا تحريف القرآن، وأباحوا نكاح المتعة. ولمزيد من التفاصيل عن مذهبهم انظر: كتب الشيخ إحسان إلهي ظهير الذي قُتل على يد الشيعة الحاقدة. ومن مؤلفاته في هذا الصدد: «الشيعة وأهل الكتب» و«الشيعة والسنّة» و«الشيعة والقرآن». وانظر أيضاً: «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/٦٥)، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٢٩).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس؛ أحمد (٦٠١) مسند علي بن أبي طالب ﷺ.

الرسول: **«ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»**[1] فلهم من الفضائل والأعمال العظيمة التي لا يمكن أن يلحقهم غيرهم فيها أو في غيرها.

حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ لأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

لأن من له مقامات عظيمة وله حسنات كبيرة إذا وقع منه شيء من المخالفات فإنه يكون نزر يسير مغمور في الفضائل الكثيرة والمحاسن العظيمة التي يغتفر له ما وقع فيه من أجلها، ولهذا لما لطم موسى وجه المَلَك وفقأ عينه لم يعاتبه الله جلّ وعلا، بل أرسل إليه وقال له أن يضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة تحت يده سنة، فلما جاءه وقال له ذلك قال: ثم بعد ذلك ماذا؟ قال: الموت، قال: إذن الآن[2]، وكذلك سليمان لما أخر الصلاة ثم عقر الخيل أبدله الله جلّ وعلا بالريح التي تحمله غدوها شهر ورواحها شهر.

المقصود أن أهل الفضل وأهل الكرامة على الله جلّ وعلا ليسوا كغيرهم، كذلك الصحابة، فإنهم أفضل الأمة والناس كما قال الرسول: **«أنتم خير الناس قرناً»**[3] وقوله: **«خير الناس الذي بعثت**

---

(١) الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب عثمان بن عفان ﵁؛ المستدرك، فضائل أمير المؤمنين ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب من أحبّ الدفن ليلاً في الأرض المقدسة أو نحوها؛ مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ.

(٣) البخاري (٣٦٥١)، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه، من حديث عمران بن حصين ﵁؛ ومسلم (٢٥٣٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، من حديث عبيدة السلماني عن عبد الله.

فيهم»[1] فهم خير الناس بعد الأنبياء، فلا يجوز أن يقاسوا بغيرهم.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ،

وهذا في الصحيحين من حديث عمران بن حصين وحديث ابن مسعود وغيرهما.

وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مِمَّنْ بَعْدَهُمْ،

المد: هو ملء اليدين مجتمعتين، إذا أنفق أحدهم مثل هذا في سبيل الله يكون أعظم من أحد ذهباً لو أنفقه غيره في سبيل الله، وهذا إذا كانت نفقته خالصة لله جلّ وعلا وفي سبيل الله، فكيف يُلحق هؤلاء بغيرهم أو يُقاسوا على غيرهم؟

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

كما قد عُلم من أكابرهم وأنهم قد ندموا على ما وقع وتابوا مثل الزبير وطلحة وعلي وغيرهم، ولا يلزم أن نعرف أنهم تابوا لأن هذا ليس لازماً لنا، ولكن هذا هو الواقع.

---

(١) مسلم (٤٦٠٢)، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، من حديث أبي هريرة ﷺ؛ أبو داود (٤٠٣٨)، كتاب السنة، باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ، من حديث عمران بن حصين ﷺ.

المقصود أن علماء السنة يقرون أنه لا يجوز الخوض فيما وقع بينهم كما قال ابن حمدان: لا يجوز أن يخاض فيما شجر بين الصحابة لا قراءة ولا إقراءة ولا سماعاً ولا كتابةً وكذلك قال غيره، وكثير من الناس يتساهل كثيراً في هذا، إما يزعم أنه يصحح بعض الأخطاء فيقع في أخطاء فظيعة، وأكبر الخطأ أن ينشر هذه المقالات وهذه الأمور التي لا يميز فيها الحق من الباطل عند كثير من الناس وبعضهم يصدقها.

وهناك أمور يمكن أنها تكون مكفرة غير الحسنات الكبيرة والكثيرة كالتوبة وكالمصائب التي يصاب بها، وهذه وقعت كثيراً، وكاستغفار المؤمنين للصحابة رضوان الله عليهم، فكل من أتى من أهل الحق يستغفر لهم امتثالاً لقول الله جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [الحشر: ١٠] فكل المؤمنين الصادقين يستغفرون لهم ويدعون لهم، وكذلك شفاعة رسول الله فهم أولى بها، لو قدر أنهم يقعون في شيء من ذلك، وقد علم أن الصحابة رضوان الله عليهم ليس منهم أحد يدخل النار كما قال الرسول: **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»**[1] وأهل بدر أفضل منهم، ويقول كعب بن مالك: إن بيعة العقبة أفضل من بدر وإن كانت بدر أذكر عند الناس.

المقصود أن لهم فضائل عظيمة.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ،

يعني أنها تكون مغمورة بالحسنات الكبيرة، وتكون مغفورة بالتوبة،

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة، أهل بيعة الرضوان ﷺ؛ أبو داود، كتاب السنّة، باب في الخلفاء؛ أحمد (١٤٤٨٥)، مسند جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه.

وتكون مغفورة باستغفار المؤمنين، وتكون غير محققة، يعني أنها ليست ذنوباً؛ لأن بعض الناس يعد الحسنات سيئات فلا يقع عذابه بشفاعة الرسول أو بغير ذلك من الأمور التي تقرب من عشرة أشياء، كل واحد منها يكفي في ألا يثبت شيء من ذلك، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؟.

فَكَيْفَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ إِنْ أَصَابُوا، فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخطئوا، فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ.

كما جاء في الحديث عن عمرو بن العاص أن النبي قال: **«إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وخطؤه مغفور وإن اجتهد وأصاب فلها أجران، أجر اجتهاده وأجر إصابته»**[1] ومعلوم أن الحاكم الذي يحكم بين اثنين أسهل ممن يحكم بين أمة، ثم الرسول جاء عنه أنه قال: **«القضاة ثلاثة، قاضيان في النار وقاض في الجنة، أما اللذان في النار فقاض عرف الحق وقضى بخلافه فهو في النار، والآخر لم يعرف الحق فقضى بجهل فهو في النار، ومن في الجنة هو الذي عرف الحق فقضى به»**[2]. وهذا القاضي الذي يقضي بين اثنين في مال أو ما أشبه ذلك، فكيف بالذي يحكم على الصحابة؟ ويقول هم فعلوا كذا ويستحقون كذا، فهذا أعظم إثماً ممن قيل له إنه في النار.

---

(١) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ؛ مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، فأصاب أو أخطأ.

(٢) الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله في القاضي؛ البيهقي، كتاب آداب القاضي، باب إثم من أفتى أو قضى بالجهل.

ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛

وليعلم أن الأمور التي تنقم على الصحابة رضوان الله عليهم هم براء منها، وهم لم يدخلوا في الفتن وإنما دخل فيها قليل منهم كما قال محمد ابن سيرين: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله أكثر من عشرة آلاف فلم يدخل فيها إلا مئة. بل الذين عرفوا أنهم دخلوا فيها أقل من ثلاثين وبقيتهم اعتزلوا ذلك، ففضائلهم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ما يلحقهم فيها أحد، ومن نظر في سيرتهم بإنصاف وعدل علم علماً يقينياً أنه لا يكون مثلهم في الأمة، وأن الله منّ عليهم بشيء لا يلحقهم به غيرهم من صحبة النبي ﷺ وأخذ الإيمان والعلم عنه والجهاد بين يديه وحمل الدعوة وإبلاغها وغير ذلك مما هو من أفضل الأعمال.

عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ.

وهذا الذي يجب أن يعتقد فيهم.

مَوْقِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ،

الكرامة تسمية من المتأخرين، أما المتقدمون من التابعين ومن بعدهم فيسمونها آية، ويجعلونها من آيات الأنبياء، وفرق المتأخرون بأن خارق العادة الذي يقع على يد النبي يكون معجزة، وإذا كان خارقاً للعادة وقع على يد غيره، فإن كان تقياً متبعاً للسنة متقيداً بآثار النبي فإنها تكون كرامة، وإن كان غير ذلك مخالفاً للاتباع فإنها تكون حالاً شيطانية فيها من الغرور والفتنة ما يفتتن به، هذا هو الفرق بين ما يقع من خوارق العادات التي تكون على يد المؤمن أو تكون على يد مخرف متحرف.

فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ،

كما وقع لرسول الله وإخباره بالماضي والمستقبل من غير تعلم ولا قراءة وإنما هو بالوحي الذي أوحاه الله جلّ وعلا إليه، وهذا خارق للعادة خارج عن المعتاد فهو معجزة، وكذلك ما أتاه من القرآن فهو أعظم معجزة منّ الله جلّ وعلا بها على هذه الأمة كما قال الرسول: **«إن الذي أوتيته كتاب يتلى وأرجو أن يكون تابعي أكثر من تابعي الأنبياء»**[1] وكذلك الأنبياء غيره لأنه لم يكن بدعاً من الرسل بل هذه سنة الله

(١) البخاري (٤٥٩٨)، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل قال ابن عباس المهيمن الأمين القرآن أمين على كل كتاب قبله؛ مسلم (٢١٧)، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، من حديث أبي هريرة ﷺ.

جلّ وعلا، والعلم يكون مكاشفات ويسمى مكاشفة، وقد يكون شيئاً يسمعه وقد يكون برؤية عين أو برؤية منام وكلها تسمى مكاشفات، وقد يقع في قلبه أمر يتيقن أنه حق فيتبعه ويخبر به مثل ما وقع لأبي بكر، أخبر أن في بطن زوجته بنت، وكذلك عمر أخبر أنه يأتي من ولده ولد أشج يكون عادلاً، فجاء عمر بن عبد العزيز خليفة عادلاً، وكذلك إخباره عن الجيش الذي كان في نهاوند وهو يخطب على المنبر وكُشِف له، فقال: يا سارية الجبل، فسمعوا صوته فانحازوا له وكان بذلك سبب نجاتهم من العدو، فهذا كله من المكاشفات.

وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ،

وذلك مثل أن يدعو على عدوه فيموت، أو يدعو بشيء فيستجاب له، فالرسول تستجاب دعوته وكذلك غيره من المؤمنين، مثل ما وقع لسعد وغيره من الصحابة، فإن سعداً لما اشتكاه أهل الكوفة على عمر وأرسل معه من يسأل، صار يمشي على الكوفة ويسألهم: ما تقولون في سعد؟ فيثنون خيراً، حتى مروا على أهل مسجد، فقام رجل منهم وقال: أما إذا سألتنا فإن سعداً لا يعدل في القضية ولا يخرج في السرية، وذكر غيرها، ثم قال سعد: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً فأطل عمره وأكثر أولاده وعرضه للفتن، فكان شيخاً كبيراً يعصب حاجبيه وقد سقطت على عينيه ويتعرض للجواري ويقول: رجل أصابته دعوة العبد الصالح وغير ذلك، والحسن البصري دعا ربه فدخل عليه أصحاب الحجاج في بيته ست مرات يبحثون عنه فلا يرونه وهو في البيت، وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لأحد من خلقك علي منة، وإني أعلم أنك تحيي الموتى فأحيي فرسي، فقام حياً فركبه، فلما وصل إلى بيته قال لابنه: يا بني خذ السرج عن الفرس فإنه عارية، فأخذ السرج عنه فسقط ميتاً، وابن الحضرمي مشى على الماء هو وأصحابه، فلما

عطشوا استغاث فجاءت سحابة فوقفت فوق رؤوسهم، فأنزلت الماء حتى شربوا واستقوا، وكذلك سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية خاض في دجلة بالخيل فصار كأنهم يمشون على يابس، فصار الفرس في الجانب الأخر يقولون لهم: مجانين... مجانين، وهذا كثير جداً في الصحابة وغيرهم وهو في التابعين أكثر.

ومن التأثيرات والقدرات تكثير الطعام القليل وتكثير الماء القليل، مثل نبع الماء من يد النبي ﷺ حتى يتوضأ أصحابه مع كثرتهم والماء ينبع من بين أصابعه، ولما كان في مقفله من غزوة تبوك انتهت النفقة ولم يبق معهم شيء، فاستأذنوه في نحر رواحلهم فأذن لهم، فأتى إليه عمر فقال له: يا رسول الله: إذا نحروا رواحلهم ماذا يصنعون؟ أيحملون أمتعتهم على ظهورهم ويمشون على أقدامهم، ولكن لو دعوت بما معهم من طعام وبركت عليه وسألت الله جلّ وعلا، فقال: نعم، فدعي بما معهم وصار الرجل يأتي بالتمرة والتمرتين ويأتي الرجل يملئ كفه دقيقاً حتى اجتمع عليه مثل البهمة إذا ربضت، مع أنهم كما قال كعب بن مالك: لا يحصيهم العدد في ذلك اليوم من الكثرة، فدعا النبي وتفل عليه ثم قال: «احملوا» فملئوا كل إناء معهم وبقي كما هو، عند ذلك قال الرسول: **«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله، لا يلقى بهما عبد صادقاً ربه فيحجبه عن الجنة»**[1] وكذلك قصته مع أبي هريرة ومع جابر بن عبد الله وغيرهم، ومن ذلك أيضاً انشقاق القمر وغيره، والكرامة تقع لآحاد الأمة إذا كان متقياً، إما لحاجة له هو أو لإقامة حجة ونصرة دين الله جلّ وعلا، ولا يلزم أن يكون المتقي ذا كرامة، ولكنها موجودة في هذه الأمة ولا يكذب بها إلا أهل البدع

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، النسائي، كتاب السّير، باب جمع زاد الناس إذا فني زادهم وقسم ذلك كله بين جميعهم.

كالخوارج[1] والمعتزلة، فهم يزعمون أنها لو وقعت مثل هذه لاختلط الأمر في معجزات الأنبياء، وأصبح التمييز غير ممكن بين النبي وغيره، وهذا غير صحيح؛ لأن الكرامة هي من معجزات النبي والذي تقع له لا يدعي النبوة، ومعروف أن الإنسان إذا قال: أنا نبي، فإما أن يكون أبر الناس وأصدقهم أو يكون أفجر الناس وأكذبهم، وهذا لا يلتبس على الناس.

وَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

يعني في قصة أصحاب الكهف الذين بقوا في الكهف أكثر من ثلاثمائة سنة ولم يتغيروا، وهو أمر خارق للعادة، بل استيقظوا وأرسلوا أحدهم يطلب الطعام وكأنهم ما لبثوا إلا ساعة، وكذلك ما وقع لمريم فحملت بلا زوج، وكان يوجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] ومثل هذا وقع لبعض الصحابة أيضاً ولغيرهم وهو كثير جداً.

---

(١) (الخوارج): جمع خارجة؛ أي: فرقة خارجة، وهم في الأصل: كل من خرج على علي بن أبي طالب ﷺ ممن كان معه في حرب صفين، وحملوه على قبول التحكيم ثم قالوا له: لِمَ حكمت بين الرجال؟ لا حكم إلا لله.
وقد افترق الخوارج إلى عدة فرق يجمعهم القول بتكفير علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأصحاب الجمل، ومن رضي بالتحكيم، وصوب الحكمين، أو أحدهما، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على الإمام إذا كان جائراً، وكل من جاء بعد هؤلاء ممن قال بأصولهم، أو ذهب مذهبهم فهو خارجي كذلك.
انظر: «الملل والنحل» (١/ ١١٤)، «الفرق بين الفرق» (٧٢، ٧٣)، «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/ ١٦٧).

فإبراهيم التيمي طلبت منه زوجته أن يأتي بميرة، فركب بعيره وذهب ولم يكن معه نقود ليأتي بالعيش، فما استطاع أن يتحصل على شيء فرجع بدون شيء، فلما أقبل على أهل بلده كره أن يروه وليس معه شيء وقد عرفوا أنه ذهب ليأتي بالميرة، فبرك بعيره وملأ غرائره التي على الناقة رملاً وحملها عليه، فأدخله في البيت حتى يرى الناس أنه جاء بشيء، فذهبت زوجته مسرعة إلى الغرائر، فلما فتحتها فإذا هي حب حنطة من أحسن وأجمل ما يكون فجاءت تشكره، فقالت: جزاك الله خيراً جئتنا بحب لا يحتاج إلى تعب.

ذكر ابن كثير كَلَّلهُ في تاريخه في الأمداد التي كانت تأتي من اليمن في حروب الصحابة مع الفرس: أنه جاء مدد من اليمن، فلما صاروا في مكان شرق المدينة يقال له ضرية، نفق حمار أحدهم أي: مات وكان هو راحلته، فقال أصحابه: هلم نتوازع متاعك، فقال: لا ولكن انظروني قليلاً، فقام وتوضأ وصلى ركعتين ودعا ربه قائلاً: اللهم إني أعلم أنك على كل شيء قدير وأنك تحيي الموتى وأنك تعلم أني خرجت في سبيلك، فأسألك ألا تجعل لأحد علي منّة أو نحو ذلك، فأحيى الله حماره فركبه وسار مع أصحابه وذهب وجاهد، ثم رجع عليه إلى البصرة وبنى داراً فيها وبقي حماره بعد موته، فذهب ولده يبيعه في سوق البصرة، فقال الناس: أتبيع حماراً أحياه الله لأبيك، وهذا كثير جداً وهو باقٍ في هذه الأمة كما قال المؤلف.

وهذا الذي ذكره المؤلف من المكملات ومن الأصول التي لم يخالف فيها إلا من لا ينظر إلى خلافه ولا يعتد به، وإنما أراد كَلَّلهُ أن يبين عموم الإسلام الذي يجب أن يكون الإنسان متمسكاً به، ووجه ذكر الكرامات في العقائد أن بعض أهل البدع أنكرها، وإلا فهي ليست من الأصول التي تكون في عقيدة المؤمن لأنها من الفروع، وإذا كان أهل البدع ينكرون شيئاً ثابتاً فطريقة أهل السنة إثباته في العقائد وذكره، ليكون

تمييزاً لأهل الحق أنهم يثبتونه ولا ينفونه كما ينفيه أهل البدع، ولهذا يذكرون في العقائد المسح على الخفين مثلاً؛ لأنه عرف من أهل البدع أنهم ينكرون المسح على الخفين ويمسحون على القدمين، وحجة الذين أنكروا وجود الكرامات في أولياء الله جلّ وعلا أنه يلتبس بمعجزات الأنبياء، وهم المعتزلة[1] وبعض الأشاعرة[2] ومن سلك طريقهم، فزعموا

---

(١) (المعتزلة): فرقة كلامية إسلامية، ظهرت في أول القرن الثاني الهجري، بلغت شأوها في العصر العباسي الأول، يرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، لقول واصل: بأن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولا مؤمناً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولما اعتزل واصل مجلس الحسن، وجلس عمرو بن عبيد إلى واصل وتبعهما أنصارها قيل لهم (معتزلة) أو (معتزلون) وهذه الفرقة تعتد بالعقل وتغلوا منه وتقدمه على النقل، ولهذه الفرقة مدرستان رئيستان إحداهما البصرة، ومن أشهر رجالها: بشر بن المعتمر، وأبو موسى المرداد، وثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي داود.

وللمعتزلة أصول خمسة يدور عليها مذهبهم هي:

العدل، والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهم في هذه الأصول معان عندهم خالفوا فيها موجب الشريعة وجمهور المسلمين، وعلى الرغم من اندثار فرقة المعتزلة كاسم مستقل، إلا أن كثيراً من أفكارهم ومبادئهم ما زال بعضها موجوداً عند الأباضية، وعند الشيعة الاثني عشرية، وعند الزيدية، بل وعند بعض المنتسبين لأهل السنة ممن يسمون أنفسهم بالعقلانيين وأصحاب التيار الديني المستنير وغيرهم.

ولمعرفة مذهبهم بالتفصيل، يرجع إلى كتاب «الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار المعتزلي. وانظر: «الفرق بين الفِرَق» (ص١١٧ ـ ١٢٠)، «التبصرة في أصول الدين» (ص٣٧)، «الملل والنحل» (١/٤٦ ـ ٤٩)، «الخطط» للمقريزي (٢/٣٤٥، ٣٤٦)، «الموسوعة العربية» (ص١٧١٨).

(٢) (الأشاعرة): فرقة تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، وهو بريء منهم والحق أن أصولهم (كلابية)؛ لأنهم أخذوا مذهب (الأشعري) عندما سلك طريقه ابن كُلاب، ثم زادوا عليها أنواعاً من الانحرافات، أشار إلى ذلك (ابن تيمية) ﷺ في «درء تعارض العقل والنقل» (٢/١٦)، فقال: (أبو الحسن الأشعري) لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كُلاب ومال إلى أهل السنة والحديث.

ومنهج الأشاعرة في الصفات هو: إثبات الصفات العقلية ـ بزعمهم ـ وهي سبع: السمع، والبصر، والعلم، والكلام، والقدرة، والإرادة، والحياة، وأولوا «الصفات ـ

أنهم لو أثبتوا ذلك فإنه يلزم أن تكون معجزات الأنبياء غير متميزة وغير خاصة، والواقع أنه إنكار لما هو موجود ومشاهد وقائم بين الناس ولما هو معلوم بالكتاب والسنة، وتعليلهم بأنه يلتبس بمعجزات الأنبياء تعليل غير وجيه، بل لا وجه له وهو باطل، وذلك أن الولي لا يكذب الكذب الذي يجعله عدواً، فدعوى النبوة كفر بالله جلّ وعلا، ولا يمكن أن تجتمع ولاية وكفر فهي دعوة باطلة، وكذلك الذين يجعلون دليل الولاية هو خرق العادة، بأن تنخرق العادة التي يعتادها الناس لهذا الإنسان، كأن يدخل في النار فلا تضره، أو يضرب بسلاح فلا يضره، فهذا ليس دليلاً على أنه ولي أو أن هذه كرامة؛ لأنه يجب أن يميز بين ما هو كرامة وما هو من أعمال الشيطان، ومن الحيل التي يتحيل بها الناس ليلبسوا على الخلق بأنهم من أولياء الله جلّ وعلا وهم في الواقع من أولياء

= الخبرية» كاليد والاستواء، ومصدر التلقي عند الأشاعرة تقديم العقل على النقل عند التعارض ـ على حد زعمهم ـ، ودليل وجود الله عندهم هو «الحدوث والقدم»، والإيمان عندهم (التصديق) ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص وهذا هو عين اعتقاد المرجئة، والقرآن عندهم كلام الله مجازاً لا حقيقة، فهو حكاية عن كلام الله وليس هو نفس كلام الله؛ لأن كلام الله أزلي قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت، وهم لا يوافقون أهل السنّة إلّا في مبحثي الصحابة والخلافة لذلك وصفهم السلف بأنهم أهل أهواء. نقل الإمام ابن عبد البر «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٦) عن ابن خويز منداد أنه قال: أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابه هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ويُهجر ويؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها.

وللوقوف على آراء وترهات (الأشاعرة) انظر:

«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١١٩)، «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم (٥/ ١٤)، «الفرق بين الفِرَق» للبغدادي (ص٣٢٣) وما بعدها، «كتاب المواقف» للإيجي، «أصول الدين» للبغدادي، «نهاية الإقدام» للشهرستاني، وغير ذلك من كتب القوم. وكذلك راجع مقالة «منهج الأشاعرة في العقيدة» لفضيلة الشيخ سفر الحوالي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (٦٢).

الشيطان، كما هو معروف لمن عنده فقه في الدين ومعرفة لما جاء به رسول الهدى، فلا يلتبس الولي الذي إذا حصل له خارق للعادة بأن تكون كرامة له بمن هو مخالف ومجانب للسنة، وإذا حصل له خارق للعادة يكون هذا من عمل الشيطان أو من الحيل، إذن الدعوى التي يذكرها أهل البدع بأن الكرامة تلتبس بآيات الرسل فيصبح الرسول غير مميز، فهذا من أكبر الخطأ وأعظمه، وهو لا يحتاج إلى التكلف في الرد عليه وذلك لظهور بطلانه.

صِفَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ

السنة والطريقة كلمتان مترادفتان، وسبب تسمية أهل السنة والجماعة بهذا الاسم لأنهم تمسكوا بالسنة واجتمعوا عليها ولم يتفرقوا.

والسنة المقصودة هنا هي سنة الرسول وهي تطلق إطلاقين:

أحدهم: ما يقصد به أقواله وأفعاله وتقريراته، وهذه التي فيها الشرع.

الثاني: ما يقصد به كل ما قاله أو فعله وسار عليه واستمر عليه هو وأصحابه عموماً، وهذا هو الإطلاق الذي يقصد أن يسلكه أهل السنة.

وكونهم أهل الجماعة؛ لأنهم يجتمعون على الحق ويسعون بكل ما يمكن أن لا يحدث بينهم فرقة واختلاف، وإذا وجدت الفرقة والاختلاف فإنها سرعان ما تزول بالرجوع لكتاب الله وسنة رسوله؛ لأن كتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله جاءت لمحاربة الاختلاف والتفرق الذي هو من سنة الجاهلية، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فأمر بالاعتصام جميعاً ونهى عن التفرق، فهم

يمتثلون أمر الله جلّ وعلا، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأمر بالاجتماع على الحق والتحذير مما يمكن أن يكون سبباً للتفرق، وهذه ميزة لأهل السنة تميزوا بها عن غيرهم.

إِتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

المقصود بآثار الرسول الآثار التي يستن بها والذي يؤثر عنه قولاً وعملاً وتقريراً، وليست الآثار التي ليست من الدين مثل المكان الذي يجلس فيه أو ينام فيه أو الذي يقضي فيه حاجته وما أشبه ذلك، فإنه جاء عن عمر أن الذين هلكوا فيمن قبلنا باتباعها، ولهذا قطع الشجرة التي بويع تحتها رسول الله، وذلك لما رأى الناس يقصدونها ويصلون عندها فخشي أن تكون فتنة، ونهى عن اتباع الآثار، وهذا بخلاف ما كان يفعله عبد الله بن عمر فإنه كان يتتبع الأماكن التي كان يجلس فيها رسول الله أو يصلي فيها، حتى إنه بال في المكان الذي بال فيه رسول الله، حتى إن الرسول ﷺ توضأ وبقي من وضوئه شيئاً فصبه في شجرة ففعل ابن عمر كذلك، فالصحابة ما كانوا يفعلون هذا ووالده كان ينكر هذه الأمور.

المقصود أن آثار الرسول: هي أقواله وأفعاله التي يستن بها وتقريراته التي تفعل عنده ويعلم بها فيقرها.

بَاطِناً وَظَاهِراً،

هذا رد على الذين يقولون: إننا نحتاج إلى اتباع السنة والشرع في الأمور الظاهرة، أما الأمور الباطنة فلا نحتاج إليها، وقد يقولون: نحتاج إلى الشريعة في الأمور التي تعمل وتفعل ظاهراً، أما الحقائق التي تكون في القلوب فلا نحتاج إليها، وهذا ضلال؛ لأن المسلم لا يسعه مخالفة

ما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً، وليس للشرع باطن يخالف الظاهر، فالباطن هو الإخلاص والنيات، والظاهر هو العمل المشاهد.

وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ

السابقون هم الصحابة والذين يتبعونهم بإحسان إلى يوم الدين، وسبيلهم هو تمسكهم بكتاب الله جلّ وعلا وبسنة رسوله ﷺ وإجماعهم الذين يجتمعون عليه، وهم لا يجتمعون على ضلالة، لهذا قال جلّ وعلا: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فنهج أهل السنة هو اتباع رسول الله وصحابته ويترسمون خطاهم، وذلك أنهم علموا يقيناً أنهم على الحق؛ لأنهم ﷺ شاهدوا رسول الله في تبليغه أوامر الله جلّ وعلا وتلقوا ذلك عنه وفهموا ما خُوطبوا به فهماً لا يتطرق إليه أي شك، فصار معلوماً باليقين أنهم على الهدى وأن الانحراف عن طريقتهم ضلال.

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،

عينهم؛ لأنه الذي ينضبط ويمكن أن يُعلم، أما بعد ذلك فالعلماء انتشروا في الأرض، فالله جلّ وعلا قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] قوله: ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] هذا يشمل كل من تبعهم على الحق إلى يوم القيامة، وقد فضل الله المهاجرين على الأنصار، وقدَّمهم لِمَا سبقوا به من الإيمان ونصرة رسول الله والجهاد في سبيله، ولما ترتب على ذلك من ترك الوطن والمال والأهل رغبة في نصرة الرسول والدين الذي جاء به ورغبة فيما عند الله جلّ وعلا.

وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي

يعني باتباع طريقتي والعلم بها، ولا بد من العلم بها وإلا لا يمكن اتباعها، فلا بد من البحث عن سنة النبي وتعلمها والعمل بها.

السنة في العرف العام هي ما تقدم، من أقواله وأفعاله التي يستن بها، وليست خصائص ولا من الأمور الطبيعية وكذلك تقريراته، ولكن السنة بالعرف العام هي اتباع السلف، وبعضهم قد يطلقها على العقائد، لهذا جاء كثيراً: «كتب السنة» ويقصد بها الكتب التي تبحث في العقيدة كالسنة لعبد الله بن أحمد والسنة لأبي داود والسنة للطبراني والسنة لابن أبي عاصم، كلها من التي تكون في العقائد، ولكن هذا اصطلاح خاص؛ لأن هذه تستعمل مقابل البدعة.

وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا.

الراشد هو المهدي الذي عرف الحق واتبعه وعمل به، والراشد ضد الغاوي وهو الذي عرف الحق فتركه وجانبه، والضال هو الذي لم يعرف الحق فصار يتخبط في ضلال وغواية، وقال: «المهديين» يعني الذين هداهم الله جلّ وعلا لاتباع رسول الله والعمل بكتاب الله وسنة رسوله وهم من بعده مباشرة وهم الخلفاء الأربعة.

الخلفاء الراشدون هم الخلفاء الأربعة، لأن هذه خلافة نبوة، وبعد ذلك ليست خلافة إنما هي ملك وإمارة، وهذا الحديث هو حديث العرباض بن سارية، وقد صححه بعض الأئمة، وقد رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والحاكم والإمام أحمد، وهذا الحديث بعدما وعظهم وقالوا له: كأنها موعظة مودع فأوصنا، فقال هذا الكلام، وهي وصية جاءت بالطلب، ومعلوم أن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله جلّ وعلا وبالتمسك بسنته، وقد مر بأنه وصى بأن يحفظ في أهل بيته ويُعرف

حقهم، أما وصاته لهم بالخلافة ـ كما تزعمه الطائفة الضالة ـ فهذا لم يقع وهو كذب، ولهذا كثيراً ما يقولون: علي وصي النبي ﷺ، وهذا كذب، فعلي ليس وصياً ولم يوص النبي ﷺ لأحد، وإنما وصى الأمة عموماً بالتمسك بكتاب الله وسنته، وجاءت أحاديث صحيحة بالأمر بالتمسك بسنة الذين من بعده: **«اقتدوا باللذين من بعدي»**[1] أبو بكر وعمر، وهذا يدلنا على أن الخلفاء الراشدين إذا عملوا عملاً أو سنوا سنة أنها تتبع، ومعلوم أنهم لا يخالفون الكتاب والسنة، ولكن معنى ذلك أنه قد يأتي شيء من باب القياس ومن باب النظائر، ومثل هذا قد يطلق عليه أنه بدعة لغوية، وليست بدعة في الحقيقة وإنما هو في اللغة، مثل ما قال عمر في التراويح: نعمت البدعة هذه؛ لأن الرسول قد سنها وصلاها وصلى خلفه عدد من الصحابة ثلاث ليال، ولكنه خشي أن تفرض فيكون في ذلك عنت على الأمة ومشقة، فتركها ولم يخرج لها وانتظروه وامتلأ المسجد، ثم لما توفي أمن هذا الجانب لأن الوحي قد انقطع وانتهى وكمل الدين، فلهذا جمعهم عمر على إمام واحد وقال: نعمت البدعة هذه.

فهي بدعة لغوية فقط، أما في الشرع فهي اتباع لفعل النبي حيث صلاها جماعة عدد من الليال، وليس هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة ـ كما يقوله بعض الناس ـ بل جميع البدع سيئة وليس في البدع حسنة، كما قال الرسول: **«كل بدعة ضلالة»**.

فحث على التمسك بسنته، ومعلوم أن السنة عند أهل الجماعة الفرقة الناجية، يعني أحاديث الرسول أنها شرع مستقل، فيحصل بها التحليل والتحريم وفرض الأمور وإيجابها واستحبابها، فهي كالقرآن، والرسول ﷺ يقول: **«ألا إني قد أوتيت الكتاب ومثله معه»** وفي رواية:

---

(١) صحيح. وهو مخرّج في «الصحيحة» (١٢٣٣). ألباني.

«ومثليه معه» وقال: «**لا ألفين أحدكم جالساً على أريكته يبلغه الحديث عني فيقول: ما ندري ما هذا، ما كان في كتاب الله اتبعناه، ألا إني قد أوتيت الكتاب ومثله معه**»[1] أما الأحاديث التي فيها: «**إذا جاءكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله فإن كان موافقاً وإلا فلا تنظروا إليه**». فهو كما قال يحيى بن معين وغيره: هي أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله، والقرآن يخالفها لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] ولما قال ابن مسعود: مالي لا ألعن من لعنه الله ورسوله، قالت المرأة: لقد قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فما وجدت فيه لعن ذلك ـ تعني الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ـ فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته، يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وقد نهى رسول الله عن ذلك ولعن فاعله، فأخبر أن قول الرسول كالقرآن وأن القرآن يدل عليه بالعموم، أما قول أهل البدع: إن الأحاديث إذا كانت أخبار آحاد فلا يعتمد عليها في العقائد والأصول، وإنما يكون ذلك في الفروع، فهذا باطل وتفريق لا دليل عليه، بل هو مخترع مبتدع ولا فرق بين الفروع والأصول، بل إذا ثبت الحديث بسند صحيح ـ وإن كان فرداً ـ فإنه يجب العمل به، وهذا بإجماع أهل السنة ولا خلاف بينهم في ذلك، أما تقسيم الأحاديث إلى متواتر وإلى آحاد فإن هذا ليس من ناحية

(١) الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وروى بعضهم عن سفيان، عن ابن المنكدر، عن النبي ﷺ مرسلاً وسالم أبي النضر عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن النبي ﷺ وكان ابن عيينة إذا روى هذا الحديث على الانفراد بين حديث محمد بن المنكدر من حديث سالم أبي النضر وإذا جمعهما روى هكذا، وأبو رافع مولى النبي ﷺ اسمه أسلم. قال الشيخ: صحيح. ورواه أبو داود وابن ماجه بلفظ آخر.

العمل، أي: هذا يعمل به وهذا لا يعمل به، بل هو من ناحية الوضع والواقع فقط.

وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ،

النواجذ: هي مؤخرات الأسنان، وهو كناية لشدة التمسك بها وعدم التفريط بها؛ لأن التفريط بها من الضلال.

وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ،

فهذا نهي وتحذير، والمحدث في اللغة: هو الذي يؤتى به على غير مثال سابق، وفي الشرع: هو كل عمل ليس له أصل في كتاب الله وفي سنة رسوله، سواء كان من الأمور العلمية الاعتقادية أو من الأمور العملية، فلا فرق بين هذا وهذا فكله ضلال، وإن كانت الأمور تتفاوت في نفسها، والمحدثات هي البدع وهي من أعظم المحرمات، فكل نقص يدخل على المسلمين من جهة المحدثات أو من جهة الغلو والزيادة في المشروع، وهو داخل في المحدث لأن الزيادة مثل النقص.

فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١].

«فإن» للتأكيد و«كل» للعموم، والضلالة ضد الرشد والهدى، فالإنسان إما أن يكون مهتدياً أو يكون غاوياً أو يكون ضالاً، فالمهتدي:

---

(١) أبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة؛ الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع؛ وأحمد (٤/١٢٦)؛ والترمذي (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه (ص٤٣، ٤٤)؛ والحاكم (١/٩٥، ٩٦)؛ وابن حبان (١/١٨٧)، من حديث العرباض بن سارية ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح.
قال الحاكم: صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي.
وقد نقل الألباني في «إرواء الغليل» (٨/١٠٧) تصحيح جماعة من أهل العلم له.

هو الذي عرف الحق وعمل به واتبعه، والغاوي: هو الذي عرف الحق وتركه، والضال: هو الذي يتخبط في الظلمات لم يعرف حقاً وإنما يعمل بالجهل، وسواء اقتدى بغيره من الناس أو لم يقتدِ، وقد جاء في المجتبى للنسائي زيادة على ذلك «وكل ضلالة في النار» وهي زيادة صحيحة، وبهذا يتبين لنا أنه يتعين على المسلم اتباع رسول الله وصحابته وسلوك طريق المؤمنين الذين اتبعوا هذا الطريق، وأنه إذا انحرف عن ذلك فهو على خطر عظيم.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ،

أي: أصدقه في الخبر وأصدقه على الأمر المطابق الدال عليه أمراً وخبراً ونهياً، فهو كلام الله جلّ وعلا وفيه الشفاء والهدى، والمقصود أن كلام الله فيه العصمة والهداية، وهذا لا يعني أن هناك من يقول: إن في كلام الله كذب؛ لأن الله جلّ وعلا هو علام الغيوب، وإذا قال قولاً فهو يطابق الواقع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] فالصدق في أخباره والعدل في أحكامه وأقضيته، فهو عدل وصدق، وهذا هو معنى التمام وأن كلمته تامة.

وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ

الهَدْي: هو السمت والسلوك، والهُدى: هو الدلالة والإرشاد، فهدي الرسول هو القرآن؛ لأنه جاء في الصحيح أن عائشة سئلت عن خلق النبي، فقالت: أو ما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، فقالت: كان خلقه القرآن كما قال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] يعني أنه يعمل بالقرآن باطناً وظاهراً، ومهما أمر بشيء من القرآن فهو يعمل به فهذا هديه وهو خير الهدي، فمن ابتغى العمل بغيره فإنه يكون ضالاً.

وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ،

يعني يقدمونه في العمل والاستدلال والاعتماد، فلا ينظرون إلى كلام الناس الذي يخالف كلام الله، بل إذا جاءهم الكلام عن غير الله ورسوله فإنهم يعرضونه على كلام الله، فإن وافقه قُبل لأنه كلام الله لا لأنه كلام فلان وفلان، وإن خالفه ردوه كائناً من كان قائله، ومن المعلوم أن كلام الله مع كلام رسوله لا يتضاربان ولا يخالف أحدهما الآخر، فإن جاء مثلاً ما ظاهره المخالفة فلا يخلو من أن يكون ضعيفاً أو باطلاً أو يكون الفهم نابياً وليس كما ظهر له، فليطلب الحق وليتهم رأيه وفهمه، ولا يتهم كلام الله وكلام رسوله بأنها تتضارب وبأن بعضها يخالف بعضاً، فأهل السنة يؤثرون ويقدمون كلام الله وكلام رسوله، فإنه يجب على العبد دائماً التمسك بكتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أما كلام الناس فلا يجب على الإنسان اتباعه، وإنما يجب إذا كان موافقاً لكلام الله جلّ وعلا وكلام رسوله، غير أن فهم كلام الله رسوله يُستعان عليه بكلام أهل العلم الذين يبينونه ويوضحونه، ويكون الإنسان قصده طلب مراد الله جلّ وعلا ومراد رسوله، فإذا بُين له شكر المبين وحمد الله على التوفيق وتمسك بالحق الذي يظهر له.

والمؤلف يشير بهذا إلى أنه وقع في الأمة كثيراً اتباع وتقليد بعض الأئمة بلا دليل، وإذا قيل لهم كلام الله كذا وكلام رسوله كذا قالوا: إمامنا أعلم بكلام الله وبكلام رسوله منكم، أو نحو هذا الكلام، وهذا فيه خطورة؛ لأن الله جلّ وعلا يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] ويقول جلّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

فليس عند الإنسان خيار في النظر، بل إذا جاء أمر الله ورسوله فلا خيار في ذلك ويجب أن يُتبع، ويجب مع الاتباع الرضا به والتسليم والانقياد له وعدم التضجر من ذلك بأن يقول: ليته ما أمر بهذا، أو يقول: ليت الأمر على خلاف ذلك، فإن الإيمان لا يكون صحيحاً مع وجود هذا، لهذا قال جلّ وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] والحرج هو أن يكون في النفس حزازة من هذا الأمر ويتمنى أنه ما حكم بهذا، بل لا بد من التسليم والانقياد، ومعنى التسليم تسليم القلب ثم تسليم الجوارح بالعمل، وهذا عام في الأمور العملية والاعتقادية، وبعض الناس يكون ضالاً في هذا، فيوصون في العقائد باتباع طرق معينة وفي العمل باتباع طرق أخرى، وقد رأيت لأحد العلماء المتأخرين كتاباً يوصي فيه يقول: عليك في العقيدة إما بعقيدة أبي الحسن الأشعري أو أبي منصور الماتريدي، أما في الفقه والعمل فأنت مخير بين أحد المذاهب الأربعة. وهذا عجيب، فهل تكون المذاهب الأربعة مهتدية في العمل وضالة في العقيدة؟.

كتاب الله جلّ وعلا وسنة رسوله لا تختلف في الاعتقاد والعمل، والأئمة الأربعة على هدى في العقائد والعمل، وهذا من البدع، بل مجرد الانتساب إلى الأشعري أو إلى الماتريدي بدعة، فلا يجوز أن ينتسب الإنسان ويقول: أنا أشعري أو أنا ماتريدي؛ لأن هذا من البدع.

المقصود أن أهل السنة يُعرفون باتباع الكتاب والسنة، وليسوا أشاعرة ولا ماتريدية ولا معتزلة ولا رافضة ولا خوارج ولا غير ذلك، وقد ذكر الرسول الاختلاف في العقائد، فقال فيما يروى عنه: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**

وهي من كان على مثل ما أنا عليه أنا وأصحابي»[١] والافتراق هنا افتراق عقائد ونحل وليست أعمالاً؛ لأن ما هناك يدعو إلى افتراق في العمل، فهذا يدلنا على أن المهتدي في العمل يكون مهتدياً في العقيدة وإلا يكون الضلال ملازماً له؛ لأن الشرع شيء واحد فلا فرق بين العمليات والاعتقاد.

وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

يعني إذا استبانت السنة لأحدهم فإنهم لا يعتاضون عنها بشيء من أقوال أحد من الناس مهما كانت، والهدي هنا يشمل القول والعمل، ومعنى ذلك أن كل ما صح عن رسول الله فالأخذ به واجب وهو من مقتضى الإيمان، وفسر به العلماء شهادة أن محمداً رسول الله وهي العلم بأنه رسول الله وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وعبادة الله جلّ وعلا بشرعه الذي جاء به من عند الله.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

لأنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله عقيدة وعملاً وسلوكاً ومعاملة.

وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاجْتِمَاعُ.

لأنهم اجتمعوا على الحق، ولم يختلفوا فيه؛ لأن الجماعة هي الاجتماع على الحق، والحق يدعو إلى الاجتماع كما قال الله جلّ وعلا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فهذا أمر واجب

---

(١) أبو داود، كتاب السنّة، باب شرح السنّة؛ ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم. قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

عليهم، والتفرق ضلال وهو من أعظم المحرمات، ولهذا توعد الله جلّ وعلا عليه بالعذاب العظيم كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] لأن الغالب أن التفرق يكون الدافع له والداعي له إما هوى في النفس أو مقاصد دنيوية، فلهذا توعد عليه بالعذاب العظيم، فأهل السنة ليسوا من هؤلاء، بل إذا حصل بينهم اختلاف في الفهوم فإن ذلك لا يكون مدعاة إلى التنابذ والتقاطع أو التفرق، بل لا يؤثر ذلك في اجتماعهم، ولهذا الأئمة الكبار مثل الإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله يختلفون في الفهوم وفي المسائل الكثيرة ومع ذلك فهم إخوة في العقيدة ولا اختلاف بينهم فيها، وكذلك غيرهم من علماء الأمة من الأئمة الذين جعل الله لهم لسان صدق في الأمة.

وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ،

أهل الفرقة هم أهل البدع، وأهل الجماعة هم الذين يتمسكون بالكتاب والسنة، ولا ينافي ذلك أن يكون بينهم اختلاف في فهم النصوص العملية، ولكن لا يدعوهم إلى انفصام الأخوة والمودة والمحبة، بل يتمسكون بالأخوة الإيمانية والمودة والمحبة التي جاء بها الشرع، ويجعلون كل واحد معذوراً في فهمه، إلا أن يتبين أن الحق في خلاف قوله فيُرد عليه قوله، ومع ذلك لا ينزع منه الولاء، ويجعل بدله البراء والمعاداة حتى يتبين أنه مشاق لله ولرسوله ومفارق لسبيل المؤمنين، وأهل البدع بخلاف ذلك، فمن علاماتهم التفرق والتكفير، فهم يكفرون من خالفهم ويرمونه بالمعضلات، أما أهل السنة فمن خالفهم ـ وكان له وجه يعذر به ولو كان من بعيد ـ يضللونه ولا يكفرونه حتى يترك ما يكون بتركه كفر أو يفعل ما يكون بفعله كفر.

وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْماً لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ

فيقال: جماعة كذا وجماعة كذا، ولكن ليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود الجماعة الذين اجتمعوا على الحق، ولهذا الذي يتمسك بالحق هو الجماعة وإن كان وحده، كما قالوا: إن الجماعة في وقت الإمام أحمد هو الإمام أحمد، فهو الجماعة وما عداه أهل فرقة وضلالة؛ لأنهم تركوا الحق، فإذا تُرِكَ الحق الذي يجب أن يُتمسك به ومن تمسك به فهو الجماعة.

وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ

وهو الذي يعتمد عليه أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية، فأصولهم التي يرجعون إليها في الأحكام وفي العقائد ثلاثة:

الأول: الكتاب.

الثاني: السنة.

الثالث: الإجماع.

فبعض أهل البدع أنكر أن يكون هناك إجماع أو أن يكون أصلاً يرجع إليه، فأراد أن يميز أهل السنة، والإجماع الذي يقصد هو الإجماع المنضبط، وهو إجماع الصحابة ومن تبعهم من التابعين، فلما تفرقوا في البلاد وكثر العلم واتسعت بلاد المسلمين فلا يكون الإجماع منضبطاً، ومدعي الإجماع بعد ذلك يكون مدع لشيء يستحيل حصوله أو الإحاطة به، ومعلوم أن الإجماع لا يمكن أن يكون على دليل خلاف الكتاب والسنة، فهو ليس بشيء جديد أو هو أصل يشرع به بل هو مستند إلى أصل من كتاب الله وسنة رسوله، واستدل على هذا بقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] فسبيل المؤمنين

يدخل فيه ما أجمعوا عليه، ولكن دليله قد يكون خفياً، وقد يكون أمراً كلياً، أما القياس الذي هو الأصل الرابع عند كثير من العلماء فلم يذكره لأن فيه خلافاً بين أهل السنة، هل يكون أصلاً أو أنه ليس بأصل؟.

والصواب أن القياس دل عليه الكتاب والسنة، فهو داخل في ذلك، فالكتاب مثل ما قال الله جلّ وعلا: ﴿فَٱعۡتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] فالاعتبار: هو جعل النظير مثل نظير الآخر وهذا هو القياس، والرسول لما سأله رجل قال: إن أمي ماتت وعليها صيام هل أصوم عنها؟ قال: **«أرأيت لو كان على أمك دين أكنت تقضيه؟»** قال: نعم. قال: **«دين الله أحق بالقضاء»**[1] فهذا من القياس، فعلى هذا يكون القياس داخلاً في الكتاب والسنة.

فِي العِلْمِ وَالدِّينِ

المقصود بالعلم الاعتقاد وما يكون في القلوب وتعتقده، أما الدين فهو الذي يدان به ويعمل به.

> وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

أي: مما يتعلق بالشيء الذي يُرجى ثوابه، أو أنه لو تُرك يُخشى عقابه، وما هو محرم أو مكروه، أما الأمور العادية من أمور المعاش وأمور الدنيا فلا دخل له في ذلك، مثل كونهم يجتمعون على إنشاء مصنع أو إنشاء مدينة أو طرق أو ما أشبه ذلك من أعمال الدنيا فهذا أصله مباح، فالأمور التي تكون متعلقة بالمعاش وبالدنيا وبالأكل وبالشرب وما

---

(١) البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب من مات وعليه نذر، بلفظ آخر؛ مسلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت.

أشبه ذلك الأصل فيها الإباحة حتى يأتي التحريم، بخلاف العبادات فإن الأصل فيها أنها محرمة حتى يأتي الشرع بشرعها، فلا يجوز أن يتعبد الإنسان إلا بدليل، فأهل السنة يتبعون ذلك.

وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ،

وقصده بالسلف الصالح الصحابة، وقصده بالانضباط الحفظ والعلم.

إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ.

فبعدهم كثرت الاختلافات والأقوال. فيتعذر معرفة إجماعهم، وهذا الذي قال فيه الإمام أحمد: من ادعى الإجماع فهو كاذب[1]، من أين له أن الناس اجتمعوا على هذا، أما إجماع الصحابة فهو ممكن الاطلاع عليه وميسور؛ لأن الأمور التي حدثت في وقت الصحابة معروفة ومحفوظة وإجماعاتهم معروفة ومحفوظة، فإذاً الإجماع الذي يرجع إليه أهل السنة هو إجماع الصحابة رضوان الله عليهم.

بَيَانُ مُكَمِّلَاتِ الْعَقِيدَةِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛

قد جعل بعض العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الإسلام، فقالوا: أصول الإسلام ستة:

(١) «المسودة في أصول الفقه» لآل تيمية (٢/٦١٦).

الأول: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الثاني: إقامة الصلاة.

الثالث: إيتاء الزكاة.

الرابع: صيام رمضان.

الخامس: حج البيت لمن استطاع له سبيلاً.

السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فجعلوه أصلاً من أصول الإسلام، وقالوا من تركه ليس من المسلمين، ومع ذلك الأمر بالمعروف واجب وجوباً كفائياً، بمعنى أنه لو قام به من يكفي سقط عن البقية، ولم يُجعل من أصول الإسلام التي تلزم كل فرد من أفراد الأمة، وإلا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن النكر وهو يستطيع فلا شك أنه آثم؛ لأن الله جلّ وعلا مدح هذه الأمة بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالخيرية من أجل هذا، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤] فدل على أن الفلاح خاص بهم وأن من عاداهم لا يفلح، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فجعل الولاية ولايتهم، وبعضهم من بعض في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

المعروف: هو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

المنكر: اسم جامع لكل ما يكرهه الله ويبغضه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فالمعروف والمنكر من الأسماء الجامعة التي تجمع كل ما هو محبوب لله جلّ وعلا إذا كان معروفاً، وإذا كان منكراً فهي تجمع كل ما هو مكروه ومبغض لله جلّ وعلا، ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون عن علم، بحيث يعلم أن ما يأمر به هو المعروف، وأن ما ينهى عنه هو المنكر، وأن يكون علمه يقينياً لا ظنياً، وأن لا يكون أموراً تعارف الناس عليها، فهذا لا يقدم عليه وينكره لأن هذا قد لا يكون منكراً، ثم الذي يكون عالماً إذا أمر أو نهى يجب ألا يترتب على الأمر منكر أعظم مما نهى عنه، أو يترتب على الأمر ترك أعظم مما كان، يقول الله جلّ وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] فالبصيرة في الدعوة التي هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبة وهي فرض متعين، لهذا قال بعض العلماء: إن الذين يأمرون المعروف وينهون عن المنكر هم أهل العلم، ولكن هذا يختلف، فمثلاً الصلاة كل مسلم يعلم أنها من المعروف فيأمر بها، وكذلك الزكاة كل مسلم يعلم أنها من المعروف فيأمر بها، وكذلك الخمر واللعن والشتم والربا وأكل الأموال بالباطل وما أشبه ذلك كل مسلم يعلم أنها منكرات فينهى عنها، ولكن هناك أمور قد تخفى على بعض الناس، فإذا كانت كذلك فلا يجوز أن يقدم عليها آمراً أو ناهياً وهو لا يدري أهو محرم أو غير محرم؟ أو هو واجب أو غير واجب؟.

ولهذا قال العلماء: إذا كان في المسألة خلاف فلا يجوز أن يُنهى عنها؛ لأنها ليست من المنكر ما دام أن فيها خلافاً.

المقصود أن الدين الإسلامي لا يستقيم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسدت الأحوال والعقائد، والأعمال أمر أراده الله أن يكون إصلاحاً فلا بد من

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن رسول الله جعله درجات ثلاث كما في حديث أبي سعيد: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[1] فبهذا يتبين أن إنكار المنكر فرض وكذلك الأمر بالمعروف، وقد كتب وتكلم العلماء في هذا كثيراً، ويجب على طالب العلم أن يطلع على الأمور التي لا بد منها في هذا.

عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون على وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله.

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأُمَرَاءِ

المسلمون لا بد لهم من إمام، وليس من شرط الإمام أن يكون تقياً براً من خيارهم، بل قد يكون ظالماً وقد يكون فاجراً، ومع ذلك لا يجوز الخروج عليه ولا تجوز معصيته ما دام أنه يأمر بما هو شرع، بل تجب طاعته واتباعه وإن ظلم وإن منع الحق؛ لأن الخروج عليه فيه مفاسد عظيمة جداً وذلك من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض وغيرها، وهم إذا وجد منهم إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد فهذا الذي يهم المسلمون وكذلك تأمين الطريق من الخوف وإراقة الدماء وكذلك الحكم بينهم فيما يختلفون فيه، فهذه من أهم الأعمال، أما الأمور الأخرى التي قد

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان؛ ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال الشيخ الألباني: صحيح.

يكون فيها استئثار ومنع لحقوق بعض الأفراد أو الجماعات فهي لا تؤثر في هذا، ولهذا لما سئل الرسول عن ذلك قال: «**أدوا الحق الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم**»[1] فإقامة الحج والجماعة تقام مع الإمام أو نائبه الذي يعينه، ولا يجوز مخالفة ذلك والانعزال عنه، وكذلك إذا أمر بالجهاد يجب أن يُطاع.

أَبْرَاراً كَانُوا أَوْ فُجَّاراً،

وذلك للأحاديث الصحيحة التي جاءت عن النبي بالأمر بطاعتهم وإن حصل منهم معاصٍ، ولهذا قال: «**إنه سيكون أمراء يؤخرون الصلاة**» أي: يصلونها في غير وقتها، فقال له الصحابة: ألا ننابذهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»[2] فأمرهم بعدم الخروج عليهم.

وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ.

والمقصود بالجماعات الصلوات التي يُنادى لها، فأهل السنة يحافظون عليها جماعة ويرون هذا من الفروض التي لا يجوز الإخلال بها، وهذا أمر ظاهر وواضح وأدلته كثيرة، ولكن هناك من خالفهم وقال: هذه من السنن ولا تلزم المحافظة عليها، ولهذا نص عليها هنا.

(١) أحمد (٣٦٤٠) أمر أحاديث عبد الله بن عباس ﷺ، تعليق شعيب الأرناؤوط، إسناده صحيح على شرط الشيخين، شعب الإيمان، فصل في فضل الجماعة والألفة وكراهية الاختلاف والفرقة وما جاء في إكرام السلطان وتوقيره.

(٢) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الندب إلى وضع الأيدي على الركب في الركوع ونسخ التطبيق؛ أحمد (٢٦٥٢٨)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»(١).

يعني أن أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة ليس تمسكهم بالأصول فقط دون الفروع، وإنما يتمسكون بكل ما جاء عن النبي ﷺ، ويتميزون بذلك عن غيرهم من أهل البدع، فيمتثلون كل أمرٍ أمر به الرسول وكل خلق تخلق به ويحثون على ذلك ويدينون الله جلّ وعلا به، فإن هذا هو دين الإسلام، وقد أخبر النبي ﷺ أن النصيحة هي الدين فقال ـ كما في حديث تميم الداري ـ: **«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»** فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**(٢) فجعل الدين النصيحة، ومعنى النصيحة: مأخوذة من النصح وهو التصفية والتخليص من الأوساخ والمكدرات، يعني أن المؤمن يكون ناصحاً، أما نصحه لله جلّ وعلا بأن يؤمن به جلّ وعلا ويعتقد ما قاله الله جلّ وعلا في نفسه وما أخبر به عن وعده، وكذلك يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وأما النصيحة لكتابه فيكون باتباع أوامره وباجتناب نواهيه ويقف عند حدوده ويكون خلقه القرآن كما كان الرسول ﷺ يتخلق به، يعني يأتمر بأمره وينتهي عن نهيه، وأما النصيحة لأئمة المسلمين فإنه يجب أن ينصح لأئمة المسلمين بأن يقدم ما يوسعه من النصح من امتثال قول رسول الله في ذلك، وأن يجتنب طريقة أهل البدع الذين يرون الخروج على الأئمة ولو لأمور تافهة، وقد حذر الرسول ﷺ من الخروج عليهم ولزوم طاعتهم وإن جاروا وظلموا وإن

(١) البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم؛ مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة؛ أبو داود، كتاب الأدب، باب في النصيحة. قال الشيخ الألباني: صحيح.

كانوا فجاراً، فإن أمكنه أن ينصحهم بالاستقامة وإلا يلزم ما قاله الرسول ﷺ في ذلك، وأما النصح لعامة المسلمين فإنه ليس منهم، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وقد مثل الرسول ﷺ أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[1]، وأخبر أنه مرآته يرى فيه ما يؤذيه فيزيله[2] وقد جاء في الحديث الصحيح أنه قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[3] والأحاديث في هذا كثيرة وأمثلة الرسول ﷺ في هذا واضحة بليغة.

وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»[4].

فقد مثل الأمة كلها بالجسد الواحد بحيث إذا أصاب عضو منها مرض تداعى الجسد كله لهذا العضو بالتألم وبالسهر، فكذلك يجب أن يكون المؤمن، وهذا الحديث يبين حق المسلم على المسلم وأنه يجب أن ينصح له وأن يعمل على أن ينمي له الخير ويوجده وأن يدفع عنه الشر ويعدمه، وأن يكون ناصراً له على الحق معاوناً له في ذلك، وأن يكون ذاباً عنه كل ما فيه أذاه أو سبب عذابه؛ لأنه يراه كنفسه فيود له ما يود لنفسه، وقد قال رسول الله: **«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا**

(١) البخاري (٤٥٩)، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره؛ مسلم (٤٦٨٤)، كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) الترمذي (١٨٥٢)، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شفقة المسلم، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

(٤) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم؛ أحمد (١٨٣٩٨).

حتى تحابوا»[1] فلا بد من المحبة، وهي تكون على الإيمان والعقيدة ليست على الدنيا ولا على الأموال ولا على الأنساب والأعراق والأعراف، وهذا الأمر المهم يكاد يكون معدوماً عند كثير من المسلمين، فتجد المسلم يعادي أخاه المسلم ولا يعطف عليه، وأنه لا يهمه لو صدر منه أذى إليه أو ظلم، وهذا كله لضعف الإيمان والامتثال الذي أمر الرسول ﷺ به.

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ،

لأن الإنسان لا بد أن يبتلى إما بنفسه أو بولده أو بماله أو بغير ذلك، وهذه الدار هي دار الابتلاء وليست دار إقامة، بل هي فترة قصيرة ثم ينتقل منها، فلا بد أن يوطن نفسه على الصبر والاحتساب.

وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

أن يشكر إذا أنعم عليه، ويرضى بما قضاه الله، وهذه الأمور الثلاثة هي عنوان السعادة، وإن كان الرضا بمر القضاء قد لا يدركه إلا الأفذاذ من الناس، وإنما الواجب الصبر وعدم التسخط.

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ،

ومكارم الأخلاق هي معاليها ومحاسنها وينهون عن سفاسفها، والسفاسف هي الأمور الساقطة التافهة، فهم يتخلقون بأخلاق النبي ﷺ،

---

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها؛ أبو داود، كتاب السلام، باب في إفشاء السلام.

وقد جاء أن أعظم ما يوضع في الميزان هو الخلق الحسن[١]، وأخبر أن أقرب المؤمنين منه يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً، وقال: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فلتسعوهم بأخلاقكم**»[٢].

وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»[٣].

يعتقدون ذلك ويعملون على التحلي به ويجتهدون أن يكون الإنسان متحلٍ بالخلق الحسن، والفعل الحسن يتحمل الإنسان ما يتعرض إليه من أذى أو ظلم، وأن يبذل به النفع سواء كان معنوياً أو مادياً.

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

لأن الفضل في هذه الأمور وليس في المكافآت، بأن يكون الحق لك دائماً، والحياة الدنيا ستنتهي بسرعة فيندم الذي لم يقدم خيراً ولم يعف عن مظلمة، وقطيعة الرحم من أعظم الذنوب، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في ذلك، وقد جاء في صحيح مسلم: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[٤]، فإذا قطعت رحمك تصلها، أما وصل الواصل فهذا

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق؛ أحمد (٢٧٥٧٢).
(٢) ذكره ابن أبي شيبة في «مصنفه» تحت ما ذكر في حسن الخلق وكراهية الفحش وكذلك أبو يعلى في «مصنفه».
(٣) أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه؛ الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها؛ وأحمد (٢/ ٢٥٠)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣)؛ وابن حبان (٢/ ٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.
(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، بلفظ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»؛ مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

من باب المكافآت، وكذلك تعطي من حرمك ممن له حق عليك أو لمن عليه حق، وإن أمكن أن تبذل الفضل للقريب وغيره فهذا مما حث عليه الشرع، وأن تعفو عمن ظلمك؛ لأن في العفو الفضل العظيم والأجر الكبير.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ﴾

وقد أخبر رسول الله في حديث عبد الله بن مسعود لما سأله: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**أفضل الأعمال الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»[1] وقد قرن الله جلّ وعلا بر الوالدين بعبادته ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ﴾

فقد أمر الله جلّ وعلا بصلتها وتوعد على قطيعتها، قال جلّ وعلا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَحُسْنِ الْجِوَارِ﴾

بأن تحسن إلى جارك وتتحمل ما يبدر منه من سوء معاملة وتقابله بالحسنى، وقد جاءت أحاديث كثيرة بالأمر بحسن الجوار، حتى جاء أن

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملاً وقال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

الرسول قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه»[1] وجاء أنه قال: «لم يزل جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ،

ويكون الإحسان إليهم بالفعل وبالعمل وبالقول وبالمنافع التي يقدمونها لهم، وابن السبيل هو المسافر الذي انقطع به السفر، وقيل: الضيف الذي يستضيفك مطلقاً، وقد أمر الرسول بالإحسان إليه وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[3].

وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ،

وكذلك الرفق بالبهائم، فقد أمر رسول الله لمن أراد أن يذبح بهيمته أن يحد شفرته وأن يريحها بسرعة وألا يريها ذلك وألا يؤذيها بضربها وجرها لأن هذه طريقة أهل المعاصي وأهل السلوك الغير محمود، فهم يأمرون بهذا حسب أمر رسول الله ﷺ.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ،

الفخر: هو التكبر والتطاول على الخلق إما بالأموال أو بالأنساب

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاية بالجار؛ مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان.

أو بالمناصب أو بغير ذلك، والخيلاء: هي العجب بالنفس والتزيي بزي أهل الكبر، وقد جاء في الحديث أن رجلاً لبس حلتين كان يجرهما خيلاء، فأمر الله جلّ وعلا الأرض أن تأخذه فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة[1]، وأخبر الرسول ﷺ أن من جر ثوبه خيلاء أن الله لا ينظر إليه[2].

وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ،

البغي: هو التعدي بغير حق على الغير، والاستطالة هي أن يتعدى الحق الواجب سلوكه، أن الإنسان يكون بذيئاً ومؤذياً لغيره، وحتى لو كان من استطال عليه ظالماً فلا يقابله بالظلم، فإن هذا ليس من أخلاق الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، فهم ينهون عن ذلك أشد النهي وفق ما جاءت النواهي عن رسول الله ﷺ في ذلك.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

معالي الأخلاق محاسنها ومكارمها، وسفاسفها هي التي تكون سافلة وهي أخلاق أهل السفول والسقوط، فأهل السنة ينهون عنها، وكل ما يفعلونه من هذا وغيره فإنما هم متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث به الله جلّ وعلا محمداً ﷺ.

---

(١) البخاري، كتاب اللباس، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء؛ مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه.

(٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»؛ مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جرّ الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ أَوْ يَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، فَإِنَّمَا فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ[1] وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[2]؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وكذلك كل ما يقولونه أو يفعلونه من هذا وغيره فإنما هم متبعون لكتاب الله وسنة رسوله، ولكن لما أخبر الرسول أن أمته تفترق في العقائد والعلم، وأنها ستكون على ثلاث وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ ـ حسبما جاءت الرواية ـ: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي**»[3] أهل السنة الخُلص الذين يتحلون بهدي النبي ﷺ هذه صفتهم، وإلا فالثلاث والسبعين كلهم من المسلمين، غير أنهم من أهل الوعيد الذين توعدوا.

---

(1) رواه أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، وابن ماجه (٢/٤٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/٣٣)، والآجري في «الشريعة» (١٨)، واللالكائي في «شرح السنة» (١٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/١٢٨)، من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق حديث معاوية: «هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو، وعن الأزهر بن عبد الله الحرازي، وعن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية، رواه عنه غير واحد..». وانظر: «اقتضاء الصراط» (١/١١٨)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٠٤).

(2) سبق تخريجه.

(3) سبق تخريجه.

ويعتقدون أن هذه الأمة لا يزال فيها أهل الحق الذين يتمسكون به ظاهراً وباطناً، والذين لا يضرهم المخالف ولا الخاذل وأنهم يستمرون على هذا حتى يأتيهم أمر الله.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ،

والصديق: هو كثير التصديق وبالغه.

وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى،

يعني منهم العلماء الذين يكونون هداة يهتدى بهم ويكونون دعاة إلى الحق.

أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ،

المناقب هي الفضائل والطاعات التي تقرب إلى الله جلَّ وعلا.

وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ،

وسموا بالأبدال إما لأنه كلما ذهب واحد منهم جاء بدله آخر نظيره، أو أنهم أبدلوا السيئات بالحسنات، وليس كما يقوله الضلال من الصوفية[1] وغيرهم: أنهم الذين يستغاث بهم ويُقصدون بالملمات وعند

(١) (الصوفية): اختلف في سبب تسميتهم بذلك، فقيل: للبسهم الصوف، وقيل: إنما هي اشتقاق من (سوفيا) وتعني باليونانية (الحكمة)، وقيل: مأخوذة من الصفّة وهي التي بنيت لإيواء جماعة من فقراء المسلمين بالمسجد النبوي لم يكن لهم مأوى، وهذا لا يصح في اللغة كما قال شيخ الإسلام «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٦٩): كان حقه أن يُقال: صفّيّة، وكذلك من قال: نسبة إلى الصفا (أي: صفاء الروح والنفس)، قيل له: كان حقه أن يُقال: صفائية، ولو كان مقصوراً لقيل صفوية؛ وإن نسب إلى الصفوة قيل: صفوية، ومن قال: نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، قيل له: كان حقه أن =

الكربات، فإن هذا لا يكون إلا لله جلّ وعلا، وقد جاء لفظ الأبدال في حديث عن النبي وإن كان فيه ضعف.

وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ،

كالإمام أحمد والشافعي وأبي حنيفة ومالك وسفيان الثوري وغيرهم.

الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1].

ويقصد بالساعة ساعتهم، وهي أن الريح تأتي وتقبضهم ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ. وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً.

❁ ❁ ❁

---

* يُقال: صفية.. وقد اختلف في تعريف الصوفية اصطلاحاً، وأقربها للوضوح ما ذكره ابن خلدون «المقدمة» (٤٦٧) بقوله: العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل: ٤٠]؛ مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم**»، من حديث معاوية رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات العامة

الموضوع	الصفحة
الحمد يستوجبه الله لصفاته ولأفعاله ولذاته	٥
الفرق بين الحمد والمدح	٥
«الله» أعلم الأعلام	٦
من أعظم النعم التي يحمد الله عليها، إرسال الرسل	٦
الهدى هو العلم النافع ودين الحق العمل الصالح	٧
ظهور الدين لا يلزم أن يكون مستمراً إلى قيام الساعة	٧
أول واجب وأعظم واجب	٨
شروط لا إله إلا الله	٨
فضل لا إله إلا الله وحقها وثمرتها	٩
معاني الشهادة	١١
خطأ الأشاعرة في قولهم: أول واجب النظر أو الشك	١٢
معنى شهادة أن محمداً رسول الله	١٣
أشهد أن سيدنا محمداً لم تأت في نص صحيح	١٤
أقسام التوحيد الثلاثة جاءت بها الرسل كلهم	١٥
ثناء الله على نبيه بلفظ العبودية في أشرف المقامات	١٥
الغلو في الرسول ﷺ	١٦
معنى صلاة الله على عبده	١٧
المقصود بآل النبي ﷺ	١٧
أما بعد وهل هي فصل الخطاب	١٩
شيخ الإسلام جهاده وأعداؤه	٢٠
الناس في شيخ الإسلام على طرفين	٢٢
دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب امتداد لدعوة ابن تيمية	٢٢
السبب الذي به تعرض الشبه والشكوك	٢٤

الموضوع	الصفحة
الصحابة ﷺ أخذوا نصوص الصفات على ظاهرها	٢٥
من زعم أن الصحابة حدث بينهم خلاف في الأسماء والصفات	٢٦
المأمون وما كان في زمانه	٢٧
قول الصاوي أن من اعتقد ظاهر القرآن فهو كافر	٢٨
كلام النووي حول الطائفة المنصورة	٢٩
أعظم العقاب الذي يعاقب الله به بعض عباده	٣٠
جمع بين حديثين ظاهرها الإشكال	٣٠
معنى الظهور ومعنى النصر	٣١
معنى الإيمان بالله	٣٢
الإيمان بالملائكة ينقسم إلى قسمين	٣٣
أسماء الكتب التي ذكرت في القرآن	٣٥
تفاوت الناس في الإيمان بالقرآن	٣٥
الإيمان بالرسل	٣٨
الأنبياء التي ذكرت أسماؤهم في القرآن	٣٨
الإيمان بالبعث	٣٨
الدرجات الأربع في الإيمان بالقدر	٤٠
الفرق بين الأسماء والصفات من وجهين	٤٢
أسماء الله وصفاته توقيفية	٤٢
الصفة قد تكون فعلية وقد تكون ذاتية	٤٣
التحريف يكون باللفظ ويكون بالمعنى	٤٤
الفرق بين تحريف الأشاعرة وتحريف المعتزلة	٤٤
التعطيل ينقسم إلى أقسام ثلاثة	٤٥
اختيار ابن تيمية لفظة التمثيل دون لفظة التشبه	٤٦
الله لا مثيل له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ولا حقوقه	٤٧
من ضلالات المعتزلة	٤٧
طريقة القرآن أن يأتي بالنفي مجملاً والإثبات مفصلاً	٤٨
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وفائدة في ختم الآية بذكر صفتي السمع والبصر	٤٩
الاسم والصفة إذا أضيفت إلى الله اختصت به	٤٩

الموضوع	الصفحة
أهل البدع ضلوا بعد معرفة الحق	٥١
الإلحاد يكون في أسماء الله وصفاته وآياته وأوامره	٥٢
ليس معنى نفي الكيفية أن الله ليس له كيفية	٥٣
التمثيل ينقسم إلى قسمين	٥٤
ما نسب إلى مقاتل بن سليمان من التشبيه لا يثبت	٥٥
لا يستعمل في حق الله قياس تمثيل ولا قياس شبه	٥٥
الرب بالألف واللام لا يطلق إلا على الله	٥٨
الرب والإله من الألفاظ التي تتعاقب	٥٨
الحمد والتسبيح يدلان على الكمال	٦١
عصمة الرسل	٦٢
صفات الله قسمان صفات نفي وصفات إثبات	٦٣
الغالب أن النفي إذا جاء مفصلاً أنه لسبب	٦٤
الأوصاف التي لا بد أن يكون الصراط مشتملاً عليها	٦٦
الصراط واحد غير متحدد والجواب عن قوله تعالى: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾	٦٧
نعم الله قسمان كاملة تامة ونعمة مطلقة	٦٧
الفرق بين النبي والرسول	٦٨
الشهداء ثلاثة أقسام	٧٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	٥
الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى	٨٨
الجمع بين علوّه وقربه وأزليّته وأبديّته	١٠٥
إحاطة علمه بجميع مخلوقاته	١٠٩
إثبات السّمع والبصر لله سبحانه	١١٨
إثبات المشيئة والإرادة لله سبحانه	١٢٠
إثبات محبّة الله ومودّته لأوليائه على ما يليق بجلاله	١٢٧
إثبات اتّصافه بالرّحمة والمغفرة سبحانه	١٣٦
ذكر رضى الله وغضبه وسخطه وكراهيته وأنّه متّصفٌ بذلك	١٤٢
ذكر مجيء الله لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله	١٤٦
إثبات الوجه لله سبحانه	١٤٩
إثبات اليدين لله تعالى	١٥٣
إثبات العينين لله تعالى	١٥٧
إثبات السّمع والبصر لله سبحانه	١٦٠
إثبات المكر والكيد لله تعالى على ما يليق به	١٦٨
وصف الله بالعفو والمغفرة والرّحمة والعزّة والقدرة	١٦٩
إثبات الاسم لله ونفي المثل عنه	١٧٤
نفي الشّريك عن الله تعالى	١٧٩
إثبات استواء الله على عرشه	١٩٢
إثبات علوّ الله على مخلوقاته	٢٠٣
إثبات معيّة الله لخلقه	٢٠٩
إثبات الكلام لله تعالى	٢١٧

الموضوع | الصفحة

إثبات تنزيل القرآن من الله تعالى ٢٣٦
إثبات رؤية المؤمنين لربّهم يوم القيامة ٢٤٧
الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السُّنّة ٢٥٣
ثبوت النّزول الإلهيّ إلى سماء الدّنيا على ما يليق بجلاله ٢٥٦
إثبات أنّ الله يفرح ويضحك ويعجب ٢٦٠
إثبات الرِّجل والقدم لله سبحانه ٢٦٦
إثبات النّداء والصّوت والكلام لله تعالى ٢٦٩
إثبات علوّ لله على خلقه واستوائه على عرشه ٢٧٤
إثبات معيّة الله تعالى لخلقه وأنّها لا تنافي علوّه فوق عرشه ٢٨٢
إثبات رؤية المؤمنين لربّهم يوم القيامة ٢٩٠
موقف أهل السُّنّة من الأحاديث الّتي فيها إثبات الصّفات الرّبّانيّة ٢٩٢
مكانة أهل السُّنّة والجماعة بين فرق الأمّة ٢٩٧
وجوب الإيمان باستواء الله على عرشه وعلوّه على خلقه ومعيّته لخلقه وأنّه لا تنافي بينهما ٣٠٨
وجوب الإيمان بقرب الله من خلقه وأنّ ذلك لا ينافي علوّه وفوقيّته ٣١٥
وجوب الإيمان بأنّ القرآن كلام الله حقيقةً ٣١٦
وجوب الإيمان برؤية المؤمنين لربّهم يوم القيامة وموضع الرّؤية ٣٢٧
ما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ٣٣٢
حوض النّبيّ ﷺ ومكانه وصفاته ٣٦٤
الصّراط معناه ومكانه وصفة مرور النّاس عليه ٣٦٧
القنطرة بين الجنّة والنّار ٣٦٩
شفاعات النّبيّ ﷺ ٣٧٢
إخراج الله بعض العصاة من النّار برحمته وبغير شفاعةٍ ٣٧٨
الإيمان بالقدر ومراتب القدر ٣٨٢
حقيقة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة ٤١٤
الواجب نحو الصّحابة وذكر فضائلهم ٤٣٠
منزلة أهل البيت النّبويّ عند أهل السُّنّة والجماعة ٤٦٣

الموضوع | الصفحة

تبرؤ أهل السنة والجماعة مما يقوله أهل البدع والضلالة في حق الصحابة وآل البيت ٤٦٨
موقف أهل السُّنَّة والجماعة في كرامات الأولياء ٤٧٧
صفات أهل السُّنَّة والجماعة ٤٨٤
بيان مكمِّلات العقيدة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال الَّتي يتحلَّى بها أهل السُّنَّة ٤٩٨
● فهرس الموضوعات العامة ٥١٣
● فهرس الموضوعات ٥١٦